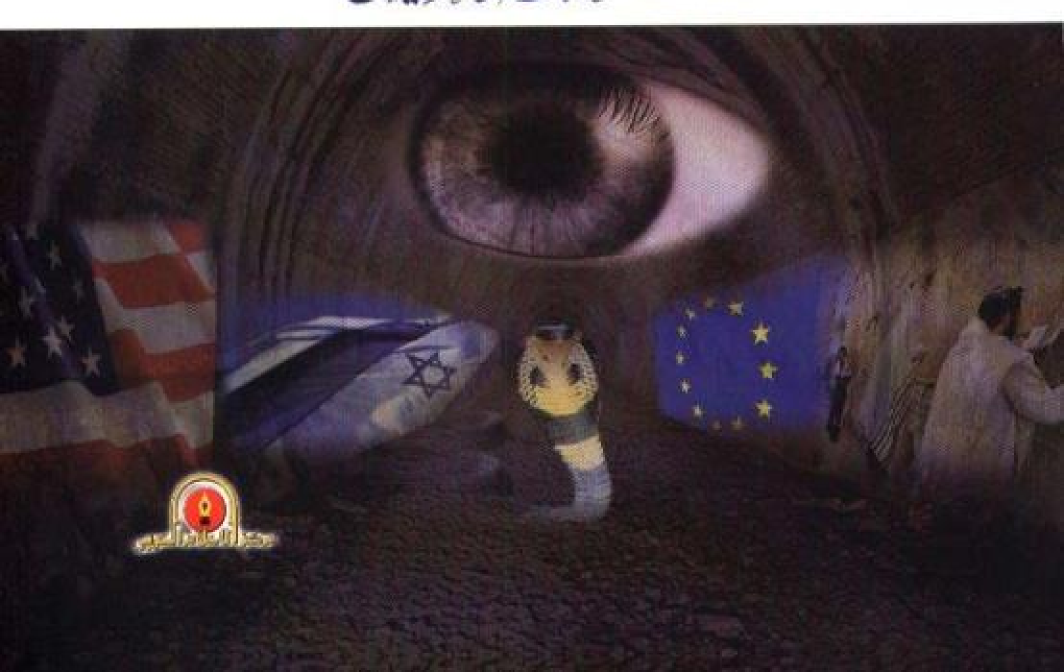
أ. أنور الجندي

الإسلام في عين الخطر

تقديم

المستشار عبد الله العقيل





○ الكتـــــاب: الإسلام في عين الخطر

○ المؤلـــــف: أنور الجندي

○ قياس الصفحة: ١٧×٢٤

○ رقم الإيـــداع: ٢٠١٣/٥٤٥٥

○ الترقيم الدولي: ٣-٢٨٣-٣٦٧-٩٧٧-٩٧٨

مركز الإعلام العربي

ص.ب ٩٣ الهرم - الجيزة - مصر

□ هاتـف: ٠٠٢٠٢/٣٧٨١١١٩٤/٣٧٨١١١٩٣

٠٠٢/٠١٠٠٠٠٢٧٠٤٤

□ فاكـس: ٠٠٢٠٢/٣٧٨١١١٩٥

□ التوزيـع: ٠٠٢٠٢/ ٣٧٤٤٥٤٥٥

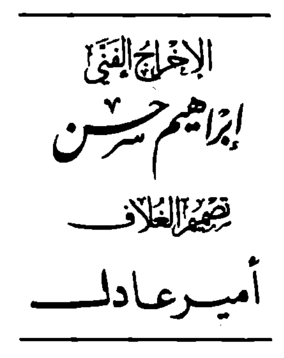
٠٠٢/ ٠١٠٠٠٠٢٧٠٢٥

□ الموقع على شبكة الإنترنت:

www.amc.eg.com

□ البريد الإلكتروني:

media-c@ie-eg.com



الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

الجندي، أنور، ١٩١٧.
الإسلام في عين الخطر/أنور الجندي. ط١.
الجيزة، مركز الإعلام العربي، ٢٠١٣. ٢٤٠ص، ٢٤سم.
تدمك ٢ ٢٨٣ ٣٦٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١- الإسلام - دفع مطاعن.
٢- الإسلام والديانات الأخرى.
أ- العنوان ٢١٦



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم/ المستشار عبدالله العقيل

بين يدي الكاتب والكتاب

أولاً: الكاتب:

الأستاذ أنور الجندي من مواليد مدينة (ديروط) بمحافظة أسيوط بمصر عام ٥/ ٣/ ١٣٣٥هـ - ١٩١٧م، وقد نشأ في بيت علم ودين، ومن الأشخاص الذين تأثر بهم: شيخ العروبة أحمد زكي باشا وأحمد تيمور وشكيب أرسلان ومصطفىٰ صادق الرافعي وحسن البنا وعبدالعزيز الثعالبي وعبدالعزيز جاويش وأمين الرافعي ومحمد فريد وجدي.

درس الأستاذ أنور في مجالي التعليم التجاري والصحفي، واتصل بعدد من الجامعات المصرية والأجنبية، والتحق بالعمل ببنك مصر، وعمل بالصحافة، حيث كتب في الصحف المصرية والعربية، وعكف علىٰ تأليف الكتب، وانبرىٰ للتصدي لموجة التغريب التي غزت مصر والعالم العربي بمعاونة الاستعمار وحركات التبشير التي اجتاحت العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة العثمانية واستعمار الدول العربية وتقسيمها إلىٰ مزق وأشلاء.

بدأ الكتابة وعمره ١٨ عامًا، ويروىٰ أن أول من شجعه علىٰ الكتابة هو الإمام الشهيد حسن البنا الذي رافقه في رحلة الحج سنة ١٩٤٦م.

وقد عرفت الأستاذ أنور الجندي في وقت مبكر سنة ١٩٤٦م، حين كنت طالبًا بالمدرسة المتوسطة بالبصرة، حيث كان ينشر مقالاته في مجلة الإخوان المسلمين الأسبوعية، وبعد إصداره كتبه: «مع بعثة الحج للإخوان المسلمين»، «اخرجوا من بلادنا»، «الإخوان المسلمون في ميزان الحق»، «حسن البنا قائد الدعوة».. وغيرها، فكنت مع إخواني في البصرة والزبير؛ عبدالواحد أمان، خليل العقرب، عبدالقادر الأبرشي، يعقوب الباحسين، عبدالرزاق المال الله، عبدالجبار المال الله، عبدالعزيز الربيعة، وعمر الدايل وغيرهم، نتدارس هذه الكتب مع كتب أحمد أنس الحجاجي، ومحمد لبيب البوهي، وصابر عبده إبراهيم، لأنها من المقررات الدراسية بالأسر الإخوانية.

وقد أُعجبنا بوصفه لبعثة الحج للإخوان المسلمين ودورها الدعوي وسط حجاج بيت الله الحرام القادمين من أنحاء العالم، كما أثلج صدورنا بكتابه الذي يطالب فيه الإنجليز بالخروج من مصر، ويهيب بالشعب المصري للتصدي للمستعمر المحتل.

وفي كتابه الذي يرد فيه علىٰ الشيوعي المصري الذي هاجم الإخوان بكتاب اسمه **(الإخوان المسلمون في الميزان)** لمؤلفه حسن أحمد، فقد أنصف الأستاذ أنور الجندي بكتابه الرائع **(الإخوان المسلمون في ميزان الحق)**، كما حبب إلينا قائد الدعوة الإمام الشهيد حسن البنا في حديثه عنه في كتابه **(قائد الدعوة)**.

ثم كانت لقاءاتي به في مصر حين ذهبت إليها للدراسة الجامعية سنة ١٩٤٩م، وبعد التخرج انقطعت الصلة إلا من خلال ما نقرؤه له من كتب استمر في إصدارها للتصدي لموجة التغريب ومؤامرات المبشرين وأكاذيب المستشرقين، وخطط المستعمرين،

ومؤامرات اليهود، والصليبيين والشيوعيين والعلمانيين والحداثيين وغيرهم.

ثم أكرمني الله بلقائه في الرياض في مؤتمر الإمام محمد بن عبدالوهاب سنة ١٩٧٨م، الذي أقامته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فكانت فرصة طيبة لأبثه عواطفي ومشاعري نحوه، والثناء علىٰ جهوده المباركة في الميدان الثقافي والفكري الإسلامي.

وكنت ومازلت مكبِرًا لهذه الجهود الجبارة التي اضطلع بها بمفرده وبجهوده الذاتية، وسط هذا الخضم من الأعداء في الداخل والخارج الذين تسلموا أعلىٰ المناصب في الإعلام والثقافة، وأصبحوا يقربون أتباعهم ويحاربون ذوي الخط الأصيل من المفكرين والأدباء والشعراء المسلمين؛ أمثال: أنور الجندي، محمود غنيم، علي أحمد باكثير، نجيب الكيلاني، وغيرهم، وأغرقوا الأسواق بالقصص الماجنة والأدب الرخيص والشعر الهزيل واللغة الركيكة، وكانت الدولة ترعاهم من الداخل، وتغدق عليهم الأموال والجوائز، وتفتح كل الأبواب أمامهم، وكذا كان هناك الدعم الخارجي لكل الكتَّاب الذين يحاربون الفكر الإسلامي واللغة العربية.

شارك الأستاذ أنور الجندي في كثير من المؤتمرات الإسلامية والفكرية في الجزائر والرباط ومكة المكرمة والخرطوم وعمان والإمارات والرياض وإندونيسيا والقاهرة وغيرها، وكان عضوًا في المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية بمصر، وحصل علىٰ جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٦٠م.

وكان آخر لقاءاتي به بالقاهرة حين حضوري ممثلاً لرابطة العالم الإسلامي في مؤتمر المنظمات الإسلامية، وقد بان عليه كبر السن، ولكن عزيمته وهمته كانتا عزيمة الشباب وهمتهم، إلىٰ أن انتقل إلىٰ رحمة الله تعالىٰ يوم الثلاثاء ١٥/ ١١/ ١٤٢٢هـ عن عمر يناهز الخامسة والثمانين عامًا، وكان من المشيعين فضيلة المرشد العام مصطفىٰ مشهور، وعدد من الشخصيات الإسلامية والدعوية، وأقيمت الصلاة عليه

في مسجد السلام بالهرم.

ثانيا: الكتاب:

يوضح هذا الكتاب هجمات الغرب وسياسته ضد العالم الإسلامي، التي تؤكد رغبته في الثأر والانتقام والهدم وفرض النفوذ، ومحاولة صهر العالم الإسلامي ليتشبع بالحضارة الغربية ومفاهيمها، فيعلن الولاء والتبعية الخالصة والانقياد التام للغرب.

وقد تزود الغرب بأسلحة شتىٰ لينجح في خطته، فتفنن في صنوف الإرهاب والتهديد والتنكيل والتآمر والخداع سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا، وكان الهدف الأساسي من وراء ذلك هو التغريب والغزو الثقافي وإبعاد المسلمين عن جوهر دينهم الأصيل، والقضاء علىٰ مفهوم التوحيد والجهاد فيه، وتمزيق شمل المسلمين، والقضاء علىٰ وحدتهم، وإحلال العنصرية والقوميات محلها، بل وغرس بذور الفتنة بين تلك التقسيمات لتتصارع علىٰ أتفه سبب.

وفي مواجهة ذلك حاول الدعاة إلىٰ الله بث روح اليقظة وتصحيح المفاهيم التي كانت قد تأثرت بالفلسفات اليونانية والفارسية والهندية، ومن الأئمة البارزين في ذلك: الشافعي وابن حنبل وابن تيمية والغزالي وابن القيم وابن حزم، ثم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والشيخ محمد عبده، والإمام الشهيد حسن البنا.

وقد جاء الكتاب في **سبعة أبواب**، تناول **الباب الأول** منها **محاولات تحريف العقيدة وإدخال السموم إلىٰ الفكرة الإسلامية**، خاصة سموم الماسونية، ووضح المؤلف أبعاد النفوذ الأجنبي الذي سيطر علىٰ العالم الإسلامي.

ويتناول **الباب الثاني محاولات ضرب الوحدة الإسلامية، من خلال حركة القوميين السوريين، وحزب البعث، ومحاولات تمزيق الأمة الإسلامية بين العرب والترك**

والفرس، وتغريب إيران.

أما **الباب الثالث** فيوضح فيه الأستاذ أنور الجندي **خطط التنصير العالمية**، ومنها **خطط الفاتيكان ومجلس الكنائس العالمي للتنصير العالمي، ومحاولة اليهود التسلل إلىٰ الفاتيكان للسيطرة عليه، والمؤامرة علىٰ مسلمي أثيوبيا، ومؤامرة الحبشة علىٰ السودان والدول الإفريقية، وإشعال روح الطائفية في لبنان، والمؤامرة الهندوكية علىٰ الإسلام.**

وقد تنبأ بتقسيم السودان قبلها بأكثر من عقدين.

وكشف المؤلف في **الباب الرابع** عن محاولات احتواء الإسلام، من خلال حديثه عن القضايا المثارة في ذلك، ومنها **الحوار المسيحي الإسلامي، والصهيونية ومؤامرة تبرئة اليهود، ومحاولات البهائية والقاديانية والباطنية لضرب الإسلام من الداخل.**

وأفرد كاتبنا الكبير **الباب الخامس** لبيان **محاولات الدعوة الإسلامية لمواجهة التحديات التي تعوق طريقها للعودة إلىٰ نبع الإسلام الصافي، والوقوف في وجه الطواغيت التي اجتهدت في إثناء الإسلام عن تصدر المشهد في الأمة، مثل تجربة عبد الناصر والتفوق الشيوعي في مصر، وتغيير المفاهيم والأعراف الإسلامية.**

وفي **الباب السادس** يذكرنا المؤلف بنتائج البعد **عن منهج الإسلام وجزاء محاربة الدعاة إلىٰ الله، وتجلىٰ ذلك بوضوح في نكسة ١٩٦٧م التي خلفت آثارًا سياسية واجتماعية سيئة استتبعها محاولات تنفيذ المخطط الماركسي الصهيوني.**

وفي **الباب الأخير** يظهر الكاتب محاولات الأعداء لتفريغ كل نصر تم تحقيقه، ومنها: **محاولات إجهاض نصر رمضان/ أكتوبر**، وذلك من خلال عدة فعاليات، كان أبرزها **الاتفاقية السوداء التي تم إبرامها مع الجانب الصهيوني، والانفتاح الاقتصادي وإغراق**

الأمة بالديون، ثم المحاولات المتتالية لضرب الصحوة الإسلامية، التي أبىٰ الله إلا أن ينصرها، ويدافع عنها، ويُعْمِلَ في الطغاة قدرته، ويريهم قوته، فإذا هم يتساقطون واحدًا تلو الآخر.

وبعد، فإن هذا الكتاب الموسوعة وثيقة تاريخية سطرتها يد أمينة علىٰ دينها، وعقل ملم بالأخطار المحدقة بأمة الإسلام، وقلب مفعم بكل معاني الأسىٰ والحزن علىٰ أمة تكالب عليها الأعداء، وتكاثرت عليها الذئاب تنهش لحمها.. إنه صيحات تحذير للمسلمين حتىٰ ينتبهوا لما يحاك لهم ليل نهار، وينفروا خفافًا وثقالاً للذود عن حياض الإسلام ومقدساته ومعالمه.

وهذا الكتاب لم يطبع من قبل، وتم العثور عليه ضمن تراث ومكتبة الأستاذ أنور الجندي بعد وفاته.

رحم الله كاتبنا الموسوعي الكبير الأستاذ أنور الجندي على هذا الجهد،

وجزى الله مركز الإعلام العربي خير الجزاء على حرصه على نشر وطباعة

هذه النفائس. وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد،

وعلى آله وصحبه وسلم.

مدخل إلى البحث

منذ بزغ ضوء الدعوة الإسلامية الأولىٰ والمؤامرة تحاك لها، جيلاً بعد جيل؛ محاولة لحجب نورها، أو إطفاء شعلتها أو توهين قوتها، أو الحد من انطلاقتها، فقد عاشت في محيط التحدي، تواجه المؤامرة وتردها، وتدفع عن نفسها الغزو والاحتواء والسيطرة، ولما كانت هي الحق فقد نما عودها، وانهزم كل من تصدىٰ لها، وبقيت وامتدت، بينما ذهب الكارهون لها والحاقدون عليها، واندثروا، ولم يبق لهم أثر.

ومنذ انهزمت قوىٰ الغرب في الحروب الصليبية وعادت مندحرة مهزومة والمؤامرة لا تتوقف، حيث كانت الدولة العثمانية تقف كالطود في وجه محاولة تطويق العالم الإسلامي؛ فلما وهنت الأيدي وضعف المسلمون عن الإعداد والمرابطة؛ كرَّ الغرب مرة أخرىٰ علىٰ عالم الإسلام في ثأر شديد العنف، ينتقم ويهدم ويفرض نفوذه، ويحاول في هذه المرة صهر العالم الإسلامي في بوتقة نفوذه وحضارته ومفاهيمه؛ للإجهاز عليه جملة، وتحويله إلىٰ تبعية خالصة.

وقد بدأت لأجل ذلك معركة خطيرة - ما زالت رحاها دائرة - اصطنع فيها الغرب كل وسائل الإرهاب والتهديد والتنكيل والتآمر والخداع واحتواء الضعفاء ليكونوا أتباعًا له، وكانت المعركة هذه المرة علىٰ مستوىٰ مختلف عن مستوىٰ المعارك السابقة، فهي علىٰ الرغم من أنها بدأت سياسية وعسكرية واقتصادية، فإن هدفها الأساسي كان هو التغريب والغزو الثقافي وتغيير المفاهيم، وإخضاع الإسلام، وإخراجه عن جوهره الأصيل، وإفساد معدنه الناصع، والقضاء علىٰ مفهوم التوحيد والجهاد فيه، وتمزيق

وحدته الجامعة، وإحلال مفهوم الأقليات والقوميات التي هي صورة للعنصرية والعروق والدماء التي تتصارع وتتقاتل وتستعلي بالعصبية.

وهي معركة ضخمة ما تزال رحاها دائرة، وما يزال الغرب يوقد لها النار كلما همدت، ولكن المسلمين الآن وقد دخلت دعوتهم مرحلة اليقظة خلال القرن الرابع عشر الهجري وصولاً إلىٰ مرحلة النهضة في هذا القرن (الخامس عشر الهجري)، وعوا تلك المؤامرة التي تبيّت لهم وتلك الخطط التي تُرسم، وتلك الأساليب الخادعة التي تختفي وراءها، وكشفوا عن ذلك كله، ولم يعودوا مخدوعين، أو مؤهلين للاحتواء والإذابة في بوتقة الحضارة الغربية أو الفكر الأممي، وقد قفزوا فوق ثلاثة حواجز: الديمقراطية والشيوعية والصهيونية، وإن كانت بعض الدول لا تزال أسارىٰ لهم، ولكن الحقيقة قد انكشفت واستعلىٰ مفهوم الإسلام عن الاحتواء، وكشفت التجربة عن عجز الأنظمة الوافدة عن العطاء، ولم يبق أمام المسلمين إلا خطوة واحدة، هي أن يطبقوا منهجهم الرباني، وينشئوا مجتمعهم الإسلامي، وهذه هي الخطوة الحاسمة في القصة كلها، وهي التي يحققها القرن الخامس عشر - بإذن الله.

لقد كشف النفوذ الأجنبي منذ اليوم الأول عن مطامعه في تحريف العقيدة الإسلامية بعد أن استبان له خلال اصطدامه بعالم الإسلام أن هذه العقيدة هي وحدها القوة القادرة علىٰ حفظ كيان هذه الأمة، وهي الركيزة الأساسية في نضالها، وفي الحفاظ علىٰ وجودها، وفي دعم كيانها، وفي دفع عادية الغزو الخارجي عنها، وكان لويس التاسع وغيره هم الذين تنبهوا إلىٰ أسلوب التغريب والغزو الثقافي القائم بتحريف مفهوم الإسلام أساسًا، حتىٰ يمكن إزالة هذه القوة والقضاء علىٰ تلك الركيزة، فكانت عملية الاستشراق والتبشير والماسونية كلها وسائل لتحويل الإسلام إلىٰ دين عبادي لاهوتي، منفصل عن منهج الحياة ونظام المجتمع، وتلك هي المؤامرة الأولىٰ التي خطط لها الغرب لإخراج أجيال تؤمن بأن الإسلام دين عبادة فقط، وأن المسلمين

يستطيعون إقامة مجتمعهم ونظامهم السياسي والاقتصادي والتربوي من خلال اقتباس الأيديولوجيات الغربية والماركسية كيفما شاؤوا، وتلك هي كبرىٰ القضايا التي واجهتها حركة اليقظة والتي كانت تحاول بغزوها وبأتباع التغريب علىٰ المدىٰ الطويل ضرب الدعوة الإسلامية بها في أعز مكامن وجودها وحقيقتها.

نعم، كان تحريف العقيدة وإدخال السموم إلىٰ الفكرة الإسلامية بإخراجها من مفهوم الإسلام (دين ونظام مجتمع ومنهج حياة) هي كبرىٰ القضايا التي حمل لواءها خصوم الإسلام، سواءٌ دعاة الديمقراطية الغربية أو الشيوعية الماركسية أو الصهيونية التلمودية المنبثة في مختلف دراسات العلوم الاجتماعية وعلم النفس وعلم الأخلاق، والتي حرصت الماسونية وأعوانها علىٰ إدخالها في عقول شباب الإسلام.

ولقد كانت القوىٰ الأجنبية تستهدف بهذا صدع الكيان الجامع.

كان هذا هو أولىٰ محاولات النفوذ الأجنبي لضرب الدعوة الإسلامية في أعز معتقداتها وأعلىٰ مفاهيمها، ولقد زاد ذلك قوة، بعد أن ظهرت دعوة التوحيد الوهابية وتوالت حركات السنوسية والمهدية وحركة الاصلاح الإسلامي التي قادها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وهي نفس حركة إحياء السلفية التي امتدت من جاوة إلىٰ مراكش، إلىٰ السنغال.

وكلما نمت حركة اليقظة واستحصدت، زاد تآمر النفوذ الغربي علىٰ الإسلام في تسميم الآبار وإفساد المفاهيم، وتحريف القيم، وقد سعىٰ إلىٰ ذلك بوسائل مختلفة، منها:

- تغريب الوجود السياسي والاجتماعي.

- وعن طريق السيطرة السياسية.

- وعن طريق الغزوة العسكرية والتطويق الاقتصادي.

- ثم عن طريق تمزيق الوحدة الإسلامية بإثارة نزاعات القوميات والإقليميات.

فلما استحصدت حركة اليقظة، وعلا مفهومها الصحيح، وجُرف الزيفُ الذي فرضته مفاهيم التغريب، بدأت محاولات الاستئصال والتعذيب والسجن والقتل، لحصد هذه القوىٰ التي تؤمن بالإسلام دينًا ومنهج حياة، ومضت المؤامرات والتجمعات لاحتواء هذه القوة رغبة في القضاء علىٰ كلمة «الدولة الإسلامية» و«الشريعة الإسلامية»، وكان استعلاء الدولة الإسلامية في إيران عاملاً هامًا هز دوائر الغرب، وبدأت أبحاث ودراسات تَرْمِي إلىٰ استكشاف مدىٰ هذه الصحوة، وسَبْرِ غَوْرِ المد الإسلامي، وقد جرت محاولات سريعة لاحتواء اليقظة الإسلامية في عدد من البلدان الإسلامية والعربية تخوفًا من قيام ثورات إسلامية، وقُدِّمَتْ أَبْحَاثٌ حول ترشيد الجماعات الإسلامية وتحريرها من العنف والتطرف، ودفعها إلىٰ طريق الأصالة الحقيقية، وهناك فارق واضح وعميق بين الجماعات الإسلامية التي قامت بقياداتها المعروفة وبين غيرها من الجماعات.

وقد تعرضت لمحاذير كثيرة نتيجة تفتتها وعدم انضوائها تحت لواء الجمعيات العاملة في الميدان، ودخول بعض العناصر المنحرفة في قياداتها وتقصير القيادات السياسية في توجيهها وتصحيح مسارها.

الدعوة الإسلامية:

تمثلت الدعوة الإسلامية في محاولة اليقظة والخروج من الجمود، وتصحيح المفاهيم، هذه الحركة التي لم تتوقف علىٰ مدىٰ تاريخ الإسلام كلما غلب طابع التقليد، وقد دعا إلىٰ التحرر من الجمود والتقليد أئمة مهتدون في ميادين كثيرة، وخاصة بعد أن دخلت إلىٰ الفكر الإسلامي مفاهيم الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية،

وحاولت هذه المفاهيم احتواء مفهوم التوحيد الخالص، وقد برز في هذا المجال كثيرون من أمثال الشافعي وابن حنبل وابن تيمية والغزالي وابن القيم وابن حزم، وقد اهتدىٰ المسلمون في مطالع العصر الحديث بهذه المفاهيم، ودعا كثيرون إلىٰ التماس المنابع الأصلية، كان من أبرزهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومن جاء بعده من الدعاة الذين حملوا لواء تحرير الدعوة الإسلامية من الجمود والتقليد، وكانت الدعوة بمثابة الجماعة التي تلتقي حول كل داعٍ في عصره وبيئته، وقد تجمع حول الدعاة أتباع مؤمنون، سواءٌ في مجال الجهاد ومقاومة النفوذ الأجنبي (الذين تجمعوا حول الأمير عبد القادر الجزائري، والأمير عبد الكريم، وعمر المختار)، وفي ميدان الإصلاح وهو التغيير الذي أطلقه الشيخ محمد عبده في انطلاقته التي كانت في الحقيقة إحياءً للحركة السلفية وانطلاقًا بها في جماعة من أنصاره ومن خلال مجلة المنار، وهي الحركة التي امتدت إلىٰ الهند وجاوة شرقًا وإلىٰ المغرب غربًا، ومثالها حركات الدعاة السلفيين في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي، حتىٰ جاءت مرحلة التربية وتكوين الأجيال، وهو العمل الذي قامت به الجمعيات الإسلامية التي ظهرت تحت أسماء مختلفة، منها: مكارم الأخلاق والهداية الإسلامية، والشبان المسلمين، ثم كانت جماعة الإخوان التي حمل لواءها الأستاذ حسن البنا. وهي مرحلة جديدة اختلفت عن المراحل السابقة، وهي تربية جيل جديد علىٰ مفاهيم الإسلام الصحيح، وقد جاء ذلك في مواجهة التحدىٰ الخطير الذي مر بالمسلمين من خلال أحداث خطيرة، منها:

١ - إلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا.

٢ - ازدياد نفوذ التبشير في مصر والعالم الإسلامي.

٣ - دعوة التغربيين إلىٰ تزييف مفاهيم الإسلام، وفي مقدمتها «كتاب الإسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق، و«الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين، وهي

محاولات ثقافية استهدفت تمزيق مفهوم الإسلام الجامع، وفرض مفهوم لاهوتي يقصر الإسلام على العبادات والتراتيل على النحو الذي عرفه الغرب في الكنائس؛ ولذلك فقد كان من أبرز ما حملت لواءه الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة، الدعوة إلى مفهوم أصيل للإسلام، قائم على أساس أن الإسلام دين ومنهج حياة ونظام مجتمع لا ينفكان ولا يختلفان، وقد ركزت الدعوة على هذا المفهوم كأساس للوحدة الفكرية الجامعة للمسلمين مع الاتفاق بين المسلمين على أساس التوحيد والقرآن والأصول العامة، مع التجاوز عن الخلاف في الفروع، وذلك رغبة في إقامة وحدة جامعة بين عنصري الإسلام: السنة والشيعة.

وقد تميزت هذه المرحلة من الدعوة الإسلامية بعلامات ثلاث:

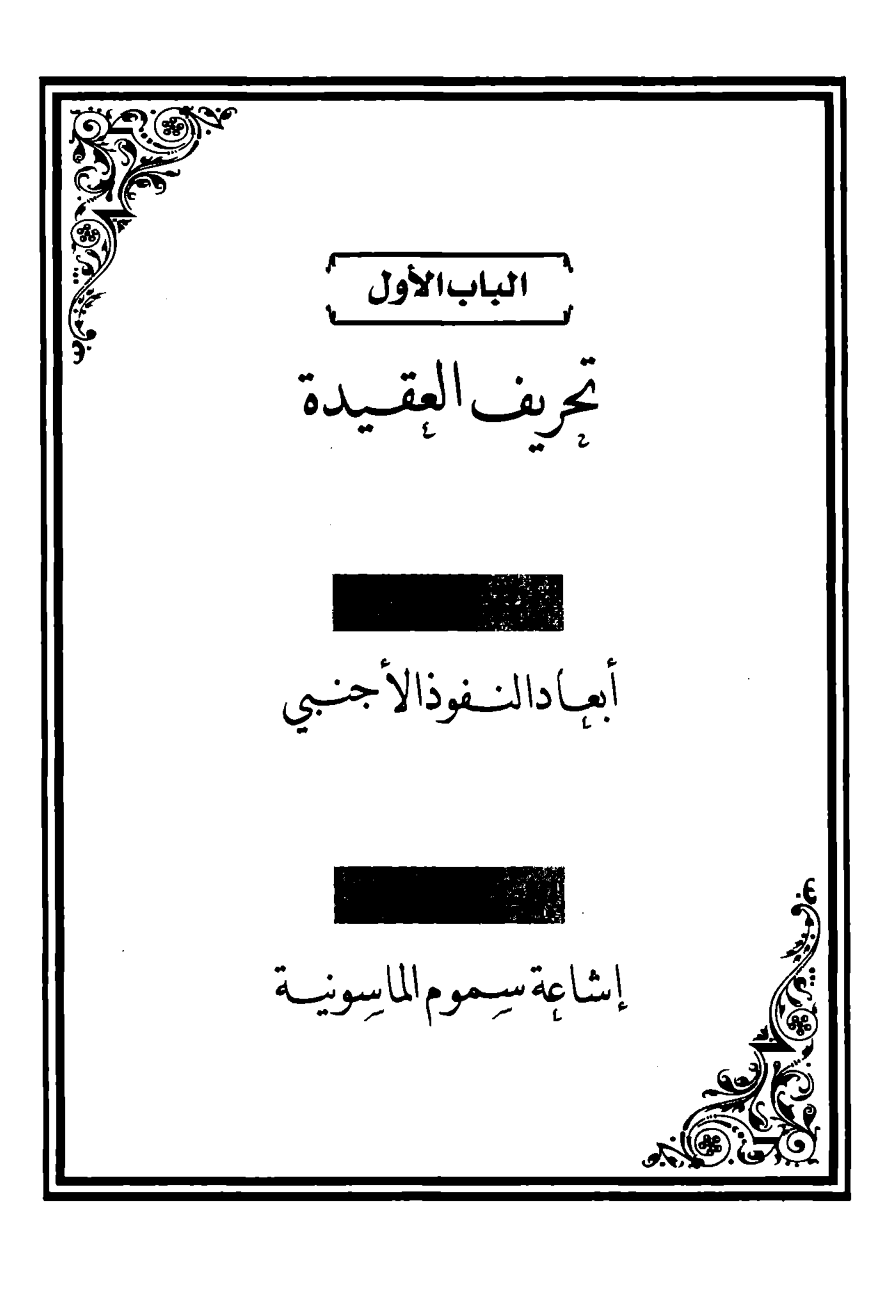
أولاً - قيام الجماعات الإسلامية في العالم الإسلامي كله بالتربية وبناء الأجيال، والاستعداد للدفاع عن العقيدة وعن الأرض في مواجهة العدوان الظالم الذي حطم الخلافة الإسلامية وسيطر على فلسطين، والنظر إلى مختلف القضايا من وجهة نظر إسلامية أصيلة، والدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية في أنظمة الأمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية، وقد حققت هذه الحركة نتاجًا طيبًا؛ فقد أدخلت إلى دساتير البلاد الإسلامية المختلفة موادّ تؤكد أن الإسلام دين الدولة، وأن الإسلام هو مصدر التشريع، ومن ثم بدأت عمليات تقنين الشريعة وصدور دوائر معارف منظمة لمواد الفقه الإسلامي، وأُعِدَّت مشاريع قوانين خاصة بالحدود والمعاملات المدنية والتجارية والبحرية وغيرها.

ثانيًا - دخول الإسلام أجزاء جديدة في العالم، وخاصة في آسيا وأفريقيا، واقتحام مجالات الوثنيين عن طريق التجار والصوفية، وتفضيل البشرية له في مواجهة تحديات التبشير والكنائس التي فرضها النفوذ الأجنبي على بلاد أفريقيا وجنوب شرق آسيا،

وقد اتسع نطاق هذا العمل مع ما يُوَاجَهُ به من حرب عنيفة إلىٰ حد التوقع أن تصبح قارة أفريقيا في القرن الخامس عشر قارة إسلامية في أغلبها.

ثالثًا - دخول الإسلام إلىٰ قارة أوروبا مرة أخرىٰ بأعداد ضخمة من المسلمين، وخاصة ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، وظهور جالية ضخمة للمسلمين في الولايات المتحدة، وبناء العديد من المعاهد والمساجد والمراكز في هذه الأجزاء التي قام بها مهاجرون مسلمون يعملون في هذه المناطق، وقد استجاب للإسلام كثيرون من أهل البلاد الأوروبية والأمريكية، فدخلوا في الإسلام.





الباب الأول

تحريف العقيدة

أبعاد النفوذ الأجنبي

إشاعة سموم الماسونية

الباب الأول

تحريف العقيدة وإدخال السموم إلى الفكرة الإسلامية

كان التحدي الأول في وجه الدعوة الإسلامية هو تحريف العقيدة، وإدخال السموم إلىٰ جوهر الفكرة الإسلامية الناصع المشرق، وذلك بتصوير الإسلام بصورة الدين اللاهوتي القائم علىٰ العبادة والمنحصر في المسجد والصلاة والزكاة، وذلك رغبة في القضاء علىٰ المفهوم الأصيل للإسلام بوصفه (دينًا ومنهج حياة ونظام مجتمع)، وكان ذلك من التوصيات التي قدمها أقزام الاستعمار والتغريب والغزو الثقافي، وفي مقدمتهم لويس التاسع بعد هزيمته في المنصورة في إحدىٰ حملات الحروب الصليبية، وتوافر وجهة نظر غربية كنسية، مفادها أن المسلمين لا يُهزمون إلا بعد تفريغ الإسلام من مفهوم التوحيد الخالص وفريضة الجهاد (الماضية إلىٰ يوم القيامة)، وهو الهدف الذي قامت عليه منظمات التبشير والاستشراق التي بدأت عملها منذ ذلك الوقت كمنطلق للاستعمار وتوسيدًا له، بخلق أجيال تُرَبَّىٰ في مدارس الإرساليات علىٰ هذا المفهوم، وهو العمل الذي قامت الدعوة الإسلامية منذ اليوم الأول، وفي خلال مراحلها المتوالية، بالعودة إلىٰ منابع الإسلام علىٰ النحو الذي دعا إليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وركزت عليه كتابات حزب الإصلاح الإسلامي الذي قاده الشيخ محمد عبده ورشيد رضا، ثم جاءت حركة الإخوان المسلمين؛ فحملت لواء الإسلام دينًا ودولةً، واعتباره الأساس لبناء أجيال من شباب المسلمين علىٰ الإيمان بإعادة الدولة الإسلامية، وإنفاذ الجهاد في سبيل الله كأساس لبناء المجتمع الإسلامي الرباني في مواجهة الغزو الصهيوني الذي امتد إلىٰ فلسطين، وعمد إلىٰ إسقاط الخلافة الإسلامية، وتمزيق الوحدة الإسلامية، وإقامة دعوات الإقليمية والقومية وأنظمة التعليم العلمانية

الغربية، ونظام الربا في مجال الاقتصاد، والتبعية للتنظيمات السياسية والاجتماعية المنبثقة من الأيديولوجيتين الرأسمالية الديمقراطية أو الاشتراكية الماركسية، وفي سبيل تثبيت مفاهيم تحريف العقيدة، وإدخال السموم إلىٰ جوهر الفكرة الإسلامية كان عمل النفوذ الأجنبي في توسيد الطريق، ثم جاءت الماسونية لتسمم جميع الآبار، ثم نشأت خطة احتواء الإسلام عن طريق تفسيرات للإسلام تلحقه بالنحل الضالة؛ وذلك لسلب أصالة الإسلام، والحيلولة بينه وبين سلامة التطبيق، وذلك وفق مخطط مدروس من القوىٰ الثلاث التي تهدف إلىٰ احتواء الإسلام والمسلمين، كل من ناحية التحدي الذي يقوم عليه، وهي الاستعمار الغربي الذي تَخَلَّىٰ عن مظهره السياسي والعسكري وراء مصالح اقتصادية ومعاهد تعليمية ومبادلات في المطبوعات والبعثات والخبراء، كلها ترمي إلىٰ تشويه مفهوم الإسلام في نفوس الأجيال المسلمة، وتزييف وجهتها، وتغليب روح التبعية لهذا القطر أو ذاك.

ولا ريب أن خطوات جديدة أقدمت عليها القوىٰ الأجنبية في مواجهة اليقظة الإسلامية، في مختلف المجالات، وخاصة الثقافة والتعليم، وهي الجبهات المقصودة بالاحتواء والسيطرة.

ويرىٰ كثير من الباحثين «أنه علىٰ الرغم من تغير شكل العلاقات بين العالم الإسلامي والقوىٰ الاستعمارية الكبرىٰ، فإن جوهر هذه العلاقات ولُبّها هو في حقيقته امتداد للصراع التاريخي بينه وبين الدول الغربية بما فيها الولايات المتحدة وروسيا في ضوء المحتوىٰ الحضاري الذي يضم هذه المجموعة، ويؤسس لها خطط علاقاتها مع العالم الإسلامي، باعتبار أن المحتوىٰ الحضاري الإسلامي هو العنصر المقصود تحطيمه وإذابته وتحويله إلىٰ نهج آخر إن لم يكن من السهل القضاء عليه تمامًا».

الفصل الأول

أبعاد النفوذ الأجنبي

كان النفوذ الأجنبي الذي سيطر علىٰ بلاد العالم الإسلامي من أكبر العوامل التي ما تزال آثارها من أكبر العقبات علىٰ طريق الدعوة والوحدة والنهضة. فقد كانت العقبة الأساسية قبل الاستعمار هي: الجمود الذي اعترىٰ مفاهيم العقيدة وفق جبرية الصوفية، وبروز طابع الفتور العام الذي حاربه المصلحون المسلمون الذين تَوَالَوْا، وكان أولهم ابن تيمية وابن القيم، وآخرهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، وعلماء آخرون في مصر واليمن وغيرها، حملوا لواء العودة إلىٰ المنابع والتماس مفاهيم الإسلام الأصيلة، غير أن سيطرة الاستعمار علىٰ بلاد المسلمين ضاعفت من مسؤولية العاملين من دعاة اليقظة الإسلامية وفتحت الطريق أمام عقبات جديدة غَيَّرت طبيعة المجتمع الإسلامي، وفرضت عليه أعرافًا وقيمًا جديدة، جعلت مهمة حركة اليقظة الإسلامية عميقة ومعقدة. فقد كان النفوذ الأجنبي الذي جاء تحت اسم الاستعمار يهدف إلىٰ تحقيق ما عجز عنه في الحروب الصليبية التي هُزم فيها، وظل يتربص خلال فترة قوة الدولة العثمانية ونفوذها أكثر من أربع مئة عام، ليعود مرة أخرىٰ علىٰ نحو مختلف المظاهر، ولكنه كان طامعًا في هذه المرة في أن يصهر العالم الإسلامي في بوتقته، ويزيل هويته، ويقضي علىٰ ذاتيته الخاصة، وذلك بتغير مفاهيمه الأساسية، وخاصة مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفريضة الجهاد، فكانت محاولته العسكرية السياسية مدخلاً إلىٰ محاولة أشد خطرًا، وهي احتواء العالم الإسلامي وصهره في بوتقة الغرب العالمية والأممية؛ حتىٰ يصبح شيئًا هلاميًا لا يستطيع الدفاع عن نفسه أو مقاومة السيطرة عليه. من هذا المنطلق كان النفوذ الأجنبي يعمل علىٰ تحطيم الكيان الإسلامي للمجتمع؛ حتىٰ تنهار قوائم العقيدة، وقد جرىٰ ذلك عن طريقين:

١ - إثارة روح الإلحاد والتشكيك، وذلك بإذاعة مفاهيم العلمانية.

٢ - إثارة روح الانحلال بإذاعة المفاهيم الإباحية.

فقد فرض النفوذ الأجنبي القانون الوضعي علىٰ المجتمع الإسلامي الذي حجب الشريعة الإسلامية وجحدها لأول مرة في تاريخ الإسلام كله، كما فرض النظام الربوي الذي أخضع الاقتصاد الإسلامي كله لإمبراطورية الربا العالمية، وكان أخطر ما فرضه النفوذ الأجنبي علىٰ البلاد الإسلامية نظامه التعليمي العلماني الذي انحسر في ظله مفهوم التربية الإسلامية الأصيل، وذلك من أجل تخريج طلائع من متفرنجة المسلمين الموالين فكرًا وثقافةً للغرب، والكارهين للإسلام والفكر الإسلامي، والمملوئين احتقارًا وسخرية للتاريخ الإسلامي واللغة العربية وسيرة الرسول الكريم، وكذلك عمد النفوذ الأجنبي إلىٰ إثارة رياح السموم التي حملتها مؤسسات الاستشراق؛ من أجل الطعن علىٰ الإسلام، والحملة علىٰ مقوماته، واتهامه بأنه مصدر تأخر المسلمين وضعفهم.

وتَمَكَّنَ النفوذ الأجنبي من خلق جماعات تحمل لواء الإسلام لتفسد مفهومه الصحيح، كما حدث في النحلتين البهائية والقاديانية؛ فإحداهما تدعو إلىٰ دين واحد يزيل جميع الأديان، والأخرىٰ تدعو إلىٰ إلغاء شريعة الجهاد.

كما تواصلت الحملة علىٰ اللغة العربية والحد منها، وذلك بإنماء اللغات الأجنبية واللهجات المحلية، والدعوة إلىٰ كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية، وكانت حركة التبشير من أخطر الأعمال المتسلطة علىٰ المسلمين لإخراجهم من الإسلام وبث الشبهات التي تقدمها مصادر الاستشراق، وقد تَخَفَّىٰ التبشير وراء التعليم والصحافة والثقافة، وبدا ظاهرًا في مناطق كثيرة من العالم الإسلامي، وقد عمد النفوذ الأجنبي إلىٰ الحيلولة بين المستمسكين بعروة الدين والغيرة عليه وبين الترقي في مناصب

الحكومة إذا انتظموا في مسلكها بمقتضىٰ نظام البلاد، وكانوا لا يثقون إلا بمن يظهر لهم عدم المبالاة بدينه. وقد كشف اللورد كرومر هذا المعنىٰ واضحًا في كتابه (عباس الثاني)، وأظهر للناس أن من أصول سياستهم ظلم كل مسلم تربىٰ تربية إسلامية وتخلق بأخلاق الإسلام بإبعاده عن مناصب الحكم في بلاده، وحصر هذه المناصب في المتفرنجين بالتربية الأوروبية، وقال: إن من الواضح أن المسلم غير المتخلق بأخلاق الأوروبيين لا يقوىٰ علىٰ حكم مصر في هذه الأيام، ولذلك فإن المستقبل الوزاري للمصريين المتربين تربية أوروبية.

ويعلق علىٰ هذا المعنىٰ السيد رشيد رضا فيقول: هذه سياسة قد لقنها المسيطرون البريطانيون للموظفين المصريين بالعمل، فصار يعرفها كل واحد، وكان من تأثير ذلك أن المسلمين حقيقةً المؤمنين بعقائد الإسلام، المتخلقين بأخلاقه، المحافظين علىٰ شعائره وعباداته، الحريصين علىٰ مجده وكرامته... لم يكن لهم حظ كبير من حكومة بلادهم، ولا سيما إذا تربوا في المعاهد الدينية كالأزهر ودار العلوم والتزموا زي المسلمين، وهذا يفسر لنا بُعْدَ علماء الأزهر في عهد الاحتلال عن الاشتغال بالمصالح العامة وسياسة البلاد، وكان الإنجليز يظنون أنهم أَمِنُوا بهذا من القيام بنعرة قومية للمطالبة بحقهم من الحكم في بلادهم بدلاً من الأجانب الذين اقتاتوا عليهم فيها وحلوا محلهم في كل فروع أعمال حكومة بلادهم ومصالحها.

وكان الإنجليز آمنين من انقلاب سياسي في البلاد بسعي من الذين يتربون علىٰ الطريقة الإفرنجية، ولا سيما الإنجليرية؛ لاعتقادهم أن هؤلاء لا يهمهم غير أهوائهم الشخصية. ومن يراجع تجربة الاستعمار البريطاني للتعليم في مصر تتضح له أهداف النفوذ الأجنبي في تدمير مقومات هذه الأمة، فهو أولاً: قد نقل الطلاب إلىٰ اللغة الإنجليزية، وأهمل اللغة العربية تمامًا، وصَيَّرَ التعليم بمصاريف؛ فحال دون تعليم عدد كبير من الفقراء، وجاءت دعوة لطفي السيد بقصر التعليم علىٰ أولاد الأثرياء

الذين سيتولون الحكم بعد آبائهم، أما باقي أفراد الأمة فلا داعي لأن يتعلموا لأنهم سيعملون في الحقول والمصانع كآبائهم.

أما المناهج فقد أُستبعدت كلُّ المفاهيم الإسلامية الحقيقية ودراسة التاريخ الإسلامي واللغة العربية والتاريخ القومي، وحوصرت المدارس الأهلية؛ حتىٰ لا يزيد عددها، مع نمو عدد مدارس الإرساليات، وعمدت بريطانيا إلىٰ عدم السماح للوطنيين بالانضمام إلىٰ هيئة التدريس، وحاربت الأزهريين وخريجي دار العلوم ومعلمي الدين والفقه منهم، وحالت دون تسرب أبناء الفقراء إلىٰ معاهد العلم؛ حتىٰ يظل مقصورًا علىٰ الثراة صنائع المستعمر أصلاً، وذلك في سبيل إعداد جيل (مرن) متفاهم يلتقي بالاستعمار لقاء الصداقة والولاء والتبعية، وهو الجيل الذي سيطر فعلاً علىٰ الحكم في العالم الإسلامي في ثلاثينيات هذا القرن.

وقد صور اللورد كرومر منهجه في التعليم بأنه وسيلة للاستخدام في وظائف الحكومة، وقد توجه إلىٰ إنشاء الكتاتيب، وانصرف عن التعليم العالي والقضاء علىٰ اللغة العربية، وأدىٰ إهمال التعليم علىٰ أساس قاعدة: «جهل الشعوب نافع للاستعمار، وإنه بانتشار التعليم يصعب حكمهم» إلىٰ انحطاط مدرسة الهندسة والطب، وقد وكل الأمر فيها إلىٰ أساتذة من الإنجليز لم يكونوا يحملون شهادات تؤهلهم للعمل فيها، وحوربت اللغة العربية كجزء من خطة القضاء علىٰ الوجود العربي الإسلامي وفصل الصلة بين الماضي والحاضر، وقد أثار اللورد دوفرين في تقريره ١٨٨٢م إلىٰ خطر اللغة العربية في التعليم في مصر، رغبة في إعلاء شأن اللغة الإنجليزية في المعاملات والتجارة، وإعلاء شأن العامية بالتبعية في المجتمع، وذلك بهدف صناعة أجيال ذات ولاء للاستعمار وخاضعة لفكره ومنطقه ومفاهيمه، رغبة في أن تكون في مجال الصدارة والحكم، لتعمل علىٰ ولاء واضح للغرب ومفاهيمه، ولقد كان ذلك من أخطر التجارب التي مرت بها الأمة الإسلامية، بل ومن أخطر ما واجه العالم الإسلامي من عقبات،

وكان لها أثرها البعيد في تأخير انتقال المجتمعات الإسلامية من مرحلة اليقظة إلىٰ مرحلة النهضة، وهو وصول عدد من الزعماء الخاضعين للفكر الغربي والمؤمنين بأنه لا سبيل إلىٰ النهضة في العالم العربي الإسلامي إلا بالتماس أسلوب الغرب في حياته السياسية والاجتماعية والجري في تيار المنهج الليبرالي والديمقراطي والرأسمالي الذي يطبقه غرب أوروبا، والتعاون مع الدول المستعمرة والتفاهم معها، وقبول ما يمكن الوصول إلىٰ تحقيقه عن طريق أسلوب المراحل.

وقد وقعت هذه الظاهرة في أغلب الأقطار العربية الإسلامية التي حوصرت بالنفوذ الاستعماري، والمعروف أن أغلب أجزاء العالم الإسلامي قد خضعت لهذا النفوذ.

وفي أثناء مواجهة الاحتلال الغربي ظهرت زعامات أصيلة قوية مؤمنة بضرورة مقاومة النفوذ الأجنبي، والإصرار علىٰ جلاء القوات العسكرية الغازية، والدعوة إلىٰ حركة وطنية قادرة علىٰ مواجهة خطر النفوذ الأجنبي، ولكن النفوذ الغربي عَارَضَ هذه الطلائع بأشكال منها التهديد والسجن والمحاكمة وتقليم أظفارها، ودفعها إلىٰ الخروج من البلاد، وفي نفس الوقت عمل علىٰ إقامة قيادات جديدة كوّنها وشَكَّلَها من شباب البلاد المثقفين علىٰ مفهوم التعاون مع الغرب، وتقبل الخطوات التي يرمي الاستعمار إلىٰ إدخالها من تمدين البلاد وإعدادها لتمتلك زمام الأمور متىٰ تأكد هذا النفوذ أن هؤلاء الذين كان يطلق عليهم اسم «المتفرنجة» من شباب البلاد.

وبذلك قامت في أغلب البلاد العربية والإسلامية هذه الزعامات التي أقامت مفاهيمها علىٰ الواقعية وعلىٰ التفاهم مع الغاصب علىٰ أنه صديق، وعلىٰ قبول ما يستطيع أن يقدمه المستعمر من إصلاحات ضئيلة تعمل علىٰ تمكين هذه الطلائع من الحكم؛ لتسير الأمور علىٰ النحو الذي يريده النفوذ الأجنبي مع تعديلات تتدرج من الاحتلال إلىٰ الانتداب إلىٰ الاستقلال، مع بقاء النفوذ الأجنبي العسكري والسياسي

والاقتصادي.

وقد ظهرت هذه الطلائع في مصر (لطفي السيد وسعد زغلول)، وفي عدد من البلاد العربية والإسلامية بديلاً عن الزعماء الوطنيين المتحمسين المؤمنين ببلادهم ودينهم.

وقد بدا هؤلاء المتفرنجون وهم قليلو الإيمان بالمفهوم الإسلامي الجامع أو الوحدة الإسلامية أو الوحدة العربية، وإنما يقوم فكرهم علىٰ الإقليمية المتصلة بالتاريخ القديم، ففي مصر حدثت محاولات إعادة الفرعونية، كما اختفت مفاهيم الفكر الإسلامي الاجتماعي والسياسي، وإنما أوغلت المجتمعات في التبعية للقانون الوضعي مع حجب الشريعة الإسلامية، وإحلال النظام الاقتصادي الربوي بديلاً عن النظام الإسلامي الاقتصادي، كذلك فقد كانت هناك السيطرة الواضحة علىٰ التعليم والتربية والثقافة والصحافة، وتوجيهها توجيهًا غربيًا رأسماليًا.

وبذلك اختفىٰ المفهوم الإسلامي الاجتماعي والسياسي الذي كان قائمًا قبل الاحتلال الغربي، حدث هذا في مختلف بلاد العالم الإسلامي، وجاءت الطلائع الغربية معارضة تمامًا ومناقضة للزعامات الإسلامية التي كانت قائمة، وقد قام حزب الوفد والأحزاب السياسية في مصر التي شُكِّلَتْ في ضوء هذا التحول مخالفةً تمامًا للمنهج الذي قامت علىٰ أساسه مقاومة النفوذ الأجنبي، التي حمل لواءها مصطفىٰ كامل، ومحمد فريد، وعبد العزيز جاويش.

ثم جاءت المرحلة التالية بعد الحرب العالمية الثانية، وهي التي أفرزت أنظمة عسكرية بعد أن قام عدد من ضباط الجيش بالسيطرة علىٰ بعض الدول العربية والإسلامية.

وقد كانت هذه المرحلة أشد خطورة من المرحلة السابقة؛ إذ إنها علىٰ الرغم من أنها تمكنت من التخلص من النفوذ العسكرىٰ الغربي، فإنها بقبولها وجهة النظر

الغربية وسيطرتها التي تفرضها بعيدًا عن الأنظمة الديمقراطية، فواجهت البلاد العربية والإسلامية مجموعة جديدة من المسيطرين الذين كانوا أشد بعدًا عن مفهوم الإسلام.

في هذه الفترة ظهرت شخصيات خطيرة من العسكريين الذين استولوا على الحكم من أمثال مصطفى كمال أتاتورك في تركيا، والشاه بهلوي في إيران، ثم ظهرت بعد ذلك شخصيات جمال عبد الناصر وأحمد سوكارنو وبورقيبة، كما ظهرت فكرة القوميين السوريين والبعث والبعث النصيري والناصرية في مصر، والمارونية في لبنان.

ثم جاءت في هذه المرحلة موجتان خطيرتان، الموجة الأولى: هي سيطرة الصهيونية على فلسطين، ثم اتساع نفوذها في حرب ١٩٦٧م بالاستيلاء على القدس وأجزاء من سيناء والضفة والجولان وسوريا، أما الموجة الثانية: فهي موالاة الشيوعية سياسيًا في فرض نفوذ ماركسي، وشُكِّلَ لها سلطان في مصر والسودان وأندونيسيا وغانا واليمن الجنوبية وسوريا والجزائر، ثم انهار من بعد هذا النفوذ في بلاد كثيرة.

ولم تتوقف مؤامرات الاستعمار والنفوذ الأجنبي لتمزيق الوحدة الإسلامية، وذلك بطرح مفاهيم الإقليمية والقومية والطورانية والمارونية والهندوكية، وظهرت نزعات البعث والناصرية والنصيرية، كما تحركت منظمات التبشير والتنصير والاستشراق والتغريب.

وجاءت موجة الثقافة الفرنسية والثقافة الأنجلوسكسونية أولاً، ثم جاءت موجة الثقافة الأمريكية، ثم جاءت موجة الثقافة الماركسية، وطرحت مفاهيم العلمانية والمادية والوثنية، وجرت الدعوة إلى الفرعونية والمتوسطية والفينيقية.

وتبدأ القضية كلها من نقطة واحدة هي قيام الغزاة على تربية أجيال جديدة على غير مفاهيم الإسلام ووفق مخططات الغرب بشقيه، وذلك ليجعل من هؤلاء طلائع ونخبة وقادة لقيادات المجتمع الإسلامي السياسية والاجتماعية والتربوية.

ومن خلال هذه المعاهد (سواءٌ معاهد الإرساليات أو المعاهد القومية) في البلاد الإسلامية التي اتخذت مناهج التعليم التي وضعتها معاهد الإرساليات مع تغييرات طفيفة، وانعزلت تمامًا عن الأصول الأصيلة للمفاهيم الإسلامية، سواءٌ في مجال السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد، وقد عمدت القوىٰ المسيطرة علىٰ المجتمعات الإسلامية علىٰ فرض أساليب الأنظمة السياسية، وتطبيق القانون الوضعي ونظام الاقتصاد الرأسمالي الربوي، ومن ثم جاءت كتابات الثقافة والصحافة والأدب والفكر كلها من منطلق الواقع الذي أصبح قائمًا، وعملت القوىٰ الفكرية من جانبها علىٰ حماية هذا الواقع الفاسد، وتدعيمه، وتوجيه القلوب والعقول والأرواح إلىٰ كراهية واحتقار التراث الإسلامي العربي، وإعلاء شأن الحضارة الغربية وفكرها وأبطالها وتاريخها.

وجرىٰ عمل واسع خطير في مختلف المجالات لتحقيق هذه الغاية: وهي غاية تغريب العالم الإسلامي بتغيير بنيته الاجتماعية وأعرافه الإسلامية وأخلاقياته، وكان لسيطرة هؤلاء القادة الذين نشأوا في حضانة الولاء الغربي أثر كبير في وضع الفكر الإسلامي ومفاهيم الإسلام وتاريخه بعيدًا عن الضوء، ولقد كانوا يصدرون عن إعجاب وتقدير شديدين للغرب وحضارته، وكانوا تطبيقًا للنموذج الغربي.

ولا شك أن دراسة أسلوب معاهد الإرساليات والجامعات المختلفة، سواءٌ التي أنشأتها فرنسا أو أمريكا في البلاد الإسلامية، وخاصة في القاهرة واستانبول ولبنان، ومدارس النصارىٰ واليهود التي تَعَلَّمَ فيها كثير من المسلمين يستطيع أن يكشف إلىٰ أي حد تصدُر هذه القيادات.

ولقد تَبَيَّنَ في مراحل متأخرة تلك التجمعات التي قادها بعض كبار الأساتذة اليهود والنصارىٰ في جامعات الغرب، كجامعة هارفارد والسوربون وغيرها بقيادة أمثال هنري كسينجر وماسينيون وغيرهما أنها قد هيأت الفرصة لإعداد عدد من الشباب المثقف

المتخرج في الجامعات الأمريكية في العالم الإسلامي لإعدادهم للزعامة في بلادهم.

كما كشفت أبحاث هامة صدرت في الغرب: من أمثال كتاب «لعبة الأمم» عن المخططات التي استطاعت بها الدول الغربية احتواء عدد من الزعماء في البلاد الإسلامية ممن كانوا غاية في نصاعة الصفحة، وقد جاء الاحتواء غربيًا وصهيونيًا وماركسيًا، وكانت له آثار بعيدة المدىٰ في تعويق النهضة الإسلامية.

فقد كان هؤلاء الزعماء يطالعون شعوبهم علىٰ نحو باهر في أول الأمر، حتىٰ إذا كسبوا ثقة الشعوب، جاءت بعد ذلك عمليات الاندفاع نحو مخططات تغريبية، ويبدو أن بعض هؤلاء الزعماء لم يستطيعوا المحافظة علىٰ توازنهم الوطني، واستطاعت لعبة الأمم أن تدفعهم إلىٰ الانحياز إلىٰ جانب دون الجانب الآخر، وكانت هناك مؤامرة دفع الوطنيين بالاضطهاد إلىٰ إلقاء أنفسهم في أحضان الطرف الآخر، وذلك لحساب المؤامرة التي تديرها الحكومة الخفية.

ولقد كانت البلاد الإسلامية تتطلع بعد الحرب العالمية الثانية إلىٰ إنهاء احتلال الدول الاستعمارية لها، وإقامة نظام سياسي وطني خاص تعود فيه إلىٰ مفاهيمها وقيمها الإسلامية، ولكن لم تكن تقدر أن المخططات كانت تُدرس وتُعد لإقامة «البديل» مكان الأصيل، فبدلاً أن يقوم أهل الأوطان بتغيير حكوماتهم المتصلة بالمستعمر، وإقامة حكومات وطنية، قام النفوذ الأجنبي نفسه بإجراء انقلابات متعددة فرض فيها قيادات جديدة، وكانت المؤامرة مرتبة هذه المرة أن تكون أغلبها حكومات عسكرية علىٰ النسق الذي تم بعد الحرب العالمية الأولىٰ في إيران وتركيا، وأحست بأنه حقق نجاحًا كبيرًا في الاتجاه نحو التغريب؛ ولذلك فإن عددًا كبيرًا من هؤلاء الحكام العسكريين كانوا يشيرون دائمًا إلىٰ أن مثلهم الأعلىٰ هو «أتاتورك»، ولما كانت الحكومات التي قامت في ظل النفوذ الأجنبي بين الحربين كانت حكومات حزبية، فقد جاء التخطيط

أن تقوم حكومات عسكرية في المرحلة التالية؛ حتىٰ لا تتولىٰ القوىٰ الوطنية الداخلية السيطرة علىٰ الحكم، وهي التي كانت تهب حماسة وإيمانًا من أجل تحرير فلسطين، وإقامة حكم إسلامي في بلادها، وبذلك قضت هذه الانقلابات علىٰ هذين الهدفين؛ فقد اتجه مخطط القيادات الجديدة إلىٰ إعلاء شأن الزعامة الفردية وعبادة الحاكم وتقديسه، وتكبيل الأقلام والألسنة وقيام الحزب الواحد والصحفي الواحد، والزي الواحد علىٰ نحو ما قال فرعون: (ما أريكم إلا ما أرىٰ)، وقد عُرف ذلك في تصريحات سوكارنو وبورقيبة وشاه إيران.

قال هاملتون جب، الذي كان يعمل مستشارًا لوزارة الخارجية البريطانية: إنَّ النجاح في القضاء علىٰ الإسلام يتوقف إلىٰ حد بعيد علىٰ القادة والزعماء في العالم الإسلامي، ويعني هذا (أن القوىٰ العالمية تعي جيدًا أن تحييد الإسلام عن واقع حياة المسلمين هو الضمان الوحيد لبقاء الوضع العالمي علىٰ ما هو عليه، ولذلك اصطنعت هذه القوىٰ سلسلة من الانقلابات العسكرية مَكَّنَتْ فيها النخبة العسكرية من الاستيلاء علىٰ السلطة، وكفلتها سياسيًا وإعلاميًا، وهيَّأت لها الظروف التي تُمَكِّنُهَا من ضرب الإسلام متمثلاً في الحركات الإسلامية الموجودة في مختلف بلدان العالم الإسلامي.



الفَصْلُ الثَّانِي

إشاعة سموم الماسونية

تعد حركة الماسونية من أخطر الدعوات التي وُجهت لتعويق الدعوة الإسلامية وتمزيق الوحدة الإسلامية، والحيلولة دون وصول اليقظة الإسلامية إلىٰ مرحلة النهضة والأصالة والرشد الفكري. ذلك وإن كانت الماسونية هي مؤامرة لخداع جماعات مختلفة من الناس لخدمة هدف غامض مخبوء لا يعرفه الداخل في الماسونية إلا بعد مراحل يصبح فيها أسيرًا لا يستطيع التراجع، والغاية هي إعادة بناء هيكل سليمان في القدس، غير أن «الماسونية» تحاول توجيه معتنقيها توجيهًا أخلاقيًا واجتماعيًا مختلفًا، عن طريق تحطيم جميع مِعاني الأخلاق والفضيلة والعرض والشرف والكرامة في نفوس معتنقي الماسونية، وفي مقدمة ذلك كله إنكار الدين المُنَزَّل من السماء، واحتقاره وتزييفه والسخرية منه، ولم يتوقف نشر هذه المفاهيم بين أعضاء المحافل الماسونية فحسب، ولكنه من عمل قادتها المسيطرين علىٰ الصحافة والأدب والفكر والثقافة علىٰ أن تكون أهدافهم القضاء علىٰ هذه المعاني في نفوس القُرَّاء والمثقفين.

ومما يذكر في هذا الصدد أن طلائع الماسونية في العالم العربي كانوا من لبنان ومن المتصلين بالجامعات الأمريكية والفرنسية فيها، هؤلاء الذين اصطنعوا مهنة الصحافة وزحفوا علىٰ مصر وتونس والمغرب، وفي مقدمتهم صروف ونمر ومكاريوس وجرجي زيدان وصابونجي وفرح أنطون وشبلي شميل وسركيس، فإن هؤلاء جميعًا كانوا من ذوي الدرجة في المحافل الماسونية، وكانت كتاباتهم في مجموعها تهدف إلىٰ تهديم القيم الدينية والأخلاقية، وفتح باب الإباحيات والفساد والتحلل، وذلك

بالإضافة إلىٰ حمل المعاول لتهديم الدولة العثمانية - دولة الخلافة - كمقدمة لتمزيق العالم الإسلامي والتهامه جزءًا جزءًا، ومن وراء ذلك ظهرت المخططات لتقسيم العراق وسوريا ولبنان، وفي الوقت نفسه تمكين اليهود من ناصية فلسطين للسيطرة عليها تحت اسم الوطن القومي لليهود.

ومن هنا، فنحن نعتقد أن هناك ما يسمىٰ عقد الماسونية أو عصر الماسونية في البلاد الإسلامية، وقد مهدت الماسونية للصهيونية حين افتتحت أولىٰ محافلها في مصر ١٧٩٨م (محفل إيزيس)، أقامه كليبر الفرنسي، ثم محفل «ممفيس» الفرنسي ١٨٣٨م، ثم (اتحاد الشرق الأعظم) ١٨٧٢م الذي شكل ما يسمىٰ الدولة الماسونية المصرية، أما المحافل الماسونية في بيروت فقد تأسست عام ١٨٦٢م، وفي سوريا انتشرت الماسونية أيضًا إثر ذلك، ثم امتدت الحركة إلىٰ فلسطين ١٩٢١م فالعراق، وكان رؤساء المحافل بها من ١٩١٩م إلىٰ ١٩٥٧م بريطانيين، وساعد علىٰ هذا المندوبون الساميون لبريطانيا، وكانت هذه المحافل مطية للطامحين اللاوطنيين إلىٰ تحقيق مراميهم، وفي هذه المرحلة لم تكن قد تكشفت أهداف الماسونية، التي كان يظن أنها تخدم الوطنيين إزاء النفوذ الأجنبي وخاصة البريطاني، ومن هنا قبل الأفغاني عضوية هذه المحافل سنة ١٨٧٥م في «محفل كوكب الشرق» في القاهرة، ووصل إلىٰ رئاسته ١٨٧٨م، ثم لم يلبث أن انسحب عندما وجد أن أهدافه لم تتحقق، وأنشأ محفلاً وطنيًا تابعًا للشرق الفرنسي برئاسته وقد تكاثر أعضاؤه وبلغوا ٣٠٠ عضو، واستطاع بذلك أن يقوم بدور واضح في تنحية إسماعيل وتولي توفيق.

ويقول المصدر: لقد سكت عنه البريطانيون طالما كان عضوًا في الماسونية الإنجليزية، وعندما خرج منها، وأنشأ المحفل الفرنسي، وأخذ يهاجم سياسة بريطانيا أشاروا علىٰ توفيق بضرورة التخلص منه، وقد بلغ من أهمية الدور الذي قامت به الماسونية أن قال (ولسلي) - القائد البريطاني - الذي احتل مصر وقضىٰ علىٰ ثورة

عرابي ١٨٨٢م: أنه أينما توجه لقي إخوانًا من الماسون يرحبون به، ويساعدونه على ما يريد وليس يرتاب في أن نجاحه كان لأنه أستاذ في الماسونية.

ومما يشار إليه في هذا الصدد أن الماسونية كانت وراء إنهاء الثورة السورية الكبرى وتمكين «الداماد أحمد ناجي» من الوصول إلى الحكم، وكانت وراء نشاط الخديو عباس لإقامة خلافة عربية.

ولقد خدعت الماسونية المثاليين الذين دخلوا فيها بعباراتها البراقة من أنها حركة اجتماعية تسعى لتحقيق المجتمع الإنساني الأمثل، وأنها تهدف إلى جمع شمل العناصر البشرية ضمن سياج (الإنسان الكلي الاحترام)، وأن غايتها إبطال التحزب الوطني لتجعل العالم كله عائلة واحدة.

وفي مصر وُلي كثير من الأسماء اللامعة مناصب كبرى في المحافل الماسونية، وكتب كثيرون عنها في الصحف، أمثال محمد توفيق يونس[١]، وعزيز ميرهم[٢].

ومما قاله أحمد ماهر عندما اختير أستاذًا أعظم (١٩٣٦م): إن الذين يفهمون حقوق الإنسان وضعوا - مستضيئين بما أنزل الله على أنبيائه لعباده ومسترشدين بوحي الضمير والقلب الإنساني - أساسًا اجتماعيًا لبناء الحياة الإنسانية وتعمير الكون وترقية الأمم وإسعادها، وأقاموا ذلك البناء على قواعد ثلاث من الحرية والمساواة والإخاء. إن الإنسانية الراشدة لها دعاة لا يكفون عن السعي والمطالبة بها، هؤلاء هم الماسون.

وقد استطاعت الماسونية وأتباعها بدعوات عريضة الوصول إلى ما حققته من أعمال، منها:

---

(١) المقطم (١٣/ ١٢/ ١٩٣٠م).
(٢) السياسة الأسبوعية، ١٩٣٢م.



١ - مساهمتها في الثورة الفرنسية، فأنشأت الجمهورية الفرنسية الأولىٰ، ورفع البرلمان الفرنسي علمها ورمزها.

٢- شاركت في بذر الديمقراطية في إنجلترا وأوروبا وأمريكا مشاركة فعالة علىٰ الأقل إن لم تكن هي صانعتها.

٣ - كما عملت علىٰ توحيد إيطاليا.

٤ - تأسيس نهضة تركيا الجديدة.

وقال (أستاذ أعظم كلي الاحترام): إنَّ الماسونية هي خلاصة تعاليم الكهانة المصرية ومجمع الألوسنيا في تراسيا وبلغاريا في الروملي، في نحو الجيل العاشر ق.م ومجمع الكبراء وتعاليم فيثاغورث، وتعاليم السكندافيين وجماعة الهرمندال، وأنها تسعىٰ لإقامة دين عالمي واحد لمحو الحدود القومية بين البشر، واعتبرها البعض من الدوافع الرئيسية لثورة أكتوبر الشيوعية.

ولقد تناثرت الكتابات المختلفة عن الماسونية، وكانت بؤرتها في جريدة المقطم (صروف ونمر ومكاريوس)، كما ألف مكاريوس كتابًا هامًا عن الماسونية، كذلك ألف جرجي زيدان كتابًا ضخمًا، وظلت هذه الصحف «المقطتف والهلال» تكافح عن الماسونية وتدافع عنها وتُشيد بها سنوات طوالاً قبل أن تنكشف مجموعة من الحقائق، منها بروتوكولات صهيونية، ومنها قيام إسرائيل نفسها كذُرْوَةٍ لتحقيق هذا المخطط، ولقد كتب إدريس راغب الذي رأس المحافل الماسونية في مصر في الثلاثينيات كتابًا أسماه (درجة العقد الملوكي)، تحدث فيه عن أهداف الماسونية، ومما قاله: «لما سمعنا أنكم عازمون علىٰ بناء هيكل أورشليم ثانية لإله بني إسرائيل أتينا نسألكم قبول مساعدتنا لكم في هذا المشروع الجليل، إنه لا يمكن لأجنبي عنا مهما تكن صفته أن يشتغل في هذا العمل المقدس».

وفي هذه المرحلة - مرحلة الثلاثينيات - كان الذين يصلون إلىٰ الدرجة العالية، درجة أستاذ أعظم، يعرفون الهدف، ومن هؤلاء سعد زغلول الذي أشارت جريدة المقطم في (١٤ من نوفمبر ١٩٣٦م) إلىٰ أنه بلغ أرقىٰ درجاتها، واستعان بها في مستهل جهاده علىٰ بعض نواحيه، كان يعرف هؤلاء العظماء: سعد زغلول، أحمد ماهر، عثمان مرتضىٰ، محمد رفعت أن الماسونية حركة يهودية عالمية تستهدف إعادة اليهود إلىٰ أرض الميعاد مستظلة بشعارات خلابة، مستندة أحيانًا إلىٰ ما دسه اليهود وما كتبوه بأيديهم في التوراة والمزامير، وقد تكشفت لهؤلاء أن السيف هو رمز للسيف الذي كان يحمله بنو إسرائيل عندما كانوا يبنون الهيكل والسور للمرة الثانية بعد سبي بابل ضد الذين كانوا يحاولون منعهم، وأن كلمة بناء أو البناء الحر، لا تعني البناء في عالم الإنسان لتقدم البشرية، بل تعني العمل علىٰ إعادة بناء هيكل سليمان، وأنَّ اندماج العضو في الماسونية معناه تخليه عن جنسيته وقوميته ليكون رفيقًا لليهود، ويضع في خدمة أهدافهم ليس كل إمكانياته بل رقبته أيضًا، وأن هدف المحافل لا يسيرها قادة مرتفعون عن الأغراض، بل يسيرها يهود صهيونيون لأغراض يهودية محضة، وأنَّ اليهود أصحاب المحافل هم الذين بذروا بذور الشيوعية في العالم الإسلامي والبلاد العربية، وقد حشدوا جميع أصحاب الأديان واستخدموها لتحقيق حلم اليهود، كما تَبينَّ أن الدكتور ولسون الذي وضع شروط معاهدة الصلح بعد الحرب العالمية الأولىٰ كان ماسونيًا.

وقد أشار دكتور أنيس صائغ في كتابه[1] إلىٰ أن النشاط الماسوني المحموم قد قاده خارج حدود مصر شخصيتان عربيتان هما: «إدريس راغب» الذي أسس حزب مصر الفتاة ١٩٠٨م، وأعلن مطالبه في رسالة وجهها إلىٰ البرلمان البريطاني طالب فيها ببقاء

(١) الفكرة العربية في مصر: ص ٦٠، ٦١.

الاحتلال البريطاني لحماية القومية المصرية، وهو الذي اجتمعت فيه رئاسات الهيئات الماسونية العاملة في مصر مدة ثلاثين عامًا، والثاني «محمد وحيد الألوتي» الذي أسس الحزب الوطني الحر بمقال حار، ودع به كرومر وبكىٰ عليه، كما كتب رسالة إلىٰ السير «إدوار جراي» امتدح فيها الاحتلال وطالب ببقائه[1]، وقد نشأ وترعرع في رحاب المقطم وبين فرسانه الثلاثة.

ولقد وجه المحفل الأكبر الوطني المصري برئاسة إدريس راغب نداءً (ليس إلىٰ المحافل الماسونية في فلسطين) بل إلىٰ الأهالي[2] يحثونهم فيه علىٰ تقبل اليهود، ومتبنيًا وجهة النظر الصهيونية التي تَدَّعِي أنها جاءت لتعمير فلسطين وتحضيرها، ونشر الرفاهية، وداعيًا إلىٰ التسليم بالواقع والاستسلام له، ومن ذلك قوله: «اذكروا أن الفرنساويين والإنجليز في بلاد كندا يتألف من عنصريهما المختلفين جيشًا وسلالةً، أمةٌ واحدةٌ تعيش أفرادها جنبًا إلىٰ جنب بسلام وأمان، وأن الألمان والفرنساويين والطليان يتآلف منهم بلاد سويسرا أمة واحدة متجانسة، يا أهل فلسطين تذكروا أن اليهود قد ركبوا متن الغربة فأفلحوا ونجحوا، ثم هم اليوم يطمحون للرجوع إليكم لفائدة وعظمة الوطن المشترك بما أحرزوه من مال وما اكتسبوه من خبرة وعرفان».

هذا وقد تكوَّن في فلسطين سبعة عشر محفلاً تتبع الشرق الأكبر المصري، منها محفل يافا ومحفل غزة، ومنها اثنا عشر محفلاً كان معظم أعضائها من اليهود الذين بلغت نسبتهم ٨٥ في المئة، وكانت الماسونية في فلسطين عاملاً هامًا في القضاء علىٰ المقاومة وقتل المعارضة العربية، في دعوتها إلىٰ السلام والوئام تمهيدًا للسيطرة الصهيونية الكاملة، وقد ذهب لطفي السيد ممثلاً للحكومة المصرية في احتفال الجامعة العبرية ١٩٢٦م، كما زارها ثلاثة أساتذة مصريين بحجة الوقوف علىٰ أساليب ومناهج

(١) المقطم: ٩ من فبراير ١٩٣٤م.

(٢) نشرته جريدة النظام: ١٩ من إبريل.

التعليم[1]. كما زار الدكتور وايزمان القاهرة، واستقبله رجال العلم والأدب، وتكلم في حفل الشاي الذي أقيم له في فندق الكونتنينتال: أصلان قطاوي باشا وعلي ماهر - وزير المعارف - وقد كشف حقائق الماسونية رجلان هما الدكتور أحمد غلوش والدكتور علي الزغبي.

إذا كنا نبحث عن العقبات والعوائق التي حالت بين الأمة الإسلامية وبين الانتقال من مرحلة اليقظة إلىٰ مرحلة النهضة، وتَعَثُّرها الشديد خلال القرن الرابع عشر، وجدنا أن الماسونية كانت عاملاً هامًا في هذا الصدد؛ فقد احتوت عددًا كبيرًا من المثقفين والنخبة والقادرين علىٰ توجيه المجتمع الإسلامي في هذه المرحلة، وخاصة طلاب الجامعات وفريقًا من علماء الإسلام والساسة والمثقفين والأطباء. فكان هذا عاملاً من عوامل تأخر النهضة لتخلف هؤلاء عن خدمة بلادهم[2].

ولقد كانت الماسونية تستهدف نشر آدابها ومفاهيمها وعقائدها عن طريق الصحافة والأدب والثقافة؛ لتكوِّن رأيًا عامًا يؤمن بالإباحية والإلحاد ويتفاخر بها، ويقتحم المجالات المختلفة غير هياب، ولقد عملت الماسونية كمدخل لأمرين خطيرين: للصهيونية وإقامة إسرائيل، ونشر الفكر التلمودي الإباحي الذي قدمه ماركس وفرويد وسارتر وغيرهم، وهم أصحاب النظرية المادية في الغرب ونظرية التفسير المادي للتاريخ، والأمر الآخر هو أنهم الممهدون للشيوعية والماركسية والاشتراكية؛ فقد كانت طلائع اليهود هي التي حملت إلىٰ البلاد العربية وتركيا وفارس بذور الفكر الماركسي، واستطاعت بنفوذ المحافل الماسونية فتح الطريق أمام انتشار هذا الفكر، فالماسونية هي التي فتحت الطريق أمام الفكرة الغربية المادية الإباحية التي أفرخت مفاهيم علم النفس والأخلاق والعلوم الاجتماعية الغربية والرأسمالية والديمقراطية

---

(١) الكشكول: ٩ من إبريل ١٩٢٦م/ ١٥ من أكتوبر ١٩٢٣م.

(٢) راجع: فضائل الماسونية: شاهين مكاريوس، وروح الماسونية: أحمد زكي أبو شادي.

والقومية والوجودية والفرويدية من ناحية والماركسية والاشتراكية والبلشفية من ناحية أخرىٰ.

ومن ثم؛ فقد حاصرت الفكر الإسلامي من الناحيتين، ولم تدعه يفلت من بين براثنها؛ فالمسلمون اليوم محاصرون بين الأيديولوجيتين، ولقد بلغ نفوذ الماسونية أنه لم يعد هناك من يتولىٰ منصبًا قياديًا في الغرب بشقيه إلا إذا كان ماسونيًا من الدرجة الثالثة والثلاثين.

وبذلك أخذت الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في إطار الفكر الماسوني الذي هو الفكر التلمودي مصوغًا في قوالب جديدة، ولكنه في أعمق أعماقه هو عبادة العجل الذهبي، وبناء إمبراطورية الرِّبَا العالمية.

وقد جاء ذلك بعد أن قامت الماسونية بتحقيق ثلاث انقلابات خطيرة:

الثورة الفرنسية في الغرب، والثورة البلشفية في روسيا، وإسقاط دولة الخلافة الإسلامية في عالم الإسلام.

وقد أشار الباحثون إلىٰ أن الغرض الحقيقي للماسونية هو السيطرة علىٰ العالم بعد إشاعة الانحلال الأخلاقي والتسلط علىٰ اقتصادياته، والعمل علىٰ إقامة دولة يهودية عالمية، وإعادة بناء هيكل سليمان، وقد مثل الماسون حركتهم بأفعىٰ تزحف رأسها من فلسطين لتبتلع العالم وقد بقي ذنبها في فلسطين، حتىٰ إذا ما التقىٰ رأس الأفعىٰ بذنبها يكون اليهود قد أطبقوا علىٰ العالم وسيطروا عليه بشتىٰ الوسائل ومختلف المظاهر، كما ثبت أن جميع دعاة الشيوعية، وخاصة في البلاد العربية، كانوا يهودًا، وأكثرهم بُعث من روسيا السوفيتية؛ فقد عرف أن ثلاثة من اليهود (جوزيف برجز) من بولونُيا (والياهو تيبر) من ليثوانيا (ونخمان ليتفنسكي) من روسيا جاؤوا إلىٰ بيروت عن طريق حيفا، وعملوا علىٰ تأسيس حزب شيوعي في سوريا ولبنان علىٰ أن

يكون تابعًا للحزب الشيوعي اليهودي في فلسطين. وقدم الإسكندرية يهودي روسي (جوزيف روزنتال)، وأنشأ محلاً لبيع المجوهرات، وأخذ وابنته شارلوت في الدعوة للشيوعية، وجاء بعدهما هنري كوريل، وإيلي شوارتز، وريمون دويك، كما قَدِمَ إلىٰ العراق من موسكو أحد الضباط الروس (بتروف) وتَسَمَّىٰ بطرس أبو ناصر، وأسس الحزب الشيوعي العراقي.

ورأينا زعماء الماسون في الدول العربية يدعون إلىٰ إقامة اتحاد يهودي عربي فيدرالي في فلسطين (وعلىٰ النحو الذي دعا إليه كمال حنبلاط)، وما كتبه محمد عبدالله عنان وطه حسين، وقد تفجرت كتابات في تمجيد القرامطة وثورة الزنج علىٰ أنها حركات ثورية وعدالة اجتماعية.

وقد كان القرامطة جماعة من فروخ المجوس واليهود، أرادوا القضاء علىٰ الإسلام، فلما صارت لهم دولة عاثوا في الأرض فسادًا، واستولوا علىٰ البحرين وهجر، قال عنهم ابن كثير: «إنهم فرقة من الزنادقة الملاحدة، أتباع فلاسفة الفرس، يعتقدون نبوءة زرادشت ومزدك - وكانا يبيحان المحرمات - والذين اشتدت شوكتهم سنة سبع عشرة وثلاث مئة، وتمكنوا من الوصول إلىٰ الكعبة بقيادة الطاهر الجنابي؛ فنهبوا الأموال وقتلوا الحجيج في رحاب مكة وشعابها وفي المسجد الحرام وفي جوف الكعبة، وقد أرجع ابن كثير وغيره من المؤرخين أصل القرامطة إلىٰ اليهود والمجوس، وذكروا أنه بعد أن أظهر الله الإسلام وبسط رواقه علىٰ أرض فارس تشاور جماعة من المجوس والمزدكية وشرذمة من الثنوية وطائفة من ملاحدة الفلاسفة وبعض اليهود في حيلة يدفعون بها من نحر الإسلام، ويعملون بها علىٰ تشتيت شمل المسلمين؛ فاتفقوا علىٰ انتحال مذهب يستمد أصوله من أصول الفلاسفة وقواعد المزدكية وعقائد الثنوية واليهود».

وعلىٰ مفاهيم هؤلاء الباطنية في اتباع الشهوات وانتهاك الحرمات، نشأت منظمات الماسونية لإغراء وخداع الكثيرين من كبار الصحفيين والكتاب والمؤلفين لخدمة أهدافهم، وقد كانوا وراء مذبحة استانبول التي ذبح فيها ٦٨ ألف مسلم عام ١٩٠٨م، ووراء حرب البلقان ١٩١٢م، وهي التي أثارت الحرب العالمية الأولىٰ وهم مدبرو الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد، وهم مزيلو الخلافة الإسلامية، وتؤكد كل المصادر أن اليهودية العالمية لا تزال هي القوة المحركة الكامنة وراء الماسونية. والأساتذة الكبار الحقيقيون في المحافل الماسونية هم الممثلون للجمعيات اليهودية السرية، والدليل الذي لا يقبل الدحض علىٰ صلة اليهودية بالماسونية هذه الفقرات التي تضمنتها بروتوكولات حكماء صهيون:

«وإلىٰ أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلىٰ السلطة، سنحاول أن ننشئ ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار في جميع أنحاء العالم، وسنجذب إليها كل من يصير أو يكون معروفًا بأنه ذو (روح عامة)... هذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسية التي سنحملها علىٰ ما نريد من أخبار، وسوف نركز هذه الخلايا تحت قيادة واحدة معروفة لنا وحدنا، وستتألف هذه القيادة من علمائنا».

تكشف التصريحات التي أُثرت عن زعماء الماسونية خلال هذا التاريخ الطويل الذي يمتد إلىٰ قرنين من الزمان ونيِّف إلىٰ أن الهدف هو إشاعة روح الإلحاد والإباحية في العالم للقضاء على الدين، وذلك تمهيدًا لقيام الحكومة اليهودية العالمية التي ستكون لا دينية؛ ولذلك فإن كل الدعوات والكتابات التي ترمي إلىٰ هذه الوجهة هي ماسونية في الأصل، سواءٌ أكان أصحابها يعرفون ذلك أم أنهم يُستخدمون من وراء عقولهم، وهي في سبيل ذلك تدعو إلىٰ إثارة روح الشك والارتياب والتهم والسخرية بكل القيم الأساسية التي جاءت بها الأديان، وخاصة بالنسبة للالتزام الأخلاقي والمسؤولية الفردية والبعث والجزاء الأخروي، ومن هنا جاءت تلك المذاهب التي تدعو إليها

مدرسة العلوم الاجتماعية والجبرية الاجتماعية.

وإذا نظرنا إلىٰ حركة الفنون والآداب والثقافة والمسرح في العالم الإسلامي اليوم نجد هذه الوجهة واضحة تمامًا ومسيطرة تمامًا، ونجدها تزحف بشدة لتسيطر علىٰ النفسية والعقلية الإسلامية بطرح مفاهيم فاسدة تختلف اختلافًا واضحًا وعميقًا مع مفاهيم الإسلام، نرىٰ ذلك واضحًا في المسرحيات والأغاني والفنون والشعر والقصة، وفي مترجمات الفكر الغربي، وخاصة مفاهيم اللامعقول واللافن واللامسرح، وغيرها من مطروحات زائفة تخدع شبابنا وتؤثر في عقليته ونفسيته، وتطرح معها أسلوبًا للحوار القصصي غاية في البذاءة.

ولقد كشفت الماسونية عن أن أهدافها ترتبط بثلاث شعب في المجتمع من أخطر الشُّعب، تلك هي الطفولة والشباب والمرأة، وهي دعوة خطيرة ترمي إلىٰ تربية الأطفال بعيدًا عن الدين، وإغراء الشباب بالجنس، ودفع المرأة إلىٰ ساحة الرقص والتحلل.

ومن ذلك القضاء علىٰ روح العسكرية وعلىٰ مفهوم الجهاد الإسلامي وعلىٰ أصالة الفقه والتاريخ وقتل روح المقاومة والمرابطة في نفوس شباب الأمة الإسلامية؛ حتىٰ تكون قادرة علىٰ احتواء هذه المجتمعات، والسيطرة عليها في الوقت الذي حددته، وهو عام ١٩٩٢م، أي بعد مئة عام من إعلان البروتوكولات.

ونحن نرىٰ تزييفات كثيرة مطروحة الآن في أفق الفكر الإسلامي، تحاول أن تفسد الأصول الأصيلة لعقائد الإسلام وشريعته وأخلاقه، هذه الأفكار تخدم إلىٰ حد كبير مفاهيم الماسونية وأهدافها العليا، فإن الماسونية تعمل علىٰ تزييف الأديان الأخرىٰ لتفتح الباب علىٰ مصراعيه لإعلان اليهودية وانتصارها - علىٰ حد تعبير الجنرال جواد رفعت آتلخان في كتابه «أسرار الماسونية» - وقد استفاد اليهود من بساطة الشعوب وحسن نيتها، فدخلوا في الماسونية، واحتلوا منها المراكز الممتازة، وبذلك

غدت وسيلة اجتماعية وسياسية وثقافية لتحقيق أهداف اليهود، وقد خرج السياسي الإنجليزي المشهور بنيامين إسرائيل ١٨٤٤م بقوله: إنَّ الذين يديرون دفة السياسة في العالم اليوم ليسوا الذين هم في سُدة الحكم ظاهرًا، وإنما هم أولئك الذين يكمنون وراء الكواليس».

وهكذا نرىٰ أن عقد الماسونية كان عقدًا خطيرًا، وكان مؤثرًا بعيد المدىٰ في تأخير نهضة المسلمين.

يقول جان مينو في كتابه «القوىٰ الخفية التي تحكم العالم»:

من الجمعيات التي نالت شهرة واسعة الجمعية الماسونية: هذه الجمعية لا تدين بالطاعة لجهة واحدة.

ولا شك في أن الماسونية كان لها نفوذ سياسي كبير، وقد دفع هذا النفوذ بعض المؤرخين إلىٰ الاعتقاد بأن الجمهورية الثالثة في فرنسا لم تقم إلا بمساعدة الماسونية، كما ساعدت المتمردين الأمريكيين علىٰ حمل لواء الثورة ضد الإنجليز حينما كانوا مسيطرين علىٰ أمريكا.

ولا يُنْفَىٰ عن الماسونية قيامها بكثير من المؤامرات التي كانت تدبر في الخفاء ضد دولة أو أخرىٰ، ومن الأمور الثابتة والمعروفة لدىٰ المؤرخين أن مؤامرة ماسونية كانت هي الشرارة التي أشعلت تلك الثورة، ولكن مما لا شك فيه أن الأخوة الماسونية والمبادئ الماسونية قد لعبت دورًا كبيرًا في المرحلة الأولىٰ من تلك الثورة. ورأي آخر يقول: إن الماسونية الدولية التي كانت هي المسؤولة عن قيام الحرب العالمية الثانية، هذا الرأي له صلة بالأسطورة الشائعة عن المؤامرة الثلاثية: اليهودية، الماسونية، البلشفية، وكانت هذه أحد المواضيع الأساسية للدعاية الاشتراكية - القومية.

ويؤكد أصحاب هذا الرأي أن المجلس الماسوني الدولي (الذي كَوَّنَهُ المحفل

الماسوني التشيكي الأكبر في براج - أغسطس ١٩٣٦م) كانت له قيمة مجلس الحرب حين قرر إشعال حرب ضارية ضد الألمان، وقد وصلوا إلىٰ جعل فرانكلين روزفلت واحدًا من رسل الماسونية وأيديولوجيتها والمسؤول الأكبر عن موجة الحرب التي اجتاحت العالم عام ١٩٣٩م.

ومثال آخر: أسطورة الحكومة الجماعية، ومن خلال شكلها المتطرف كونت جمعية دولية سرية هدفها الإعداد للإطاحة بالنظم البرلمانية في العالم، وقد لعب الفرع الفرنسي المسمىٰ بحركة الحكومة الجماعية من أجل تكوين الإمبراطورية العالمية دورًا هامًا علىٰ أعلىٰ المستويات في حكومة فيشي.

ومن الأمثلة: جمعية المافيا، ونشاطها ليس مقصورًا علىٰ النواحي السياسية، بل امتد إلىٰ كثير من الحوادث الإجرامية التي كان لها دويّ كبير، وبعض المؤرخين يدلون بآرائهم التي يقيمونها علىٰ مجرد الاستنتاج بوجود علاقات مباشرة بين بعض الجمعيات السرية والحوادث الدولية، ومن ذلك مثلاً ما قيل عن الدور الذي لعبته الجمعية الماسونية الفرنسية في إشعال نار الثورة في تركيا سنة ١٩٠٨م، والدور الذي لعبه الماسون الأمريكيون في التمهيد للثورة التي اندلعت عام ١٩١١م.

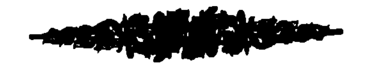
ومن الدراسات الهامة كتاب الجنرال جواد رفعت آتلخان (أسرار الماسونية)، وتكاد تجمع معظم الدراسات الماسونية علىٰ:

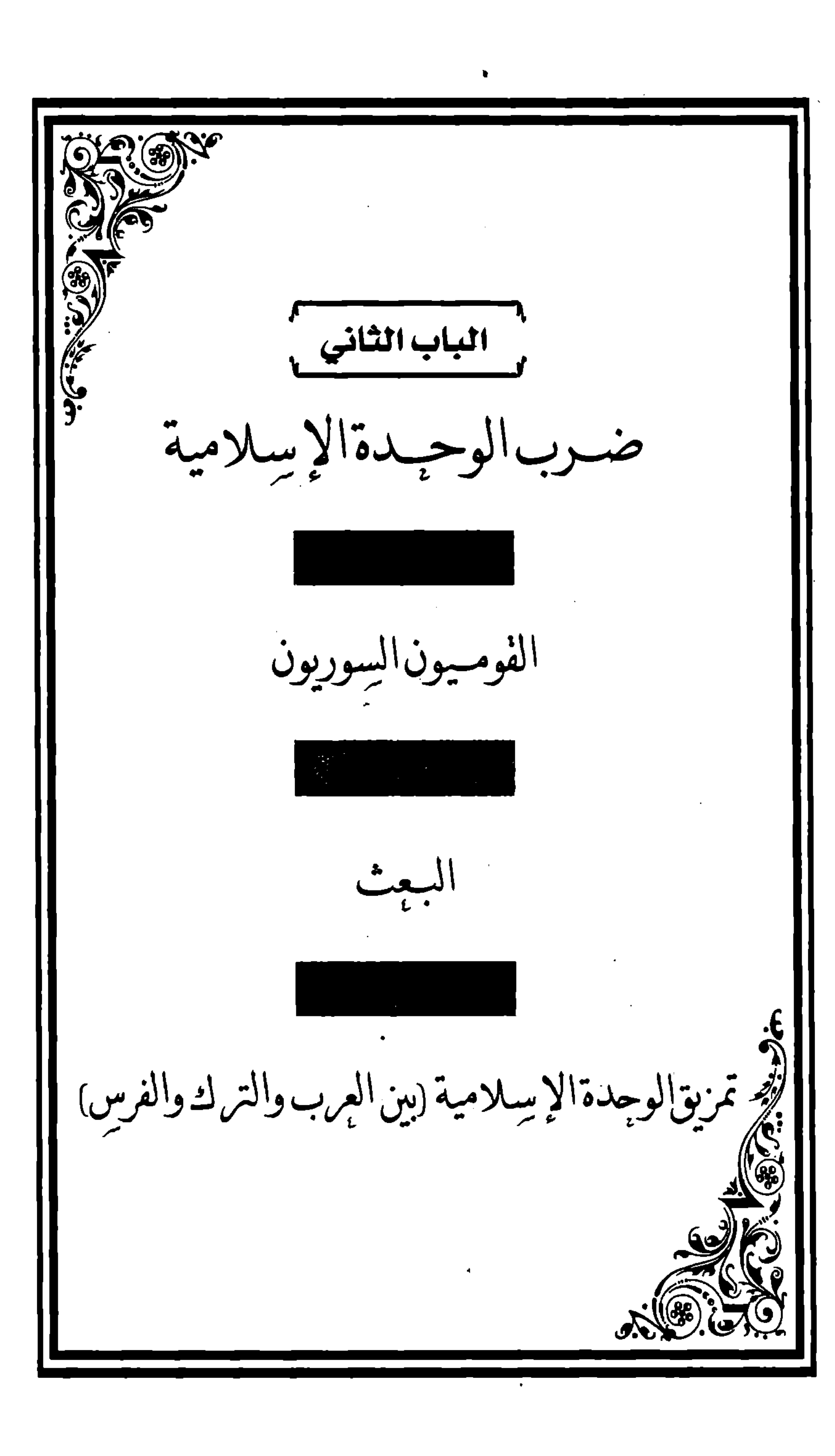
(أولاً): أن الماسونية هي التي دبرت للثورة الفرنسية في محافلها، وأنها صاحبة فكرة حرية العقيدة وشن الحرب علىٰ كافة الأديان، والدعوة إلىٰ فصل الدين عن الدولة.

(ثانيًا): أن الماركسية وليدة الماسونية، حيث إن كارل ماركس وإنجلز من ماسونيي الدرجة الحادية والثلاثين، ومن منتسبي المحفل الإنجليزي، وأنهما كانا من الذين أداروا الماسونية السرية، وبفضلهما أُصدر البيان الشيوعي المشهور، وأن الماسونية

هي التي هيأت الجو للثورة الماركسية، وعلى الماسونيين أن يعملوا بالاشتراك مع العمال؛ لأن الماسونية تملك القوة الفكرية.

(ثالثًا): قامت الماسونية بدور خطير في إسقاط السلطان عبد الحميد وإزالة الخلافة العثمانية واحتلال فلسطين.





الباب الثاني

ضرب الوحدة الإسلامية

القوميون السوريون

البعث

تمزيق الوحدة الإسلامية (بين العرب والترك والفرس)

الباب الثاني

ضرب الوحدة الإسلامية

إن الهدف الأساسي للحملة التغريبية الصهيونية الماركسية هو القضاء على مفهوم الإسلام الجامع بوصفه دينًا ومنهج حياة ونظام مجتمع، وكان العمل لذلك يقتضي ضرب مفهوم الإسلام بإحلال مفهوم العلمانية والتنظيمات الديمقراطية الغربية بدلاً من النظم الإسلامية في السياسة والاقتصاد، وإحلال مفهوم الوطنية والاقليمية والقومية الضيقة بدلاً من الوحدة الإسلامية، ولذلك فقد كانت وحدة الجماعة الإسلامية ممثلة في أكبر تجمع لها، وهو الدولة العثمانية (التي كانت تسعىٰ لجمع شمل العالم الإسلامي كله وحدة جامعة في مواجهة الزحف الاستعماري تحت قيادة الخلافة الإسلامية) هو الهدف الأول والأكبر للمؤامرة التي جرت لإسقاط الخلافة حتىٰ تبعثر جمع المسلمين، وقد حالت القوىٰ الأجنبية خلال خمسين عامًا وإلىٰ اليوم دون عودة المسلمين إلىٰ الوحدة الجامعة، سواءٌ عن طريق تطبيق النظام الإسلامي أو عن طريق عودة الجامعة الإسلامية الممثلة في الخلافة أو قيام أي وحدة ثقافية أو سياسية.

وكانت الدعوة إلىٰ الإقليمية من أخطر الحواجز التي حالت دون التقاء الأمة الإسلامية علىٰ وحدة فكر من حيث انبعثت عن طريق التعليم والثقافة نزعات تُعْلِي من شأن وحدات التاريخ القديم وتبعثه وتدرسه وتحتفل به، وخاصة فيما يتعلق بالحفريات الفرعونية في مصر والآشورية في العراق والفينيقية في لبنان؛ بهدف الحيلولة دون الالتقاء علىٰ الوحدة التي أقامها الإسلام بعد ذلك من حيث وقع الانقطاع الحضاري بين تاريخ العرب وبين هذا التاريخ الوثني السابق، الذي لم تبق منه أي علاقات ثقافية أو اجتماعية

مهما حاول دعاة الفلكلور والإنثروبولوجيا؛ فقد جاء الإسلام لينهي هذا الماضىٰ كله ويضع حدًا فاصلاً بينه وبين التاريخ الذي بدأه التوحيد، كذلك فقد عمدت القوىٰ الأجنبية المعادية للدعوة الإسلامية في طرح مفهوم للقومية العربية مفرغًا من حقيقة الإسلام واللغة العربية، ومستمدًا من مفاهيم الأمم الغربية، وكانت عملية التمزيق الإقليمي والقومي من أبرز الأخطار التي واجهتها الوحدة الإسلامية الجامعة، وما تزال من العقبات الخطيرة التي يجب إزالتها، وقد تبين للمسلمين والعرب خلال هذه التجربة الأخيرة والواسعة فساد هذه التجربة علىٰ النحو الذي جرت به منفصلة عن مفهوم الإسلام وعن ترابط العروبة والإسلام علىٰ النحو الذي شكلت به.

وعلىٰ الرغم من سقوط التجربة القومية العربية التي حمل لواءها البعث والناصريون وما تكشفت عنه من حَجب متعمد للفكرة الإسلامية، ومحاولة لإقامة حواجز ضخمة بين أجزاء الأمة العربية، ودفعها إلىٰ ردة خطيرة نحو الإقليمية ذات الطابع العنصري المتمثل في الفرعونية والفينيقية، فإن هناك محاولات لم تتوقف لإحياء هذا التيار يقوم بها جماعات من العلمانيين والشيوعيين وخصوم الإسلام والعرب في مواجهة نماء الصحوة الإسلامية ومفهوم الإسلام الجامع، والدعوة إلىٰ الوحدة الإسلامية التي لا تعادي المفهوم العروبي، ولكنها تجعله داخل دائرتها ووفق مفهوم الإسلام له، مبرءًا من العنصرية والاستعلاء مفتوحًا علىٰ الأمم الإسلامية.

ما أظن أن هناك قضية كانت بالغة الأثر في تمزيق وحدة الأمة الإسلامية، وتمكين النفوذ الأجنبي من السيطرة عليها، كما كانت قضية القوميات وما جرىٰ حولها من دعوات للاستعلاء بالجنس أو العنصر أو الوطن. كانت هذه الدعوة هي المدخل الحقيقي للسيطرة الاستعمارية، حيث بدأت من الدولة العثمانية نفسها التي كانت قائمة علىٰ الوحدة بين العرب والترك، ثم امتدت إلىٰ الصراع بين الفرس والترك، ثم تمزقت الوحدة نفسها بالإقليميات، واستعلاء التاريخ القديم السابق للإسلام، ومن ثم

كانت الآثار بعيدة المدىٰ التي حاولت تفسير التاريخ الإسلامي تفسيرًا قوميًا وتفسيرًا إقليميًا، ودخلت مغالطات كثيرة في العلاقات بين ما أطلق عليه الجنسية والدين، وكان للتيار القومي الغربي الذي فرَّق وحدة أوروبا المسيحية، قد نقل إلىٰ أفق الأمة الإسلامية مع حملات الاستعمار والتبشير، وشجع مع ذلك محاولات البلاد المحتلة مقاومة النفوذ الأجنبي بإحياء تاريخها الوطني دفاعًا عن وجودها، وأثار ذلك ما قامت به حملات الآثار من حفريات تريد بها تأكيد التاريخ القديم، وذلك ما قامت به من إحياء التاريخ الفرعوني والفينيقي والآشورية والبابلية في المنطقة العربية كلها.

ولقد كان إحياء مفهوم العنصرية (الدم والعرق) عملية خطيرة أشد الخطورة علىٰ وحدة الفكر الإسلامي التي صنعها الإسلام خلال أربعة عشر قرنًا، حيث أجج هذه المعركة النفوذ الأجنبي وغذاها وزاد لهيبها واشتعالها، وقد غذىٰ هذه الحركة ذلك التيار الجديد الذي أخذ ينمو في قلب البلاد العربية وهو الجنسية اليهودية منذ وقت طويل في خطة لاحتواء الدولة العثمانية، والتي استطاعت أن تسيطر علىٰ أجزاء من فلسطين بعد وعد بلفور، وقد جرىٰ كثير من الباحثين وراء هذا التيار ظنًا منهم أنه عامل من عوامل النهضة، وغفلوا عن أن التقدم الإسلامي لا يستطيع أن يحرز نجاحًا حقيقيًا إلا بمفاهيم إسلامية وفي إطار الوحدة الإسلامية التي أقامها القرآن، والتي لا تعارض الفوارق القومية أو الإقليمية، ولكنها لا تعلي من شأنها، ولا تجعلها مصدر خصومة أو صراع بين القوميات الأخرىٰ، بل إن الإسلام يفتح الآفاق أمام الإخاء الإنساني، وهو ما أسماه القرآن التعارف (لتعارفوا).

ويرىٰ كثيرون أن القومية العربية كانت وليدة الصهيونية والنفوذ الغربي والشيوعية، التي تعاونت منذ فجر القرن الرابع عشر الهجري لتدمير الخلافة العثمانية؛ بهدف إقامة دولة إسرائيل علىٰ أنقاضها. فقد قررت الصهيونية تدمير الخلافة التي حالت بينهم وبين مخططاتهم وأجبرتهم علىٰ الخروج، وقد استعلت أدوات التبشير المسيحي

والصهيوني في لبنان والقاهرة واستانبول وأشعلت نار القومية العربية والتركية، ويرىٰ الأستاذ أحمد عبده في بحث مطول أن زعماء الدعوة إلىٰ القومية العربية هم فارس نمر وإبراهيم اليازجي ونجيب العازوري. ومنها نبتت فكرة علي ناصر الدين الذي يقول في مؤلفاته: إنَّ العروبة دين عندنا نحن القوميين العرب من مسلمين ومسيحيين؛ لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية، مع دعوتها إلىٰ أسمىٰ ما في الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات.

وقال آخر: إنَّ الوحدة العربية يجب أن تنزل من قلوب العرب أينما كانوا، فتزول وحدة الله من قلوب المؤمنين، ويقول محمود تيمور: «إنَّ القومية العربية هي نبوة هذا العصر. وقد أراد زعماء القومية العربية أن تحل العروبة في قلوب الناس محل الدين والإسلام لتكون ديانة وعقيدة وفكرًا وفلسفة مستقلة بذاتها، كما يقول عمر فاخوري: «لا ينهض العرب إلا إذا جعلوا العروبة والقومية عقيدة وديانة يتغنون بها ويحاربون كل ما سواها خاصة الإسلام»[1]. وقد حارب العرب الإسلام أملًا في أن يعيشوا مع اليهود والنصارىٰ بسلام، فكيف خدعت المسيحية والدول الغربية العرب، وتآمرت المارونية مع الصهيونية في رحاب لبنان.

وفي جولة سابقة عندما دخلت القوات الغربية في الحروب الصليبية ١٠٩٩م إلىٰ سواحل الشام ولبنان رحبت بها المارونية، وتعاونت معها للقضاء علىٰ الإسلام وتدمير القدس وفلسطين، كذلك فقد روع آلاف من العرب في كل مكان حينما هاجم التتار بغداد ودمشق، فقد استقبل نصارىٰ الشام ولبنان جنكيز خان خارج مدينة دمشق، وقدموا له الهدايا، وكان معهم صليب يحملونه علىٰ رؤوس الناس ومن حاشية جنكيزخان عدد كبير من المسيحيين من بينهم قائده «كتبغا»، وقد أيد المسيحيون في

---

(١) عمر فاخوري: كيف ينهض العرب؟.

أوروبا التتار؛ لأن زوجة هولاكو مسيحية، وفَكَّرَ ملوك أوروبا في تأليف حلف التتار والمسيحيين لتدمير البلاد والإسلام، وقد دعا (لويس) رجال التتار إلىٰ فرنسا، حيث فاوضهم علىٰ عقد اتفاقية عسكرية تنص علىٰ أن يقوم طرفاها بعمليات حربية تدميرية علىٰ الخلافة الإسلامية، وقد اعترف أعداء الإسلام بذلك، كما يقول الأسقف (دي سيل) في كتابه عن الكنيسة والحملات الصليبية: «لقد كانت الحملة التترية علىٰ الإسلام والعرب حملة صليبية بالمعنىٰ الكامل لها، وقد هلل لها الغرب وارتقب الخلاص علىٰ يد هولاكو وقائده المسمىٰ كتبغا، الذي تعلق أمل الغرب به ليحقق له القضاء علىٰ المسلمين، وهو الهدف الذي أخفقت في تحقيقه الجيوش الصليبية. كذلك فقد دمرت النصيرية والمارونية فكرة العروبة في بيروت، وتعاونت مع جيوش إسرائيل علىٰ إحراق وتدمير بيوت العرب المسلمين، والهدف هو دفن الأمة العربية والإسلام. لقد دفن جثمان القومية العربية معها، وها هي مجزرة الأمة العربية بخنجر الصهيونية والمسيحية الصليبية تبدأ من جديد في الشام أو عمان أو القاهرة، وإن صنم القومية العربية نحتته الصهيونية والصليبية في هذا القرن لتدمير الخلافة الإسلامية وقيادتها للأمة العربية، وانخدعت الأمة العربية بشعارات الجاهلية المعاصرة، وبدأت تعبد صنم العروبة في سبيل إرضاء اليهود والنصارىٰ.

والظاهرة الواضحة في هذا القرن أن الأمة بدأت تعبد أصنام القومية والاشتراكية، ودمرت العروبة في لبنان. إنَّ اليهود بعد أن دُمِّرَت ديارهم خلال خمسة آلاف من السنين رجعوا إلىٰ دينهم ووحدوا صفوفهم تحت علم التوراة، وجندوا جنودهم لاسترداد مقدساتهم في فلسطين، وأحيوا لغتهم البعيدة، ودعمتهم الصليبية الحاقدة، ولو آمنت الصهيونية بالقومية لخابت وخسرت وانقسمت إلىٰ أكثر من مئة دويلة؛ لأن أهلها من جنسيات وقوميات لا حصر لها، ولكن التوراة والقدس جمعتهم تحت علم واحد، وأصبح يعلن كل إسرائيلي أن القدس هي روح إسرائيل فلا إسرائيل بلا

قدس. وبدأ بيجن المجازر منذ عام ١٩٤٨م في صورة منظمة وحشية، فقتل ملايين من أطفال العرب ونسائهم وشيوخهم وشبابهم الأبرياء، أما الدول العربية فهي تنتظر دورها كالأغنام التي تساق إلىٰ المجازر. إنَّ الصهيونية نجحت في مخططها بعدما قامت الدول الغربية بتدمير وحدتها السياسية الممثلة في الخلافة العثمانية، وقالت: إنَّ فلسطين للفلسطينين، وهكذا نجحت الصهيونية في تقسيم الشرق الأوسط إلىٰ دول وإمارات حبستها في سجون القومية، فإذا أرادت العرب أن تسترد عزها ومجدها وكرامتها ووحدتها فلا سبيل لها إلا بالعودة إلىٰ الإسلام والاعتصام بكتابها والجهاد في سبيله ومحاربة القوميات والوطنيات والعروبة والاشتراكية وغيرها من الأصنام التي سلطها عليها اليهود والنصارىٰ والشيوعيون».

انتماء مصر إلى الفرعونية أم إلى أوروبا؟

هل يمكن أن تكون شخصية مصر العربية الإسلامية موضع شك أو تساؤل في انتمائها العربي الإسلامي: وخاصة بعد أن تحدث أئمة المؤرخين عن ظاهرة «الانقطاع الحضاري» بين ما قبل الإسلام وما بعد الإسلام، تلك قضية أثارها أتباع التغريب والاستشراق والشعوبية منذ قديم، وتكشف وجه الحق فيها منذ وقت بعيد، ولكن هذه الدعوىٰ مع عديد من تلك الدعوات المسمومة ما تزال كلما تموت يحييها خصوم الإسلام ويجددونها، في محاولة لإغراء الأجيال الجديدة بها، ولقد ماتت الفرعونية منذ وقت بعيد لأنها لم تكن دينًا، ولم تكن عصبية، ولكنها كانت مرحلة من تاريخ مصر، قد انقضت ولم تترك لغة ولا تراثًا ولا أدبًا شعبيًا، ولقد حاول خصوم الإسلام إيجاد مثل هذه العوامل التي تقوم عليها الدعوات فعجزوا.

يقول أحمد بهجت: هل يمكن أن يفخر أحد المصريين اليوم بالانتماء إلىٰ المومياوات المحنطة وبخور الدجل الفرعوني المتأله، هل يفضل أحد المصريين اليوم

هذا التقهقر إلىٰ الوراء علىٰ ثقافة العقل المسلم ودوره كخليفة الله علىٰ الأرض، لا أظن أن أحدًا يتردد في الجواب. إنَّ عروبة مصر وإسلامها حتمية واقعية إلىٰ جوار أنها واقع تاريخي، إن عدد أفراد الشعب المصري يزيد علىٰ أربعين مليونًا من المسلمين والأقباط واليهود، وهم جميعًا يتكلمون اللغة العربية وليس أحد يتكلم اللغة الفرعونية أو اللغة الفارسية أو اللغة التركية، واختارت مصر الإسلام منذ ما يقرب من ألف سنة، ولعبت دورها كأمة مسلمة عربية علىٰ امتداد ألف سنة، ومثلما أن مصلحة مصر في الآخرة تفرض عليها أن تكون مسلمة في الدنيا؛ فإن واقع مصر فرض عليها الانتماء للعرب.

ويتساءل: ما هو موقفه أمام رؤية تمثال فرعون؟ ويقول: أحس أنني أمام ابتسامة ساخرة تطل من وراء التمثال، فرغم كل هذه الفترة فإن العقل المسكين كان غريقًا في أوحال الوثنية. أي مأساة أن تكون عابد هذا التمثال عظيم المقدرة ويكون أسيرًا في نفس الوقت لفكرة حمقاء هي ألوهية الفرعون، أي ألوهية الفرعون، أو ألوهية العجل أبيس؟

هل المطلوب منا اليوم بفكرة (فرعونية مصر) أنْ نعود إلىٰ عبادة العجول؟ أعتقد أن هذا أمر مستبعد ولا يطوف بخيال أحد. لقد كبر المصري، وانتقل من عبادة الفراعين والعجول والشمس والقمر إلىٰ عبادة إله ليس كمثله شيء، وهذا هو انتماء مصر الحقيقي، وهذا دورها الحضاري وهويتها الإنسانية في الوقت نفسه.

إن انتماء مصر إلىٰ الفرعونية هو دعوة لعبادة الماضي أو عبادة أسوأ ما في الماضىٰ. إنَّ الهوية المعتبرة في ميزان الله هي الوجدان الديني أو الإيمان، أو اتباع تعاليم الرسالات. هذه هي الهوية التي نراها جديرة بشرف العقل الإنساني، والحضارة التي تنتمي إليها مصر هي حضارة الإسلام، ولهذه الحضارة ننتمي باختيارنا الحر، والانتماء اختيار

مطروح على العقل، وبهذا الانتماء نكون قد اخترنا المستقبل. إنَّ الفرعونية مومياء معروضة في قفص زجاجي عن رقم من أرقام المتحف. أما الإسلام فآفاق لم تستكمل ارتيادها بعد. الفرعونية هي الماضي، والإسلام هو الحاضر والمستقبل. الفرعونية وثنية والإسلام توحيد. الفرعونية تاريخ، أما الإسلام فقيمة عليا من قيم الوجود الإنساني، والإنسان لا ينتمي إلى التاريخ، والتاريخ هو الذي ينتمي إلى الإنسان. أما الإنسان فينتمي إلى القيم، ونحن نختار قيم الإسلام».

وإذا كان الدكتور حسين فوزي ولويس عوض وتوفيق الحكيم يتحدثون عن انتماء مصر إلى الفرعونية، فإن هناك من يدعو إلى انتماء مصر إلى أوروبا والغرب، ذلك هو الدكتور طه حسين وثلة أخرى، منهم محمود عزمي وسلامة موسى.

هؤلاء الذين يدعون إلى أن يكون انتماء مصر انتماءً غربيًا أوروبيًا في التعليم والثقافة وفي الحكم والسياسة، في الاقتصاد، والاجتماع، والتشريع.

ومن اقتحامات طه حسين الغريرة الضالة: ذلك الاقتحام الذي أعلن أن مصر تنتمي إلى الغرب قديمًا وحديثًا، وبأن مصر يجب أن تنتمي إلى الغرب في المستقبل حضاريًا وثقافيًا. أما علاقة مصر بالشرق فإن طه حسين يرى أنها قد تكون موقعًا جغرافيًا، وقد تكون مرحلة عابرة في تاريخها.

وليس من شك أن طه حسين كان يدعو إلى دعم مذهب المتوسطية الذي كانت فرنسا وإيطاليا تدعوان إليه وتريدان أن تدخل العالم الإسلامي كجزء من حضارتها بالاحتواء العالمي، وما دعوى ثقافة البحر الأبيض المتوسط إلا دعوة مسمومة تستهدف إخضاع الفكر الإسلامي والعربي للمسيحية الغربية والفكر الوثني اليوناني والروماني القديم، وكانت فرنسا في هذه الفترة مسيطرة على تونس والجزائر ومراكش وسوريا ولبنان، فلم يكن هناك غير مصر حتى تكتمل دائرة الاحتواء الاستعماري الفرنسي بمختلف مذاهبه

في التغريب والغزو الثقافي.

ولقد كانت هناك دعوىٰ باطلة رفضها رجال حركة اليقظة الإسلامية؛ هي أن العرب والمسلمين اقتبسوا منهج أرسطو، وهو لب الفكر اليوناني القديم، في دراساتهم، ولذلك فلا ضير - والفكر الأوروبي الحديث ربيب الفكر اليوناني القديم - أنْ يأخذه العرب ويتبعوه تبعيتهم للقديم، وذلك قول مضلل؛ فإن علماء الإسلام لم يقبلوا نظرية أرسطو ولا الفكر اليوناني الذي ترجم إليهم لحظة واحدة، وجاهدوا هذه السموم، وخاصة ما يتعلق بنظرية الأصنام اليونانية وما يرتبط بها من دعاوىٰ، وأقام الإمام ابن تيمية منهجًا للمنطق استمده من القرآن، وعُرف أن الفقه الإسلامي هو فلسفة المسلمين، وأن الإمام الشافعي صاحب علم أصول الفقه هو بمثابة أرسطو الإسلام.

دعويان آثارهما النفوذ الغربي الاستعماري في وجه الوحدة الإسلامية: الإقليمية والعنصرية، وقد حاولوا تصور الإسلام علىٰ مفهوم الدين الغربي، تصورًا لاهوتيًا مقصورًا علىٰ علاقة الإنسان وربه، بينما يتميز الإسلام بأنه منهج حياة ونظام مجتمع، ولقد جرىٰ كُتَّاب عرب وراء هذا المفهوم القاصر، وحاولوا تصوير الإسلام علىٰ أنه دين في مواجهة العروبة أشبه بالمسيحية في وجه القومية الأوروبية، وحاولوا أن ينتحلوا لذلك أدلة وأسبابًا تعلموها من كُتَّاب الغرب، ولكن ذلك كله لم يلبث أن سقط؛ لأنه لم يكن قائمًا علىٰ أساس علمي صحيح أو علىٰ فهم حقيقي للإسلام.

ولقد تعالت في فترة ارتفاع المد القومي صيحات ضالة مضلة، فمنهم من ذهب إلىٰ تفسير التاريخ الإسلامي علىٰ أنه تاريخ قومي عربي، ومنهم من أنكر وصف الإسلام بأنه دين، وأبعده عن مفهوم الوحدة القومية، ومنهم من ذهب إلىٰ أبعد من ذلك حين وصف الإسلام بأنه عنصر تآمر علىٰ القومية العربية، وذلك راجع إلىٰ أن هؤلاء جميعًا اعتمدوا المفهوم العلماني الغربي الوافد لكلمة الدين، ووضعوا الإسلام في محاذاة

المسيحية الغربية في التصور والحكم، ولقد كانت هذه المحاولات كلها ترمي إلىٰ احتماء الوحدة العربية التي لم تستطع أن تحقق نجاحًا؛ لأنها انفصلت عن مقدماتها ونتائجها.

ولقد كان مؤرخو الإسلام والعرب في العصر الحديث يفهمون العروبة علىٰ أنها جزء من الإسلام، ويؤمنون بأن الحركة العربية التي بدأت بعد سقوط الخلافة العثمانية إنما هي مرحلة علىٰ طريق الوحدة الإسلامية، حتىٰ جاء ساطع الحُصْري ودعاة القومية اللادينين، فقدموا ذلك المفهوم الظالم الكاذب؛ مفهوم استقلال العروبة عن الإسلام وسبقها له، واعتمادها علىٰ اللغة والتاريخ، وارتباطها بالدعوات المستحدثة من اشتراكية وحرية وغيرها، في محاولة لتقديم مفهوم «مضلل» و«ملفق» يهدف إلىٰ ضرب العمود الفقرىٰ لأي وحدة عربية، وهي الإسلام فكرًا والعالم الإسلامي أمةً.

ولقد رأىٰ هؤلاء كيف انهارت هذه الدعوىٰ من أساسها، وتبين زيفها وفساد أسسها، وانكشف تلفيقها وبعدها عن الفطرة، وكيف لفظها الضمير العربي الإسلامي؛ لأنها قد خرجت عن طبيعتها كجزء من الوحدة الإسلامية وحلقة من حلقاتها، وتبين بعد أكثر من ثلاثين عامًا في الجري وراء هذه النظرية الباطلة كيف انهارت، بينما وجدت دعوة التضامن الإسلامي طريقها إلىٰ النفس العربية الإسلامية.

فيما يلي أوجه الخلاف بين مفهوم القومية الغربية ذات العلاقة بالمسيحية ومفهوم الإسلام والعروبة:

أولاً: إن القومية في الغرب نشأت كبديل للولاء الديني نتيجة تطور حضاري إداري خاص، وهي نتيجة منسجمة مع طبيعة التصورات الاعتقادية المسيحية، ومع الظروف التاريخية في الصراع بين نفوذ المسيحية والكنيسة ونفوذ اليهود الذين أرادوا تحطيم السيطرة التي قام بها الدين، وحجز اليهود في أوضاع محددة، ولذلك فقد نجح اليهود

بالثورة الفرنسية إلىٰ إحلال الوطن بديلاً للدين؛ مما فتح لهم آفاق السيطرة في مختلف مجالات السياسة والاجتماع.

أما بالنسبة للإسلام، فالأمر يختلف، والقومية لا تصلح بديلاً للإسلام، وتتعارض مع التصور الإسلامي الصحيح، والقومية غير العروبة التي هي جزء من الإسلام؛ ذلك أن الإسلام رسالة عالمية وليس دينًا قوميًا، كما يفتري لويس عوض وغيره؛ فالإسلام يجمع بين العرب والأكراد والمماليك والأتراك، وبكل من يقرؤون القرآن العربي والذين يَتَّجِهُون إلىٰ قبلة واحدة، هؤلاء الذين نصروا الإسلام في حطين وعين جالوت، واستشهدوا في جميع معارك الغزو الإيطالي في ليبيا، والفرنسي في المغرب وسوريا.

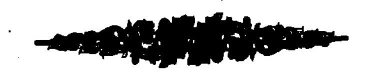
وبالنسبة لمصر، فإنه ما أعطىٰ المصريين القوة علىٰ الصمود والمقاومة والعراقة، في امتصاص الدخيل، والقدرة التي تمكنهم من الاستعصاء علىٰ الذوبان في غيرهم، إنما يرجع إلىٰ الإسلام وحده وليس إلىٰ أي عامل آخر من العوامل التي تَشَدَّقَ بها لويس عوض وغيره، وإنه لا يوجد ما يسمىٰ الشخصية المصرية أو الشخصية العربية، وإنما هناك الشخصية التي كَوَّنَهَا الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا؛ فقطع بينها وبين كل الماضي القديم، وأنشأ وجودًا جديدًا خالصًا متميزًا.

ثانيًا: إن هناك فوارق عميقة بين مفهوم الدين في الغرب ومفهوم الإسلام؛ فالإسلام يحمل مفهومًا جامعًا بين الروح والمادة، ويجمع كل القيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويربط بين الدين والعلم، وليست له خلافات كتلك الخلافات التي قامت بين المسيحية في الغرب والعلم.

ثالثًا: إنَّ فكرة فصل الدين عن الدولة في الغرب نشأت نتيجة ظهور سيطرة الكنيسة علىٰ الحياة الاقتصادية والسياسية وتأثيرها في الحكومات المختلفة، بل وقيام الحكومات الثيوقراطية. وإنَّ تاريخ الإسلام لم يشهد فقط أي صراع حدث بين رجال

الدين ورجال الحكم؛ إذ لم يكن في الإسلام أصلاً فئةٌ متميزةٌ تُدْعَىٰ رجال الدين، والإسلام يعتبر كل فرد من أفراده رجل دين إنْ تحققت في نفسه وسلوكه تعاليم الدين، كما أن الإسلام لا يفرق في الوقت نفسه بين الدين كعبادة والدولة كحكم، بل يجعلها سببًا لعلة واحدة هي إظهار الحق ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (الحج: ٤١). فلزوم التمكين في الأرض بالحكم والسلطان والدولة غايته إقامة أمر الله، والعكس بالعكس (فتحي يكن).

رابعًا: إنَّ تاريخ الإسلام وواقع الإسلام مختلف عن واقع المسيحية وتاريخها، ولكن خطأ الكثيرين الذين حكموا علىٰ الإسلام بجرم ارتكبه رجال الدين المسيحىٰ في عهود غابرة إنما يعود إلىٰ جهل هؤلاء بالإسلام كرسالة تختلف بخصائصها ومضمونها عن خصائص المسيحية ومضمونها.



الفصل الأول

القوميون السوريون

تعددت الدعوات التي ساقها النفوذ الأجنبي لتمزيق وحدة الفكر الإسلامي القائم علىٰ مفهوم الجماعة الإسلامية القرآنية، ففىٰ كل قطر وضعت صيغة مخالفة أو معارضة أو مقصورة أو ممدودة، حتىٰ يحدث التضارب والتمزيق، فهناك الدعوة الإقليمية والدعوة القومية المستمدة من تجربة الغرب، وهناك إحياء التراث القديم كالفرعونية والقبطية، وهناك البعث، وهناك القومية السورية الاجتماعية التي تقوم علىٰ كيان جغرافي ملفق، ومن وراء ذلك دعوات اتخذت من الفاشية والنازية والشيوعية نموذجًا لها.

ولقد كانت دعوىٰ الحزب القومي السوري تستمد من الفاشية والنازية كثيرًا من مظاهرها، مع استعلاء عنصري عجيب وقيادة تحمل طابع العنف والتسلط والزعامة المقدسة المحاطة بالمسلحين، وهي دعوىٰ تقوم علىٰ: «استغلال عواطف الجماعة بالكلام المبهم والمعروف قصده في آن واحد، واستثمار شعور الفرد ورغبته في التضحية والكفاح لأجل القضية الوطنية والتوحد مع الآخرين، وإحاطة الرسالة الحزبية وشخصية الزعيم بشيء من السحر والقدسية - علىٰ حد تعبير كمال جنبلاط - الذي يقول: إن من أسباب نجاح «أنطون سعادة» أنه كان يقدم للشباب شيئًا، بينما سواه من القادة السياسيين، وخاصة في لبنان، كانوا لا يقدمون للناس إلا التسويات والطائفية وانتهازية النهب والتكالب علىٰ المصالح، ونظرية لبنان ملجأ الأقليات والوطن الطائفي وبلد التجارة والسياسة وكسب المال علىٰ أهون سبيل، والدكان

المفتوح علىٰ شاطئ البحر المتوسط، والتكريس لإقطاعية الدين والدنيا، ومما زاد في إغراء النفوس، ذلك النهج السري الذي جرىٰ فيه تأسيس الحزب القومي السوري علىٰ طريقة الماسونية والجمعيات الإرهابية السرية الحديثة.

ولقد حاول الحزب القومي السوري أن يفيد إلىٰ أقصىٰ حد من الالتباس القائم، والذي كان يذكيه الأجنبي بين فكرة العروبة والإسلام، وفكرة اللبنانية والنصرانية، فظهر في تصويره السوري الكنعاني، ولكن فاته أن النهضة الأدبية والسياسية العربية هي التي أيقظت هذه البقعة من الشرق، وأنارت سبيل الكفاح أمام أبنائها. كذلك فقد ظهرت الحركة القومية الاجتماعية السورية في مظهر العلمانية مع التعظيم الرتبي والعددي، وأتقن سعادة فنون التنظيم والدعاية، وكان قد تلقاها في المدرسة النازية والفاشية نظريًا وعمليًا.

يقول كمال جنبلاط أيضًا: وكان للمال والمساعدات الفنية التي لقيها سعادة وأعوانه من الدول النازية والفاشية أثرها في إطلاق الدعوة الجديدة وإبرازها، وكان يستعين سعادة بالمستشارين الضباط الألمان، وقد هيأت إيطاليا للزعيم فيما بعد شجرة نسبه وتجذره التاريخي، وربطت هذا النسب ببعض كبار ملوك الحيثيين أو بابل وأباطرتها علىٰ ما ذكر، ولا تزال هذه الوثيقة التاريخية في حوزة الجيش السوري، وظل التمويل الخارجي والداخلي من العوامل الأساسية في تكوين الحزب وتنميته، حتىٰ بعد انهزام الجبهة النازية في الحرب العالمية الثانية، وكانت مصادر هذا التمويل:

١- الدول الأجنبية المساندة التي أصبحت بريطانيا والولايات المتحدة بعد إيطاليا وألمانيا وأحيانًا فرنسا المنتدبة.

٢- تمويل المهاجرين للحزب ممن اعتنقوا العقيدة القومية السورية، وبينهم عدد من كبار الأثرياء، وقد تحول القوميون من دول المحور إلىٰ بريطانيا إبان الحرب

العالمية الثانية ويوم كان سعادة في المهجر، وفي الواقع أن الحلف البريطاني القومي السوري تم آنذاك، ولم يطلق سراح المسؤولين القوميين المعتقلين إلا بعد أن تأكد الحلفاء في اتجاه الحزب القومي الجديد وانتقال التبعية من دول المحور إلىٰ جبهة الحلفاء وإلىٰ بريطانيا بشكل خاص، وبطبيعة الحال حالف الحزب القومي الاجتماعي السوري حليف بريطانيا ومتبع سياستها في الشرق - أي نوري السعيد في العراق - وقد توثقت وتأكدت هذه الصلات فور عودة سعادة من الأرجنتين، ويوم بدأت بتوافق في الدعاية غريب أبواق وصحف معلومة تبشر بمشروع سوريا الكبرىٰ ومشروع الهلال الخصيب، وذلك قبيل انقلاب حسني الزعيم في سوريا وبعده مباشرة، وأعلن آنذاك الملك عبد الله رأيه الصريح وتأييده وتزعمه لفكرة سوريا الكبرىٰ، وقَبِلَ سعادةُ عرضًا من حسني الزعيم بالإطاحة بالنظام القائم في لبنان (بشارة الخوري)، فكانت الكارثة بالنسبة له ولحزبه، ثم ضربتهم السلطة اللبنانية الضربة العاجلة القوية.

وقد تواصل هذا الحلف مع دول الغرب، وخاصة مع بريطانيا، ورافق حياة الحزب القومي السوري الاجتماعي ونضاله حتىٰ عام ١٩٥٨م، وكانوا يتلقون المساعدات المالية والأسلحة من السفارات الأجنبية وبعض السفارات العربية، كما فضحت ذلك محاكمات بغداد التي تمت بعد اندلاع ثورة العراق وانتصارها وقضائها علىٰ عهد نوري السعيد.

وقد أمعن الحزب القومي السوري الاجتماعي بهذه التبعية، والالتزام بعد موت سعادة، وقد تحول الحزب في الواقع إلىٰ مؤسسة محضة في فاشستية منظمة عسكرية للعمل وللاستخبار تتبع الدولة التي تدفع لها أعلىٰ الأجور، أي أن الحزب أضحىٰ عصبة وفرقة منظمة في خدمة الاستعمار وأهدافه.

وقد مكنهم من ذلك كثيرون، منهم شارل مالك، الذي كان له سهم كبير في جعل الولايات المتحدة تساندهم بعد أن كانوا عملاء لبريطانيا ولمشروع الهلال الخصيب، وهو مشروع بريطاني محض.

إنَّ مكافحة الحزب القومي السوري الاجتماعي لن تتم بالقضاء علىٰ نشاط هذا الحزب[1].

بدأت المعركة مع الدعوة الإسلامية بمحاربة الوحدة الإسلامية، حيث ظهرت فصائل أعداء الإسلام يدعون الأتراك المسلمين إلىٰ الطورانية، وذلك لفصل الترك عن العرب، فلما سقطت الخلافة وتمزقت الدولة العثمانية الجامعة بدأت العرب تتجمع حول عروبة لها جذورها الإسلامية كحلقة سابقة للوحدة الإسلامية، جاءت الضربات والمحاولات من جهتين: من جهة البعث بتفريغ العروبة من مضمونها الإسلامي، وردها إلىٰ مضمون علماني مادي محض، ومن جهة القومية السورية لتمزيق الكيان العربي الذي يخشىٰ أن يتآلف، ولقد قام القوميون السوريون بالاعتماد علىٰ دعايات كتبها مستشرق هو الأب لامنسي اليسوعي الذي ينكر علىٰ السوريين عروبتهم، ويزعم أنهم لا يمتون للعرب بأي صلة دم أو ثقافة أو تاريخ، وأنهم يرجعون بأنسابهم إلىٰ الآراميين والكنعانيين والفينيقيين، وأنهم انضموا إلىٰ العرب مكرهين؛ فكان شأن العرب منهم شأن الفاتح الأجنبي.

لقد بدأ الحزب القومي السوري علىٰ أساس مقاومة فكرة القومية العربية التي كانت بادئة في الثلاثينيات، والمناداة بقومية سورية إقليمية تشمل الهلال الخصيب، فقد زعم أنه وَحَّدَ العقائد القومية في عقيدة واحدة هي (سوريا للسوريين والسوريون أمة كاملة)، وهو من المؤمنين بأن الهيئة الجغرافية هي الأساس في تحديد الأمة، ويرىٰ أن تحديد

(١) مجلة الفكر العربي، نشرت هذه الوثيقة في ١٥ من مارس ١٩٦٢م.

الأمة باللغة من أكبر الأغلاط، فاللغة عنده وسيلة من وسائل قيام الاجتماع لا سبب من أسبابه، والعرب عنده فاتحون كغيرهم من الأمم التي مرت بهذه البلاد، ويصف العرب بالصحراويين وبلادهم بالصحراء ليظهر اختلاف البيئة، وهو من أصحاب الدعوة الإقليمية، فهو يرىٰ أن السوريين سوريون دخلوا الإسلام، ومن الخطأ القول بأنهم عرب بحجة أنهم اعتنقوا الدين الذي حمله إليهم العرب، وقد دعا وعمل علىٰ طمس التراث العربي الخالد وإحياء تراث الشعوب التي حكمت سوريا قبل الإسلام كالآشوريين والكلدانيين والبابليين والحيثيين والفنيقيين، وقد اتضح من بعد أنهم اشتركوا في جميع المؤامرات التي دبرها الاستعمار في الشرق العربي، وأنهم كانوا يعملون لتنفيذ المؤامرة علىٰ سوريا للقضاء علىٰ الحكم الوطني فيها وضمها إلىٰ العراق.

ولما اختفىٰ الحزب القومي السوري، أنشأ تابعوه حزبًا أطلقوا عليه اسم (كنعانيا) كان قريبًا بخطوطه العريضة من الحزب القومي السوري، حيث دعا (أسد الأشقر) إلىٰ خلق إنسان جديد بواسطة أفكار ومعتقدات الحزب القومي السوري، لإطلاق دورة حضارية جديدة في منطقتنا وفي العالم، وقد استطاع النفوذ الأجنبي عن طريق الكشوف الأثرية إثارة مثل هذه الدعوات، كما حدث للفرعونية في مصر، وكذلك عمد الفرنسيون في سوريا إلىٰ التنقيب عن هذه الآثار آرامية وحيثية وكنعانية، وانطلقوا منها إلىٰ دعوة قومية سوريا، وكان الأب لامنسي اليسوعي بطل ذلك الانطلاق، وأكثر المستشرقين تهجمًا علىٰ الفكرة العربية ودفاعًا عن الفكرة السورية، وقد فعلت هذه الآراء في السوريين مثلما فعلت آراء ماسبيرو في المصريين، وتلقفتها جماعة أنطون سعادة وما زالوا يؤمنون بها وإن تغيرت الوسائل والأساليب.

وقد كانت فرنسا في الماضي (والغرب كله) اليوم يشجع القومية اللبنانية للوقوف ضد الإسلام، ويشجع القومية السورية للوقوف ضد التيار العربي القومي، وقد أوعزت إلىٰ «شكري غانم» - صديق وزارة الخارجية الفرنسية، ورئيس الجمعية السورية

اللبنانية في باريس - أن يطالب بالوحدة السورية، ثم عمل (إدوارد الدحداح) علىٰ ربط القومية السورية بفرنسا مرة أخرىٰ بعد الانتداب الفرنسي علىٰ سوريا ولبنان بسبع سنوات، وطالب بذلك نذره المطران وخير الله خير الله، باتفاق مع السلطات الفرنسية التي أرادت أن تظفر بموافقة بطريرك الموارنة، غير أن الدعوة الرسمية للفكرة القومية السورية لم تتبلور ولم تزدهر إلا علىٰ يد الحزب السوري القومي الاجتماعي «أنطون سعادة» باسم الحزب السوري القومي ١٩٣٢م في لبنان، وقد انتشر في سوريا والأردن وفلسطين، وقد تخرج عشرات السياسيين والموجهين ورجال التربية والأعمال من المدرسة الفكرية التي أوجدها الحزب، هذا الحزب حَوَّلَ عددًا كبيرًا من شباب البلاد عن الفكرة العربية، وحصر اهتمامهم بالقضية السورية التي هي قضية الوطن السوري، ويشمل هذا الوطن سوريا ولبنان والعراق والأردن والبحرين والكويت وفلسطين وسيناء وقبرص وكليكيا والإسكندرونة، فقد دعا سعادةُ سوريا إلىٰ تزعم العالم العربي، فسوريا هي جبهة العالم العربي وصدره وسيفه وترسه.

ويرفض الحزب أن يدين لمصر بزعامتها علىٰ العالم العربي، فسوريا صاحبة الزعامة، وكان الحزب يذيع دائمًا أن مصر غير عربية، وأنها غير مؤهلة لزعامة العرب، واهتم سعادة بالإشارة إلىٰ تفوق السوريين علىٰ المصريين، وأرجع فضل بناء الأهرام إلىٰ السوريين، وقد ركز الحزب السوري القومي علىٰ بلاد العلويين، وقد بثوا رسلهم بين أوساط الشعب يقولون له: إنَّ الشعب العلوي هو بقية من الصليبيين، وإن الدين العلوي جزء من الديانة المسيحية، وينفرونهم من الإسلام والمسلمين، واستعانوا في ذلك بمدارس التبشير وبعض المثقفين العلويين الذين لجأوا إلىٰ سوريا من ولاية أطنة، وأصدر زعماء هؤلاء مجلة عربية كان الغرض منها دس هذه الشعوبية الهدامة بين العلويين، وكان يمولها الفرنسيون.

وقد ظاهر الفرنسيون حركة سليمان المرشد - أحد زعماء العلويين - حينما ادعىٰ

الألوهية، وأخذ يجند الجنود ويفرض الضرائب؛ فأمدوه بالمال والسلاح، وحملوه علىٰ المطالبة بالاستقلال عن سوريا وعلىٰ تأييد فرنسا، ولكن كان مصيره القتل، ولما اضطر الفرنسيون إلىٰ الجلاء عن وطنه (كليليا)، ثم عن إسكندرونة، فتحوا صدر سوريا للمهاجرين منها علىٰ أمل أن يتخذوا من الشعب الأرمني شعوبية جديدة وعَدُوًّا للعرب في سوريا كما كان عدوًا للترك في السلطة العثمانية، ثم وقع الآشوريون الذين هاجروا من العراق إلىٰ الجزيرة في سوريا في أحابيل الاستعمار بعد فشل ثورتهم هناك.

استطاع الفكر القومي السوري بناء قاعدة ثقافية وأدبية ما تزال تتمثل حتىٰ اليوم في كتابات معتنقيها في جريدة «النهار»، وقد قامت علىٰ ثلاث أهداف: فكرية، ونفسية، وحركية.

أولاً: خلق «الفردوس المفقود» الذي يجد القوميون السوريون وحيه في سوريا الكبرىٰ، واعتبارها امتدادًا للحضارة الفينيقية، التي ظهرت في سوريا، ثم في شمال أفريقيا قبل الميلاد بثلاث مئة سنة، وإعادة مجد الفينيقيين وحضارتهم وبعث العظمة الفينيقية والسيادة علىٰ البحر المتوسط.

ثانيًا: خلق رمز تاريخي لفكرته: الرمز في شخصية القائد الفينيقي السوري القديم (هانيبال) الذي دخل في حروب طويلة مع الرومان خلال هذه الفترة، وقد وصلت جيوش هانيبال إلىٰ أبواب روما تحت راية الفينيقيين علىٰ شمال أفريقيا.

ثالثًا: إحياء أساطير قديمة تساعد الحركة وترمز إليها وتدل علىٰ لونها وشخصيتها الخاصة، وإحياء الأساطير البابلية والآشورية وبعثها، وأهم الأساطير التي وقف عندها القوميون السوريون (تموز وعُشتار وأدونيس)، وهي أساطير بابلية وآشورية، وتموز عند البابليين هو أبناء الحياة، أي أنه رمز الخصوبة، وعشتار هي زوجة تموز التي تشاركه في الرمز للخصوبة والاخضرار، وأدونيس هو إله آخر من آلهة بابل يرمز إلىٰ

الخير، وتقول الأسطورة القديمة: إنه ثمرة لعلاقة بين ابن الملك القديم ثباس وابنته ميرها، وقد تحولت ميرها عقابًا لها علىٰ خطيئتها إلىٰ شجرة، ومن جذع الشجرة خرج أدونيس رمزًا للحياة الجديدة الخالية من الإثم والرذيلة.

وهم يحاولون أن يجعلوا من الأدب خادمًا للخيانة السياسية التي يمارسونها ضد العرب والوطن العربي، فالقوميون السوريون يُمَجِّدُون الحضارة الفينيقية التي انبثقت من سوريا، ثم يرفضون الاعتراف بالحضارة العربية الإسلامية وقيمها، وقد خلقت هذه الأفكار حركة أدبية لها شعراؤها وكتابها وفلاسفتها.

وتحدث الأستاذ رجاء النقاش عن أدب القومية السورية، فقال: إنهم جماعة يربطهم السخط علىٰ الواقع العربي المعاصر، فهم يكرهون الصورة الراهنة لهذا الواقع، ويكرهون صورة المستقبل أيضًا، ويقفون في وجه الريح، في وجه التطور التاريخي الصحيح للمنطقة العربية، ويقفون في طابور أعداء الأمة العربية مع الاستعمار وإسرائيل. وأدونيس هو أكبر شعرائهم يعيد في قصيدة أسطورة فينيق إلىٰ الحياة، ويتخذ من هذه الأسطورة رمزًا كبيرًا لأفكاره السياسية، وتقول الأسطورة: إن الفينيق «Phani» هو طائر خرافي كان يعيش قرونًا طويلة وسط صحاري الجزيرة العربية، وكان إذا أحس بدنو أجله بنىٰ عشه بغصون يعرضها لحرارة الشمس ثم يحرق نفسه حيًا في العش، ثم يتكون من رماده شرنقة تنشق عن فينيق جديد يحمل بقايا أبيه إلىٰ هيكل الشمس، أي أن الفينيق طائر يحرق نفسه ليعود إلىٰ الحياة من جديد، والشاعر أدونيس يستخدم هذه الأسطورة ليؤكد بها المعنيين التاليين:

(١) الموت والاحتراق؛ فقد مات فينيق واحترق.

(٢) البعث والتجدد؛ فقد بعث فينيق وتجدد.

فهو يقف طويلاً عند المعنىٰ الأول: معنىٰ الموت والاحتراق، فيملأ قصيدته بالعويل والدموع، ثم أخيرًا يدعو إلىٰ التجدد والبعث من خلال رماد الحريق، وهكذا؛

مما يعني عودة الحضارة الفينيقية إلىٰ سوريا؛ فهي حضارة قد ماتت واندثرت، وهو الآن يدعوها إلىٰ الحياة لتعود من جديد «ليس في بلادي غير غربان أفريقيا الجائعة»، والمصريون هم غربان أفريقيا.

ومن شعرائهم خالدة سعيد في مجلة شعر تتحدث عن النفي والغربة والحرمان والاضطهاد واللامنطق، عبودية الزمان والمكان، الموت الفاجع، تلك هي رايات عصرنا؛ فليرفع اليأس لواءه، ويرقص الزغب في كلمات الشعراء، وخالدة سعيد هي زوجة أدونيس.

وأنسي الحاج أحد هؤلاء الأدباء، وهو لا يريد سوىٰ الخراب والهدم الكامل للعالم الذي يعيش فيه، يريد طوفانًا يغرق هذا العالم[1]. وقد انضم لهذه الحركة سعيد عقل، وقام بذلك الدور الخطير في مهاجمة اللغة العربية والدعوة إلىٰ عامية لبنان مكتوبة بالحروف اللاتينية في ظل هذه التبعية، وكتب قصيدة قدموس السوري التاريخي الذي علم اليونان الأحرف الهجائية، وبالجملة فقد كان هذا العمل كله يرمي إلىٰ إنشاء عقلية جديدة وأدب جديد ما زال يبدو بارزًا في كتابات غادة السمان وأدبها، وإن كان في طريقه إلىٰ الانطفاء.

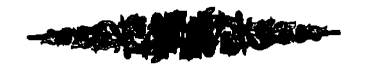
وقد وُصف القوميون السوريون بأنهم من أنشط الحركات المقاومة للقومية العربية، فقد قامت علىٰ المفهوم الاستعماري الذي قامت عليه من قبل فكرة لطفي السيد: مصر للمصريين، وأقام مفهومه علىٰ الجغرافيا، بينما أقام القوميون مفهومهم علىٰ اللغة، وعارضه معارضوه بأن الأحوال الجغرافية لا يمكن أن تنشئ الأمم، وكذلك وجهت المعارضة إلىٰ مفهوم ساطع الحُصْرِي بأن اللغة العربية لا تعني شيئًا، وإنما اللغة هي وعاء الفكر، والفكر السائد في المنطقة هو الفكر الإسلامي واللغة أداته. كذلك فقد كان

(١) أخبار اليوم: ١٣/ ٢/ ١٩٦١م، و١٠/ ٣/ ١٩٦٢م.

قولهم: إن العرب لم تؤثر في سوريا أثرًا يذكر، كلامًا لا معنىٰ له، فإن سوريا بمفهوم أهلها هي موجة من موجات الأمة العربية الوافدة من الجزيرة العربية، وأن الجامع الحقيقي الذي كان يُحارب بهذه الدعوات هو الإسلام الذي حَوَّلَ هذه المنطقة وعزلها عن ماضيها السابق للإسلام عزلاً تامًا، وأقام فيها روحًا جديدة، وإذا كان قد ثبت أن الفرعونية موجة من موجات الجزيرة العربية، وأن الصلة بين اللغة العربية واللغة الفرعونية تكاد تكون كاملة؛ فإن الأمر كذلك بالنسبة لسوريا مع الآراميين والفينيقيين الذين لم يزيدوا عن أن يكونوا موجات جاءت من قلب الجزيرة العربية ثم صهرها الإسلام وبقي منها من بقي علىٰ المسيحية.

ولا ريب أن الاستعمار كان وراء هذه الدعوات والتيارات؛ من أجل تمزيق وحدة الأمة الإسلامية، وتمزيق العرب، وإفساح المجال لإسرائيل، وكان العمل في الشام يرمي إلىٰ إخراج سوريا من إسلامها وعروبتها، في محاولات متصلة بدأت بالقوميين السوريين والبعث والنصيرية، ومعنىٰ هذا أيضًا أن الاستعمار لم يخرج من بلاد المسلمين إلا بعد أن ترك قواعد وركائز ما زالت مستمرة في العمل من أجل إبقاء المسلمين علىٰ عجز كامل دون الوحدة ودون الدفاع عن أنفسهم، ضد تحديات الاحتواء والتغريب.

وقد مرت محاولات لإيقاظ فكرة القوميين السوريين من جديد بإدخال مجموعة من الأفكار الاشتراكية والحملة علىٰ الصهيونية والشيوعية، وهو علىٰ كل حال علىٰ طريق الولاء للغرب الرأسمالي الاستعماري.



الفَصْلُ الثَّانِي

البعث

كان ظهور حزب البعث مرتبطًا بالظروف التي كانت تمر ببلاد الشام في الأربعينيات، من محاولات ترمي إلىٰ احتواء الأجيال الناشئة، وصهرها في دعوات متعددة حتىٰ تتمزق الجبهة وتتوزع حول دعوات مختلفة كلها تحاول أن تكسب إلىٰ مفهومها حشدًا، وكانت هناك دعوات (القوميون السوريون)، (والإقليميون) الذين يبعثون الماضي السابق للإسلام كالفينيقيين وغيرهم، وهنا كانت الدعوة إلىٰ مفهوم غربي للقومية يخرج العروبة من ارتباطها بالإسلام، ويصلها بمفاهيم الاشتراكية، ودعوىٰ أن الإسلام مرحلة مرت في تاريخ الأمة العربية وغير ذلك، ويرىٰ كثير من الباحثين أن حزب البعث منذ نشأته في الأربعينيات كان يهدف إلىٰ تحويل شباب العرب عن مفهوم الأصالة الإسلامية الجامعة إلىٰ إطار ضيق محصور في القومية، وفي العروبة بمفهوم التراتيل والبلاغيات التي تحاول أن تصور الأمة العربية في صورة العبقرية الملهمة والقداسة الخالدة.

بينما لا يمكن فهم العروبة فهمًا صحيحًا إلا في إطار الإسلام الذي شكل العرب خلال أربعة عشر قرنًا، لقد كان هذا هدفًا واضحًا وعميقًا يرمي إليه النفوذ الغربي، وهو تحويل الشباب العربي المسلم من النظرة الإسلامية الجامعة التي تجعل من أبرز متطلباتها الوحدة الإسلامية، إلىٰ فكرة محدودة مقصورة علىٰ العرب عن طريق النظر إلىٰ واقعهم الاجتماعي المعاصر، وإلىٰ ربطهم بشرائح من الفكر الغربي، سواء في مفهوم الحرية أو الوحدة أو الاشتراكية، وهي شرائح مستمدة من نظرية الماسون

(حرية، إخاء، مساواة)، أو علىٰ نمطها مع تغيير طفيف، وهم في هذا ينظرون إلىٰ الإسلام علىٰ أنه ميراث انتقائي يمكن أن نأخذ منه ما نريد، ونفسره وفق نظريات عصرية مستحدثة ووافدة.

وقد دعا ميشيل عفلق إلىٰ ما أسماه قومية الاشتراكية، وإنسانية القومية، وبما أن «عفلق» كان شيوعيًا في أول الأمر؛ فإنه لم ينتقل إلا خطوة واحدة نحو الاشتراكية ليصوغ منها مفهومه القومي، ومن ثم تتداخل في نظريته ودعوته، المفاهيم المسيحية والمفاهيم المادية العلمانية المضادة للدين جملة، وهو علىٰ طريق ساطع الحُصْرِي لا يفهم الإسلام إلا فهمًا جزئيًا علىٰ أنه دين عبادي لاهوتي، وليس علىٰ أنه منهج حياة ونظام مجتمع، ومن هذا الفهم يفقد كثيرًا من الأصول الصحيحة لمواجهة المجتمع المسلم بنظرية ناقصة أو مبتورة. كذلك فإن عبارات الثورية والتقدمية والقومية، والاشتراكية والإنسانية كلها ذات معنىً غربي تختلف تمامًا عن مفهوم الفكر الإسلامي الأصيل، وهي تحاول طرح هذه المصطلحات ومفاهيمها في أفق الفكر الإسلامي حتىٰ ينصهر ويذوب في أتون الأممية العالمية، وبذلك يفقد خصائصه الذاتية وقيمه الأصيلة.

ولذلك فإن دعوة البعث ومفاهيمه لم تَجِدْ لها صدًىٰ حقيقيًا إلا في أوساط الأقليات وفي مجتمعات الإرساليات والجامعات الغربية التي تأسست في الوطن العربي، وفي نفوس لم تتلقَّ مفهومًا إسلاميًا كاملاً أو صحيحًا، وقد تلقفتها دعوات وحركات لم يكن لها منهج واضح، واتخذت منها أسلوبًا للعمل بعد تغيير وتحوير في الرموز الأساسية.

لقد كان انبثاق هذه الدعوات وتجاورها وتصارعها واختلاف الناس حولها يرمي إلىٰ إضعاف الرؤية الصحيحة للوجهة الأصيلة، ويرمي إلىٰ تمزيق الجبهة، حتىٰ تحيا إسرائيل وتمتد، فإن الدعوات التي تتكون خلفياتها في حضانة النفوذ الأجنبي (سواءٌ

أكان غربيًا أم ماركسيًا أم صهيونيًا)، فإنها لا شك ترمي إلىٰ القضاء علىٰ المفاهيم الأصيلة التي لا تجد من قوة الدعاية ولا من النفوذ والسلطان ما تجده هذه الدعوات.

إنَّ الدعوة إلىٰ القومية العربية علىٰ أنها رسالة خالدة هي محاولة لتعميق الانفصال بين العروبة والإسلام، وهي محاولة لحجب الوحدة الإسلامية وتأخير لها، فما كان للعرب قبل البعث من مفهوم للعروبة منفصل عن الإسلام، وإنما جاء مفهوم العروبة عاملاً من عوامل التجمع بعد سقوط الخلافة العثمانية وتمزُّق شمل الوحدة الجامعة بين العرب والترك.

ولا شك أن تمزيق هذه الوحدة كان هدفًا أساسيًا لقيام إسرائيل، وكانت الدعوة إلىٰ قومية تركية وقومية عربية هو الباب للدعوة إلىٰ قومية يهودية وقوميات أخرىٰ كردية وغيرها.

يقول أحد الباحثين: عندما أراد الفرنسيون الخروج من الشام أرادوا أن يورِّثوا البلاد لأعوان لهم، واختاروا أعوانهم أمثال ميشيل عفلق الذي رُبي ونضج في الكنيسة تحت إشراف البابوية في روما؛ من أجل إعداده كقائد للتبشير، وقد دعا البعث إلىٰ القومية بديلاً للفكر الإسلامي، وإقامة حفلات مختلطة لتذويب العادات والتقاليد، حيث تقدم الخمور والنساء، والتركيز علىٰ الطوائف الدرزية والعلوية والنصيرية، وكان عفلق مدرسًا، وكان معظم تلاميذه من الطلاب، وفي حمص استفاد من العلويين النازحين من الإسكندرية، واحتضن مجموعة من تلاميذهم المشردين الفقراء يساعده زكي الأرسوزي (علوي نصيري، يتبنىٰ الفكر القومي، ومتأثر بالثقافة الفرنسية)، وأكرم الحوراني الذي كان والده موظفًا لدىٰ الإدارة الفرنسية ويحظىٰ باهتمام كبير من الفرنسيين ينادي في «حماة» بالاشتراكية والعلمانية ومحاربة الدين ومحاربة الأخلاق، تم الاتصال بين أكرم الحوراني وميشيل عفلق، وأحكمت الروابط بين خلايا تنظيمية

من الطلاب والفقراء بالذات.

واتفق أكرم وعفلق علىٰ إدماج الحزبين في حزب واحد، سُمِّيَ حزب البعث العربي الاشتراكي، وكَوَّنَ الحزب جبهة مع الشيوعيين في المجلس النيابي، وقام البعثيون خوفًا من الشيوعين باتصالات مع مصر من أجل الوحدة، واستطاعوا القضاء علىٰ الشيوعيين، ثم اختلفوا مع مصر، وعملوا علىٰ الانفصال والانقضاض علىٰ من قاموا بالانفصال واستلام الحكم.

يقول جلال السيد - أحد ثلاثة أسسوا حزب البعث -: «لقد تخلق البعثيون بأخلاق الشيوعيين، واستباحوا دم الخصوم من المواطنين، واحتكروا السلطة، وأسقطوا الشعب من الحساب، وكرسوا القطرية والانفصالية».

وقال: إنه وميشيل عفلق وصلاح البيطار أسسوا حزب البعث ١٩٤٢م كرد فعل للنعرات الطوارنية، واعتزاز الأتراك لقوميتهم، وقد قام الحزب علىٰ أكتاف الطلاب أول الأمر، فالطلاب هم القطاع الشعبي القابل للاستهواء والأكبر ميلاً للتعلق بالمُثل، وكان هؤلاء من الأقليات الإسلامية ومن المسيحيين»، وهذا أمر له معناه ومغزاه وله أسبابه وبواعثه.

وإذا كان الانطباع العام عن حزب البعث أنه ملحد، فإن مصدر هذا الانطباع يرجع إلىٰ بعض الأجنحة، وإلىٰ العدد الكبير من الأقليات الإسلامية والمسيحية الموجودين في الحزب، والاستهانة بالإسلام مدخل إلىٰ الاستهانة بالعروبة؛ لأن الإسلام أعظم إنتاج عربي تفخر به الأمة العربية. وفي مؤتمر ١٩٤٧م لمناقشة دستور الحزب خرج الحزب من دائرة الحركة إلىٰ دائرة الحزبية، وكان لانقلاب حسنىٰ الزعيم أثره في الكشف عن حملة وصولية ضعيفة بما أرسل به إليه ميشيل عفلق.

كان المخطط الذي يسوقه ميشيل عفلق أنه زعيم مسيحي يريد أولاً ضرب اللافتات

الإسلامية، وتنفيذ مخطط أجنبي واسع للمنطقة، وإحداث تجربة دائمة فيها، ترمي إلىٰ ضمان التعرف علىٰ أسرار العرب من أعلىٰ نقطة عمل فيها، ولما اندمج مع الحزب العربي الاشتراكي (أكرم الحوراني)، وتكون حزب واحد هو حزب البعث العربي الاشتراكي، ركز الحزب نفسه علىٰ قضية الاشتراكية، التي هي الماركسية في نظره.

لقد تخلق الحزبيون بأخلاق الشيوعيين، وتنحوا عن الخلق العربي الأصيل الذي هو التراث الثمين، مثل الوفاء والإيثار والمروؤة والنخوة والنجدة والبذل، وما هو قريب من هذا، ووقف الحزبيون موقف العدو من كل مواطن لا يدين لهم، أو لا يسير وفق منهجهم، واستباحوا دم الخصوم، وقد انضم البعثيون مع الشيوعيين، وساروا في تيارهم اللاقومي، ووضعوا الاشتراكية الماركسية إرضاءً للشيوعيين، وتناسوا كل حديث عن العروبة والقومية والوحدة، والمراقب يومئذ لا يستطيع الحكم علىٰ حزب البعث بأنه عربي، بل إنه منظمة سياسية من منظمات الشيوعيين التي تحمل اسمًا غير الاسم الشيوعي كالشبيبة الديمقراطية وأنصار السلام، وانسحب جلال السيد عام ١٩٥٥م، وتطورت الأحداث فيما يروىٰ، وبرز نجم جمال عبد الناصر، وتمزق حزب البعث، وتحول إلىٰ أكبر عدو للوحدة وأول مقوض لدعائمها بعد نجاح الانفصال.

وحدث انقلاب مارس ١٩٦٣م الذي أطاح بحكومة الانفصال وكون أول حكومة بعثية قلبًا وقالبًا، وبدأ البعث بأسلوبه المعروف يجثم علىٰ صدر العروبة: التحلل الأخلاقي، الإلحاد، والماركسية، وطوىٰ صفحته كحزب يتظاهر بالقومية والوطنية، وظهر الحزب الديكتاتوري الذي لا صلة له بالشعب ولا بالقومية أو الديمقراطية، وانخرط فيه الشيوعيون والشعوبيون من كل الفئات، وضربوا به القوميين والإسلاميين، ووصلوا من خلاله إلىٰ الحكم ونشر الإرهاب الفكري والمادي.

قام حزب البعث بالعزل السياسي لقطاعات كبيرة من السياسيين ورجال الفكر

والدين، وتكريس القطرية والانفصالية ومفردات اقتصادية وسياسية كانت كلها ضربة للشعب في رزقه وأمنه، حتىٰ هاجر من سوريا كل قادر علىٰ الرحيل والهجرة، وتعطيل كل الصحف باستثناء صحف البعث، واحتكار السلطة كاملة، واعتبار الحزب هو المادة الوحيدة في هذا الوطن، وهكذا انقلب حزب البعث علىٰ مبادئه النظرية، فهو حزب الانقلابات العسكرية ومصادرة الحريات والتحكم في القضاء، وانتهاك حرية المواطنين والتصفيات الجسدية، وجاءت سياسة الحزب مع العرب سياسة نفرة وشقاق؛ لأن الدول العربية إما رجعية وهي عدوة تقليدية، وإما تقدمية وعلاقته بها ليست حسنة، وانتهىٰ حزب البعث إلىٰ أضيق نقطة: وهي نقطة العنصرية والطائفية (طائفة معينة تمثل أقلية متظاهرة بالإسلام هي التي تسيطر علىٰ حزب البعث، وتسيطر علىٰ الشباب المسلم في سوريا، مستأثرة بالمناصب العليا في الدولة والجيش، وهو شبيه بالقرامطة في العصر الوسيط والنازية في العصر الحديث)، هذا ملخص ما أورده جلال السيد في كتابه عن حزب البعث العربي الصادر ١٩٧٣م.

كذلك كتب «مطاع صفدي» ما سماه (قصتي مع ميشيل عفلق): المتنبئ البعثي الذي أتقن تربية الوحوش، فلما كبرت تمردت عليه والْتَهَمَتْهُ، يقول:

منذ أن بدأ بالتبشير بحركة البعث، كان الشباب الذين تحلقوا حول (المُعلم) يمتصون منه صوفية ومثالية، عن طريق الثقافة الشاعرية، كانت كلماته المتقطعة المنغمة بالسر والظل هي كل الحماسات النضالية الأولىٰ، كان عفلق قد بدا في نظر نفسه كنبي وليس كفيلسوف وليس كقائد سياسي.

وكان الامتحان الأول في سجن المزة، والأيام التي قضاها عفلق في زنزانة في مطلع صيف ١٩٤٩م، وفجأة جاءنا طعام ملفوف بجريدة سرعان ما فتحناها فوجدنا في الصفحة الأولىٰ بالخط العريض عنوانًا هو: عفلق يطلب العفو من الزعيم، وقرأنا

نص الرسالة الرهيبة، فإذا النبي يتراجع عن الطلائعية وعن العمل النضالي، ويُقِرُّ أنه لا يفقه في السياسة، وأنه يعتذر للزعيم الرجل الكفء، ويعتزل السياسة، وانسحب من الحزب، ورضي أن يعود من بعد، وبقي عفلق مترددًا بين أن يكون نبيًا مبشرًا بالمبادئ المطلقة، وبين أن يصبح قائدًا ثوريًا يغوص في حمأة النضال اليومي.

«وبدأ الضعف والذكاء الخفي في شخصية عفلق يلعب دوره الساحر في محيط الشباب، وما زالت بقية من حواريي الأستاذ حتىٰ اليوم تؤمن بضعف مثالي من الأستاذ.

ويقول: لقد بدأ عفلق صناعة الوحوش، وسلط هذه الوحوش علىٰ جماهير العراق وجماهير سوريا، ثم عندما كبرت الوحوش بدأ يحاول إدخالها القفص، وكلها تمردت علىٰ صانعها والتهمته مع من التهمت من قبل، وهكذا صنع عفلق جيله الأول، فتخلىٰ عنه إلىٰ أكرم الحوراني، وصنع أجيال الوحدة فتخلت إلىٰ عبد الناصر، ثم بدأ صناعة وحوش السعدي وحاطوم وحديد، وأخذت هي الأخرىٰ تتخلىٰ عنه وتفترسه، كان الجوهر مجروحًا، ولذلك جاءت كل الأعراض فيما بعد لتحطم أسطورة الجوهر، ولتقيم مأساة الدم والنار.

ويتساءل: هل كان عفلق فعلاً الفيلسوف والنبي؟ أم الضعيف العاجز؟ أم الحقود الفاشل؟ إنه شخصية مركبة من كل هذه الشخصيات، معقدة كعقدة الأفاعي، رمزت لجيل، وقضت علىٰ جيل».

يقول مؤلف كتاب الثورة العقائدية في الشرق الأوسط: إن ميشيل عفلق كان في وقت من الأوقات عضوًا في الحزب السوري القومي، وكان عضوًا في الحزب الشيوعي السوري حتىٰ عام ١٩٤٣م، وإنَّ نظريته في القومية العربية هي خليط من الفلسفات الغربية الشائعة، ففيها من نظرية هيردر ومن نظرية هيجل ومن نظرية روسو ومن نظرية ماركس في الصراع الطبقي، وفيها من برجسون، ونحن نرىٰ أنها علىٰ الرغم من هذا

التلفيق الشديد فهي غريبة على الوجدان العربي الإسلامي الأصيل؛ لأنها جاءت لتمييع الأصالة، وخاصة إذا كان صاحبها لا يفهم الإسلام على أنه دين ونظام مجتمع، ويحاول أن يصوره كمفهوم لاهوتي عبادي، مفرغ من منهجه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

ويقول مطاع صفدي: إن الأرسوزي هو الذي قدم الأفكار الفلسفية التي تتحدث عن بعث الأمة العربية ورسالتها الخالدة، هذه الأفكار التي حاولت أن تعطي الكلام عن العروبة مسحة من القداسة كأنها دين جديد، ويقول: إنَّ «عفلق» بعد أن سرق أفكار الأرسوزي ساهم في إبعاده عن ساحة العمل، وانضم إليه طلاب الأرسوزي، وقال: لقد انضم الشباب الطائفي المثقف من طوائف العلويين، والدروز، ومعتنقو الإسماعيلية إلى عفلق، على أساس أن الفكرة العربية بديل عن الزعامة الدينية، وقد عُرف عن ميشيل عفلق عباراته الموحية، كقوله: برودة العقل ولهيب الإيمان، وغيرها من الشعارات البراقة التي انطلقت في هذا الفراغ الفكري، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

وقد حاول البعثيون الإيهام بأن الحضارة الوثنية والمدنية الجاهلية هي - الإسلام - أساس حضارتنا وأصل مدنيتنا - وجرت المحاولة على تضخيم كل ما كان من قبل الإسلام، ليُدْخِلُوا في رُوعِ الشباب أن المجتمع العربي قبل الإسلام كان مجتمعًا مثاليًا، فيه تمجيد العروبة في معارضة الفرس والترك، ومحاولة جعل العروبة مبدأً قائمًا بذاته يستطيع أن يشق طريقه بدون الإسلام، ويقولون: إن العروبة كانت قبل الإسلام صاحبة رسالة خالدة، وإن الإسلام ليس إلا مرحلة من مراحل تطور الأمة العربية. وهذا من تضليلهم وتفرقتهم بين الأمة الموحدة على عقيدة الإسلام الجامعة، وذلك هو هدف الحزب أساسًا في مواجهة اليقظة التي كانت قد بدأت طلائعها في مجال الدعوة الإسلامية على النحو الذي عرفته سوريا في ذلك الوقت من قيام الجماعات التي

تحمل لواء مفهوم الإسلام الجامع بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع، ومن أفكارهم المسمومة قولهم: لقد كنا عربًا قبل الإسلام، لهذا يجب ألا يكون للإسلام مكان اليوم بين دعوتنا القومية، وقد حملوا مع ساطع الحصري لواء مفهوم العروبة المفرغة من الإسلام، والقائمة علىٰ مفهوم الغرب في فهم عليل للإسلام بأنه دين عبادي لاهوتي كالمسيحية التي نبذتها الأحزاب القومية في أوروبا، بل لقد ذهبوا إلىٰ أبعد من ذلك حيث حاولوا أن يجعلوا من العروبة منهجًا أيديولوجيًا كاملاً له فلسفته واتجاهاته التي تغاير كل المغايرة اتجاهات الإسلام ومنهجه، وذلك تشجيعًا للادينية والإلحاد والإباحية والمادية، ولعل إحياءهم للجاهليات قبل الإسلام واليونانيات الإغريقية أكبر دليل علىٰ محاربتهم وخصومتهم للإسلام.

يقول مصطفىٰ أمين[1]: كانت سياسة الاستعمار الفرنسي أن يحطم الدين الإسلامي في سوريا، وكان يرىٰ أن تمسك السوريين بدينهم سيجعلهم يتمسكون بوطنهم وحريتهم، وكان يرىٰ أن يشغل المسلمين والمسيحيين بالخلافات بين القومية والوطنية، وكان يرىٰ في (الدين) عدوًا من أعداء الاستعمار، وكان يعتبر الجهاد الوطنىٰ نتيجة لتمسك السوريين بدينهم، ثم حدث أن وقف مدرس في إحدىٰ المدارس وطعن في النبي محمد (ﷺ)، وثار طلبة المدرسة، وأضربوا، وقامت ضجة كادت تحدث مشكلة طائفية في سوريا لا تخدم إلا الاستعمار الذي كان يعمل باستمرار للتفرقة بين المسلمين والمسيحيين في سوريا، لولا تدخل الوطنيين في سوريا من مسلمين ومسيحيين. هل تعرفون اسم هذا المدرس: اسألوا عن اسم الأستاذ ميشيل عفلق - فيلسوف حزب البعث.

وبعد أن نجحت ثورة الجزائر، حاول ميشيل عفلق التسلق علىٰ ثورة الجزائر، فطار واجتمع مع زعمائها، وتحدث معهم في فكرة إنشاء جبهة تضم جبهة التحرير الجزائرية

---

(١) الأخبار: ١٩/ ٦/ ١٩٦٣م.

وحزب البعث.

وقال: لقد أيدتم كل انقلاب عسكري سجن الحرية، وتحالفتم مع الرأسماليين في كل وزارة سورية، واشتركتم في وزارات قامت بتأييد نوري السعيد، وخطاب ميشيل عفلق إلىٰ حسني الزعيم من السجن كان خطابًا ذليلاً. قال ميشيل عفلق لأكرم الحوراني: «أنت عندك النفوذ ونحن عندنا المبادئ، أنت تحكم ونحن نفلسف كلماتك، أنت تتقدم الركب ونحن نمشي وراءكم ندق الطبول».

وقال كثير من الباحثين: إن البعث - كالقومية السورية والماركسية - مجموعة أفكار مستمدة من دراسات غربية عن الأيديولوجيات والفكر المادي فهي أساسًا ماركسية معربة أو ماركسية مؤقلمة، هذا الفكر الذي يقول به عدد من الكتاب اليوم دون أن يكونوا ماركسيين بالضرورة: لويس عوض، منيف الرزاز، ميشيل عفلق، غالي شكري، وهي مقولات أوروبية جاهزة، والمعروف أن البعث جاء في مواجهة يقظة الدعوة الإسلامية بمحاولة لجرها عن طريق مفهوم القومية كمفهوم عقائدي، حاول هذا زكي الأرسوزي (العلوي) الذي تَبَنَّىٰ فكرة نبوة العروبة، وجاء ميشيل عفلق فتلقف الفكرة.

وقد خلطوا مفاهيم القومية والاشتراكية والوحدة، ولهم مصطلحات معقدة. هذا الفكر له جذور في الفكر الغربي مستقاة منه، وقد كان لميشيل عفلق صلته في الأربعينيات بالفكر الفرنسي الأيديولوجي المستمد من مفاهيم خليط من المفكرين (نيتشه وأوجست كونت وهيجل)، ومفاهيم حول المنهج الجدلي والصراع الاجتماعي، وهذه كلها مفاهيم ماركسية بدأ بها ميشيل عفلق حياته وهو يتنقل بين الحزب الشيوعي والحزب القومي السوري قبل أن يدعو إلىٰ القومية العربية بمفومها العلماني، ويرىٰ منيف الرزاز أن المنهج الجدلي للتاريخ (الذي له بذور في الفكر اليوناني القديم) قد فرض نفسه فرضًا علىٰ الفكر الإنساني، وأن هيجل كان أول وأعمق من وضع قواعد هذا المنهج، ثم تبعه كل مفكر ثوري رافض لواقعه متطلع إلىٰ تغييره. ويقول: إن

البعث استوعب المذاهب الجدلية الناشئة من قبله، وإن البعث قد أعطىٰ الصراع (النظرية الجدلية) معنىٰ أوسع بكثير من معنىٰ الصراع ضد الاستعمار الاحتلالي، وكل هذه معانٍ علىٰ طريق «التمويه» بأن هناك فكرًا عالميًا، والحقيقة أنها كلها محاولات لإغراق الشباب المسلم في دوامة واسعة وفي أتون عميق من التبعية، وإخراجه من مفاهيمه الإسلامية اليسيرة الواضحة.

ويذهب ميشيل عفلق في الإغراق والتمويه أبعد حد حين يحاول أن يجعل من العروبة دينًا وعقيدة له قداسة وإكليروس؛ فهو يقول: إن العروبة دين عند القوميين العرب؛ لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا، ولئن كان لكل عصر نبوته المقدسة؛ فإن القومية العربية هي نبوة هذا العصر في محيطها المعرفي».

كما أنه يذهب بعيدًا في تقديس العروبة وتقديرها مع أن العروبة هي من صنع الإسلام، وأن العرب لم يكونوا شيئًا قبل الإسلام، ولن يكونوا شيئًا من دون الإسلام، ولذلك فهو يخادع ويضلل من يقول: «إن العرب دماغ الإسلام وقلبه، وإنه يستحيل وجود الإسلام من غير أمة عربية سيدة».. نعم إنَّ العرب قاموا بدورهم، وقد اختارهم الله لينزل القرآن بلسانهم، ويخرج النبي الخاتم منهم، ولكن الإسلام هو الأول والأكبر، ولا سبيل إلىٰ هذه المفاهيم التي تحاول أن تحيي العصبية والعنصرية والدماء مرة أخرىٰ بعد أن قضىٰ عليها الإسلام، وهذا هو هدف ميشيل عفلق.

لم يكن الفكر الذي طرحه البعث فكرًا عربيًا أصيلاً، وإنما كان من تلفيقات المذاهب الغربية الوافدة؛ بهدف تمييع المفهوم الإسلامي الأصيل الذي قدمه الإسلام، وإغراق الشباب المسلم في دوامات وتيارات من الفكر الوافد، وكان أخطر ما في هذا الفكر هو الخروج عن مفهوم الإسلام الأصيل الجامع بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع، ومحاولة تزييف علاقة العروبة بالإسلام؛ للادعاء بأن العروبة هي الأصل، وأن العروبة تشمل الإسلام، وأن القومية هي الأساس، وأن وعاءها يضم الإسلام، وإنكار عفلق

لأثر الإسلام المعنوي، ومن أخطائه وتجاوزاته قوله: إن القومية العربية ليست نظرية، وإنما هي التي تخلق النظريات، كل هذا قول زائف كشفت بعد ذلك حركة اليقظة فساده وفندت خطأه، فلم تكن العروبة إلا بالإسلام، والإسلام هو الذي صنعها، وإن العرب من دون الإسلام لم يكونوا شيئًا ولن يكونوا، وإن الإسلام ليس كدين الغرب الذي انعزلت عنه النظرية القومية الغربية، ولكنه منهج حياة ونظام مجتمع، وإن محاولة عفلق في التراتيل التي يريد بها إعطاء العروبة قدسية الأديان محاولة فاسدة، ولم تخدع أحدًا إلا على المدى القريب، ولم يتقبلها إلا بعض أبناء الأقليات التي يمرون معه في نفس الهوى الذي يتطلع إليه والهدف الذي يرمي إليه.

ولقد تصدعت هذه النحل وتهاوت، واحدة وراء الأخرى، مهما حاول أهلها إقامتها من جديد، وبقيت الدعوة الإسلامية ثابتة الجذور. ومهما قال عفلق: إنه كان يريد محاربة أوروبا الاستعمارية أو مواجهة إسرائيل، فإن ذلك أمر فيه شك كبير؛ لأن الدعاوى المستقاة من الفكر الأوروبي الاستعماري لا يمكن أن تكون حربًا على الاستعمار نفسه، وإن الحديث عن الاشتراكية والثورية لا يمكن أن تواجه الشيوعية والنفوذ الغربي، وإنما يمكن للعالم الإسلامي أن يفتح طريقًا إلى الأصالة عن طريق المفاهيم الحقيقية التي جاء بها الإسلام.

ولقد حاول ميشيل عفلق في المراحل الأخيرة أن يتحدث عما أسماه (قراءة جديدة للإسلام)، ولكن هل يمكن أن يؤدي ذلك إلى أن يصل إلى مفهوم الإسلام الحقيقي؟ أم أنها محاولة جديدة من محاولاته للقول بأن الإسلام جزء من العروبة؟ أم أنه أدى دوره؟ أم أنه يحاول أن يضع القومية في مقارنة مع الإسلام بينما الإسلام دين إنساني عالمي منزل من عند الله، أما القومية فهي مذهب بشري أثبتت الأيام فساده وتصدعه مهما حاول المتشبثون به أن يعيدوه على صورة أو أخرى، ولو كان ميشيل عفلق يريد حقيقة أن يقول كلمة حق فإنه يعرف تمامًا أن الإسلام وحده هو القادر على تحقيق

الوحدة، وهو القادر علىٰ رد الماركسية أو الشيوعية، ولكن كيف يكون ذلك لرجل بدأ حياته بالهجوم علىٰ الإسلام وتزييف تاريخه ومفاهيمه حين كان يعمل مدرسًا للتاريخ في مدرسة ثانوية بدمشق ١٩٣٧م.

القوميون السوريون

لا يوجد في سوريا الآن شيء يربطها بالماضي السحيق الذي يعتز به القوميون السوريون: الماضي الذي يمثله الفينيقيون بوثنيتهم وخمرهم وآلهتهم، وإن الإسلام قد أوجد (انقطاعًا حضاريًا) تامًا، وإنها بعد الإسلام - شأنها شأن مصر - قد انفصلت تمامًا عن الفرعونية والتاريخ الوثني القديم، وقد استقبلت حضارة جديدة كَوَّنَهَا الإسلام، وارتبطت فيه هذه المنطقة كلها برباط التوحيد.

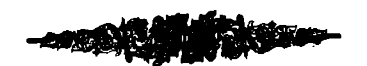
هذه الدعوة شأنها شأن كل الدعوات التي تعتمد علىٰ الأقليات العرقية، وتقول بفصل الدين عن الدولة، وتعتمد مفاهيم العنصرية والعرق والدماء، وتعتمد هذه الدعوات علىٰ:

١ - العلمانية واحتقار الأديان.

٢ - الفلسفة المادية التي تنكر وجود الله وعالم ما بعد الطبيعة.

٣ - التمويه في جمع نصوص وشذرات لتكوين نظرية باطلة.

وقد تبين أنها في مواقعها السياسية غربية الولاء؛ فقد أيدت إسرائيل، وعَادَتْ العرب والإسلام.



الفصل الثالث

تمزيق الوحدة الإسلامية بين العرب والترك والفرس

كان من أكبر مؤامرات النفوذ الأجنبي القضاء علىٰ وحدة الأمة الإسلامية القائمة تحت راية (لا إله إلا الله)، وذلك ببعث العصبية والعنصرية والاستعلاء بالعرق والدم، ومن ثم انطلقت دعوات الإقليمية والقومية وإحياء تراث ما قبل الإسلام بإحياء الطورانية في تركيا، التي كانت نقطة الانطلاق لفصم الرابطة الإسلامية الجامعة مع العرب، وفي نفس الوقت بدأت في فارس نزعة الاستعلاء بأمجاد قورش والمجوسية القديمة، وإثارة الصراع بين العرب والترك، باعتبار أن العرب كانوا فاتحين باسم الإسلام، وبروز تلك المؤامرة الضخمة التي أخذت صورة الصراع بين السنة والشيعة علىٰ ذلك المدىٰ الواسع العميق الذي كانت تغذيه مؤامرات خطيرة، وذلك حتىٰ يعمق ويستحيل الالتقاء تحت راية «لا إله إلا الله». ولقد اتسع نطاق هذه الدعوة حتىٰ بين العرب أنفسهم، فبدأت محاولات الحديث عن الفرعونية في مصر، والبابلية في العراق، والأشورية فيما بين النهرين، والفينيقية في لبنان، والبربرية في المغرب، وقد استطاع النفوذ الأجنبي استخدام هذه الدعوات وإحياء مدلولاتها، وتجنيد عدد من أتباعه لبعث ما يسمىٰ باللغات والفلسفات لهذه النِحَلْ التي تبين أنها جميعًا خيوط عربية، وموجات عربية هاجرت من الجزيرة، وانداحت في هذه المنطقة الممتدة من العراق إلىٰ طرابلس الغرب، ولقد عمدت إيران (فارس) في السنوات الأخيرة إلىٰ إحياء المجوسية والكسروية وتراث قورش بإقامة الاحتفالات الأسطورية، التي تمت عام ١٩٧١م، وكانت علامة علىٰ إحياء النزعة المجوسية التي ترمي إلىٰ القضاء علىٰ الطابع الإسلامي عامة، وهو ما أطلق عليه مهرجان الطاووس بمدينة برسبوليس

بمناسبة مرور ٢٥ قرنًا علىٰ الإمبراطور قورش - مؤسس الإمبراطورية الفارسية - ذلك الرجل الذي سمح لليهود بالعودة إلىٰ القدس، وأن يدخلوا إيران ويتكاثروا فيها، حتىٰ أصبحوا ثمانين ألفًا، وذلك بهدف تحويل إيران إلىٰ روح آرية فارسية عنصرية.

ولقد بدأت المؤامرة ضد الفرس والترك قبل المؤامرة ضد التُّرك والعرب بسنوات طويلة منذ قيام الدولة الصفوية في إيران في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، فقد نجحت أوروبا في احتواء هذا النفوذ وأوجدت الصراع بين الإيرانيين والأتراك الذين كانوا الخطر الحقيقي للغرب، وكانت المؤامرة ترمي إلىٰ تحطيمهم وتدميرهم؛ فقد عزز النفوذ الأجنبي مساعداته إلىٰ فارس؛ بهدف تحويلها عن المفهوم الإسلامي الجامع إلىٰ مفهوم القومية المتعالية بالعنصر والتي أخذت تحيي تلك الخلافات القديمة، فضلاً عن العمل علىٰ تعميق الخلاف بين مسلمي الفرس الذين اتجهوا نحو التشيع لإمكان التغلب علىٰ خصوم الغرب في تركيا العثمانية التي كانت علىٰ حد قول (كوبلربيج) حينئذ أعظم شبح يزعج أحلام أوروبا المسيحية. بل إن هذا المؤرخ يرىٰ أن فنون الحرب التي تعلمتها فارس قد منعت تغلغل العثمانيين في أعماق أوروبا، فضلاً عن انتعاش تجارة فارس مع أوروبا ومع البرتغاليين في الخليج الفارسي، ثم من بعدهم مع الهولنديين والإنجليز حين أصبح لهم النفوذ في سوق هرمز العالمية.

ومع تغذية الأوروبيين للجنسية والقومية الإيرانية (التي كانت قد اعتنقت مفاهيم الشيعة)، تعالىٰ في إيران شعور بالاستعلاء القومي الذي قام علىٰ أساس المذهب الديني، وقد تزعم الصفويون جبهة الشيعة ضد السُّنة في الغرب حيث تقوم دولة آل عثمان، وفي الشرق حيث يوجد الأوزبك والأفغان؛ فقد أعلن الصفويون أن دين دولتهم هو الإسلام علىٰ المذهب الشيعي الجعفري؛ مما كان له أعمق الأثر في انقسام المسلمين، وقد بدأ ذلك في عهد الشاه إسماعيل، فلما جاء نادر شاه حاول أن يقلل من هذا الخلاف المذهبي، ولكن جذور الخلاف كانت قد تعمقت، وكانت فارس قد احتفظت بلغتها

الفارسية التي تكتب بالحروف العربية، وفي خلال ذلك نشأت الطائفة المثقفة الغربية الفكر التي تؤمن بالعلم المادي، وبذلك اتسع نطاق التبعية الفكرية للغرب، وخاصة في مجال القومية، وسارت إيران في نفس الطريق الذي يؤمن بالعلمانية الحديثة، كما ظهرت بتأثير من النفوذ الأجنبي تيارات الدعوة إلىٰ فصل الزعامة الطائفية السياسية عن الزعامة الدينية، ويقول (كوبرتيج): إن ثقافة إيران أقامت رابطة إيرانية أكبر منها رابطة إسلامية تتمثل في شعر الفردوسي كما يتمثل في عيد النيروز.

ولقد اتكأت هذه الدعوة التغريبية علىٰ شعر الفردوسي الذي هاجم العرب، وتحدث عنهم في حقد شديد باعتبارهم فاتحين لفارس، وإن كانوا في الحقيقة هم دعاة الإسلام الذين حملوه إلىٰ إيران.

ولا شك أن النتائج كانت بعد ذلك جد خطيرة؛ فقد تعالت محاولات بث الخلاف بين الأمتين المسلمتين: الفرس والترك؛ فبدأت سلسلة من الحروب بين إيران وتركيا في ١٨٢١م، ثم كان ذلك مقدمة لتدخل الدولتين روسيا وإنجلترا عام ١٨٤٦م. في هذه الفترة كانت القوىٰ الأجنبية قد تمكنت من القضاء علىٰ الحركة الوهابية التي قامت في نجد عن طريق محمد علي.

وقد أشارت كتابات المؤرخين إلىٰ أن مصر وإيران كانتا علىٰ تفاهم تامّ علىٰ ضرورة القضاء عليها، وكان المستفيد الأول هو النفوذ الأجنبي الذي كان يخشىٰ من القوة الناشئة في مصر علىٰ يد محمد علي والقوة الناشئة في نجد والتي ترمي إلىٰ تصحيح مفاهيم الإسلام، وتحريره من الجمود والتقليد الذي كان سائدًا، وقد أرسل عباس ميرزا إلىٰ محمد علي هدية (سيفًا)، وكتب إليه أن يبذل جهده بتدمير جماعة الوهابية وعبد الله بن سعود، والاستيلاء علىٰ أراضىٰ الدرعية ونجد.

وهكذا يبدو أن كل مخططات النفوذ الأجنبي للحيلولة دون وحدة العالم الإسلامي

وتقدمه كانت تبتعد عن طريق إحياء الخلاف العنصري والقبلي، وتحريض الحكام الطامعين علىٰ اتخاذ خطوات من شأنها الحيلولة دون امتلاك الأمة الإسلامية لإرادتها، والمعروف بعد ذلك أنه قد ضربت قوة محمد علىٰ في نفارين، وأمكن التخلص من نفوذه بعد أن قضىٰ هو علىٰ نفوذ الدولة الوهابية.

ولقد سقطت إيران بعد أن تغربت في براثن الصراع بين النفوذين الروسي والإنجليزي، كما قامت الحرب بين إيران وروسيا، حيث كانت روسيا تتطلع إلىٰ كردستان وداغستان ١٧٩٦م و١٨٢٤م.

وقد بدأ التدخل الإنجليزي في شؤون إيران في عهد محمد شاه، عندما أبدت إنجلترا عدم رضائها عن فتح هراه ١٨٣٨م؛ بسبب مجاورة هراه (أفغانستان) للهند، فرفع الشاه الحصار وعاد إلىٰ إيران، وآخر الأحداث التي تجلىٰ فيها التدخل الإنجليزي وقعت في أوائل عصر ناصر الدين شاه عام ١٨٥٦م، وذلك عندما استولىٰ الأسطول الإنجليزي علىٰ جزيرة خارل. ونزل الجنود الإنجليز علىٰ ساحل بوشهر، واستولوا علىٰ الميناء لإجبار إيران علىٰ الجلاء عن هراه، وقد ظل التنازع علىٰ النفوذ بين روسيا وإنجلترا منذ ١٩٠١م، واستطاعت القوىٰ الأجنبية إغراق إيران في الديون، فكانت القروض تأتي من البنك الإنجليزي ومن المصرف الروسي، وكان الحكام يذهبون بعيدًا في الخضوع والتبعية للنفوذ الأجنبي.

ويُرْجِع كثير من الباحثين إعادة فتح باب النزاع بين السنة والشيعة إلىٰ إسماعيل الصفوي (١٥٠٠ - ١٥٢٤م)، الذي عمل علىٰ إعلاء شأن الإيرانية علىٰ الإسلامية، وقد بدأ منذ تلك الفترة موضوع التمايز بين المجتمعين العربي والإيراني في كل مظهر من مظاهر الحياة، وتطور النظام الإيراني من نظام إسلامي يعمل علىٰ نشر دعواه بوسائل التبشير السلمية إلىٰ قوة سياسية تعمل علىٰ بسط نفوذها، وكان هدف إسماعيل الغزو

المسلح لكل أرجاء العالم الإيراني، وإنه رأىٰ أن يستخدم قواته لكي يفرض عقيدة الأقلية الشيعية للمجتمع الإيراني علىٰ الأغلبية السنية بالقوة المحضة.

وتطور النظام الصفوي إلىٰ هذه الوجهة، وأمكن لإسماعيل أن يُخضع كل القوىٰ والإمارات، ولم يجد من يزاحمه علىٰ سيادة منطقة امتدت من إقليم سيراوان في جنوب القوقاز حتىٰ إمارة «قره مان» عند الحد الجنوبي الغربي للصحراء «واس لوط».

ولقد حاول الشاه إسماعيل نقل الدعوة الشيعية إلىٰ الأناضول؛ أملاً في أن يتولىٰ سلطان جديد تربطه به نفس الروابط السياسية والدينية، ولكن هذا العمل كان مدعاة إلىٰ اتساع نطاق الخلاف، ومضت المحاولة إلىٰ غايتها من حيث أخذ الصفويون يهددون حدود الإمبراطورية العثمانية، ووقعت الحرب ١٥١٤م، ونتج عن الهزيمة الساحقة للصفويين أن أصبح العالم الإيراني كله في قبضة السلطان سليم.

ولمَّا تَبَيَّن أنه لا يمكن لإحدىٰ القوتين السيطرة علىٰ الأخرىٰ، حاولت إحدىٰ القوتين أن تقلب ميزان القوة لصالحها بالتوسع علىٰ حساب قوة ثالثة ضعيفة، هي العراق، وهكذا استطاعت القوىٰ الغربية أن تعمق الصراع بين الدولتين الإسلاميتين، وأن تُوجِدَ الهوة الواسعة بينهما، ويرىٰ المؤرخ «توينبي» أن الاتفاق جاء نتيجة انتعاش المذهب الشيعي كقوة سياسية عسكرية علىٰ عهد إسماعيل الصفوي، وأن الاستراتيجية العثمانية حاولت أن تقف ضد القوة الشيعية التي كانت موجهة ضد الأغلبية السنية في العالم الإيراني، ويرىٰ البعض أنه لا توجد دلائل علىٰ أن إسماعيل الصفوي كان ينوي غزو أراضي الدولة العثمانية، ولكنها مؤامرات النفوذ الأجنبي التي لا تريد أن يلتقي العالم الإسلامي في وحدة جامعة.

وقد تجدد التآمر علىٰ العالم الإسلامي علىٰ أثر الخطوات التي بدأها السلطان عبدالحميد في توحيد العالم الإسلامي، وإجراء الصلح، وإزالة الخلاف مع الدولة

الإيرانية الشيعية، وإقامة مشروع «يا مسلمي العالم اتحدوا»، وكانت فكرته أن يلتقي المسلمون جميعًا من خارج الدولة العثمانية التي تجمع بين العرب والترك في وحدة جامعة، وأزعجت خطواته ومبعوثوه وسراياه العلمية والثقافية التي أرسلها إلىٰ مختلف أنحاء العالم الإسلامي الغربَ والصهيونيةَ، وكان أخطر أعماله بناء خط حديد الحجاز، ومن هنا تآمر الغرب عليه قبل إتمام خطته وعزله، وذلك لفتح الطريق إلىٰ الصهيونية في فلسطين، وتقسيم ميراث الدولة العثمانية، وتمزيق الوحدة الإسلامية الجامعة بين الترك والعرب، والتي بدأت علىٰ أيدي الاتحاديين (حلفاء المحافل الماسونية والخاضعين لتوجيهها) بالدعوة إلىٰ الطورانية والذئب الأغبر، وإثارة الشبهات حول الرابطة الإسلامية علىٰ النحو الذي بدأه الاتحاديون قبل عزل السلطان عبد الحميد ١٩٠٩م وبعده، وأتمه علىٰ أكمل وجه أتاتورك بعد الحرب العالمية الأولىٰ ١٩٢١م.

ولا ريب أن هذه المحاولات كلها قد آتت ثمرتها علىٰ يد الشاه (بهلوي) الذي أعلن أنه يسير علىٰ طريق أتاتورك، وبذلك سقطت إيران وتركيا في التبعية الغربية، ونجحت محاولة تغريبهما وإخراجهما من حظيرة الجامعة الإسلامية والوحدة الإسلامية إلىٰ تبعية غربية خطيرة، تحقق ذلك لتركيا عام ١٩٢٤م، بإلغاء الخلافة، وتحقق لإيران علىٰ المدىٰ الطويل وفي حكم بهلوىٰ ١٩٦٠م، وقد جرىٰ التحول سريعًا في تركيا وإيران بعد أن تبين فساد الاتجاه الذي فرضه الغرب، وقال باحث أمريكي عن نتيجة الثورة في إيران والتحول في تركيا: إن المسلمين عندما أعادوا تقييم ما حصلوا عليه من الغرب، وعندما أخذوا في مراجعة تجربتهم مع الغرب خلال السنوات السبعين أو المئة الماضية، وجدوها فاسدة ومضطربة وفاشلة، وإن محاولة الغرب في احتوائهم بقوانينه الوضعية وأسلوبه في التربية والتعليم قد نتج عنه اضطراب شديد، ولم يحقق لهم أي تقدم حقيقي أو امتلاك لإرادتهم، وقد تبين لهم اليوم فساد هذه التجربة، ظهر ذلك في تجربة أتاتورك في تركيا والشاه في إيران وفي تجربة الدكتاتوريين في أجزاء أخرىٰ من

العالم الإسلامي، وفي فساد تطبيق الديمقراطية في بعض الدول وفساد تطبيق الماركسية في أجزاء أخرىٰ، ولذلك فهم ينطلقون إلىٰ أفق جديد ويرون أن التماسهم لأصالتهم ولمنهجهم الأصيل الذي نشأوا في أحضانه، وهو الإسلام، هو وحده الذي يستطيع أن يعطيهم القوة والقدرة والحيوية والاتساع في مجال الفكر والقانون ما لا تستطيع أن تعطيهم إياه الأيديولوجيات، وقد أصبح ذلك أمرًا ضروريًا، وعلىٰ الغرب أن يعرف ذلك.

إن ما جدث من حروب بين العراق وإيران ليس نتيجة حالة حادثة، وإنما هو عمل قديم دبر له النفوذ الأجنبي منذ عام ١٥٠٠م، حين مزق وحدة المسلمين إلىٰ سنة وشيعة، وأخذ يغري كل فريق بالآخر لإضعاف الخلافة الإسلامية في تركيا، باعتبارها يمكن أن تكون مصدر وحدة العالم الإسلامي كله، وكانت العراق في هذه المعارك تواجه أقسىٰ المتاعب باختراق الفرس لها وصولاً إلىٰ تركيا واختراق الترك لها وصولاً إلىٰ فارس، ثم جاءت مؤامرة القوميات لتعمق هذا الخلاف إلىٰ هذا الحد الذي نراه الآن داميًا وعنيفًا، وما يمكن أن يقال: إن الإيرانيين الآن هم أشبه بأولئك الذين كانت القادسية فتحًا لهم في الجاهلية وتحريرًا من الوثنية، هذا مثال لا يتطابق والحقيقة، كيف والذين يقودون العراق خاضعون للبعث ولهم ولاء لرجل مسيحي يضعونه فوق رؤوسهم قائدًا لهم هو ميشيل عفلق؟ وهم لا يقودون العراق من منطلق الإسلام، بل من منطلق حزب يكاد يكون أكبر حملة عداء للإسلام في العصر الحديث.

تغريب إيران

واجه الإسلام مؤامرة التغريب التي خطط لها النفوذ الأجنبي للقضاء على الطابع الإسلامي في الأمة العربية إلىٰ جانب تمزيق الوحدة الإسلامية الجامعة، وقد واجهت إيران وتركيا صورتين مختلفتين في هذا الأسلوب وإن كانتا متفقتين في الغاية، فقام علىٰ مؤامرة تركيا كمال أتاتورك، وقام علىٰ مؤامرة إيران رضا شاه الذي اعتلىٰ عرش إيران ١٩٢٥م، وكانت نقطة البداية حين استطاع أن يدخل العالم طهران ١٩٢١م ليضع حدًا لأحداث العنف التي قام بها الشيوعيون هناك، ثم لم يلبث أنْ عَيَّنَ نفسه قائدًا عامًا للجيش، ثم أصبح رئيسًا للوزراء، حتىٰ استطاع أن يقلب عرش آخر ملوك أسرة قاجار، ويُنَصِّبُ نفسه علىٰ البلاد، ويتخذ لنفسه لقب (شاهنشاه) أو ملك الملوك، وظل يحكم إيران بنظام كان أقرب إلىٰ الفاشية العسكرية منه إلىٰ شيء آخر، حيث كان رضا خان أسير إعجابه بشخصية زعيمين بارزين من زعماء ذلك العصر هما (أدولف هتلر) - الزعيم الألماني النازي - و(كمال أتاتورك) - الزعيم التركي الشهير - فنقل عنهما أسلوب العنف في فرض برامجه الإصلاحية التي كان يحاول بها أن يدخل بإيران أبواب النصر الجديد دون أن يأخذ في اعتباره بحكم ثقافته المحدوده طبيعة المجتمع الإيراني التي تحتم اتباع أسلوب خاص يكون بين مجتمع يقوم علىٰ الأقليات الدينية المتعددة، والتقاليد الإقطاعية، والقيمة الراسخة، وعلىٰ طبيعة رجال الدين الذين يجمعون بين صفة الإقطاع والسلطان الديني الذي يتمتعون به وسط أكثرية تعتنق المذهب الشيعي وتصل نسبتها إلىٰ ٩٠ في المئة من مجموع سكانها، أورثها مقتل الإمام الحسين الشعور بعقيدة الذنب، وفرض عليها أسلوبًا خاصًا من التكفير عن الذنب، وغياب الإمام الثاني عشر، الذي ما زالت تنتظر عودته التي طالت؛ مما يحتم عليها أن تكون طوع إرادة من يقومون علىٰ رعاية المذهب الشيعي حتىٰ يعود الإمام الغائب، وتجد من واجبها

أن تقدم بنفس راضية وقلب مطمئن خُمس ما تكسبه من صافي تجارتها وزراعتها إلىٰ القائم علىٰ أمر المذهب الشيعي.

ولكن رضا شاه تجاهل كل هذا، وراح يفرض برامج الإصلاح بالعنف والقسوة، ويطلب من المرأة أن تتخلىٰ عن حجابها الذي عاشت خلفه أزمانًا طويلة، حتىٰ إنه كان يُخَوِّلُ لرجال البوليس أن ينتزعوا بالقوة (الشادور) - وهو الزي الوطني التقليدي للنساء - عن كل امرأة تخرج به إلىٰ الشارع، كما حاول انتزاع المجتمع الإيراني من تحت سيطرة رجل الدين بفرض علمانية الدولة وتجاهل تلك المادة التي تضمنها دستور ١٩٠٦م، التي تُحَتِّمُ تشكيل هيئة دينية عليا من خمسة من علماء المذهب الشيعي الكبار تعرض عليهم قوانين البلاد قبل عرضها علىٰ البرلمان؛ لكي يقولوا رأيهم فيها؛ حتىٰ لا تتعارض مع أحكام المذهب الشيعي.

ولقد كان رضاخان يترسم خطىٰ كمال أتاتورك، وكان يحاول أن يجعل من إيران نِدًا لتركيا ونظيرًا لها في كل شيء حتىٰ في حركة التتريك التي قام بها أتاتورك وحاول استئصال اللغة العربية من اللغة الإيرانية ليقطع كل صلة بين إيران وأصولها الإسلامية، ولكي يعود بها إلىٰ حضارة الفرس القديم، لولا أن وقف له الشعب؛ فتراجع عن إلغاء الحروف العربية.

وحاول الاتصال سرًا بدول المحور مما أغضب عليه الحلفاء؛ فقرروا خلعه عن العرش، وبعثوا له بورقة التنازل مع إحدىٰ الشخصيات الوطنية التي سبق له أن أهانها، وخرج رضا خان يحمل حقائب مملوءة بالأموال والمجوهرات، حيث سافر بعد أن جُرِّد من مجوهراته إلىٰ جوهانسبرج، حيث مات هناك ونقل جثمانه إلىٰ مصر، إلىٰ أن أعيد إلىٰ طهران حيث أُقيم له مثوىٰ فخم، وأصبحت زيارة قبره ووضع أكاليل الزهور عليه من فروض المراسيم التي يتبعها أبناء الشعب الإيراني.

وقد اعتمد رضا خان في حكم إيران علىٰ الجيش بصورة مطلقة، وجعلهم نجوم البلاط الإمبراطوري، وأقطعهم الأرض، وقَصَرَ عليهم المناصب، وجعلهم أساتذة ومربين لأبنائه، وخلق منهم طبقة أستقراطية تفرز له أجيالاً تشكل منها نخبة مختارة تسند إليها القيادة، ويصبح الفن والوظائف والتعليم وقفًا عليها.

وكانت وزارة البلاط في عهد رضا خان وفي عهد ابنه من بعده هي المخوَّلة بصناعة هذه النخبة وتكوينها والحفاظ عليها؛ فهي التي تنتقي أفرادها من بين القيادات التي يبشر نشاطها بالتفوق، فتستدرجها إلىٰ عالم الأضواء والشهرة والثروة لتستأصل جذورها الطبقية وتربطها بعجلة العرش، ومن هنا تكونت طبقة الإقطاعيين التي كانت تمثل واحدًا في المئة من مجموع الشعب الإيراني، ولكنها تملك وتحكم في ٨٠ في المئة من موارد إيران وثروتها القومية.

وكان أفراد الأسرة المالكة يأتون علىٰ رأس هذه الطبقة، وكان يفرض لكل مولود يولد من أفراد هذه الأسرة منذ ربع قرن مخصصات سنوية تقدر بمليون دولار غير الفيلات والقصور والسيارات والطائرات والمجوهرات.

هذه السياسة التي اتبعها رضا خان تابعها وزاد منها ابنه محمد رضا بهلوي، وأخذت حجمًا أكبر بعد أن بدأت خيوط المعارضة تتجمع ضد الشاه منذ أُعِيدَ إلىٰ عرشه عام ١٩٥٣م بعد أن اضطر للهرب إلىٰ روما علىٰ أثر نجاح حركة مصدق، وانتشار العنف، ومحاولات الاغتيال التي سادت (طهران) آنذاك، ولقد كان خوف الشاه من الثورة الشيعية دافعًا له لإقامة أجهزة الأمن المتمثلة في (السافاك)، والتي أصبحت إحدىٰ العلامات المميزة لحكمه، حيث ذهبت الأقوال حول عددها وإمكاناتها مذاهب شتىٰ قدرها البعض بثلاثة ملايين فرد، بينما صحح الشاه هذا الرقم بقوله: إنها لا تزيد علىٰ ثلاثة آلاف.

وكان هناك مثل إيراني يقول: إنه إذا اجتمع ثلاثة في مكان كان من بينهم أحد رجال السافاك التي كانت تتغلغل في كافة أجهزة ونشاطات الدولة، وتملك من الوسائل التي تستخدمها للتجسس وإلقاء القبض على المواطنين وانتزاع الاعتراف منهم بشكل لا يتسع له الوصف، حتى إن هذا الجهاز بقي يعمل حتى صرح بعد ثورة الخميني أنه من الصعب التوصل إلى مواقع الأجهزة التي زرعها السافاك، وقد دخل زنزانات السافاك خلال حكم الشاه نصف مليون شخص، ولذلك لم يستطع محمد رضا بهلوي وقد ورث عرشًا مثقلاً بأخطاء أبيه وقسوته وميراث العنف الذي تركه له أن يقيم مراسم توليه العرش عام ١٩٤١م، ولم يفعل إلا في ١٩٦٧م.

أقام هو وأتباعه آلاف القصور التي يتعذر على الإنسان وصفها لروعة مبانيها وحدائقها وأثاثها ومساحاتها، ويكفي أن نذكر أن قاعة واحدة في إحدى هذه القصور قد بلغت تكلفتها نصف مليون من الدولارات، وقد أقام الشاه في إحدى الجزر الإيرانية مدينة تضارع أكبر أندية القمار في العالم، وهي جزيرة كابري، بينما لا يوجد منزل واحد في هذا الجنوب يشرب أهله ماءً نقيًا، وأن أناسًا يبيعون أولادهم لأنهم لا يمتلكون ما يعولونهم به، وأن هناك تقتير في مجال الإنفاق على التعليم ليبقى التعليم قاصرًا على النخبة التي أريد لها أن ترث العلم والثروة والسلطة، وحتى لا يتسرب إليها أبناء الرعاع الذين يحملون معهم بذور الثورة وأفكارها، ولكن هؤلاء الرعاع تمكنوا أخيرًا من هَزِّ عرش الطاووس، وجر تمثال الشاه على وجهه في ساحة الجامعة، وإشعال النيران فيه.

وقد عمد محمد رضا بهلوي إلى إغلاق الموارد المالية لرجال الدين؛ فانتزع منهم الأوقاف التي كانت رهن تصرفهم إمعانًا في هدم نفوذهم.

وقد كشفت التحقيقات التي جرت بعد سقوط حكم الشاه عن خطة خطيرة لتغريب إيران وتحويلها عن وجهها الإسلامي وروحها الإسلامية، وإحياء النظام المجوسي

القديم السابق للإسلام في مجال التاريخ والحضارة والفكر، فضلاً عن الولاء المزدوج والتبعية للغرب وإسرائيل، وكيف عمل الشاه علىٰ استنزاف ثروة البلاد الضخمة في بناء ثروته الخاصة التي أطلق عليها اسم مؤسسة بنياد بهلوي، والتي بلغت قيمتها نحو ١٣٣ مليون دولار، تشمل شركة بواخر الخليج، وبنك التنمية والتعاون الإيراني، ومؤسسة المطبوعات، وشركة التأمينات، ومصنع جلستان لتكرير السكر ومصانع الأسمنت في إقليمي فارس وخورستان، بالإضافة إلىٰ عشرات الفنادق ومئات المطاعم والنوادي الليلية، وشركة الطيران الإيرانية، وكيف اتفق الشاه علىٰ إقامة مدينة الخيام علىٰ مساحة أربع مئة فدان، تلك الخيام المكيفة الهواء، والتي ثبتت علىٰ قواعد تحملها، أعدت لاستقبال نحو ٢٠ ألف مدعو منهم ١٢٦ من رؤساء وملوك الدول، وكانت الطائرات الإيرانية تحضر لهم كافة الأطعمة والمشروبات من مطاعم مكسيم الشهيرة في باريس وقد بلغ عدد زجاجات النبيذ التي استهلكت في أثناء الاحتفال ٢٥ ألف زجاجة، وذهبت أكثر التقديرات إعتدالا حول التكاليف الفعليه لهذا الاحتفال إلىٰ أنها بلغت نحو مئة مليون دولار في الوقت الذي تعيش فيه القرىٰ الإيرانية وحتىٰ جنوب طهران محرومة من أبسط مظاهر الرعاية الاجتماعية حيث يعيش جميع أفراد الأسرة في غرفة واحدة، كذلك تحدثت الأخبار عن عمليات التهريب الضخمة التي قامت بها شخصيات إيرانية بارزة، وقد بلغ مجموع ما احتوته القائمة التي أعلنت من مبالغ مهربة ثلاثة عشر مليارًا وثلاث مئة وأربعين مليونًا وأربع مئة ألف دولار، كما كشف عن أرشيف ضخم من أفلام الجنس وكتب الجنس التي كانت تعرض وتباع دون أية رقابة أو قيود لإلهاء الشباب الإيراني عن الواقع المؤلم الذي كانوا يعيشون فيه، وقد بلغ من ضعف الثقة في تدين الشاه وحقيقة إيمانه أن اتهم بالإلحاد وباعتناق المذهب البهائي الذي كان يقدم كل الدعم والتأمين لأتباعه البارزين الذين كانوا يحتلون المناصب القيادية في الدولة، وعلىٰ رأسهم (أمير عباس هويدا) الذي تولىٰ رئاسة الوزراء في إيران

لمدة ثلاثة عشر عامًا متصلة، والجنرال إيادي - المرافق العسكري الخاص للشاة ومدير شركة الطيران الإيرانية، ووزير الاقتصاد، ووزير الزراعة - وغيرهم، فضلاً عما كشفته أطنان الوثائق السرية عن أعمال التجسس والخيانة والرشوة والصفقات السرية والفساد الأخلاقي والتهريب وتجارة المخدرات التي كان يعتبر الأمير أشرف بهلوي أبرز المسيطرين عليها والمروجين لها.

يقول غسان كنفاني: إن أهداف «رضا شاه» كانت غامضة ومشبوهة منذ البدء؛ فقد أطاح بالعائلة الإمبراطورية القاجارية وأرسىٰ مكانها العائلة الإمبراطورية البهلوية، وكان في البدء ضد خرق العائلة القاجارية للدستور وحُرْمَة البرلمان، ولكن فعل الشيء ذاته منذ صار وزيرًا للحربية حتىٰ وصل إلىٰ العرش.

وكان ضد النفوذ الأجنبي الروسي والبريطاني اللذين هيمنا علىٰ العرش القاجاري، ولكن انتهىٰ إلىٰ السقوط نهائيًا في النفوذ البريطاني والأمريكي حين وصل إلىٰ العرش. لقد ظل تاريخ رضا شاه غامضًا.

ويتساءل عن أهم الصفات التي كونت زعامة رضا شاه، واستطاعت أن توصله من قرية صغيرة اسمها الجبل الأسود إلىٰ عرش إمبراطوري في المنطقة، ويبدو أن معظم قوة رضا شاه كانت من الخارج، وأن صفة وحيدة استطاعت أن تصنع هذه القوىٰ الخارجية في خدمة الشخصية، وهي عناده القبلي الذي لا حَدَّ له، والذي يترافق بقدرة غير عادية علىٰ البطش دون رحمة، هذه الصفة الرهيبة كانت مرافقة لسلوك رضا شاه طوال عمره، وقد أمضىٰ رضا شاه معظم عمره يقاتل في جهات إيران الأربع حروبًا متواصلة طابعها الوحيد الرعب والقسوة اللامتناهية، وكان يحكم إيران حكمًا حديديًا بواسطة جهاز من الجواسيس والقتلة السياسيين، وقال: إن بريطانيا التي شجعت رضا شاه ليصل إلىٰ طهران في أوائل العشرينيات ويهز عرش آل قاجار عادت فتحفظت أمام

هذا الضابط العنيد الطموح، ثم بدا يبطش بزعامات الدين والجماعات بعد أن استعان بها في الوصول إلىٰ عرش إيران.

وأبرز ما حمل لواءه رضا خان الفكرة الإقليمية المستمدة من عصور ما قبل الإسلام، والإعجاب بكل ما هو غربي مهما خالف التقاليد والأوضاع القويمة، وهو نفس الهدف الذي سار فيه كمال أتاتورك في تركيا لتمزيق الوحدة الإسلامية والقضاء علىٰ الخلافة.

كانت خطوات رضا خان مقدمة لخطوات ابنه الذي قطع مراحل بعيدة في تغريب إيران وتعميق غربتها وتغريبها، وردها إلىٰ عصر المجوسية وإحياء شعائره في خطوات متصلة، حتىٰ غلب طابع النزعة المادية المتطرفة للحياة الاجتماعية علىٰ حد تعبير مؤلف كتاب إيران الديكتاتورية (فريد هيليري) حين يقول: إن المثقفين كانوا ثائرين علىٰ الشكل المحدد من الثقافة الغربية التي كانت تستورد إلىٰ إيران، ولذلك تطلع عدد محدود من هؤلاء المثقفين إلىٰ العودة إلىٰ الماضي، إلىٰ القيم الإسلامية، وكان الذين يدعون إلىٰ قيم ما قبل الإسلام يعتنقون أفكارًا قومية متعصبة مناهضة للعرب، وأن هناك مؤشرات عديدة للضغوط النفسية التي يشعر الطلاب والمتعصبون في إيران بأنهم متعرضون لها، خمس وسبعون في المئة من جميع حالات الانتحار في إيران تقع بين أفراد تتراوح أعمارهم بين ١٥ - ٣٠ سنة، وإدمان الهيروين يتزايد، والمعتقد أنه توجد في إيران أعلىٰ نسبة من الإدمان علىٰ هذا المخدر بعد الولايات المتحدة، وقد سيطر الشعور بالتشاؤم بسبب هذه الضغوط علىٰ الأدب الإيراني المعاصر».

لقد امتد الاتجاه نحو العلمانية والإعجاب بالحضارة الغربية وعمق خلال خمسين عامًا متصلة، وحيث ألغي القانون الإسلامي، وفصل بين التعلم الديني والمدني، متحدين جميع الجذور الإسلامية في ضمير الشعب الإيراني، ولم تكن حركة مصدق ذات أيديولوجية إسلامية. وقد أعيد الشاه بعد هرب بمؤامرة أجنبية علىٰ شكل انقلاب

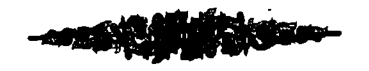
عسكري ليقود نظامًا دمويًا رهيبًا لتثبيت حكمه، وقد أصبح النفوذ والتأثير علىٰ الساحة الإيرانية لأمريكا، ولم تكن الثورة البيضاء التي أعلنها الشاه إلا تمويهًا وخداعًا لتثبيت وجوده، وقد أعلنت الأغلبية المسلمة معارضتها لهذه الشعارات البراقة، حيث عملت القوىٰ علىٰ أن يظل الشعب الإيراني متخلفًا، وأن يهجر ثقافة القرآن والإسلام، وأن تسود الفحشاء والفساد في كل مكان.

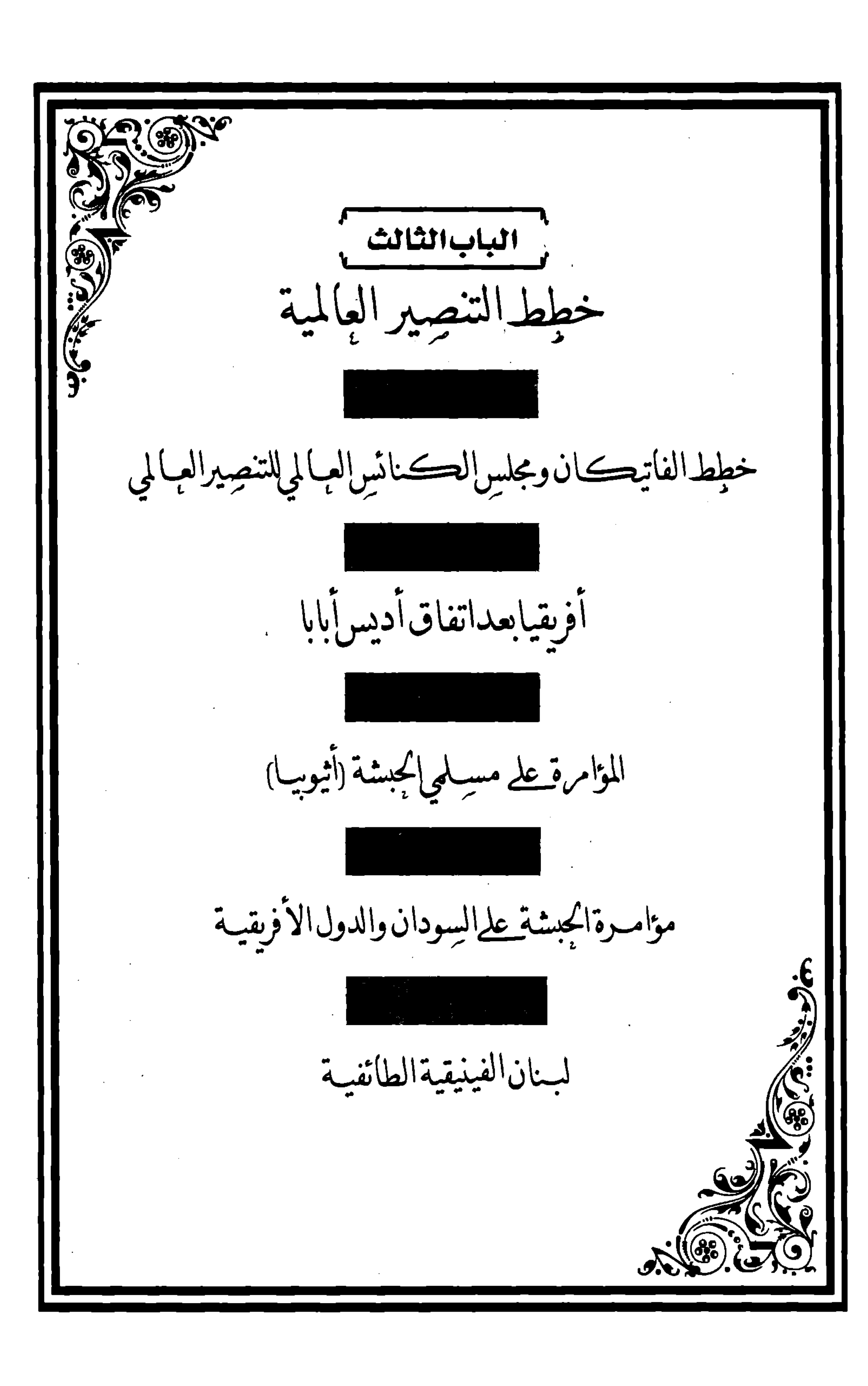
والمعروف أن حكم الشاه التغريبي قد استغل ظاهرة الفارسية، وبدأ يحيي نعرة القومية والإمبراطورية الفارسية، حتىٰ إن عملية التاريخ الإسلامي توقفت تمامًا، وأصبحت الفارسية هي السنة الرسمية، وهي تبدأ من قيام إمبراطورية فارس حتىٰ الأعياد؛ فقد كانوا يحجبون السنة الهجرية، ويحتفلون برأس السنة الفارسية، وهو ما يسمىٰ بالنيروز، ومثلما يحدث في تونس عن قرطاج، وفي مصر عن الفراعنة، كانوا يتحدثون هناك بلهجة أقوىٰ وأحد عن الأكاسرة والإمبراطورية الفارسية، وكان العرب محل كراهية كبرىٰ من طرف الإيرانيين، ويتحركون من منطلق عنصري خطير يتمثل في أن العرب هم ألدّ الأعداء؛ لأنهم هم الذين قضوا علىٰ حضارتهم الفارسية، ومن هنا كان ما يقولونه في الصحف والإذاعة والتلفزة من أن الإمبراطورية الفارسية دامت ثلاثة آلاف سنة، ولم تهزم إلا من طرف العرب، ولم تدخل تحت أي استعمار إلا ما يسمونه الاستعمار العربي، (وهو ليس استعمارًا عربيًا بل هو دين الإسلام)، وكان الشاه الإيراني يقول لصحيفة أمريكية: «الإمبراطورية لم تدخل تحت أي استعمار»، وكانت مخططاته أن تصبح إيران عام ١٩٨١م خامس قوة عسكرية في العالم، ومن هذا الشعور بالجفوة ثمة مركب نقص، هذه الجفوة تجاه العرب تكشف عن كراهية مخبأة للإسلام نفسه.

وقد تطورت الفكرة الشعوبية المسماة بالقومية الفارسية تطورًا كبيرًا، وغذاها البهائيون أعداء الإسلام، وبرز منهم قادة ورؤساء حكومات، وعززت فكرة الفارسية

في اللغة والبرامج التعليمية، وساعد العرب على هذه الجفوة بالاتجاهات القومية والاشتراكية وسوء العلاقات بين مصر وإيران طوال عهد عبد الناصر، وعلاقات وطيدة مع إسرائيل.

وكان وراء إيقاد النار روسيا والصهيونية العالمية وكل القوي العالمية التي لا تريد أن تمتد سماحة الإسلام فتمسح القلوب المسلمة عربية وإيرانية؛ لأنها كلها تجمعها كلمة التوحيد، بل ذهب العرب في العراق إلى حد بعيد في تقليد نعرة العروبة والقومية بمفهوم البعث المضل، وظهرت نعرة القومية في سوريا ومصر، وتعالت صيحات العنصرية والقومية مما لا يقره مفهوم الإسلام الصحيح، وانحازت أمريكا وإنجلترا إلى إيران، وشجعاها على السير في هذا الاتجاه؛ مما أدى إلى ذلك الصراع العسكري العنيف القائم الآن بين الدولة الإسلامية في إيران والدولة البعثية في العراق.





الباب الثالث

خطط التنصير العالمية

خطط الفاتيكان ومجلس الكنائس العالمي للتنصير العالمي

أفريقيا بعد اتفاق أديس أبابا

المؤامرة على مسلمي الحبشة (أثيوبيا)

مؤامرة الحبشة على السودان والدول الأفريقية

لبنان الفينيقية الطائفية

الفصل الأول

خطط الفاتيكان ومجلس الكنائس العالمي للتنصير العالمي

تقود الكنيسة الكاثوليكية (الفاتيكان) خطة خطيرة عرفت في مطالع القرن الخامس عشر الهجري باسم حركة التنصير العالمية، وأن البابا يتحرك تحركًا واسعًا في سبيل دعم هذه الخطة، وهم يضعون مخططات لإتمام هذه السيطرة في عقود قليلة من الزمن، ويركزون علىٰ مناطق خطيرة في العالم الإسلامي، ويجعلون جنوب شرق آسيا مطمعًا لهم، كما يقومون بنشاط واسع في أفريقيا والخليج العربي، أدواته المدارس والكنائس والموظفون النصارىٰ، وفي أندونيسيا أدت دعاوىٰ التقليل من الخطر الصليبي إلىٰ جعل أندونيسيا ساحة للنفوذ الكنسي بكل أنواعه، وزود النشاط الكُنسي هناك بأساطيل بحرية وجوية تغزو الوديان والجبال، وبعشرات من الجامعات والمستشفيات، كما خطط مجلس الكنائس العالمي لإعلان أندونيسيا دولة مسيحية عام ٢٠٠٠م، وفي منطقة الخليج أقيمت أكثر من سبعين مدرسة ومعهدًا ومركزًا تنصيريًا، وتتعهد هذه المراكز بتنصير المسلمين وتشكيكهم في دينهم وتحبب إليهم النصرانية، ويجري إغراق الخليج العربي بخبراء ومستشارين وإداريين ومقاولين ووكلاء شركات نصارىٰ. ويقول الدكتور كامل الباقر - مدير الجامعة الإسلامية بالخرطوم -: إن أخطر الأساليب التي تتخذها حملات الغزو الفكري في أفريقيا هي نظم التعليم في المراحل المختلفة، ومناهج التعليم نفسها في تلك البلاد؛ ذلك أن السياسة الاستعمارية كانت تهدف إلىٰ طرح فلسفاتها وغرسها في أبناء أفريقيا عن طريق المدارس والجامعات، وهي لذلك فرضت فلسفتها ولغتها ومناهجها، وكذلك محاربة اللغة الأصلية لشعوب

هذه البلدان، ومحاربة تراثها وثقافاتها عمومًا.

ويجري تجنيد عدد كبير من أبناء البلاد للعمل علىٰ تنفيذ المخططات الاستعمارية وأهدافها، وهم الذين يعارضون فكرة الدولة الإسلامية، ويعارضون تطبيق النظام الإسلامي، وهم الذين أوحت لهم هذه المدارس بأن الإسلام، وأن الأديان لا علاقة لها بالحياة ولا الدولة، ومن ثم فالدين يجب أن ينفصل عنها، وإن الدين شيء مختلف، إنه علاقة روحية بين الرب والعباد، وإنه لا علاقة له بالحياة، (وإشاعة مجموعة من الشبهات عن موقف الإسلام من العلم). ولا ريب أن فكرة أن الدين ضد العلم فكرة استعمارية قديمة، والدعوة للفكر الملحد عن طريق دعاة اشتراهم الاستعمار يتحول تدريجيًا إلىٰ أحزاب سياسة أو خلايا شيوعية، وقد نجح الشيوعيون في تكوين جيل فكري جديد عن طريق النشاطات الفكرية والثقافية، وعن طريق خلق خلايا تؤمن بهذه الأفكار في الجامعات والمدارس الثانوية، والغرب يشجع التنصير، ويعمل جاهدًا لنشر المسيحية، ويستغل دعوته المسيحية لتنفيذ أغراضه السياسية ومحاربة الإسلام. أما الشرق فلا يؤمن بالمسيحية ولا بالإسلام، ويعمل في مجال الفقراء في جنوب السودان، حيث لا يحتاج الشخص هناك إلىٰ أكثر من أن تعطيه قطعة قماش يلبسها أو جرعة دواء، ولو اتخذنا نفس الأسلوب الذي تتخذه الكنائس في التعامل مع هؤلاء؛ لكسبنا أرضًا جديدة للإسلام، وتعد وسائل الإعلام من أخطر أنواع الغزو الفكري، فالكتب والنشرات والأجهزة المسموعة والمرئية من راديو وتلفاز وصحف، هذه كلها وسائل لنشر الدعوة الإسلامية في مواجهة هذه التيارات ا.هـ.

ومن الظواهر الخطيرة التي تعين علىٰ تنفيذ مخطط التنصير العالمي، وهو أن الشعوب الإسلامية في أفريقيا تحكمها قلة من النصارىٰ، وتفرض هيمنتها علىٰ المسلمين الذين يشكلون ٩٠ في المئة علىٰ الأقل من السكان كالسنغال مثلاً. وهنالك ظاهرة التعاقد بين البعثات التبشيرية والأسر، تقدم بموجبها تلك البعثات التبشيرية إلىٰ

الأسر مساعدات عينية ضئيلة (من أرز مثلاً) علىٰ أن يكون لها حق اختيار طفل من أطفال الأسرة تربيه علىٰ حسابها، ويكون في العقد مادة تنص علىٰ أن الأسرة مُجبرة علىٰ رد هذه المساعدات وعلىٰ دفع نفقات ابنها وتعويضات تعليمة إذا هي خالفت شروط العقد (بطلب استرداد ابنها مثلاً)، وتختار البعثة التبشيرية من أطفال تلك الأسرة صبيًا دون الخامسة من العمر، ثم ترسله إلىٰ مدرسة تبشيرية طبعًا، وتنقطع الصلة بينه وبين أهله، ثم ينشأ نشأة مسيحية، ثم ترسله إلىٰ فرنسا لإتمام تعليمه العالي، بعد ذلك يعاد إلىٰ البلاد (السنغال مثلاً)، ليستخدم في الأغراض التي توافق هوىٰ الدولة الأجنبية المتبناة (فرنسا مثلاً)، وحينما يعود الصبي الذي أصبح رجلاً (مسيحيًا فرنسيًا) إلىٰ السنغال يملك حق المواطن الفرنسي في المجتمع من حيث المستوىٰ والوظائف وكلمة (سانجور) معناها (سان جورج)، أي القديس جورج، ورئيس الجمهورية يكون مسيحيًا، ولكن أبويه وإخوته مسلمون.

ويمكن القول: إن هناك مؤامرة تنصير عالمية أشبه بحرب صليبية غير معلنة، وقد اختير هذا الوقت بالذات فىٰ مواجهة الصحوة الإسلامية، حيث ترىٰ حركة التنصير في الصحوة الإسلامية خطرًا يداهمها وزلزالاً يهد الأرض تحت قدميها؛ فهي تجتمع لتعمل علىٰ تقويضه وكسر شوكته، وزعزعة عقيدة الشعوب المسلمة بالتشكيك والتنصير واستغلال أوساط البؤس والحرمان، حيث تنتشر الأمية والمرض والجوع واستغلال الحاجات الناتجة عن عدم الاستقرار، وقد واصلت الأساليب القديمة عملها، وابتكرت وسائل جديدة مستحدثة، كطبع الملايين من الكتب وتوزيع المنشورات المشحونة بالعداء والبغضاء والافتراء علىٰ الإسلام والمسلمين، وكذلك تحريف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وطبع كتب مليئة بالأخطاء المحرفة والمضللة التي أُلفت لتشويه العقيدة الإسلامية وتعاليمها، وتفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تفسيرًا خاطئًا يتفق وخططها، وتحريفها عن معانيها الصحيحة.

كما لجأت الحركات الصليبية إلىٰ طبع أشرطة الكاسيت رغم تكاليفها الباهظة، وإنشاء إذاعة خاصة تروج أفكارها ومزاعمها (مونت كارلو، وصوت الغفران، ومركز النهضة). ومن أساليبهم التسلل إلىٰ المجتمعات خفية، حيث وُجدت خلايا سرية لبث السموم والأفكار النصرانية في بعض العواصم العربية، وقد تَبَيَّنَ أنها فروع لمنظمة دولية مركزها بازل بسويسرا، وأن للمنظمة فروعًا في ألمانيا والنمسا ولبنان، وقد عثر علىٰ مئتي ألف كتاب من الكتب المعادية للإسلام والداعية إلىٰ الردة، وضبطت أشرطة سجلت عليها أحاديث مناوئة للإسلام، كما سجلت تلاوات شبيهة بتلاوة القرآن الكريم في المضمون معادية له ناسخة لتعاليمه، وقد حملت هذه الكتب هجوما علىٰ النبي (ﷺ)، وهناك مسابقات تعمل عن طريق المراسلة تُرصد لها الجوائز المادية والعينية، وطبع بطاقات للتهاني بالمناسبات المختلفة، ولوحات مكتوب عليها عبارات منقولة من الأناجيل ونتائج حائط، وحافظات نقود، ويجري مراسلة المسلمين عن طريق صناديق البريد والحصول علىٰ عناوينهم المثبتة في أدلة الهاتف وأدلة الشركات التجارية، ويجري توزيع المنشورات والأناجيل والدعايات المسيحية في المغرب والسودان والعراق ومصر والأردن والكويت والمملكة العربية السعودية.

ويقول أحد المراقبين: إن الحملات الصليبية قد أخذت شكلاً مغايرًا لما عرفت به عبر دهاليز التاريخ، لتستهدف عقيدة المسلمين، وتشككهم فيها، وتبلبل أفكار النشء الإسلامي بشتىٰ الطرق والوسائل. وفي مقدمة هذه المنظمات التنصيرية (منظمة الشبيبة النصرانية) في مدينة بازل بسويسرا، ومركزها الرئيسي بألمانيا الغربية، وقد بدأت تظهر إلىٰ الوجود قبل السبعينيات - أسسها فالتر فاشرمان الألماني الجنسية ببيروت في لبنان - وتمكن فالتر من جمع الأموال من الأعضاء العاملين في الإرسالية، ومن بعض المؤيدين في سويسرا والنمسا وألمانيا، فأنشأوا دارًا للطبع والنشر، وأسسوا منظمة لطبع الكتب النصرانية المعادية للإسلام والمسلمين، وهي تقوم بمراسلة جميع

المراسلين في جميع أنحاء العالم، خاصة البلاد الإسلامية، وتوزيع تلك المنشورات والمطبوعات المسيحية بكثير من البلدان العربية، ولا يزال أتباعه في لبنان يواصلون نشاطهم وعملهم النموذجي بقيادة القس سليم يعقوب وزملائه في مدرسة مجدلونا. وهناك منظمة نداء الرجال بمدينة شتوتغارت الألمانية، ومنظمة بعثة الصداقة التي لها فروع في لبنان وهولندا وألمانيا وفرنسا وأمريكا. وقد صدرت عن هذه المنظمات عديد من المؤلفات التي تهاجم الإسلام، منها: (ميزان الحق). (تنوير الأفهام في مصادر الإسلام). (الباكورة الشهية في الروايات الدينية). (دعوة الحق). (أصول الإيمان). (الصليب في الإنجيل والقرآن). (دين المسيح لم ينسخ). (شخصية المسيح في الإنجيل والقرآن). وقد ترجمت بعض هذه الكتب إلىٰ اللغات الأجنبية كالإنجليزية، ومنها كتاب (ميزان الحق) الذي ألفه الدكتور فاندر، وأصله بالفارسية، طبع عام ١٨٣٥م، وقد تصدىٰ للرد عليه الشيخ «رحمة الله» الهندي بكتابه الأشهر (إظهار الحق).

ومن مخططات التنصير العالمية: إنشاء نوادي الشباب، ورعاية الشابات، حيث يوضع بين أيديهم السم في شكل قصص، وكتب ونشرات تبث بالتدريج وتروج لأفكار التنصير، وهذا هو الغزو الفكري، بالإضافة إلىٰ إنشاء المدارس ورياض الأطفال وصولاً إلىٰ الجامعات والمعاهد، وأحيانًا مراكز البحوث واللغات والمراكز الثقافية. وعلىٰ الرغم من اختلاف النحل النصرانية (كاثوليكية وبروتستانتية وأرثوذكسية)، فإن هدفها واحد من التنصير، وهو التبشير بين الأوساط الوثنية واللادينية لاعتناق النصرانية. وعلىٰ الرغم من اختلاف جنسيات بعثات التنصير، فإنها تتفق علىٰ الهدف والتنافس فيما بينها لتحويل أكبر عدد من المسلمين إلىٰ النصرانية، وهذه الخطط كلها مدعومة من المجلس الأعلىٰ للكنائس والبابوية (الفاتيكان) في روما.

وفي مجال المساعدات الطبية والصحية يتم بناء المستشفيات والمستوصفات لمساعدة المرضىٰ من المسلمين، وصرف الدواء، وعلاج الأطفال والنساء، حيث

يبدأ الاندساس بين المسلمين، حيث يرتبط المريض بالمعالج بعلاقة إنسانية، وهناك مساعدات اجتماعية هدفها الظاهر إنساني، وهي تُقدَّم علىٰ شكل ملابس وأغذية.

ومن مخططات مؤامرة التنصير: ظاهرة تنظيم الأسرة؛ بهدف تخفيض عدد المسلمين، وغرس مفهوم عدم إنجاب الأطفال؛ لأن ذلك سيزيد عدد الجائعين والعراة والمرضىٰ والفقراء، وكذلك يتم توزيع حبوب منع الحمل أو وسائل أخرىٰ بالمجان علىٰ النساء المسلمات وتطبيقها تطبيقًا حاسمًا، وبتركيز وتشجيع النساء بعدم الإنجاب بواسطة دفع المال والهدايا والملابس.

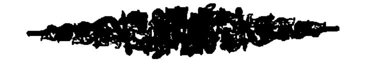
خطة الفاتيكان

وكتب البابا جون بول الثاني رسالة إلىٰ العالم في (١٨ أكتوبر ١٩٨١م)، شرح فيها أهمية الدور الذي تقوم به الكنيسة في مجال التنصير، وأوصىٰ بأنه إذا لم يكن هناك تعهد وضمان كامل من الكنيسة تجاه التنصير، فإنها لا تكون أبدًا كنيسة متكاملة أو صحيحة، وقد حث البابا الأغنياء في كافة أنحاء المعمورة علىٰ التبرع، وإيداع الأموال في الجمعيات الخيرية المنتشرة في كل مكان لأجل نشر تعاليم المسيح بين أمم الأرض، وقد ركز البابا علىٰ أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه الآباء والأمهات تجاه أبنائهم؛ ليجعلوا منهم بشرًا ينظرون إلىٰ العالم من حولهم بطريقة مسيحية، وقد أكد البابا علىٰ أن التنصير الفردي يحتاج إلىٰ جانب المجهود الكبير الدعم المالي الذي نادىٰ بجعله مُركزًا في جهة واحدة، وقد أذاع مجلس الكنائس العالمي ١٩٧٧م أن موجة جديدة للبث من جزر سيشل لتغطية معظم دول أفريقيا، وأن هناك هيئة جديدة للتنصير تحت اسم (التفوق العالمي) افتتحت فروعًا في مصر والهند وبنجلاديش وتايلاند (الفلبين)، وأندونيسيا، وقال الأنبا كبيرا – رئيس أساقفة الكنيسة الكاثوليكية في تنزانيا – في حديث له (أكتوبر ١٩٨١م) بأن التنصير سيشهد تحولاً كبيرًا خلال العشرين سنة القادمة، حيث ذكر أن أفريقيا ستكون أكبر مكان للعالم به مسيحيون.

وفي بنجلاديش هناك حملات مكثفة للتنصير، حيث حُشد ١٦٧ قسًا كاثوليكيًا، ١١٥ من الأجانب، ٥٢ من القساوسة المحليين، وهناك جامعتان تشملان ٢٩٤ طالبًا كاثوليكيًا، ٢٧ مدرسة عليا (٦٣١٦)، ٦ مدارس للأطفال، تضم (١٠١٨) تلميذًا كاثوليكيًا، ٢٦٥ مدرسة ابتدائية، بها ١٤٠١٨ طالبًا، وقد افتتحت الكنيسة (٤٧ مستشفىٰ ومستوصفًا) تضم ٦٧٨٠ مريضًا.وفي الفلبين، تأسست الجمعية الدولية للتنصير عام ١٩٦٥م بمساعدة الأساقفة الكاثوليك.

وفي تقرير عن زيارة البابا لأفريقيا (١٩٨٠م) علىٰ قرع الطبول، وعاد كما يقول المعلق علىٰ قرع الصلبان، زار زائير والكونغو وكينيا وغانا وفولتا العليا، وجرىٰ الحديث عن تشقق داخل الكنيسة الأفريقية الذي يعود بالدرجة الأولىٰ إلىٰ ضعف الانتماء الديني، وهذا ما حدا بالعديدين إلىٰ التقهقر تجاه الوثنية أو نحو الأرواحية، وهي طائفة تعتقد بحيوية المادة (مذهب قديم).والتقرير يركز علىٰ العودة إلىٰ المعتقدات القديمة، ويرىٰ أن الإسلام بالنظر إلىٰ التصاقه بالحياة اليومية يشكل مصدرًا آخر للخطر، ولا سيما أن بعض رجال الدين ينشطون لتوسيع رقعته. وأعلن أحد الأساقفة التحذيرات التي أطلقها الأسلاف عن هشاشة الولاء الديني لدىٰ الأفريقي، وخاصة الولاء للمسيحية القائمة بالدرجة الأولىٰ علىٰ الأخلاقية الروحية التي تأخذ طابع المعتقد الميثولوجي البحت، وقد سعىٰ الفاتيكان للحد من انقراض المسيحية في أفريقيا، وكان تحرك (البابا) نحو القارة من أجل ذلك، وقال الأسقف (ماركوس لوترو) أن العودة إلىٰ الوثنية محدودة جدًا؛ لأنها لا توفر طمأنينة النفس التي يوفرها الانتماء إلىٰ عالم متطور كالعالم الغربي، والحقيقة أن الخطر الحقيقي يأتي من الإسلام؛ فالمبشرون المسلمون يستغلون كل المعطيات .(حقيقية أو مصطنعة) للوصول إلىٰ وجدان الشخص الأفريقي، وهم يحاولون تصوير المسيحية علىٰ أنها دين الجبابرة الذين لا يأخذون المسحوقين بعين الاعتبار، بل إنهم هم أنفسهم السبب الحقيقي في وجود

هذا الانسحاق.هذا الكلام يشكل نقطة جذب مثيرة بالنسبة للزنوج الذين يعتبرون في أعماق نفوسهم أن البعثات التبشرية لم تكن سوىٰ الغطاء الميتافيزيقي لتكريس الحضور الاستعماري. وقال (لوترو): إن الطالب المسلم في بعض البلدان الأفريقية لا يجد صعوبة في التخصص في كمبردج أو السربون إذا ما تخلىٰ عن مذهب أهله واعتنق المسيحية، فإنه حينئذ سيتحول إلىٰ شخص آخر تُلقىٰ عليه الأضواء، ويتدفق عليه المال، وهذه العملية تَلْقَىٰ صدًىٰ واسعًا لدىٰ الذين أكملوا صفوفهم الثانوية، ويشير التقرير إلىٰ أن العديد من المنتمين إلىٰ المسيحية أو الأرواحية يندفعون نحو اعتناق الإسلام، وهم يجابهون بالاضطهاد من قبل السلطات الرسمية، ويتعرض من يشهرون إسلامهم للضرب في بعض البلدان الأفريقية والزج بهم في السجن لأسباب سياسية، كما أن بعض الجهات الدينية في الغرب المرتبطة بالفاتيكان تمارس حملات واسعة من التضليل عن بعض نشاطات تقوم بها الدول المسلمة النفطية لإغراء غير المسلمين باعتناق الإسلام، وقال أحد أساقفة أكرا: علينا أن نتوقع مسلمًا جديدًا مقابل كل برميل من النفط، وقد أثاروا بهذا مروءة المشرفين علىٰ الكنيسة الغربية لتتدفق التبرعات علىٰ عدد معين من الكنائس الأفريقية، وأشار التقرير إلىٰ أن اليهود يقومون بدور بارز في تشويه الحقائق؛ بهدف وقف المد الإسلامي في القارة السوداء، وهم يقدمون الأموال الطائلة لدعم بعض البعثات التبشيرية (٩ ملايين دولار دفعتها مؤسسة روتشيلد)، وقد ركز البابا علىٰ محاربة الوثنيات الجديدة محاولاً أن يعطي (الماركسية) تسمية أكثر إثارة للكراهية، والماركسية في أفريقيا في حالة تقهقر فيما يفرض المسلمون مواقعهم في القطاعات الأرواحية.



الفصل الثاني

أفريقيا بعد اتفاق أديس أبابا

أعلن مجلس الكنائس العالمي والفاتيكان أن أفريقيا هي ساحة المجابهة مع الإسلام وميدان للحرب، وقد خصص مبلغ ٨٠٠ مليون دولار من ميزانيتهما لتدعيم ونشر التبشير المسيحي في أفريقيا، وتحذر الكنيسة من خطورة الإسلام على أفريقيا، وتعتبر أن الثروة البترولية في البلاد العربية تعتبر ميزة كبرى لدعم الإسلام ونشره في أفريقيا.

والمعروف أن سكان أفريقيا الذين يزيد عددهم على ٤٠٠ مليون نسمة نصفهم مسلمون، منهم ١٠٣ ملايين مسلم في الجزائر ومصر وليبيا والمغرب والسودان وتونس وموريتانيا، إضافة إلى مئة مليون في بقية أفريقيا. والشعوب المسلمة الأفريقية: الصومال والسنغال وناميبيا ومالي ونيجيريا والنيجر وغينيا وغيرها.ويرى كثير من الباحثين أن اتفاقية أديس أبابا منعت الدعوة الإسلامية ببنود ملحقة مع اتفاقية الجنوب العلنية، فقد تم إبعاد جميع التجار الشماليين الذين نشروا الإسلام والثقافة العربية في الجنوب باختلاطهم مع الجنوبيين، كذلك فقد بدأت الكنائس والإرساليات التبشيرية بالتركيز على مسلمي الجنوب لتنصيرهم والقضاء على الوجود الإسلامي في الجنوب تمامًا، فبدأ الوضع يتحول من حكم ذاتي إقليمي إلى دولة مستقلة. والانفصاليون الذين يحكمون جنوب السودان اليوم بتوجيه من الكنائس العالمية وإسرائيل إنما قبلوا وقف الحرب الأهلية حتى يتمكنوا من حكم الجنوب ذاتيًا لتنفيذ عملية تنصير الجنوب وبناء اقتصاده على حساب الشمال، ثم ربط الجنوب بشرق أفريقيا، بل هم يطمعون في إفساح المجال لنشر التبشير المسيحي في الشمال المسلم، ويعتبر جنوب السودان

ذلك الجزء من أراضي جمهورية السودان الذي يقع جنوبي خط ١٠ وحتىٰ شمال بحيرة ألبرت، ويسكنه حسب إحصاء ١٩٥٦م (مليونان و٧٩٠ ألفًا)، أي ربع سكان السودان ١٠,٢٦٣,٠٠٠، وسكان جنوب السودان لا يشكلون قومية قائمة بذاتها، وإنما يتكونون من أربع مجموعات (١) التيلبون (٢) التلينون الحاميون (٣) القبائل السودانية (٤) خليط من المجموعات الأولىٰ.

ويستخدم جنوب السودان لغات ولهجات محلية متعددة (اللهجات الرئيسية عام ١٩٥٦م قدرت باثنتي عشرة لهجة ولغة يتكلم بكل منها أكثر من ٣٠ ألف مواطن، إلىٰ جانب لغات ولهجات محلية أخرىٰ علىٰ أن لغة التخاطب الرئيسية بين القبائل المتعددة هي العربية الدارجة المكسرة وسط العامة والإنجليزية بين المثقفين). ويشكل مجموع سكان الجنوب غير الوثنيين ما يعادل ١٠ في المئة، وهم مسلمون أو مسيحيون. أما بقية السكان فهم وثنيون يسود فيهم الاعتقاد بأن أرواح أجدادهم السابقة بلغت دورًا مؤثرًا في حياتهم، ولذلك فإن الأديان الوثنية في الجنوب هي أديان قبلية، ولا تصلح لأن تشكل أرضية مشتركة للقاء بين القبائل. أما شمال السودان، فإنه يشكل مجموعة سكانية متجانسة ذات أصول عرقية عربية وغير عربية متداخلة، يسودها بشكل واضح ثقافة عربية إسلامية. وقد تمت الهجرات العربية إلىٰ السودان في فترتين رئيسيتين:

الهجرات الأولىٰ: كانت في عصور سحيقة قبل الإسلام تمت عبر البحر الأحمر. أما الهجرات الثانية: فتمت بعد ظهور الإسلام وبشكل خاص بعد تحرير مصر، وهي هجرات قدمت من مصر ومن ليبيا والمغرب العربي عمومًا، وقد اندمجت الهجرات في السكان الأصليين، وأثروا في الحياة بدينهم وآدابهم وعاداتهم.

وفيما بين ١٨٢٠م - ١٨٨٠م، استغل التجار والرأسماليون الأوروبيون البيض

نفوذهم ليقوموا بدورهم الخطير في السودان عمومًا وجنوبه بشكل خاص، وذلك في اتجاهين رئيسيين: تجارة الرقيق واستخدام البعثات التبشيرية في التمهيد لمخططات بسط النفوذ التجاري والاستعماري فيما بعد. وكان حكام المديريات الجنوبية في السودان طوال العهد التركي من الأوروبيين من جنسيات مختلفة، وساهم هؤلاء في تهيئة الظروف الصالحة لنشاطات مواطنيهم من التجار البيض في إنشاء ومساعدة البعثات التبشيرية المسيحية، والأدلة كثيرة علىٰ كون تجارة الرقيق لم تكن عربية صرفة، وأبلغ هذه الأدلة هو موقف السودان من الثورة المهدية التي يصفها أغلب المؤرخين الأوروبيين - تجنيًا بأنها كانت ثورة ضد قوانين إلغاء الرق.

ويقول ساندرسون في كتابه (إنجلترا وأوروبا وأعالي النيل): لقيت حركة المهدي ترحيبًا من جانب القبائل التي اكتسبت الطابع العربي إلىٰ حد ما، مثل قبائل (الشط ودينود الشكك وبينا تجونولي وتوجو)، هذه القبائل الجنوبية هي التي عانت أكثر من غيرها من تجارة الرقيق، ويقول كولبيتز في كتابه (السودان: الصلة بالشمال): شعرت كثير من القبائل علىٰ الرغم من أصلها الزنجي بأنها أقرب إلىٰ القبائل العربية التي تقطن شمال بحر العرب ممن ربطتها بها روابط الصداقة منذ أمد بعيد، ومن هنا استجابت بحماسة لدعوة المهدي للانضمام للثورة. وقد قرر الاستعمار البريطاني (١٨٩٨م - ١٩٥٦م) إسقاط الدولة المهدية، وإعادة فتح السودان ببناء تركيبي (إنجليزي مصري). أما محور مصر فيهدف إلىٰ فتح الباب للتعامل بين جنوب السودان وشماله، أما محور بريطانيا فيهدف إلىٰ عزل جنوب السودان عن شماله، وقد سعىٰ إلىٰ التبشير بالمسيحية وسط القبائل الجنوبية، وقد عزز البريطانيون نهجهم هذا بالعديد من القوانين المانعة لأي تفاعل حضاري بين سكان الجنوب والشمال. وفي ١٩٢٢م، انتصر المحور البريطاني في معركة في جنوب السودان، وكَرَّسَ انتصاره هذا قانونيًا، وقد انتهز البريطانيون ثورة ١٩٢٤م في السودان، وبعد قمعها إلىٰ طرد الجيش المصري

من السودان. وكانت بريطانيا قد وضعت قانون المناطق المقفلة علىٰ جنوب السودان (١٩٢٢م) بحجة منع التجار الأجانب من الوجود في جنوب السودان، وقد أصبحت هذه المناطق مقفلة لا يجوز دخولها إلا بإذن من الحاكم العام، ومُنع الشماليون العرب منعًا تامًا من دخول الجنوب ومدن وقرىٰ بأكملها من جنوب السودان لمجرد أنها عربية الأصل، وعملت الجمعيات التبشيرية في هذا المجال الواسع، وقرر مؤتمر الجمعيات التبشيرية في مؤتمر الرجاف (أوغندا والكونغو) ١٩٢٨م تنمية اللهجات المحلية واللغة الإنجليزية، وإقامة كافة العراقيل في وجه اللغة العربية، إيمانًا بأن اللغة العربية ستفتح الباب أمام انتشار الإسلام وأمام تعريب الجنوب، كما مُنِعَتْ الملابس العربية صناعتها وارتداؤها.

وقالت مذكرة الحاكم العام للسودان ١٩٣٠م: تقوم سياسة الحكومة في جنوب السودان علىٰ إنشاء مجموعة من الوحدات القبلية أو العنصرية يكون لكل منها اكتفاؤها الذاتي، ويقوم كيان كل منها علىٰ أساس المحافظة علىٰ العادات والتقاليد الموروثة والعرف والمعتقدات السائدة.

والهدف هو:

(أولاً) فصل الجنوب عن الشمال.

(ثانيًا) خلق كيانات منفصلة داخل الجنوب.

(ثالثًا) الحد من هجرة التجار الشماليين.

(رابعًا) الحفاظ علىٰ أوضاع الجنوب البدائية المتخلفة، ومنع أي تفاعل حضاري وثقافي بينه وبين الشمال.

والمعروف أن النفوذ الأجنبي عمل خلال نيف وخمسين عامًا علىٰ القبائل

والمناطق البعيدة عن العاصمة، وكان سعيه حثيثًا في الجنوب بمديرياته الثلاث، وفي تلك المناطق، حيث كانت المدارس الأهلية لا تكفي إلا (٣٪)، والقيود المفروضة لعدم قيام مدارس أهلية إسلامية، وقد فتح الباب علىٰ مصراعيه للنصارىٰ والمبشرين لإنشاء مدارس دينية نصرانية الجوهر في كل أنحاء القطر بما في ذلك العاصمة.

وفي مواجهة ذلك، قام علماء السودان بإنشاء هيئة إحياء النشاط الإسلامي (١٩٧٤م) لمجابهة الزحف التنصيري بإتاحة فرص متعددة لمساعدات متنوعة للمحتاجين من الناس، والعمل علىٰ إحياء ما اندرس من تعاليم الإسلام بالمدن والقرىٰ، وإنشاء النوادي الرياضية والدينية، وقد استطاعت هذه الهيئة إرجاع قرية كاملة في غرب السودان إلىٰ دين الإسلام بعد أن أغرتهم الكنيسة وضللتهم فخرجوا منه.

ويُعد جوزيف لاجو - قائد التمرد في الجنوب (١٩٥٦م - ١٩٥٨م) - من بين مؤسسي التقسيم، وهو يسعىٰ لكسر الهيمنة السياسية لقبيلة الدينكا، وهي أكبر قبيلة في الجنوب.

استطاع النفوذ الأجنبي أن يحرز هذا النصر الكبير في قلب أفريقيا، ومنه يستطيع أن ينفذ عبر جميع حركات التبشير الراغبة في السيطرة السياسية، وقد تآزرت في ذلك قوىٰ كثيرة: قوة الحبشة المسيحية المسيطرة، قوات المتمردين في الجنوب، قوة الفاتيكان ومجلس الكنائس العالمي، وكانت الهزيمة للنفوذ الإسلامي الذي توقف تمامًا في الجنوب، حيث حُرم ٩٠٪ من السكان الوثنيين من الدعوة الإسلامية ومن اللغة العربية.

ويعلق المراقبون بأن احتضان أديس أبابا لهذه الخطة إنما جاء ختامًا للجهد الذي قامت به الكنيسة الأرثوذكسية والإمبراطور هيلاسلاسي للمتمردين بالأسلحة والمرتزقة، وهكذا حصلت الدوائر الغربية الكنسية علىٰ الإقليم الجنوبي بالسودان، وولدت دولة الفاتيكان، وأقيم جدار سميك كنسي عالمي أمام انتشار الثقافة الإسلامية

في أفريقيا، كذلك فقد اتُخذت خطوات لإجهاض أي محاولة أو تفكير في دولة إسلامية، وهي خطوات طمست ما كان سائدًا في مدة ما قبل ١٩٦٩م، حينما اجتازت مسودة الدستور الإسلامي مرحلة القراءة الثانية في الجمعية التأسيسية، كما جعلت اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية في الإقليم الجنوبي، وهي ضربة في الصميم، وكانوا قد حاولوا تطوير اللهجات المحلية وعددها ثلاث مئة؛ لحجب اللغة العربية، وهم سائرون لمحو أي شيء من التراث الإسلامي.

وقال قسيس كنيسة جوبا: إن إبعاد اللغة العربية ضروري؛ لأن اللغة العربية هي الإسلام، فلابد من طردها من المنطقة، وقد أعدت خطة للطلبة الذين درسوا في الكنائس، وأرسلوا إلىٰ جامعة مكريري بأوغندا لمواصلة التعليم الجامعي بدلاً من جامعة الخرطوم، وحرصت عليهم الكنيسة حتىٰ حصلوا علىٰ أرقىٰ الشهادات، وأصبحوا الآن هم المسؤولون والوزراء في الإقليم الجنوبي، وولاؤهم الأول للكنائس ولإسرائيل التي أمدتهم بالأسلحة وآوتهم ودَرَّبَتهم.

والخطر الشديد الذي يواجه الآن (أربعين مليون مسلم في الجنوب)، ما هو مصيرهم، وليس أمام المسلمين من سبيل سوىٰ القهر وسيطرة الحكام من المبشرين عليهم، وقد خرج من أصلاب كثير من المسلمين من الأبناء الذين نصرتهم الكنيسة، وكلها مؤشرات للانحسار والانهزام.

وهناك عمل متصل لتنمية الشعور العدائي الموجه ضد الشمال وضد العروبة والإسلام، والذي يُذْكِي ناره جموع رجال الكنائس، والذين أخذوا مراكزهم واستعادوا نفوذهم.



الفصل الثالث

المؤامرة على مسلمي الحبشة (أثيوبيا)

منذ وقت بعيد شُنت الحرب الضروس علىٰ مسلمي أثيوبيا، وهي حرب التجويع والتنصير والتجهيل من خلف الستار الذي فرضه هيلاسلاسي خلال مدة حكمه التي امتدت أكثر من نصف قرن. فالمسلمون هم الأغلبية الساحقة من سكان البلاد، وقد عزلوا عن جميع المناصب القيادية، وقد عاشوا - ولا يزالون - مضطهدين مظلومين ظلمًا لا نظير له؛ بسبب دينهم، وهم علىٰ الرغم من ذلك لم يستكينوا أبدًا، بل ظلوا يكافحون ضد الحلف المسيحي المحلي الأوروبي، وقد أُهْمِلُوا من العالم الإسلامي لأسباب تاريخية عديدة، من أهمها حالة الحصار والعزل التي فرضت عليهم من قبل النظام الإمبراطوري الكنسي.

ومنذ هجرة صحابة رسول الله (ﷺ)؛ فقد بُذرت بذرة الإسلام في أثيوبيا، فدخلها قبل أن يدخل أي بلد أخرىٰ بعد مكة المكرمة، وانتشر بعد ذلك في جميع أنحاء أثيوبيا، وقد ظهرت له مقاومة كبيرة من قبل الحكام المسيحيين الذين تمركزت السلطة بيدهم قبل ذلك بوقت طويل.

ومنذ وقت بعيد عندما عمدت الكنيسة الرومانية إلىٰ مقاومة الإسلام، توجه نظرها إلىٰ جبهة الحبشة التي عدت مهمة من الناحية الاستراتيجية؛ حتىٰ لا يكتسح الإسلام عن طريقها القارة الأفريقية، وحتىٰ لا يقضي علىٰ الدولة المسيحية الوحيدة في القارة في حينها، ومن ذلك التاريخ بدأت المساعدات الأوروبية تنهال علىٰ المسيحيين الأثيوبيين حتىٰ مكنتهم من السيطرة علىٰ زمام الأمور في البلاد لفترة طويلة.

ولكن القرن الخامس عشر قد شهد ازدهارًا عظيمًا للإسلام في أثيوبيا؛ فقد استطاع المسلمون بقيادة الإمام أحمد بن إبراهيم أن ينزعوا العصمة من أيدي الحكام المسيحيين الذين تنحصر سلطتهم في قلب الحبشة (شمال أثيوبيا الحالية).

وعلىٰ الرغم من أن علاقة التعاون بين الدول الأوروبية وبين المملكة الأثيوبية التي يحكمها المسيحيون كانت قائمة منذ قديم الزمان، إلا أن انتصارات المسلمين بقيادة الإمام أحمد إبراهيم أثارت تعصب الدول الأوروبية المسيحية، خصوصًا وأن الدولة العثمانية كانت تحقق انتصارات كبيرة علىٰ دول شرق أوروبا في وقتها؛ فاستنجد الملك الأثيوبي المسيحي الذي انهزم أمام جيوش المسلمين، وهو (لبنا دنجل) استنجد بالدول الأوروبية، وقد كانت البرتغال أول من لبىٰ نداءه، فأرسلت معونات عسكرية كبيرة من السلاح والرجال، فوصلت القوات البرتغالية إلىٰ أثيوبيا بقيادة الضابط «فاسكودي جاما»، كما وصلت المعونات من الدول الأوروبية الكبرىٰ؛ مما عزر مركز الملك المسيحي الذي شن هجومًا مضادًا ضد المسلمين، حتىٰ استشهد زعيم المسلمين الإمام أحمد في إحدىٰ المعارك، وبدأت القوات الإسلامية في التراجع، فلم يتحقق بعد ذلك أي انتصار يذكر للمسلمين.

وإذا علمنا أن البرتغال كانت من أولىٰ الدول التي واجهت بقواتها البحرية الدولة العثمانية في البحر الأحمر والمحيط الهندي، اتَّضَحَ لنا مدىٰ فاعلية الدعم الذي تقدمه البرتغال لملك أثيوبيا المسيحي، وإذا كان الصراع محتدمًا بين العالم المسيحي والإسلامي طوال القرون الوسطىٰ، فقد كانت أثيوبيا من إحدىٰ الساحات التي جرىٰ فيها ذلك الصراع بشكله العنيف، وأن الحروب الصليبية المشهورة التي دارت في المشرق العربي ليست بعيدة عن أثيوبيا، فقد دارت في أثيوبيا حرب صليبية مماثلة طوال القرون الوسطىٰ، إلا أن انعزال أثيوبيا وانغلاقها علىٰ نفسها حجب تاريخ هذا الصراع عن العالم، ومع ذلك فإن نتيجة الحروب الصليبية في أثيوبيا اختلفت عن المشرق

العربي نوعًا ما، ففي المشرق العربي انتصر المسلمون في النهاية بقيادة صلاح الدين الأيوبي، بينما في أثيوبيا استطاعت المملكة المسيحية أن تحافظ علىٰ انتصاراتها بفضل مدد السلاح والمستشارين الأوروبيين، ولا غرابة في هذه النتيجة إذا علمنا أن أوروبا قد بدأت نهضتها من حيث بدأ العالم الإسلامي في التدهور، ثم جاء عهد الاستعمار الأوروبي الحديث، فرأت الدول الاستعمارية أن مصلحتها إنما تتحقق بالتحالف مع الأقلية الحاكمة في أثيوبيا.

وهكذا حقق الامبراطور «مينليك الثاني» انتصاراته المشهورة في أواخر القرن التاسع عشر علىٰ إمارات الجالا وغيرها من الإمارات الإسلامية التي لم تدمج في مملكته إلا بمساعدة مباشرة من الدول الأوروبية الاستعمارية في غزواته عام ١٨٨٧م حتىٰ عام ١٨٩٢م، وبعد «مينليك» أتىٰ الإمبراطور (ليج أياسو) إلىٰ العرش، وكان «أياسو» سليل أسرة إسلامية عريقة، إلا أن والده الذي كان ملكًا علىٰ إمارة (وللو) الإسلامية اعتنق المسيحية بعد أن حاصرته قوات «مينليك» وقوات بوجاسي - ملك نجران - وانهزم أمام جيوشهما. وقبل باعتناق المسيحية ظاهريًا بعد أن طلب منه ذلك علىٰ ما جرت به العادة في ذلك الوقت من سياسة التنصير الإجباري أو القتل الجماعي. وقد وصل «أياسو» إلىٰ العرش؛ لأنه كان حفيدًا «لمينليك الثاني» من جهة أمه، وكان الوارث الوحيد للعرش، وعندما تبوأ «ليج أياسو» علىٰ عرش أثيوبيا ١٩١٧م أظهر تدريجيًا أنه ليس من الأسرة السليمانية التي كان يدعي الانتماء إليها ملوك أثيوبيا المسيحيون، ثم أعلن أنه مسلم وابن ملك مسلم ومن قومية الجالا (أورومو)، وكان ذلك أثناء الحرب العالمية الأولىٰ، وأظهر تعاونه مع تركيا بصفتها دولة الخلافة الإسلامية حينذاك. فتحركت ضده الدول الغربية الأوروبية بالتعاون مع رجال الكنيسة الأرثوذكسية والإقطاعيين المسيحين، وكان (تفاري مكونن) (الإمبراطور هيلاسلاسي) علىٰ رأس القوىٰ التي تحالفت ضد أياسو، ولم يبق أياسو علىٰ العرش إلا قليلاً فخلع منه، فأتت

الزمرة الكنسية بالملكة (زوديتو) بنت الإمبراطور مينليك بصورة شكلية، بينما كان هيلاسلاسي صاحب السلطة الحقيقية، فحارب أياسو والده الذي كان أميرًا علىٰ إقليم «وللو» حارب دفاعًا عن حقه في العرش ودفاعًا عن مبادئه من إنصاف المسلمين.

إلا أن قوات الكنيسة ورجال الإقطاع قد حصلا علىٰ أعداد ضخمة من الأسلحة الحديثة، ووقع أياسو في الأسر مع والده، ولم يطل الانتظار «بهيلاسيلاسي» حتىٰ وصل إلىٰ العرش في أثيوبيا بعد أن تخلص من عدد كبير من منافسيه بأساليبه المعروفة في المؤامرات، وقد فاق هيلاسلاسي جميع من سبقوه من ملوك المسيحيين المتعصبين في تاريخ أثيوبيا، فاقهم في قمع واضطهاد المسلمين، وكان أسلوبه في محاربة الإسلام والمسلمين هو أسلوب الحكم عليه بالموت البطيء وسياسة القضاء عليهم بشكل تدريجي.

ورغم أن الإسلام كان قد انتشر في جميع أنحاء أثيوبيا منذ فجر التاريخ الإسلامي، فإن ضم الإمبراطور «مينليك الثاني» للإمارات الإسلامية المجاورة لمملكته قد جعل الأغلبية الساحقة من سكان الإمبراطورية الأثيوبية من المسلمين، وظل المسلمون كذلك حتىٰ اليوم يشكلون أغلبية ساحقة من مجموع سكان أثيوبيا، وذلك علىٰ الرغم من سياسة مرسومة لتنصيرهم، تلك السياسة التي مارسها هيلاسلاسي ضد المسلمين حيث ظلت نصف قرن من الزمان، ولكن المسلمين الأثيوبيين وقفوا صامدين محافظين علىٰ عقيدتهم وحضارتهم الإسلامية، وقد تعرضوا في ذلك لمعاناة وشقاء شديدين، وأصيبوا بأضرار بالغة علىٰ يد هيلاسلاسي ونظامه الإقطاعي الكنسي الفاشي.

وقد أدىٰ ميزان القوىٰ الذي ظهر نهائيًا لصالح الدول الغربية المسيحية إلىٰ ترسيخ أقدام الحكومات المسيحية في أثيوبيا، والتي تحتكر السلطة فيها مجموعة من رجال الإقطاع المسيحيين الذين تمدهم وتساندهم الدول الغربية الاستعمارية لعدة أسباب،

منها:

أولاً: لتعصبهم الديني، ثم لمصالحهم الاقتصادية؛ حتىٰ يتم لهم استغلال الشعوب الأثيوبية بالتعاون فيما بين الأقلية الحاكمة والاستعمار الأجنبي، وهكذا، وبفضل الأسلحة الحديثة والمستشارين العسكريين والسياسيين الذين يتدفقون إليها دائمًا استطاعت الأقلية المسيحية الحاكمة في أثيوبيا أن تسيطر علىٰ المسلمين فيها. وذلك علىٰ الرغم من التضحيات الجسيمة التي قدموها في الثورات والانتفاضات الكاسحة التي قام بها هؤلاء المسلمون عبر سنوات القهر الماضية. وقد علمنا التاريخ كيف أن النظام الكهنوتي الكنسي يحكم شعبه في أوروبا في القرون الوسطىٰ وفي بداية العصر الحديث، فقد كان الشعب الأوروبي رمزًا للبؤس والشقاء، حيث تستغله الكنيسة وتأخذ الجزء الأكبر من دخله بالتحالف مع الملوك الذين ينهبون الشعب بدورهم. وهذه الصورة التي سادت أوروبا في عهد الإقطاع هي نفسها التي تسود المجتمع الأثيوبي مع وجود فارقين هما: أن أثيوبيا بلد أغلبية سكانه مسلمون، ولا يكفُّون دائمًا عن محاولة الإطاحة بالنظام الاستبدادي.

ثانيًا: أن حضارة القرن العشرين لا تخلو من بعض التأثيرات الجزئية علىٰ أي مجتمع في عالم اليوم؛ وهكذا يتضح لنا أن المسلمين في أثيوبيا بالذات يتعرضون لاضطهاد خاص يتعرضون له لكونهم مسلمين.

فقد مارس هيلاسلاسي ونظامه سياسة التجهيل والتجويع ضد المسلمين لأكثر من أربعين عامًا؛ فعم الجهل والفقر البلاد، ولكنه كان علىٰ المسلمين أشد، إنَّ النظام الأثيوبي الكهنوتي الكنسي قد حارب الجماهير الأثيوبية بمختلف الأسلحة وبجميع الوسائل غير الإنسانية. فكم عمد إلىٰ تسميم مياه الآبار في الأقاليم الإسلامية بصورة خاصة! وعمل علىٰ نشر بعض الأمراض المعدية الخطيرة، وعمد إلىٰ سياسة التجويع

المتعمد أكثر من مرة، وكانت هذه الأعمال تمر دون أن يعرف العالم عنها شيئًا، وغيرها من الفظائع التي يرتكبها هيلاسلاسي ونظامه بحق الشعوب الأثيوبية.

وعندما بدأ النظام الاستبدادي يتهاوىٰ تحت ضربات الشعب المتصاعدة، وانكشفت مساوئ هيلاسلاسي وسادته الأمريكيين والصهيونيين في أثيوبيا، وفقد أسد يهوذا المزعوم أنيابه أصبح العالم يعرف حقيقة هذا النظام الوحشي، وكان أبرز تلك الفظائع هي عملية المجاعة الكبرىٰ التي شملت جزءًا كبيرًا من أقاليم البلاد، فقد فاقت كل التصورات، فقد قطعت الحكومة الإمدادات بالنسبة للبلاد التي اجتاحتها المجاعة شمالي البلاد، وراح ضحيتها أكثر من ثلاث مئة ألف نسمة ماتوا جوعًا، وكان من الممكن إنقاذهم من المناطق الأخرىٰ.

إنَّ هذا النظام قد دأب علىٰ استعمال كل الأسلحة بما فيها الظروف الطبيعية ضد المسلمين، وإنَّ الذين يتعرضون لعمليات القتل الجماعي وعمليات تسميم الآبار ونشر الأمراض المعدية والتجويع الرهيب هم دائمًا من المسلمين، وذلك بسبب بسيط معروف، وهو أن حكومة هيلاسلاسي كانت دائمًا تدعي بعدم وجود مسلمين في أثيوبيا ما عدا أقلية لا تذكر والتي تعود إلىٰ دين آبائها، وكان المقصود أنها ستعود إلىٰ دين آبائها عن طريق حرب التنصير التي كان يقودها هو شخصيًا.

والحقيقة غير ذلك فالمسلمون يشكلون أغلبية ساحقة (١٦ مليون مسلم) من مجموع السكان، وعلمنا أن نسبة زيادة السكان لدىٰ المسلمين أكثر منها لدىٰ المسيحيين بسبب نظام الأسرة، وكان قد خرج بذلك في الأمم المتحدة؛ مما يدل علىٰ تلهف الحكام المسلمين علىٰ تقليل عدد المسلمين في أثيوبيا وبأي طريقة كانت، ولهذا استعملت الحكومة الأثيوبية كل الوسائل اللاإنسانية ضد المواطنين المسلمين، وهذا هو التفسير الحقيقي لهلاك حوالي ربع مليون نسمة من المواطنين بسبب المجاعة التي اجتاحت المنطقة المنكوبة وحدها، وقد انتهزوا فرصة المجاعة كعادتهم وجمعوا أبناء المسلمين الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم بسبب المجاعة، وسلموهم إلىٰ

الجمعيات التبشيرية المسيحية، حتىٰ تشرف علىٰ إيوائهم وتربيتهم، ومن ثم تحويلهم إلىٰ مسيحيين، كما أن نظام هيلاسلاسي الكهنوتي اتبع سياسة الحصار الإعلامي بالتعاون مع الدول الاستعمارية المسيطرة علىٰ وسائل الإعلام، فأصبحت بذلك قضية المسلمين الأثيوبيين مجهولة حتىٰ من أقرب الناس إليهم - وهم الشعوب العربية والأفريقية -.

وفي الخمسينيات والستينيات عندما حدثت بعض التغيرات، وظهرت حكومات إسلامية في البلاد العربية الشقيقة، اعتقد المسلمون الأثيوبيون أن ساعة تحررهم قد دنت، ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل شديدة عندما رأوا أن هذه الأنظمة في البلدان الإسلامية لم تتفهم قضيتهم، بل بالعكس تستقبل هيلاسلاسي في بلادها استقبال الأبطال.

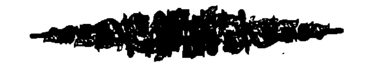
وفي السنوات العشر الأخيرة (١٩٦٤م - ١٩٧٤م)، حدث تطور في كفاح المسلمين الأثيوبيين؛ فقد استطاعوا القيام بالثورة المسلحة في منطقة بالي وسدامو عام ١٩٦٤م، تلك الثورة التي استطاعت أن تطور نفسها وأن تستمر في القتال، ثم انتشر منها الكفاح المسلح إلىٰ باقي المحافظات، وعلىٰ الرغم من أنها حققت انتصارات عظيمة، فإن العدو استطاع أن يَحُولَ دون انطلاقها إلىٰ إقامة الثورة الشاملة لكل أثيوبيا وإلىٰ إقامة النصر النهائي. فقد استعمل القصف الجوي وحاصرها من الخارج، وقطع طرق الإمدادات من الدول العربية والإسلامية، ولكن الثورة لم تمت، وامتدت إلىٰ بقية المناطق الأخرىٰ، وكان المسلمون هم أول من فَجَّرَ الأحداث في أثيوبيا، ولكن القوىٰ الأجنبية استطاعت أن تحول دون سيطرة المسلمين أو تمكينهم من الوصول إلىٰ حقوقهم المشروعة؛ فقد استولىٰ الجيش المسيحي علىٰ السلطة وهم قد تربوا تحت رعاية المؤسسة الكنسية والإقطاعية، وتلقوا تعليمهم علىٰ يد الأمريكين والإسرائيليين.

مجموعة من الحقائق

- منذ نصف قرن يتعرض المسلمون في الحبشة إلىٰ الجوع والمرض والبؤس والاضطهاد الديني (خلال حكم الإمبراطور هيلاسلاسي وبعده)، حيث عرف المسلمون ضراوة القمع واتساع الاضطهاد.

- المسلمون في الحبشة يمثلون سبعين في المئة من السكان، ولكن جميع المناصب الحيوية الهامة بأيدي النصارىٰ، وكذلك السلطات السياسية والإدارية والاقتصادية والعسكرية.

- عندما تحرك المسلمون في مظاهرة كبرىٰ (مئة ألف) كانت المظاهرات تهتف «أثيوبيا ليست جزيرة للمسيحيين».



الفصل الرابع

مؤامرة الحبشة على السودان والدول الأفريقية

كان من أخطر نتائج حركة التبشير في جنوب السودان، والتي بدأت منذ احتلاله ١٨٩٨م، وعلىٰ مدىٰ السنوات المتوالية تحت اسم المناطق المقفلة، وفي خلال الحكم السوداني بعد الجلاء عام ١٩٥٦م، ومن خلال الأوضاع السياسية المختلفة، وسيطرة القوىٰ التبشيرية في جنوب السودان؛ أن وُقعت اتفاقية أديس أبابا (مارس ١٩٧٢م) التي فرضها مجلس الكنائس العالمي وهيلاسلاسي علىٰ الحكومة السودانية، وأعطت المتمردين ما لم يكن يستطيع الاستعمار البريطاني أن يحققه من قبل، فنصوص الاتفاقية واضحة في اعتدائها علىٰ سيادة السودان ووحدته وعلىٰ المقومات الأساسية للأمة، وخصوصًا الإسلام والعروبة.

ترتب علىٰ تنفيذ هذه الاتفاقية في السودان: أن أصبحت البلاد تحت حكم القوات المرابطة في الجنوب، وهي من جيش الأنانيا الذي هو من المتمردين، وعين قائد المتمردين صديق إسرائيل وعميلها (جوزف لاغو) قائدًا أعلىٰ للقيادة الجنوبية مع زملائه الذين تدربوا في إسرائيل، وكانت الاتفاقية قد نصت علىٰ أن يكون خمسون في المئة من القوات في الجنوب من الجيش السودانىٰ وخمسون في المئة من المتمردين، كما تم طرد جميع العاملين في الجنوب من موظفي الحكومة الشمالية، وأصبحت جميع قوات الشرطة والأمن من المتمردين، وتم إبعاد جميع التجار الشماليين الذين نشروا الإسلام واللغة العربية في الجنوب، ومُنعت الدعوة الإسلامية ببنود سرية ملحقة في اتفاقية الجنوب المعلنة، وبدأت الكنائس والإرساليات التبشيرية بالتركيز علىٰ

مسلمي الجنوب لتنصيرهم والقضاء علىٰ الوجود الإسلامي في الجنوب تمامًا.

وتدريجيًا، بدأ الوضع يتحول من حكم ذاتي إقليمي إلىٰ دولة منشقة عن الإدارة المركزية، وقام المسؤولون في الجنوب بالاتصال بالحكومات الأجنبية والتعامل معها قروضًا وتجارة عن غير طريق الحكومة المركزية.

الانفصاليون الذين يحكمون جنوب السودان اليوم بتوجيه من مجلس الكنائس العالمي وإسرائيل، إنما رضوا بوقف الحرب الأهلية حتىٰ يتمكنوا من حكم الجنوب ذاتيًا؛ لينفذوا عملية تنصير الجنوب وبناء اقتصاده علىٰ حساب الشمال، وبناء جيش نظامي قوي، ثم ربط الجنوب اقتصاديًا بشرق أفريقيا، وقد وضح ذلك في مشروع الخط الحديدي المزمع إقامته بين ميناء ممبسا في كينيا وجنوب السودان، والذي سيلعب دورًا حضاريًا فوق الدور الاقتصادي، وبعد أن يخدموا هذه الأهداف تحت اسم المصالحة مع الشمال سيوجهون ضربتهم القاضية للوحدة الوطنية، ويفصلون الجنوب نهائيًا، ويعلنون قيام دولة (أزانيا) المسيحية.

ويجري الآن في الجنوب إطلاق المجال للتبشير المسيحي وانتقاله إلىٰ الشمال المسلم، ومطاردة الثقافة الإسلامية، وإغلاق المركز الإسلامي الأفريقي والجامعة الإسلامية وتقليص مناهج الدين في المدارس.

وهكذا يسير الوضع إلىٰ تهديد الكيان الإسلامي والسيادة، فضلاً عن الاضطراب الاقتصادي، والقروض الخارجية التي بلغت أكثر من ثلاثة آلاف مليون جنيه.

ويرىٰ المراقبون أن قوىٰ مختلفة تعمل علىٰ إضفاء طابع غير عربي وغير إسلامي علىٰ السودان، وأن هذا المخطط التبشيري قد قطع شوطًا بعيدًا في حَيِّز التنفيذ، والمعروف أن الشعب السوداني شعب عربي مسلم لا يكاد الإنسان يميز فيه بين العنصر العربي النقي الذي وصل مع طلائع الفتح الإسلامي ثم تأقلم مع الواقع، والعنصر المستعرب

الذي تشكل مع الفئة الأولىٰ (التركيب العرقي الجديد في بوتقة الإسلام)، إلا أن أجزاءً من القطر في الجنوب وبعض مناطق الشمال بقيت بسبب (قانون المناطق المقفلة) الذي وضعه وطبقة الاستعمار البريطاني بمنأىٰ عن التفاعل الاجتماعي والحضاري، فتأخرت عملية التعريب والإسلام فيها بسبب صعوبة الاتصال إلىٰ ما بعد الاستقلال، ولكن الاستعمار والكنائس والصهيونية دبروا الحروب الإقليمية في هذه المناطق لعرقلة ذلك بأي ثمن.

وقد تقلبت السودان في هذه الفترة بين أوضاع مختلفة، وكان للنفوذ الشيوعي فترة من الوجود، ولما انتهىٰ ترك من خلفه بعض أتباعه الذين ما زالوا يثيرون المتاعب والاضطرابات، ولمعرفة هذا الواقع القائم الآن في مطالع القرن الخامس عشر الهجري يجب أن نعود إلىٰ أوائل القرن الرابع عشر لنتحدث عن دور الإرساليات التبشيرية الخطيرة في جنوب السودان، فنقول: كانت الكنيسة تتمتع بوضع مريح عندما قام الإنجليز بقفل المديريات الجنوبية في وجه مسلمي الشمال العرب وانفلاته، وكانت الخطة هي عزل الشمال تمامًا عن الجنوب؛ حتىٰ يكون حاجزًا في المستقبل يفصل بين شمال أفريقيا المسلم وشرق أفريقيا المسلم وبين الاثنين معًا وباقي أفريقيا.

وقد أعلن اللورد كرومر أن الهدف من سياسته بالسودان هو منع اتصال شمال السودان - شمال أفريقيا - بمسلمي شرق أفريقيا السواحليين والصوماليين؛ حتىٰ لا تصير الحبشة جزيرة مسيحية داخلية مضطهده؛ إذ إن الكنيسة كانت قد نجحت إلىٰ حدٍّ ما في هذا المخطط، إذ إن الكنيسة بدأت تعمل بإمكانيات ضخمة تسندها السلطة ماليًا وأدبيًا؛ فكانت تتقاضىٰ مبالغ كبيرة جدًا من الخزينة العامة للدولة السودانية لتنفيذ خططها بنجاح.

واستطاعت الكنيسة بهذه الإمكانيات وعن طريق المخططات المدروسة المبرمجة

أن تدخل أعدادًا كبيرة من أبناء الإقليم في حظيرة المسيحية، كما أنها استطاعت أن تُنصِّر عددًا من المسلمين ونواديهم، فكانت ثمرة كل هذا العمل هو هذا النفر الحاقد الآن علىٰ كل ما هو إسلامي أو عربي، وكانت هذه الإرساليات التبشيرية قد قامت فعلاً قبل أن تعمل، بمسح جغرافي واجتماعي واقتصادي للمنطقة وعاداتهم وتقاليدهم وما يحبون وما يكرهون، وعلاقاتهم الاجتماعية ولهجاتهم والعمل علىٰ تعلمها، ثم معرفة نشاطاتهم الاقتصادية وضرورياتهم اليومية الملحة، وعلىٰ ضوء دراستها وصلت إلىٰ حقيقة كبرىٰ هي أن الأسرة الجنوبية مفككة الأواصر، خاصة بين أسر القبائل الاستوائية والأقليات وبحر الغزال، ولذلك عمدت الكنيسة إلىٰ تبني الأطفال منذ الصغر وتخيُّر النجباء منهم، وعزلهم عن بيئتهم، ووضعهم في بيئة كنسية خاصة حتىٰ يشبوا في هذا الجو الكنيسي، وهو ما يُمكن من تشبعهم وتطبعهم بكل ما يراد لهم، مستغلين في ذلك أحدث وسائل التربية والتوجيه والتغذية الفكرية.

وبعد أن تم إعداد البنات وتعليمهن في جو كنسي خاص، وُجِّه هؤلاء وأولئك ليكونوا دعاة للدين المسيحي والكنيسة وسط أهلهم وأهل لسانهم، وأقامت المدارس ومعاهد التدريب الصناعي والمهني والفني والحرفي، وذلك لتخريج عمال وفنيين مسيحيين مهرة يفرضون نفوذهم علىٰ الطبقة العاملة بالإقليم، بما يمكنهم من الحصول علىٰ أعمال مضمونة، وحتىٰ يشجع الآخرين علىٰ الإقبال علىٰ أماكن التعليم الكنسي بحثًا عن الوظيفة والمكانة الاجتماعية، كما قامت الكنيسة بتدريب المبشرين والمعلمين وطنيين أو أجانب علىٰ أحدث أساليب التربية، كما عملت الكنيسة علىٰ إنشاء مكتبات عامة باللغة الإنجليزية وباللهجات العامة المحلية، وقامت الكنيسة بإنشاء المستوصفات والمستشفيات ودور رعاية الطفولة والأمومة وملاجئ العجزة والأيتام، وإنشاء جميعات الخير والبر.

ومضت الكنيسة في حرية مطلقة لتَبُثَّ سمومها في الجنوب وسط الأهالي والمثقفين

علىٰ حد سواء، بينما لا أحد يتصدىٰ لكشف فضائحها، وكانت أكبر ضربة وجهت لهذا النظام: الضربة التي قام بها الفريق إبراهيم عبود عام ١٩٥٨م، واستمرت إلىٰ ١٩٦٤م، والتي أصدرت كتابًا أسود اتّهمت فيه الكنائس علىٰ جميع تشكيلاتها بأنها هي التي تؤجج نار الحرب الأهلية في المحافظات الجنوبية بحمايتها ومساعدتها وتشجيعها، وبناءً علىٰ هذا الاتهام قامت الحكومة بطرد جميع القسس الأجانب من الإقليم، ووضعت مكانهم قسسًا سودانيين، وانسحب القسس المطرودون إلىٰ شرق أفريقيا وأثيوبيا، وبقوا في الحدود المتاخمة للإقليم بمساعدة الكنائس الكائنة أصلاً في تلك الأقطار المجاورة حتىٰ تم التوقيع علىٰ اتفاقية أديس أبابا في مارس ١٩٧٢م في عهد الرئيس جعفر محمد نميري، ثم عادوا ليزاولوا نشاطهم من جديد، وما إن تم توقيع هذه الاتفاقية السوداء حتىٰ بدأت الكنيسة بحماس منقطع النظير عملاً تبشيريًا مكثفًا وبدعم مادي وأدبي هائلين من مجلس الكنائس العالمي والهيئات الخيرية والمسيحية بالدول الأوروبية والولايات المتحدة وكندا، فضلاً عن تعاطف السلطان الحاكمة بالإقليم؛ إذ جميعهم من خريجي مدارس الكنائس، ومنهم مسيحيون متعصبون، سواء أكانوا في الأجهزة السياسية أو العسكرية، اعتقادًا منهم أن الكنيسة مناضل ثوري أصيل ضد عرب الشمال، بينما هي في الواقع جهاز صليبي استعماري سند الاستعمار خلال خمسين عامًا ليقفل الإقليم علىٰ التخلف المادي والفكري والإنساني، وقد ظهر نشاط الكنيسة المكثف بعد توقيع اتفاقية أديس أبابا في الجوانب التالية.

أولاً: في مجال الأبحاث، حيث قامت الكنيسة بمسح رأسي شامل لكل مناطق الإقليم.

ثانيًا: المساهمة الفعالة في عملية إعادة تعمير الإقليم بعد دمار الحرب الأهلية.

ثالثًا: المساهمة النشطة في عمليات التوظيف وبناء قرىٰ السلام، حيث بدأوا العمل

في القيام ببناء تسع قرىٰ سلام نموذجية؛ تسع كل واحدة منها (ألفين وخمس مئة أسرة)، وما هذه القرىٰ في الواقع إلا قلاع تبشيرية، فنظرة إلىٰ خريطتها وخطتها تبرز هذه الحقيقة بوضوح، فهم يسعون الآن بعد تجاربهم السابقة إلىٰ إيجاد حماية أصيلة من وراء المواطنين وراء هذه الجدر المحصنة التي ستكون مرتكزًا قويًا ينطلق منه التبشير والمبشرون بقوة وفاعلية، كما أنها تعمل بإجراءات وقائية فعالة من ناحية الأمن الشخصي للمبشرين، حيث يمكن إخفاء كل ما يراد إخفاؤه بسهولة، وهذه القرىٰ تُبْنَىٰ تحت إشراف مجلس الكنائس العالمي، الذي ناشد العالم المسيحي المساعدة في إنجاز هذا المشروع الحضاري الإنساني بمبلغ تسعة ملايين دولار أمريكي (في ذلك الوقت).

رابعًا: إنشاء وإعادة بناء الكنائس والمدارس والمستشفيات والمستوصفات والمعاهد الصناعية والحرفية ونشر اللغة الإنجليزية كترياق مضاد للغة العربية؛ لأنها لغة القرآن كما قال أحد القسس: (إن اللغة العربية معناها الإسلام).

خامسًا: العمل علىٰ قيام نظام للتعليم منفصل تمامًا عما في الإقليم الشمالي تحت ستار الشخصية الذاتية للإقليم، وقد ظهر ذلك جليًا في (مؤتمر جوبا) لمناهج التعليم.

سادسًا: إرسال البعثات وإقامة الحلقات التدريبية والتوجيه للعاملين بالكنائس والنابهين بين الشباب المسيحي.

سابعًا: تركيزهم المبرمج علىٰ المناطق الآهلة بالمسلمين، ولا سيما محافظة بحر الغزال وجبال النوبة اللتين تشكلان حاجزًا بشريًا وطبيعيًا من كردفان ودارفور المسلمتين والجنوب الوثني، وهذا التركيز يهدف إلىٰ تنصير هؤلاء المسلمين وذراريهم، مستغلين في ذلك فَقْرَ المسلمين في تلك المناطق، وجهلهم بأساسيات دينهم، ثم غفلة إخوانهم المسلمين الآخرين بالإقليم الشمالي.

ثامنًا: التركيز علىٰ رياض الأطفال ودور الحضانة والرعاية وتعليم البنات، كما أنهم يقومون بتقديم الكساء والغذاء للعائدين والأطفال الصغار بوجه خاص.

هذا بالإضافة إلىٰ موافقة الحكومة المركزية علىٰ فتح الباب علىٰ مصراعيه للنشاط الكنسي والأجنبي بالإقليم والكنائس، علىٰ الرغم من خلافاتها الحادة عقائديًا فإنها متفقة فيما بينها علىٰ مناطق نفوذ، ومما يجعل الكنيسة تضاعف جهدها هذه الأيام ليس في الإقليم الجنوبي وحده، بل في شرق أفريقيا بأسرها، وهذه هي السياسة المتبعة في أوغندا، هو العمل علىٰ تجميع المسلمين هناك في جهاز واحد هو المجلس الإسلامي العالمي الأوغندي، حيث عمل عيدي أمين علىٰ تقوية المسلمين بأوغندا عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا بعد أن كانوا تحت أقدام الصليبيين، ودعوته إلىٰ إنشاء مدارس ثانوية عليا وجامعة إسلامية لأبناء المسلمين؛ ليلحقوا بركب التقدم، ووجه نداءات لمسلمي شرق أفريقيا لرفع هاماتهم، وهذا كله حدا بالكنيسة لعقد مؤتمرها الشهير بدار السلام لتجميع جهودها، وهو الذي دفع خصوم الإسلام إلىٰ إسقاط هذا الحاكم المسلم.

وقد تعددت الدراسات التي كتبت في الفترة الأخيرة عن جنوب السودان الذي يواجه خطر التنصير الشامل، وأن الجنوب دولة منفصلة عمليًا وخاضعة للتوجيه الكنسي والمجلس العالمي، وفي «كتاب ربحت محمدًا» بعنوان (ماذا وراء الخط الحديدي بين كينيا وجنوب السودان؟). يقول: عندما احتل الاستعمار البريطاني البلاد السودانية عمد إلىٰ إقامة حاجز سميك من شمال البلاد ذي الطابع الإسلامي العربي وجنوبها، حيث لا تزال الدعوة الإسلامية وعملية التغريب في بدايتها بين قبائله الوثنية، هذا الحاجز سُمِّيَ بقانون المناطق المقفلة، وبمقتضىٰ هذا القانون تم فصل الجنوب إداريًا وثقافيًا واقتصاديًا، وأصبح التعليم في الجنوب خاضعًا لبرامج الإرساليات التبشيرية الأوروبية، وأقيم كيان اقتصادي منفصل غير متأثر بالاقتصاد القومي وغير

مرتبط به، تحت ستار الاكتفاء الذاتي، والهدف هو إقامة حاجز حضاري أمام الزحف الإسلامي العربي إلىٰ الداخل الأفريقي، واستهدفت قيام قومية زنجية تدين بالمسيحية لتفصل بين عرب الشمال وإخوانهم المسلمين في شرق أفريقيا (كينيا وتنزانيا) حتىٰ يسهل استئصال الإسلام في تلك المنطقة، والقضاء علىٰ العنصر العربي فيها حيث يوجد، أقام الاستعمار كيانات صليبية معادية للإسلام والعروبة في تنزانيا وكينيا وبقية الشرق الأفريقي عامة، كذلك أفلح في إعداد جيل من خريجي الإرساليات في الجنوب، وشحنهم بالحقد علىٰ الإسلام والعروبة، وزرع في صدورهم حاجزًا نفسيًا تجاه الشمال، ومن هؤلاء المتنصرين برزت القيادات السياسية لشباب الجنوب، تلك القيادات التي قادت فترة الانفصال ووجدوا فرصتهم بعد توقيع معاهدة أديس أبابا عام ١٩٧٢م، حيث تسلموا الحكم في الإقليم الجنوبي، وبدأوا في تنفيذ سياساتهم التي حلم بها الاستعمار.

وتقول بعض الدراسات: إنَّ إسرائيل والفاتيكان كانتا وراء فتنة الانفصال، وإنهما قد عارضا الإسلام الذي صان آدمية الأفريقيين واعترف لهم بحقوقهم، وقد خاصم الأفريقيون المسلمين الذين تآخوا معهم وأكرموهم، وقبلوا الولاء مع الأوروبيين الذين نكلوا بهم وملأوا بهم أسواق أوروبا وأمريكا منذ القرن السادس عشر حتىٰ نهاية القرن التاسع عشر؛ ذلك أن الرجل الأبيض النصرانىٰ هو الذي استعبد الأفارقة، ونهب خيرات بلادهم، وساقهم للعمل بالسخرة في مزارع البيض حتىٰ الستينيات من القرن العشرين.

وقد مضت حركة التبشير المحمومة في غرب السودان بعد جنوبه بعد أن أصبحت لهم قاعدة خطيرة في وسط السودان وعاصمته.

وكانت جذور قضية الانفصال قد بدأت عام ١٩٤٧م بمؤتمر جوبا الذي حضره عدد من عملاء الاستعمار البريطاني الذين تخرجوا في مدارس التبشير ومن الاستعمار

البريطاني الذي كان يحكم السودان ومصر، وطالبوا بالانفصال عن السودان وإقامة دولة مسيحية لهم علىٰ أرض الجنوب، وكان هذا الحدث ثمرة طبيعية للجهود التبشرية التي بدأت في السودان عام ١٨٤٦م، حينما أصدر البابا جيجوري السادس عشر قرارًا بتأسيس مركز تبشيري في السودان يعمل علىٰ تنصير الزنوج، بالإضافة إلىٰ الرهبان الدومنيكان الذين يعملون في المنطقة منذ عام ١٨١٦م، ولهم مراكز في مصر وليبيا والمغرب العربي، وأخذت الحركة الانفصالية تتنامىٰ، وتعد نفسها لإقامة دولة صليبية مستقلة حتىٰ التقطت إسرائيل الخيط؛ فقامت بتدريب الانفصاليين، وأمدتهم بالسلاح، كما دبرت المرتزق الألماني (رودلف أشتاينر)، وأمدته بالمال والسلاح لقيادة المتمردين وإثارة الفوضىٰ والفتن في المنطقة، وكانت حكومة السودان قد قبضت علىٰ المرتزق الألماني ١٩٧١م الذي اعترف بأن إسرائيل هي التي دربته مع المتمردين، وأن إسرائيل أنشأت مدرسة عسكرية في منطقة (ونجي كايدل) لتخريج القادة العسكريين الذين قاموا بقيادة الحركة الانفصالية.

اتفاقية أديس أبابا (١٩٧٢م)

أبرز نصوص الاتفاقية:

- أن تلتزم حكومة السودان بعدم قيام حكومة إسلامية في السودان.
- أن تكون اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية الوحيدة في الإقليم الجنوبي.
- أن يحظر أي نشاط تبشيري إسلامي في الإقليم الجنوبي.
- أن يعترف بالقوات المتمردة كقوات نظامية تضم ٦ آلاف مقاتل.

وبهذا انتهىٰ الصراع الذي دام خمسة عشر عامًا بانتصار كامل للقوىٰ الكنسية المدعومة عالميًا، وقد تم التفاوض تحت وصاية هيلاسلاسي وتوجيهاته، وبذلك أقيم جدار سميك كنسي عالمي ضد انتشار الثقافة الإسلامية في أفريقيا، ولم تسمع كلمة احتجاج ولا صرخة مجاملة، وكان ذلك بمثابة إجهاض لما كانت السودان قد توصلت إليه من قيام دولة إسلامية منذ ١٩٦٩م، حيث وضعت مسودة الدستور الإسلامي، وذلك تحقيقًا لإصرار الجنوبيين علىٰ إبعاد اللغة العربية؛ لأنها هي الإسلام، وبذلك يكون الإقليم الجنوبي قد سقط تمامًا في أيدي القوىٰ التبشيرية المسيحية.

ولم يقف الأمر عند هذا، بل نُشرت وثيقة سرية خطيرة نشرتها صحيفة عربية عن المخطط الرهيب الذي تتبناه حكومة أثيوبيا لضرب معاقل الإسلام والاستقرار في القرن الأفريقي كخطوة أولىٰ للتوغل والامتداد عبر الآفاق الأفريقية المترامية الأطراف.

وقد جاء بالوثيقة أن أثيوبيا مطالبة اليوم بأن تمهد الطريق أمام الشيوعية في أفريقيا،

وأضافت أن العقبة الوحيدة في هذا الطريق إنما هي الإسلام، ومن ثم تقول الوثيقة: إنه يتعين إقصاء هذا الدين من الوسط (وسط أفريقيا)، وتنحية رجاله ونساءه وخاصة المفكرين والمثقفين، وتدعو إلىٰ خلق اضطرابات طائفية وبث الشكوك في نزاهة وأخلاق المفكرين والعلماء ورجال الدعوة، وتشجيع الفتيات علىٰ أن يلعبن دورًا تحريضيًا في هذا الاتجاه.

وتكشف هذه الوثيقة عن المخطط العالمي الشامل لتنصير أفريقيا والأفارقة، وإصرار القوىٰ الدولية علىٰ قلب الأوضاع في أفريقيا رأسًا علىٰ عقب.

ما بعد هيلاسلاسي

لقد لعب الإمبراطور هيلاسلاسي دورًا بارزًا في اتفاقية جنوب السودان، حيث كانت الحبشة مركز نشاط الحركة الانفصالية التي دفع الاستعمار إليها عددًا من أبناء جنوب السودان، الذين تزعم حركتهم مجموعة من تلامذة مدارس الإرساليات التبشيرية التي عملت بنشاط في جنوب السودان طوال فترة الاحتلال الإنجليزي، وقد وضعت اتفاقية جنوب السودان حدًا للصراع الدائر في مديريات الجنوب الثلاث الاستوائية وأعالي النيل وبحر الغزال، وتم الاتفاق وفق شروط مجحفة تم بمقتضاها تعيين نائب لرئيس السودان من أبناء الجنوب، والاعتراف باللغة الإنجليزية لغة رسمية في الدوائر الحكومية، وإعطاء أبناء الجنوب نسبة ٥٠٪ من حجم وقيادات القوات المسلحة بالجنوب، بالإضافة إلىٰ مشاركتهم في القوات المرابطة في شمال السودان، هذا فضلاً عن السماح لهم بتأسيس برلمان إقليمي؛ السيطرة الفعلية فيه للعناصر التي تخرجت في مراكز التبشير الكاثوليكي والبروتستانتي في جنوب السودان.

وفي مدىٰ أربعة وأربعين عامًا، استطاع الإمبراطور هيلاسلاسي أن يجمع ثروة قدرت بأكثر من عشرة آلاف مليون دولار، بينما كانت جماهير الشعب تئن من المجاعة، وكان يُطلق عليه: النجاشي، أسد يهوذا، سبط سليمان، ملك الملوك.

وكان هيلاسلاسي خلال فترة حكمه (١٩١٦ - ١٩٧٤م) عدوًا استراتيجيًا للإسلام والمسلمين في أفريقيا، فلما ذهب إلىٰ حيث مضىٰ الجبابرة الطواغيت تطلع المسلمون في الحبشة (وهم ثلثا الشعب) إلىٰ عهد يتنفسون فيه الصعداء ويصلون ما قطع هيلاسلاسي من أواصر القربىٰ وصلات الرحم بينهم وبين أشقائهم في العالم الإسلامي، أو علىٰ الأقل في البلاد الإسلامية المجاورة لهم، بيد أن الأمور تغيرت إلىٰ الأسوأ، وتحولت الحبشة من الولاء الأمريكي إلىٰ الولاء الشيوعي، وجاء إمبراطور

جديد مختلف عن الأول بازدواجية (الصليبية - الماركسية) آخذًا بأحدث تعاليم العصر، ومتفرغًا للمهمة التي قصرت عنها همة سلفه، وهي الإجهاز علىٰ الشعب المسلم في الحبشة، والإعداد لأدوات الموت والدمار لأريتريا المحاصرة، رغبة في سحقها وإبادتها في منتصف السبعينيات، وبعد الإطاحة بهيلاسلاسي واصلت الكنيسة الأثيوبية بالاشتراك مع بعثات التبشير عملها ونشاطها لاستقطاب الفقراء من المسلمين استفادة من ظروف الفقر والمجاعات والحروب الداخلية، وتزايدت الضغوط علىٰ مسلمي أثيوبيا الذين لا يجدون الدعم الكافي من المنظمات الإسلامية.

وواجهت جماعات المسلمين حربًا ضارية ضدهم إلىٰ جانب الجفاف والفقر والصراع الخارجي علىٰ الحدود، والصراع الداخلي المتمثل في تنافس القبائل والتعصب الديني من جانب الحكام المسيحيين المتعصبين، وتُجرىٰ الإحصائيات علىٰ نية إنقاص المسلمين عن حقيقة حجمهم.

أطيح بالإمبراطور هيلاسلاسي بانقلاب عسكري (فبراير ١٩٧٤م) بعد أن أصبحت الكنيسة الأرثوذكسية بالحبشة أغنىٰ كنائس العالم بعد بابوبة روما، إذ تملك ثلث أراضي الدولة في بعض الأقاليم، وقد حكم الإمبراطور هيلاسلاسي أكثر من ثمان وخمسين عامًا. حكمًا مطلقًا كان خلالها الراعي للكنيسة الأثيوبية علىٰ اعتبار أنها جزء من الحكومة، وظل الدين هو المحرك الأساسي في العلاقات القبلية والرسمية للبلاد وظلت المسيحية والإسلام والوثنية في صراع إلىٰ يومنا هذا.

والمسيحية تتعهدها الدول والكنيسة والإرساليات التبشيرية وإمكانيات الدول المسيحية ماديًا ومعنويًا، وهناك الوثنية الحائرة التي تستطيع أن تجد في الإسلام ملاذها، لولا هذه السيطرة الخانقة، وتكمن في الإسلام قوته الذاتية المنبثقة من عظمة تشريعاته، ومساواته للبشر، وقيامة علىٰ العدل والرحمة والإخاء البشري، دون النظر إلىٰ لون أو إلىٰ جنس أو إلىٰ جاه أو مال.

وما تزال القوىٰ الكنسية والحكومية تحدد وتوقف نمو الإسلام بأن تزيف التعداد،

لتظهر أن الغالبية في الحبشة مسيحية، وتضع الإسلام في المرتبة الثانية من حيث الانتشار، فضلاً عن صدور عدد من الكتب التي تهاجم الإسلام، وتشجيع بناء المدارس الخاصة الدينية التي هي المصدر الوحيد للتعليم في البلاد، وحتىٰ أصبح لدىٰ الكنيسة في أثيوبيا من هذه المدارس أكثر من عشرة آلاف مدرسة في أوائل السبعينيات، بينما انحصر تعليم أبناء المسلمين في الكتاتيب التي تقام بالجهود الذاتية أو في المساجد، كما تشجع الحكومة الإرساليات الأجنبية إلىٰ الولايات المتحدة وإنجلترا وإيطاليا، وتهدف هذه الإرساليات إلىٰ توجيه الوثنيين وجهة غير إسلامية، ولتكون بمثابة الرد العملي لصد النفوذ المتزايد للبلاد الإسلامية.

ويعيش المسلمون في الحبشة (أثيوبيا) في جو من الصراع الدائم، حيث يطالبون بحريتهم الدينية، وتشتد الحركات التحررية في إقليم أرتيريا، ذلك الإقليم الذي لم يكن جزءًا من أثيوبيا التاريخية في يوم من الأيام، وحيث يشكل المسلمون الغالبية العظمىٰ للسكان، ويطالبون بالاستقلال الكامل عن أثيوبيا وفض الارتباط الذي فرضته الأمم المتحدة في ديسمبر ١٩٥٠م، والذي قضىٰ بمنح أريتريا الحكم الذاتي في إطار اتحاد فيدرالي مع أثيوبيا، وما يتبع ذلك من استبدال حكومة أرتيريا عام ١٩٦٠م باسم إدارة أريتريا تحت ظل حكم هيلاسلاسي، ثم دمج أريتريا بأثيوبيا دمجًا كاملاً منذ فبراير ١٩٦٢م.

ومع ذلك، فإن المد الإسلامي ما زال ينتشر وسط القبائل الكثيرة والمنتشرة علىٰ طول أثيوبيا، ويواجه الإسلام اليوم خطرين كبيرين:

(أولاً): تشويه الدين الإسلامي من جانب جماعات التبشير، وإشاعة الافتراءات حوله، لدرجة أن بعض المثقفين أخذوا يصدقونها، ومنها أن العرب كانوا يستخدمون الأحباش عبيدًا لهم وإماءً.

(ثانيًا): الأمر الأشد خطورة هو الجوع في أثيوبيا، حيث تجتاح المجاعة والفقر... وقد سقطت أثيوبيا اليوم بين نفوذين خطيرين هما الولايات المتحدة وروسيا.

الكنيسة الكاثوليكية في أفريقيا

يقول الكاتب الإيطالي لوريتني إليكو: إنَّ الكنيسة الكاثوليكية تشعر بقلق عميق فيما يتعلق بأفريقيا، وكانت الكنيسة الكاثوليكية قد عقدت كل آمالها علىٰ أفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية، وقد كانت السلطات التبشيرية في روما تأمل في تحويل شعوب أفريقيا السوداء إلىٰ المسيحية في مدىٰ خمسة عشر عامًا، إلا أن الأحداث في عالم المستعمرات قد تطورت بأسرع مما كان متوقعًا، وعلىٰ غير ما كان يريد الفاتيكان تمامًا.

ومن الواضح أن رجال الفاتيكان جاءوا مع المستعمرين إلىٰ القارة السوداء، وكسبوا مواقع لأقدامهم هناك بمساعدة المستعمرين، وهم يجدون الآن أنه ليس من السهل الاحتفاظ بمراكزهم.

لقد تَبَيَّنَ أنه لا يمكن إقامة علاقة عضوية مع الشعوب الأفريقية إلا علىٰ أساس الاعتراف بعدالة قضيتهم في الكفاح في سبيل الحرية، وأن من يبحث هذه العلاقة مع شعوب أفريقيا لا بد أن يقطع علاقته بالإمبريالية، وكيف يمكن ذلك والفاتيكان اليوم هو حصن الإمبريالية تمامًا كما كان حصنًا للإقطاع؟! لقد تشكلت السياسة الاستعمارية للكنيسة الكاثوليكية في القرن الخامس عشر كجزء لا يتجزأ من سياسة الغزو التي كانت تتبعها أسبانيا والبرتغال، ولم يطرأ عليها أي تغيير منذ ذلك الوقت. وعلىٰ الرغم من كل الموارد (١٤ مليون دولار سنويًا)[1]؛ فإن الكنيسة الكاثوليكية كانت كلما أرادت

(١) تضاعف هذا الرقم إلىٰ ما يتعدىٰ المليار دولار بكثير.

أن تقيس قوتها إزاء قوة الإسلام كانت تخرج في حالة أسوأ.

وعلىٰ كل حال؛ فإن الكاثوليكية ظلت في أفريقيا وفي أسيا (شيئًا غريبًا) ينظر إليها بوصفها «دين مستعمر»، وحركة التحرر الوطني الحالية تجعل الموقف أكثر صعوبة بالنسبة للكنيسة، وقد ارتبط الإسلام بالحرية والمقاومة بينما ارتبطت المسيحية بالعبودية والاستعمار. ويقول بيير حيدو في كتابه «لوثة الشعوب الملونة» (ميلانو ١٩٥٦م): إن هناك اتجاهًا عامًا للنظر إلىٰ المسيحية كآخر بقايا الاستعمار، وإن المبشرين يشاركون البيض الآخرين مصيرهم، هؤلاء البيض الذين كانوا من قبل غزاة وسادة؛ أصبحوا الآن مقهورين مهزومين. لقد قال الأفريقيون للأوروبين: ذات يوم كانت الأرض من نصيبنا، وكان الإنجيل من نصيبكم، أما الآن فقد انعكست الآية: الإنجيل من نصيبنا والأرض لكم.

وحتىٰ الحرب العالمية الأولىٰ من ١٩١٤م - ١٩١٨م كانت السياسة الاستعمارية تعني بالنسبة للفاتيكان غزو المستعمرات وزرع المسيحية، وكان توجه السلطات المحلية إلىٰ المسيحية - ينظر إليه كمجرد مسألة زمن.

وفي الجزائر، لا يحب أن تخدع المرء عن الموقف العام للفاتيكان، فواقع الأمر أن الكنيسة الكاثوليكية تؤكد الاستعمار الوقتي في كل الحالات، فهي إما كانت سلته العنت أو تثور ضد القوىٰ التي تريد السلام في الجزائر.

ويقول الباب موسىٰ المكاني: إنه من حيث إن واحدًا من هؤلاء المثقفين الشباب سيصبح في أحد هذه الأيام قوة قائدة للأجيال ومجتمع المستقبل، فمن الواضح أنه لابد من العناية بزيادة عدد المدارس والكليات، وهو أن الشباب الذين يسهل تشكيلهم كالشمع، يجب مساعدتهم علىٰ التطلع بالاحترام للعقيدة الكاثوليكية.

ولم يكن في أفريقيا مؤسسة تربوية سوىٰ مدارس الإرساليات (وهذه في الأساس

كانت كاثوليكية - ومعظم القادة السياسيين والمثقفين الأفريقيين تلقوا تعليمهم في هذه المدارس).

وهناك آخرون بدأوا بدرجة أو بأخرىٰ يعتنقون النظرة العالمية التي تسميها الكنيسة (العلمانية)، وهذا هو الطريق الذي سار فيه في السنوات الأخيرة القادة الأكثر تقدمية وممثلو الأوساط الثقافية، وفي مقدمة هؤلاء ماتريس لوجوبا وسيكوتوري وكوامي نكروما، وهو أول من أطلق الشعار العلماني والقومي (علينا أولاً أن نجد الملكوت علىٰ الأرض)، وإذا كان علىٰ المرء أن يحكم علىٰ أخلاق أو عدم أخلاق قائد أفريقي لشعبه من موقعه إزاء السلطة الإمبريالية التي يناضل شعبه ضدها كان علىٰ المرء أن يضع في ذهنه أيضًا موقف هذا القائد من الفاتيكان.



الفصل الخامس

لبنان الفينقية الطائفية

إن المؤامرة التي قام بها النفوذ الأجنبي في لبنان من أخطر التحديات التي واجهت الدعوة الإسلامية، منذ جرت المحاولة علىٰ تمزيق جبهة الوحدة الإسلامية، وزرع بذور الطائفية والتغريب، وقد اختيرت لبنان منذ وقت بعيد مركزًا يُوجِه منه الغرب مؤامراته ويقيم فيه مؤسساته ومراكزه المحتلفة المتنوعة، كاثوليكية وبروتستانتية، وشيوعية وصهيونية: هذا الميناء العالمي المفتوح أمام كل الدعوات والتيارات، والمصنع الذي خرجت منه كل الخطط والتنظيمات التي توزعت علىٰ البلاد الإسلامية كلها، وآية ذلك أن عشرات ممن قادوا الفكر والسياسة في البلاد العربية في السنوات المئة الأخيرة كانوا من خريجي المدارس الأمريكية والفرنسية في بيروت، وأنهم هم الذين حملوا لواء دعوات الإقليمية (فينقية وآشورية وبابلية وفرعونية)، ودعوات القومية الوافدة، ودعوات القومية السورية، وغيرها من الدعوات؛ فقد كانت لبنان تفسح صدرها للدعاة إلىٰ الله، كما تفسح صدرها للدعاة إلىٰ الإلحاد والإباحية سواءً بسواء، وكان لكل دولة عربية فيها صحيفة تمثل وجهة نظرها وتصارع وجهة نظر الدولة الأخرىٰ، وقد تطورت لبنان من الدعوة الفينيقية إلىٰ الدعوة الطائفية، وأفسحت الطريق لكل الدعاة الأُوَل للشيوعية والصهيونية، هؤلاء الذين انتشروا في مختلف أنحاء العالم العربي، وكذلك كانت هي التي حملت لواء الصحافة من الشام إلىٰ مصر وإلىٰ شمال أفريقيا، وهي صحافة كانت في خدمة الاستعمار البريطاني والإيطالي والفرنسي.

وقد بدأت حركة التغريب اللبناني منذ عام ١٨٦٠م، عندما وقع الاقتتال بين الدروز

الموارنة، فوقفت بريطانيا مع الدروز، ووقفت فرنسا مع المارون، وانتهىٰ الأمر بأن فرضت الدول الغربية علىٰ الدولة العثمانية الاعتراف بلبنان كيانًا مستقلاً ووضعًا إداريًا وسياسيًا خاصًا، ومنذ ذلك الوقت بدأت تزحف إليه حملات التبشير المسيحي من فرنسا وأمريكا، وقد تنافست هذه الحملات؛ فأنشأت المدارس والمطابع، وطبعت الصحف والكتب، وفتحت الباب بالإغراء علىٰ المسلمين في سوريا والعراق وفلسطين، وكان الهدف الأول هو تدمير الدولة العثمانية وتحطيم الخلافة الإسلامية، ولذلك فقد عملت الطلائع الأولىٰ في مصر وركزت جهودها علىٰ هذا الهدف عن طريق الأهرام والهلال وعشرات الصحف التي أصدرها الموارنة، والتي حملت لواء الدعوة إلىٰ فكرة الإقليمية والفرعونية والمصرية، وإعلاء شأن عصور ما قبل الإسلام.

وتشكل في ظل هذه الخطط فلسفة لبنانية إقليمية فينقية، قيل في بعض الأحيان أن لها وجهًا عربيًا، ولكن كان لها وجوه أخرىٰ غير عربية.

وقد صور هذا الدور الدكتور نبيه أمين فارس حين قال: إنها عقيدة يأخذ بها عدد من اللبنانيين المخلصين الذين يذهبون إلىٰ أن لبنان المعاصر هو الوريث المباشر لتراث الفينيقيين واليونان والرومان، وأن علاقاته مع العالم العربي هي علاقات عرضية تكاد تقتصر علىٰ اللغة، ويؤكد هؤلاء في شرحهم لهذه النظرة أن كل مأثرة منذ أن اصطنع الفينقيون القدماء الأبجدية السينانية وحسنوها، ومن ثم قدموها إلىٰ العالم حتىٰ عصرنا الحاضر، حيث حملت الجامعات الأجنبية إلىٰ لبنان وإلىٰ الأقطار المجاورة ثمار الثقافة الحديثة إنما هي من صنع لبنان»، ويرىٰ الدكتور نبيه فارس أن لبنان هو مركز لجميع الحركات الخلاّقة في الشرق، ويقول شارل مالك: إن لبنان وحده يفهم قدس أقداس الغرب في محبة وأناة، وتوصف هذه النظرية عندهم بنظرية الإشعاع، ويوصف لبنان بأنه بلد الإشعاع، وهم بهذا المعنىٰ وكلاء الغرب وعملاؤه في ثقافته ونفوذه، وهم أصحاب الدعوة الفينيقية التي تعمل علىٰ تحطيم الوحدة العربية الإسلامية القائمة،

ويفترضون أنهم السلالة المباشرة للفينقيين القدماء وورثة حضارتهم، كما أنهم ورثة التراث الحضاري لليونان والرومان والبيزنطيين.

وأبرز مواقفهم في هذه الموالاة للغرب موقفهم في الحروب الصليبية، فقد قال لويس التاسع (٢١ مايو ١٢٥٠م): نحن علىٰ يقين من أن هذه الأمة التي وجدناها قائمة تحت اسم «القديس مارون» إنما هي قسم من الأمة الفرنسية؛ لأن إخلاصها للفرنساويين أشد من إخلاص الفرنساويين بعضهم لبعض، أما لويس الرابع عشر (١٦٤٩م) فقد أعلن الحماية الفرنسية علىٰ الطائفة المارونية.

ومن خلال لبنان، حارب الغرب الدولة العثمانية، ووجد الأرضية الحقيقية لهذه الحرب، كما وجدت الصهيونية الأرضية الحقيقية للسيطرة علىٰ فلسطين، ومنها انطلقت الجمعيات التبشرية التي أخذت علىٰ عاتقها إثارة الشبهات في المجتمعات الإسلامية، ومن أرضية بيروت انطلقت الجماعات الشيوعية إلىٰ سوريا وفلسطين والعراق ومصر.

وفي لبنان، بدأت المنافسة بين البروتستانت والجزويت، وكان لوجود الجامعتين الأجنبيتين الكبيرتين في بيروت طوال مئة سنة أو أكثر الآن، ما وضع تحت تصرف اللبنانين ثمار الثقافتين الأوروبية والأمريكية، واستطاع خريجو هاتين الجامعتين أن يقوموا بمهمتهم كوسطاء في نشر الفكر الغربي.

وكانت هزيمة الدولة العثمانية مقدمة لهيمنة الثقافة الغربية علىٰ نطاق واسع، وتركز في فكرة الاحتلال الفرنسي (١٩١٨م - ١٩٤٨م)، حيث وضع أساس نظام التعليم الحالي الذي خرَّج أعدادًا ضخمة من التابعين للثقافة الغربية ولهم ولاء فرنسي وأمريكي، وهم يعملون في حقول العمل العربي. وقد خرَّجت مدارس الإرساليات والجامعة اليسوعية أجيالاً عدة من الحاكمين.

ولم تكن مناهج الإرساليات هي المناهج الأوروبية، ولكنها المناهج المدخولة التي تدخل بالتمويه، فمفهوم الاستعلاء الغربي وإخضاع العنصر العربي إلىٰ الولاء وإدخاله ضمن دائرة مفرغة ليست هي بالطابع الفكر العربي الإسلامي، وإنما هي وسيلة إلىٰ الولاء له والتسليم به، وقد ركز نظام التعليم الوافد هيمنته الثقافة الاستعمارية علىٰ مستويين:

(١) من جهة سيطرة الجامعات والمدارس الأجنبية علىٰ التعليم.

(٢) وتفوقها الملحوظ علىٰ مثيلاتها المحليات.

وبعد نصف قرن من استغلال لبنان لا زال التعليم العالي الأجنبي في نفس شراسته السابقة، حيث يجري إخضاع نظام التعليم للعناصر والأيديولوجية الرأسمالية الغربية، وما تزال الطائفة الدينية هي معيار التقسيم الاجتماعي والعائق الأساسي في وجه تفتح الوعي المهني والطبقي، وبذلك يستمر الولاء والانتماء طائفيًا، ويصبح تفسير الماضي (التاريخ) والحاضر يقوم ضمن مقولات دينية طائفية، ويجعل الصلة بين الدين والسياسة صلة وثيقة، وفي نطاق الجامعات اللبنانية المختلفة توجد كل اللهجات وكل الأيديولوجيات وكل الأديان، ولا يمنع أن يكون معها الإلحاد، وكل أخطار الفلسفات المادية مسموح بها جميعها دون حرج تحت لواء الماركسية والرأسمالية.

وتتطاحن في لبنان ثلاث قوميات، القومية اللبنانية والقومية السورية، (بمعنىٰ الحزب القومي السوري الاجتماعي) والقومية العربية، وهناك من يقول: أمتي عربية وقوميتي لبنانية، وهناك ثنائية الثقافة العربية الفرنسية، بكل عيوبها وأوضارها وصراعها.

ودعا لبنان إلىٰ القومية العربية حتىٰ سقطت الدولة العثمانية، ثم دعا إلىٰ الكيان اللبناني والوضع الخاص، وأصبح معقل الطائفية، وعندما تبين أن المسلمين أصبحوا أكبر عددًا ولهم ثروة تمكنهم من تغيير الوضع السياسي، بدأت تلك الحرب التي

حطمت تلك القوة، وأدخلت لبنان في نطاق صراع ومعادلة صعبة بين المسلمين والمسيحيين، والسوريين واللبنانيين، والفلسطينيين والإسرائيليين علىٰ أرض واحدة.

وقد قال سعيد فريحة منذ وقت طويل: إنَّ هذا البلد يواجه منذ القدم وضعًا طائفيًا لا مثيل له في أي بلد من بلدان الأرض، نصف سكانه من السنة والشيعة والدروز والنصف الآخر من الموارنة والأرثوذكس والكاثوليك، وقد استغل المستعمرون هذا الوضع الشاذ ففرقوا وسادوا.

وفي إبان مؤتمرات الصلح ١٩١٩م حمل البطريك بطرس الحويك إلىٰ باريس توكيلاً عامًا من اللبنانيين يعرب عن رضوخ لبنان لانتداب فرنسا.

ويقول الدكتور فاضل الجمالي: إنَّ لبنان بحكم موقعه التاريخي والجغرافي أصبح سوقًا حرة لشتىٰ أنواع التفكير، ففيه ما هو رجعي متحجر، وفيه ما هو حر حديث، وفيه ما هو حديث مغلق، وقال آخر: آفات ثلاث في المجتمع اللبناني: الطائفية والإقطاع والرأسمالية المستقلة، وهناك نظريات مطروحة: نظرية الهلال الخصيب، ونظرية السورية القومية، وحركة العروبة، وفكرة إنشاء وطن مسيحي قومي أسوة بالوطن اليهودي في إسرائيل، وقد رَوَّجَ لهذه الأفكار عدد من أبناء البلاد ومن الأجانب، فالكتائب اللبنانية تمثل النظرية الاستقلالية اللاعربية المائلة للغرب. أما الحزب القومي السوري الاجتماعي فيمثل نظرية سوريا الكبرىٰ. أما الحزب القومي الاشتراكي فيمثل المواطنة، أما الحزب الشيوعي فيمثل اللاقومية، أما البعث وحركة القوميين العرب فهي تحمل لواء القومية العربية المفرغة من التراث الإسلامي.

وقد أجمعت هذه الهيئات علىٰ معارضة المفهوم الإسلامي، مغالاة في الانعزالية، وخوفًا من أن ينصهروا في المجتمع الإسلامي الكبير، وهم يهاجمون أن يكون الإسلام نظامًا صالحًا للحياة العربية في الوقت الحاضر أو المستقبل، وقد جاء ذلك نتيجة البث

الغربي في برامج التعليم والثقافة، لدعم الطابع الطائفي، وهو ما يسمونه الكيان اللبناني، ويقولون: إن لبنان له وضع خاص بين الشرق والغرب، إنه ليس عربيًا وليس لاتينيًا أوروبيًا، ولكنه جسر وممر.

يقول محمد العليكي: منا من يريد لبنان وطنًا طائفيًا مسيحيًا أو محمديًا، ويرىٰ في اللبنانيين أمة مسيحية أو أمة محمدية، ومنا (كالكتابيين)، والكتلة الوطنية اللبنانية من يعتقد لبنان وطنًا قائمًا كاملاً مستقلاً عن سواه، ويسعىٰ أن يوجد من اللبنانيين أمة بكل ما في الأمة من معاني، كاملة مستقلة عن سواها كل الاستقلال، ومنا (كالسوريين القوميين) من يؤمن أن لبنان جزء من وطن هو الوطن السوري، واللبنانيون جزء من أمة هي الأمة السورية يشكل مجتمعًا واحدًا، ومنا (كحزب النداء القومي وعصبة العمل القومي واللبنانيين/ اليعربيين) من يرىٰ أن لبنان جزء من وطن أكبر هو الوطن العربي، واللبنانيون جزء من أمة كبرىٰ هي الأمة العربية الواحدة مهما تعددت الكيانات السياسية والدول.

ويقول بعض المؤرخين: إن لكل طائفة في لبنان دولة تحميها: أرثوذكس لبنان: روسيا، كاثوليك لبنان: النمسا، موارنة لبنان: فرنسا، الدروز: بريطانيا.

دعوى الفينيقـية

وفي إطار هذه المفاهيم التغريبية، حمل لبنان لواء كل دعوة مضللة، فالدعوة إلىٰ العامية وإلىٰ كتابة العربية بالحروف اللاتينية هي من نبات لبنان، أثارها فيها المستشرق «ماسينيون» وحملها سعيد عقل وغيره، ومن هذا المنطلق فرض الاستشراق جميع مفاهيمه وسمومه التي حملتها كتابات المارون من أمثال نبيه أمين فارس - من دعاة الفينيقية وحضارة البحر الأبيض المتوسط الذي يقول: اللبنانيون ليسوا من حيث الجنس عربًا بل فينيقيين، حضارتهم حضارة البحر المتوسط، لا ينتمون إلىٰ العرب بصلة أو قربىٰ إلا باللغة، وقد ذاعت هذه الفكرة علىٰ أقلام أمثال: أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني، في دعوة إلىٰ طابع لبنان الخاص، يدعون إلىٰ الانفصال عن البلاد العربية، ويشيدون بعظمة الفينيقية، ويتغنون بأمجادهم بشعر عربي فصيح، ويحاولون بعث اللهجة العامية، وجعلها أداة للكتابة، وقد لاقت هذه الدعوة نجاحًا في مجموعة المثقفين المسيحيين خريجي المدارس اليسوعية، ويرىٰ دعاة هذه الفكرة أن للعرب اليوم قبلتين: الصحراء والشرق أو المتوسط والغرب، ثم أخذوا يطرحون هذه الفكرة الانعزالية في حلبات العلم والأدب، وفي سلسلة من المحاضرات ترمي إلىٰ تعزيز الاتجاه الذي توخاه الدكتور فيليب حتىٰ في كتابه عن تاريخ لبنان، وقد رد عليهم أصحاب مفهوم الأصالة، فقالوا: إن العرب لم يولوا وجوههم شطر الصحراء البتة، وجميع الدلائل تشير إلىٰ أنهم لن يفعلوا ذلك في المستقبل القريب أو البعيد.

كذلك فقد ذهب البعض إلىٰ الدعوة المتوسطية، وهي القول بأن البحر المتوسط وحدة جغرافية وتجارية واجتماعية وفكرية قوامها ثلاثة لا رابع لها: الفكر اليوناني، والنظام الروماني، والدين السامي.

وهكذا وجدنا لبنان يقع في براثن دعوات، مضطربة إحداها ترىٰ أن لبنان بلد يقوم واقعه وكيانه علىٰ أساس طائفي إذا زال هذا الأساس زال لبنان، وفئة تقول: إن لبنان بلد مسيحي بأكثريته، ويجب أن يبقىٰ كذلك في معزل عن الأقطار العربية؛ إذ هم يخشون أن يجتاح المسلمون لبنان من الخارج تحت ستار العروبة، فإذا نادىٰ فريق بالوحدة الاقتصادية مع سوريا قالوا: إنَّ الوحدة الاقتصادية ستؤدي حتمًا إلىٰ وحدة سياسية تجعل المسلمين أكثرية في لبنان، وبذلك تضيع حقوق الطائفة المسيحية.

وإذا كان عهد الاستقلال قد أحيا الجزئيات الطائفية وعزز وجودها، فإن عهد الاستقلال قد غذىٰ روح التفرقة، وعمل علىٰ الإيقاع بين الطوائف.

وقد حاول كثير من المفكرين تبرير وضع لبنان وهذه التبعية وهذا الانصهار في الغرب، فقال فيليب حتىٰ: إن انحياز لبنان إلىٰ المعسكر الغربي أمر طبيعي، فلبنان من جهة مرتبط بالغرب بكل ما يعني اسم لبنان من دين وحضارة وثقافة وقيم، وهو من جهة ثانية بحكم موقعه حلقة من سلسلة استراتيجية تمتد من المحيط الأطلسي إلىٰ المحيط الهندي وتشمل البحر المتوسط كله.

دعوى الطائفية

يقول موريس صقر (١٩٤٦م): إنَّ الطائفية التي ورثناها عن أجدادنا، والتي كان لها مبرر في الماضي أصبحت اليوم مرضًا فتاكًا، يهدد الجسم اللبناني بالموت إذا لم نبادر إلىٰ معالجته من الآن. إنَّ الدين الصحيح لا صلة له بالطائفية السياسية، فالدين عبادة، وسعىٰ إلىٰ الكمال الأخلاقي والروحي، وإذا استعرضنا السياسيين والزعماء الذين يتمسكون بالطائفية لرأينا أن أكثريتهم الساحقة بعيدة عن الدين، وقال أحد السياسيين: «إنَّ طابع لبنان الخاص تدل عليه الكنائس المنتشرة في القرىٰ والجبال، وتدل عليه بيوت الرعاة المنتشرة في المدن». وقد تشكلت هذه الطائفية منذ وقت بعيد: عمَّقها الاحتلال ثم غَذَّاها التكوين الذي قامت عليه السياسة بعد الاستقلال. وقد كان ما سمي التكريس للطائفة وعدم تجاوزها عملاً أساسيًا سار عليه اللبنانيون المسيطرون من الموارنة وغيرهم من الطوائف المسيحية.

ويقول إدوار حنين: الطائفة مزيج من قشور الدين دون لبه، ومن شعائر الإيمان دون الإيمان ومن عزة القساوسة والمشايخ دون رأفتهم، ومن سذاجة اللبناني دون فطنته، ومن عمل السياسة دون وعيها وضميرها، ومن خبث السياسيين وقسوة قلوبهم، لقد عرف البريطانيون أن في لبنان طوائف، وعرفوا أن كبرىٰ هذه الطوائف هما المارونية والدرزية، وعرفوا ولا شك من وجود الفرنسيين علىٰ أرض لبنان ما يقارب عهد الصليبيين، وأن للموارنة صديقة عريقة هي فرنسا، ويعرفون أن ملك الفرنسيين القديس «لويس» قد وجه إلىٰ الموارنة في القرن الثالث عشر رسالة بواسطة أحد بطاركتهم يقول: (إننا لَعَلَىٰ كامل الاقتناع بأن هذه الأمة التي يظلها اسم مارون إنما هي جزء من

الأمة الفرنسية، ذلك أن صداقتها للشعب الفرنسي تشبه من قريب الصداقة التي يبديها الفرنسيون للفرنسيين أنفسهم، وعليه فإنه لمن العدل أن ترتقوا أنتم والموارنة جميعًا بالحماية نفسها التي يرتع بها الفرنسيون أنفسهم في ظلنا، ومن العدل أيضًا أن تتقلدوا جميعًا، وظائف الدولة عندنا مثلكم مثل الفرنسيين سواءً بسواء).

وكان بعد أن أجهز البريطانيون علىٰ الإمارة في لبنان وعلىٰ ما كان ينتج عن الإمارة من امتيازات كان أن عمدوا إلىٰ إنماء روح التفرقة بين اللبنانيين، فوقفوا إلىٰ مذابح ١٨٤١م؛ فمذابح ١٨٤٥م، فمذابح ١٨٦٠م».

ويرىٰ البعض أن ثورة ١٨٦٠م كان لها عوامل ذاتية تحركها بالإضافة إلىٰ العوامل الأجنبية، وأهمها ثورة طانيوس شاهين الشعبية ضد الإقطاع الماروني الكسرواني في الشمال. وانتصر الإقطاع الماروني، ودخل لبنان في عصر الوصاية من قبل الدول الأجنبية الاستعمارية الخمسة، وتشكل لبنان من الموارنة والروم الأرثوذكس والأرمن الأرثوذكس والأرمن الكاثوليك والإنجيليين وطوائف أخرىٰ، كما تضم السنة والشيعة والدروز، ويعتقد اللبنانيون بمفاهيم التغريب أن المسيحية ديانة وطنية؛ لأنها نشأت في الشام، وأن الإسلام ديانة دخيلة.

وقد قام المسيحيون بدور واضح، في أمرين خطيرين: في الحروب الصليبية، وفي الاحتلال الفرنسي.

يقول يوسف السودا: «استنجد الصليبيون باللبنانيين، فلباهم لبنان بالرجال الأشداء المدربين بالسلاح، فانضموا إلىٰ الصليبيين، وأشركوا معها الأقطار الشامية، فقامت الصليبية علىٰ أطلال الدولة الفاطمية، وكان للبنانيين في ذلك يد جلىٰ يذكرها لهم المؤرخون. وما زال اللبنانيون يمدون الصليبيين بالمال والرجال، وعندما أتىٰ سوريا الملك لويس التاسع، فلم يكتفِ الموارين بتعضيد الصليبيين في سوريا، بل تطوع منهم

عدد وافر من لبنان وقبرص، حتىٰ كانت لهم جالية كبيرة، واشتركوا في الحملة الصليبية السابعة التي زحفت علىٰ مصر ١٢٤٥م بإمرة الملك القديس، وكان انتصار اللبنانيين للصليبيين من أكبر العوامل لتوسيع شقة الخلاف بينهم وبين حكام سوريا، ولم تنس فرنسا فضل لبنان علىٰ الصليبيين، بل ذكرته لهم إبان غزرها»، وقال بطريرك الموارنة في احتفالة بالأميرال جوبر الفرنسي عند زيارته لبنان عام ١٩٣٢م:

«دقات قلب الماروني هي علىٰ نغم واحد مع دقات القلب الفرنسي، وذلك منذ القديم من حين قدوم الصليبيين لإنقاذ الأراضي المقدسة، ولاقاهم موارنة هذه الجهات وامتزجوا بهم وامتزجت دماؤهم بدماء الفرنسيين، ولم يتركوا فرصة سانحة لمساندتهم، وحصون عكا ما تزال تشهد بوجود موارنة في جيش بونابرت، كما أن الفرنسيس كانوا يعطفون علىٰ الموارنة، ويكفي برهانًا حملة الستين التي جاءت لإنقاذهم من المذابح».

وقد جرت مؤامرات كثيرة في سبيل فصل لبنان عن العروبة، ومنها محاولة تدويل لبنان، التي ترمي إلىٰ مسح كل قسماته العربية المميزة، وإعطائه طابع السوق التجاري شكلاً وفعلاً، وجذور هذه الدعوة موجودة عند الأب هنري لامنسي الذي كان مدرسًا في جامعة القديس يوسف، وهو صاحب نظرية (لبنان الملجأ) لطائفة واحدة بطبيعة الحال، وإبقاء لبنان في حضن أم رأسمالية رحيمة، حيث يعتمد الاقتصاد علىٰ مصادر خارجية تشكل ٦٨٪ من الدخل القومي.

وهكذا توحدت القوة الرأسمالية الجديدة مع الإقطاع القديم، ويورد بعض الباحثين عوامل الطائفية في عدة عوامل في مقدمتها ثلاث:

١ - الاستعمار الغربي الذي كان يرمي إلىٰ تحويل لبنان إلىٰ سوق، متعاون مع الإقطاع ورأس المال المحلي الوسيط المرتبط برأس المال الأجنبي ومخططاته لكسر

الموجة الاقتصادية الهادرة في صعودها، وتحويلها إلىٰ رمال طائفية.

٢ - الإكليروس الذي وقعت بعض فئاته في كافة المراحل التاريخية في نطاق الطبقات المالكة (الموارنة).

ويقول كمال سليمان الصليبي: إن نفوذ المارون قد تعالىٰ في أواسط القرن الثامن عشر؛ نتيجة لتنصر الشهابيين، وارتباط الموارنة بصناعة الحرير، وعزز نفوذ الموارنة نزوح أسر ثرية من طائفة الروم الكاثوليك من بلاد الشام إلىٰ لبنان، وتحالفها مع الموارنة، ونمو النشاط الفرنسي في البلاد، وازدياد عدد «المرسلين الكاثوليك».

ولقد كان الإكليروس عنصرًا هامًا في عناصر الاحتواء الأجنبي للبنان، فقد جاء وقت اعتبرت البطريركية بمثابة سلطة عليا علىٰ الزعماء السياسيين الذين ينتمون إلىٰ الطائفة المارونية.

ويقول نوبل سبنسر في أطروحة (دور البطريركية المارونية في السياسة اللبنانية): إن يوحنا مارون الذي استمرت ولايته من ٦٧٥، ٧٠٧ كان أول بطريرك لأنطاكية، وهو أنشأ أول قصر للبطريركية، وفي القرن الثاني عشر الميلادي احتك الموارنة خلال الحروب الصليبية وللمرة الأولىٰ بالأوروبيين الذين ينتمون إلىٰ طائفة الروم الكاثوليك، فبدأت علاقتهم بالكنيسة الكاثوليكية التي توطدت بمزيد من الاتصال والتبادل خلال القرون الخمسة التي تلت، حتىٰ انتهت إلىٰ الاتحاد الكامل، فاستطاع بابا الفاتيكان أن يخلع البطريرك اللبناني عام ١٥١٢م عن طريق رجال الدين اللبنانيين أنفسهم، ثم أدخل الأمير فخر الدين المعنىٰ المناطق المارونية العربية في إمارته (أوائل القرن السابع عشر)، كما ساند المقدم الماروني وتقاسم سلطاته مع الأرستقراطية المارونية، وأصبح لرجال الدين الموارنة حكم في الأمور الخاصة، ولم يكن للبطريركية أي نفوذ خلال حكم المماليك، إلىٰ حد أن رجال الدين وجدوا صعوبة في الاحتفاظ بسلطتهم الروحية،

وكذلك في عهد الحكم التركي، حتىٰ إذا ما أُدخلت مساحات المناطق المارونية في الدولة بدأ رجال الدين يتدخلون في الأمور التي تهم رعاياهم، وبدأ يبرز للبطريركية المارونية دور هام في السياسة اللبنانية، فلما اعتنق الشاميون المذهب الماروني قَوِيَ نفوذ رجال الدين؛ فقد كان البطريرك معلمًا للأمير يوسف شهاب وإخوته، وعندما حل عام ١٨٣٧م تجلت سلطة البطريركية تمامًا، وأصبح لرجال الدين سلطة سياسية بين تشريعية وإدارية، بالإضافة إلىٰ السلطة الاجتماعية، ومنذ عام ١٨٤٠م استعملت البطريركية المارونية نفوذها في السياسة اللبنانية إلىٰ أبعد حد، باستثناء بضع مراحل انتكس أمرها فيها حتىٰ عام ١٩١٥م، حيث كانت الانتكاسة الأخيرة للنفوذ البطريركي خلال الحرب العالمية الأولىٰ، وذلك للخلاف الديني بين الأتراك ورجال الدين الموارنة؛ عندما أمر جمال باشا البطريرك بالنزوح عن مقره الرسمي إلىٰ مكان آخر.

وبعد الحرب العالمية الأولىٰ، ساند الفرنسيون البطريركية، حتىٰ أصبحوا لا يخاطبون الطائفة المارونية إلا من خلالها، وذلك نتيجة لعلاقة الفرنسيين بالبطريركية التي تعود إلىٰ عام ١٢٥٠م، عندما أعلن لويس التاسع أنه يعتبر جميع المواطنين اللبنانيين الذين ينتمون إلىٰ الطائفة المارونية مواطنين فرنسيين، وجدد اللويسان الرابع عشر والخامس عشر هذا العهد فيما بعد، فرد البطريرك علىٰ حركة القومية العربية التي كانت قد انتعشت حينئذ مطالبة بالاستقلال عن فرنسا وبريطانيا والوحدة للوطن العربي ببرقية بعث بها إلىٰ باريس معلنًا رفضه (فيصل ملكًا علىٰ لبنان)، وتبع هذا خطاب للبطريرك أعلن فيه رفضه الوحدة بين لبنان وسوريا (١٩٢٣م)، والمعروف أن الكاردنيال المعوشي خلال فترة رئاسته للبطيركية كان يقوم بدور خطير في هذا المجال في مواجهة ارتفاع موجة القومية العربية. كما هو معروف أيضًا أن من ثمرة هذا كله ظهور حزب الكتائب الذي يؤكد مفهوم السيطرة المارونية علىٰ لبنان.

ويرىٰ بعض الباحثين: أن الموارنة قَدِموا بأعداد كبيرة من الشمال، واستقروا في

المناطق الدرزية في الجنوب، ونتج عن ذلك أن أصبح الموارنة أوسع الطوائف انتشارًا في البلاد، وذلك في خلال القرن ١٧ و١٨، ومنذ ذلك الحين شكل انتشار النصارىٰ في لبنان وعلىٰ الأخص الموارنة منهم عاملاً رئيسيًا في تطور البلاد الاجتماعي، وأثرت الأديرة التي أقامها الموارنة والروم الكاثوليك في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولم يقتصر أثر الإرساليات اللاتينية علىٰ الموارنة وغيرهم من النصارىٰ اللبنانيين الموالين لرومية فحسب، بل تعداهم إلىٰ الطوائف الأخرىٰ. والروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس مبشرون كالموارنة في جميع أنحاء البلاد إلا أن الموارنة يفوقونهم عددًا، وفي سنة ١٠٥٤م تم الانشقاق بين كنيسة رومية وكنيسة القسطنطينية، وانضم المارون إلىٰ كنيسة روما، واعتبر غيرهم من المنشقين.

وهكذا كانت الكنيسة والحزب ثم الجامعات مؤسسات طائفية وطيعة وعاملة علىٰ دعم هذه الطائفية في مواجهة الدعوة إلىٰ العروبة أو الإسلام. يقول سير روندو في كتابه (مستقبل الشرق الأوسط): «بينما يتطلع المسلمون من وراء الحدود إلىٰ إخوانهم في الدين والعنصر، إلىٰ العرب، يتحمس المسيحيون لفكرة جعل لبنان جسرًا بين الشرق والغرب، بينما يحلم المسلمون بتوثيق الروابط بين لبنان المستقل وسائر بلدان العالم العربي. وفي داخل لبنان نفسه قادت المحافظة علىٰ التوازن التقليدي إلىٰ الإبقاء علىٰ التوزيع الطائفي للمناصب والنفوذ شبه الإقطاعي والقبلي القائم علىٰ الطائفية، والنظام الحزبي والبرلماني لم يطبق إلا جزئيًا في هذا البلد، ولا تستطيع الروح العامة أن تتغلب علىٰ التباعد العائلي والإقليمي، علاوة علىٰ ذلك بفعل الاتجاهات الخارجية، فعليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة الإبقاء علىٰ العلاقات والروابط ين لبنان والعرب، هذه الروابط التي تعيش فيها لبنان كبلد للترانزيت ماديًا، ومن حضارتها فكريًا، ومن ناحية أخرىٰ علىٰ لبنان كبلد ذي وجه عربي بمحافظته علىٰ المصالح العربية أن يتضامن مع إخوانه حتىٰ لا يعزل عن المحيط الذي يعيش فيه، ويفقد ميزة من ميزات وجوده، وهي

الربط بين البحر والداخل».

ومن ثم، فإن كل ما يدعو إلىٰ تعريض هذا التوازن للخطر فإنه يصبح مصدر خطر كبير، وكل ما يهدد الطائفية فإنه يدعو إلىٰ اضطراب شديد، وذلك بالظن أن ازدياد المسلمين عددًا وثروة هو مصدر ابتلاع لبنان أو لو حدث لقاء عربي واسع.

وقد حرصت الكتائب، كما حرصت القومية السورية علىٰ عزل لبنان عن المجموعة العربية، وطالب زعماء لبنان ومفكروه بفصل لبنان عن العرب وضرورة ذوبانه في كيان الغرب سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، كما قال (شارل مالك) الذي يحمل الكره العميق للعرب والعروبة، ولم تَجِدْ صيحة أمثال رياض الصلح صدىٰ هامًا.

لا نريد لبنان للاستعمار مقرًا ولا لاستعمار إخواننا في الأقطار العربية ممرًا، بل نحن وهم نريده وطنًا عزيزًا مستقلاً سيدًا حرًا، وإنَّ لبنان وطن ذو وجه عربي.

ولا ريب أن الاستعمار كان يعمل علىٰ احتواء لبنان وتغريبه ودفعه إلىٰ مرحلة الخطر حين أعلن تشكيل دولة لبنان الكبير ١٩٢٠م من متصرفيَّة جبل لبنان القديم مع طرابلس وبيروت وصور وصيدا المنتزعة من ولاية بيروت (ومع بعلبك وخاصيا وراشيا ومرجعيون المنترعة من ولاية سوريا)، ولا ننسىٰ في ذلك رسالة الموشبور مبارك مطران بيروت حين اقترح ١٩٤٧م تضيق حوزة لبنان ليصبح مسيحيًا محضًا، وتؤلف دولة يهودية في فلسطين، ثم يتعاون لبنان المسيحي وفلسطين اليهودية ضد الإسلام بالاعتماد علىٰ الصداقة الأمريكية، وكانوا يفاخرون بالفينيقية المندثرة، وفي فترة من تاريخ لبنان زعم أحد كهانه أن الموارنة ينحدرون من أصل حثي آري بحجة أنهم أحفاد الجراجمة والمردة سكان جبال أمانوس القديم، ومضوا في هذه الدعوىٰ مع أن العلم الأنثروبولوجي والتاريخ يكذبان هذه الأوهام، وقد كانت علاقة فرنسا مع لبنان منذ الوقت البعيد (عن طريق تبعية المارون إلىٰ الكنيسة الكاثوليكية) وادعاء

فرنسا أنها حامية الموارنة أبعد الأثر في ذلك، هذا الأثر الذي بدأ في صورة عميقة خلال الحروب الصليبية كما أشرنا من قبل، وقد أرخ بولس مسعد لهذه العلاقة في كتابه (دليل لبنان وسوريا)، فقال:

لما جاء الصليبيون إلىٰ سوريا في أوائل القرن الثاني عشر استقبلهم الموارنة كإخوان لهم في الدين والإيمان، وحاربوا في صفوفهم وكان لهم شأن يذكر في كثير من الانتصارات التي أحرزها أولئك الإفرنج في لبنان وسوريا، وأن الموارنة أنجدوا الإفرنج في كثير من حروبهم في سوريا، وأبلوا بلاءً حسنًا في غير موقعة جرت لهم مع العرب وأنصارهم علىٰ الحصول سنة ١١١٠م، عندما حاصر «بلدوين» - ملك القدس - بيروت وصيدا فلم يستطع فتحهما من دونهم، وفي الحرب التي وقعت بينه وبين الأمير معين - زعيم الأيوبية - قبل ارتحاله من بلاده إلىٰ ديار الشام سنة ١١١٧م.

وفي تاريخ الصليبيين أن فريقًا من الموارنة صحبوا فرسان ماريو حنا في غزوتهم لجزيرة رودس ١٥٣٠م. إن الصليبيين تذرعوا بالدين لاستمالة مسيحيي سوريا ولبنان إليهم، وحملهم علىٰ مؤازرتهم في الحروب التي أصلوا نارها علىٰ العرب، ولاسيما موارنة جبل لبنان، ويرجع ذلك إلىٰ امتزاجهم امتزاجًا كليًا، وخاصة في ولاية لويس التاسع - ملك فرنسا - فإنه عندما همَّ بالعودة إلىٰ فرنسا أسكن ذويه وبعض خاصته جبل لبنان.

ولما لم يعد اختلط هؤلاء بالسكان، وصاروا مع اللبنانيين غاية واحدة، ومما يؤكد هذه العلاقة ما وجهه ملوك فرنسا إلىٰ موارنة لبنان في أزمنة مختلفة من خطابات، وهي محفوظة في مكتبة البطريركية المارونية تثبيتًا لحمايتهم لهم، وإيذانًا بما لهم من المنزلة الممتازة عندهم، ولاسيما الخطاب الذي بعث به لويس التاسع وهو في عكا إلىٰ الأمير سمعان - زعيم الموارنة - موجهًا إلىٰ الشعب الماروني وبطريركية وإكليروسية واعيان،

وقد أنفذه في ٢٨ إبريل ١٢٤٩م على أثر مجيء هذا الملك إلى سوريا وإنجاد الموارنة له بخمسة وعشرين ألف مقاتل من نخبة شبابهم بقيادة الأمير سمعان، قال: «نحن مؤمنون بأن الأمة المارونية هي قسم من الأمة الفرنساوية؛ لأن محبتها للفرنساويين تشبه محبة الفرنساويين بعضهم لبعض، وعليه فيجب أن تتمتعوا أنتم والموارنة بنفس الحماية التي يتمتع بها الفرنسيون من جانبنا، إننا وجميع الذين يخلفوننا على عرش فرنسا نعدكم وعدًا ثابتًا بأننا نوليكم أنتم وجميع شعبكم حمايتنا الخاصة كما نوليها للفرنساويين أنفسهم، ونسعى في كل وقت فيما يكون مصدرًا لسعادتكم».

كما وجه لويس الخامس عشر إلى البطريرك يوسف ضرغام في ٢١ إبريل ١٧٣٧م رسالة متضمنة مثل ما جاء في هذه الرسالة، وكانوا يعينون قناصلهم في بيروت من أعيان الموارنة.

وفي كتاب كمال جنبلاط[1] يقول: إن نظام الانتداب الفرنسي كان حريصًا على تقوية النظام الطائفي السياسي ورجالاته في الحكم وفي الإدارة، وأن يعتمد مختلف الوسائل لبث روح التفرقة والتناقض الداخلي، والإمعان في اضطهاد الحركات والأحزاب والشخصيات السياسية المحررة، كما أنه أسهم في تقوية شوكة رجال الدين وتنمية المدارس الأجنبية الفرنسية ومختلف المؤسسات الخيرية التي كانت تبطن غالبًا تخطيطًا وأهدافًا سياسية مناهضة للروح الوطنية.

واتبع الفرنسيون في نهجهم سياسة عملية ترمي إلى توطيد ركائز الوطن القومي الطائفي، وأصبحت مع الزمن (القومية اللبنانية) يغلب عليها اللون المسيحي للوطن المسيحي، كما أصبحت القومية العربية في مفهومها الشعبي تصطبغ إلى حد ما بالطابع الإسلامي، وضاع الناس في جدل بيزنطي حول العروبة واللبنانية، وكل طائفة أصبحت

---

(١) في مجرى السياسة اللبنانية.

حزبًا سياسيًا امتدادًا للشعور القبلي والتضامن الأولي البدائي، وامتنع المحمديون عن التعاون في الإدارة والحكم، وتنكروا للفكرة اللبنانية الطائفية وكان من جراء هذا الامتناع أن تركز النفوذ المسيحي وازداد في الحكم وفي الإدارة وفي الاقتصاد، ونشطت فكرة تمسك كثرة المسيحيين وأعوانهم بالانتداب الفرنسي إلىٰ حد أن ذهب بعضهم إلىٰ المطالبة بتحويل لبنان إلىٰ مقاطعة إدارية فرنسية، وقد حال الاستعمار الفرنسي من تعيين مسلم (الشيخ محمد الجسر) رئيسًا للجمهورية اللبنانية علىٰ الرغم من موافقة جميع النواب والبطريرك الماروني ذاته، وإن كل ما يتعلق بالتسوية إنما يقصد به جذب غالبية المحمدين للفكرة اللبنانية وجرهم للاعتراف بالكيان اللبناني.

فالقومية اللبنانية غير موجودة حتىٰ الساعة (صدر الكتاب ١٩٦٠م)، إلا إذا قصد بها القومية المسيحية أو القومية المارونية بشكل أخص؛ لأن معظم الذين يروجون للقومية اللبنانية لا يعنون حتىٰ هذه الساعة إلا هذا المفهوم الامتدادي للرباط السياسي وللشعور الجماعي للطوائف المسيحية، ولا ينشدون إلا تركيز لون معين للبنان، والإبقاء علىٰ سيطرة طائفة معينة، والخطأ كل الخطأ في هذا التركيز، فإن لبنان لم يتعرف طوال تاريخه إلىٰ لون طائفي مسيحي للكيان والدولة، بل علىٰ العكس اصطبغ باللون المحمدي، وبشكل خاص بالصبغة الدرزية، وعرف الواقع اللبناني إذ ذاك بجبل الدروز، في التسمية، وفي كتب التاريخ، وفي مراسيم تكريس اختيار الأمراء، وللأسف قطعت جذور ذلك إلىٰ مدة طويلة محاولات بناء الوطن القومي المسيحي التي انبعثت منذ جيل وربع جيل تقريبًا بعد أن حاول الغرب أن يغزو الشرق الإسلامي من جديد في حملة نابليون، فالتركيز علىٰ لبنان بمؤسسات التبشير والجامعات، ودور الطباعة، واستبدال سيطرة الإقطاعيين إلىٰ سيطرة الزعامة الدينية، وكان (لبرتوكول ١٨٦٣م - استقلال لبنان الذاتي) أكبر الأثر في تدعيم فكرة الوطن الطائفي ودحر تطور الفكرة الوطنية.

وقد بلغ مدىٰ عنف الموجة الطائفية أن فسر التاريخ للمنطقة تفسيرًا مارونيًا، فقال

جواد بولس: «حتىٰ إنه بعد قيام الإمبراطورية العربية، وإنه لم يكن بضع عشرات من السنين تمر حتىٰ رفض سكانه الموارنة دفع الجزية إلىٰ خلفاء بني أمية في دمشق، وإنما فرضوا علىٰ بني أمية نوعًا من الجزية يدفعها الأمويون إليهم ضمانة لتصرفهم تصرفًا مرضيًا»... وهذا ولا شك من أكاذيب التاريخ التي يريدون بها القول بأن لبنان عاش طوال حياته أمة مستقلة».

وفي كتاب بولس نجم عن القضية اللبنانية المسيحية أقوال خطيرة؛ حيث يقول: إنَّ الموارنة وسواهم من النصارىٰ قد أقاموا علاقات منتظمة مع أوروبا، فأصبح لبنان أكثر أجزاء البلاد انفتاحًا علىٰ التأثير الخارجي، وقد اعتمد نصارىٰ البلاد علىٰ الغرب، وكان ذلك سببًا في تقبل أفكار أوروبا وطرائق حياة شعوبها.

وصلة نصارىٰ لبنان بأوروبا قديمة العهد حين احتل الفرنجة السواحل الشامية، ودخل الموارنة وحلفاؤهم أحضان الكنيسة الكاثوليكية، وأصبح لبنان مع الزمن طليعة الحركة الدينية المسيحية في بلاد الشام، وبمجيء سنة ١٨٢٠م بدأت طلائع المرسلين الإنجيليين من المرسلين الأمريكيين الذين كان لهم السبق، وقال: إنَّ المفكرين المسيحيين في لبنان هم الذين حملوا الفكر الغربي إلىٰ بلاد السلطة العثمانية، فلم يشعروا بمسؤولية الحفاظ علىٰ دين مهدد بالخطر، ولم يأنفوا من الأخذ من الغرب المسيحي واعتماد طرقه، ثم جرت ترجمة الكتاب المقدس الذي ترجم إلىٰ العربية المحلية، وحاول التقيد بالعبارة التقليدية المألوفة علىٰ ألا يستعمل من اللغة العربية إلا ما يفهمه غير المتعلمين، وقال: إن الفكرة القومية التي قال بها البستاني وإبراهيم اليازجي مأخوذة من (فانديك)، وكانت الغاية هي تعزيز تاريخ المسيحيين في الولايات السورية.

وتختلف القومية العربية التي دعا إليها إبراهيم اليازجي ورفاقه من اللبنانيين

المسيحيين عما دعا إليه الكواكبي، غير أن الحركة عندما تولاها المسلمون تبين أنه من الاستحالة فصل العروبة عن الإسلام، فحدث تخوف من حركة الوحدة الإسلامية، التي نادىٰ بها جمال الدين ورفاقه، وتبناها السلطان عبد العزيز، ولما بدأت النزعة القومية العربية بقيادة المسلمين تأخذ شكلها الجديد، كان لابد أن يتبدل موقف المسيحيين تجاهها إلىٰ إعداد خططهم، وبدأ التفكير في القومية اللبنانية المسيحية، ولما أعلن الملك حسين الوعد بإمبراطورية عربية هبَّ الموارنة وأغلب المسيحيين في لبنان معلنين رفضهم الانضمام إلىٰ أي دولة عربية كبرىٰ، ولما انضم العرب إلىٰ بريطانيا اعتمد القوميون اللبنانيين فرنسا حاميتهم التقليدية، فلما جاء الفرنسيون أعلنوا أنهم سيحمون أصدقائهم الموارنة ويضمنون مصالحهم، وتلاقت المصالح المارونية والفرنسية، وكانت ثمرة الطائفية «حزب الكتائب»، وهو منظمة طائفية لا وطنية تدين بالولاء لفرنسا لا للبنان: تحمل لواء الدعوة إلىٰ وحدة البحر الأبيض المتوسط، وترىٰ أن لبنان ليس عربيًا وإنما من دول البحر المتوسط، وقد هاجم الكتائب كل الحريات في العالم العربي، وأيد الصهيونية في فلسطين، ويؤمن بضرورة تجزئة البلاد العربية وعدم قيام أي وحدة بينها، وأن العرب ليسوا أمة واحدة، وأن كل قطر أمة، وتؤمن الكتائب بالإرهاب والاعتقال السياسي، وقد التقىٰ حزب الكتائب اللبناني مع الحزب القومي السوري في مقاومة قضية فلسطين والوقوف في صف الصهيونية والغرب، وإعلان الحرب علىٰ التيار العربي الإسلامي، وتقوم أفكاره علىٰ أساس الفينيقية والمتوسطية والانعزالية، وقد اشترك في كل قرار ضد الوحدة وضد ارتباط الأمة العربية وضد حريتها، واتخذوا من لبنان قاعدة ومنطلقًا لمصادمات إرهابية هي سلاح المستعمر وأداته في القضاء علىٰ الاستقرار.

ولقد قدمت الكتائب منهجًا لها بوصفها حزبًا سياسيًا، ولكن هذا المنهج كان غامضًا مليئًا بالرموز والكلمات البراقة بعيدًا عن الإفصاح الحقيقي عن الأهداف المبيتة في

نفوس أصحابه، حتىٰ كشفت الأحداث الأخيرة عن حقائق الأهداف يقول الأستاذ محمد كسلي: لقد أصبحت الطائفية نظامًا سياسيًا لدولة الاستقلال، وفي حدود هذا النظام عاش لبنان حياته السياسية بعد الاستقلال، وتركبت ونمت أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية، وعمل الجميع علىٰ جعل المسألة الطائفية ساخنة دائمًا، فالصراع الطائفي هو وحده القادر علىٰ تأمين مصالح الذين يتلقون نتائج وامتيازات هذا النظام، فالدول الاستعمارية وجدت في هذه التسوية الطائفية مجالاً للاعتماد علىٰ المسألة الطائفية في تقوية نفوذها وسيطرتها السياسية والاقتصادية، والطبقة البرجوازية التجارية والمالية وجدت في الطائفية أفضل نظام سياسي يغطي سيطرتها الاقتصادية ويغطي الاستغلال والاحتكار اللذين تمارسهما، وترابط كل ذلك عضويًا: النظام السياسي الذي تشكل علىٰ أساس الطائفية ومصالح الدول الاستعمارية ومصالح الطبقة البرجوازية التجارية والمالية والزعامات السياسية التقليدية التي تمثل هذه الطبقة في أصولها الإقطاعية القديمة. إن الطائفية التي تحكم هذا الترابط العضوي أصبحت نظامًا سياسيًا يؤمن لأصحاب المصالح جميعًا استمرار سيطرتهم ونفوذهم. لقد أصبح للطائفية مضمونها الاقتصادي والطبقي، وأصبح لها طبقة اجتماعية هي الطبقة المسيطرة اقتصاديًا، ولذلك فإن الصراع الطائفي هو تزييف وتغطية لصراع آخر، هو الصراع الطبقي بين أصحاب المصالح الذين يمارسون الاستغلال وبين الطبقات الاجتماعية التي تُستغل وتعاني الظلم الاجتماعي إلىٰ أي طائفة انتمت.

والانتخابات البرلمانية لم تزل ترتكز علىٰ نوع من العشائرية والعائلية المرتبطة بالطائفية. إنها نوع من الإقطاعية علىٰ شكل سياسي حديث.

ويرىٰ الباحثون أن مصدر الطائفية ودوام استمرارها: هو النظام التعليمي القائم علىٰ الطائفية، الذي ترك آثاره علىٰ المؤسسات السياسية والإدارية والاجتماعية. يقول الدكتور سامي مكارم: لا شك أن لتعدد مشارب الجامعات في لبنان أثرًا كبيرًا إلىٰ

حد ما علىٰ تأثر العقليات في لبنان، إنَّ اختلاف العقليات ناتج عن عدم وجود برنامج موحد في المدارس الابتدائية والثانوية التي يتكون فيها عقلية المواطن الناشئ، ويقول فريد الخطيب: إن جامعة بيروت الأمريكية ارتبطت بطبقة معينة عندما رفعت أقساطها إلىٰ حد لا تتحمله الطبقة المتوسطة وأصرت علىٰ أن يكون لها طابع النخبة لا الطابع الشعبي، كذلك الجامعة اليسوعية عزلت نفسها عن الطبقة الدنيا بتحديدها قسطًا ليس في متطلب الطالب من أبنائها.

ولذلك؛ فإن الأدب والفكر الذي يقدمه لبنان العربي ليس أصيلاً وليس قائمًا علىٰ المفهوم الجامع الذي يقدمه الإسلام والعروبة، ولكنه أدب زائف، له طابعه الإقليمي والتغريبي، ويُعد ذلك واضحًا في مختلف صنوف الإنتاج الفكري وواضح فيه طابع الولاء للثقافة الفرنسية والثقافة الأمريكية المصبوغة بالصبغة الصهيونية. وقد جرىٰ الأدب اللبناني مع الهجوم علىٰ اللغة العربية وإعلاء العاميات والحروف اللاتينية، وكانت كتابات المهجرين اللبنانيين الشاميين مسمومة، وكان ما يسمىٰ الدعوة إلىٰ الأدب الإنساني احتقارًا للعروبة وامتهانًا.

في ضوء هذا الواقع التاريخي، يمكن النظر إلىٰ المؤامرة في لبنان، هذه المؤامرة التي تتركز في القضاء علىٰ الوجود الإسلامي المتنامي. وقد احتال النفوذ الأجنبي علىٰ وضع المسلمين وهم أغلبية السكان في لبنان؛ فقسموهم إلىٰ سُنة وشيعة ودروز، وبذلك أصبحوا أقلية، وأصبح الموارنة المسلمون أغلبية، وأصبحت الدولة مسيحية ورئيسها مسيحيًا، وكان هذا أول إسفين يُدَقُّ في جسم الأمة الإسلامية، وقد انتهز المسيحيون فرصة انتصارهم مرة أخرىٰ في الحرب العالمية الثانية، ومهدوا وأعانوا يهود العالم المشتتين علىٰ إقامة دولة يهودية في فلسطين، فكان هذا هو الإسفين الثاني، ومن ثم قامت بين مسيحيي لبنان ويهود فلسطين محاولة لإقامة الدولة المارونية التي استيقظت الشعوب الإسلامية داخل لبنان وخارجها علىٰ انفجارها، مع أن

المؤامرة ممتدة في القدم بجوانبها المختلفة العسكرية والاقتصادية والاجتماعية نماها الاستعمار الفرنسي، ورسم لها خطوطها التي جرت فيما بعد خروجه، والموارنة هم ركائز الاستعمار الغربي، فلا يعتقدون بأي رابطة تشدهم نحو العرب، وهم يخططون منذ القدم للانفراد بحكم لبنان، ثم السيطرة علىٰ بلاد الشام: البلاد التي يزعمون أنها كانت لأجدادهم وبني دينهم من الرومان.

وقد أشارت مذكرة المارون للمبعوث الفرنسي (كوفي دي مورفيل) إلىٰ عدة عوامل:

١ - لبنان الموحد خطأ، وكان يجب أن يكون لبنان مسيحيًا خالصًا.

٢ - تكاثر المسلمين يؤدي إلىٰ قيام دولة إسلامية في لبنان.

٣ - فرنسا أعطت المسلمين من الحقوق أكبر مما يحق لهم.

٤ - هناك إصرارعنيد علىٰ إلصاق صفة (عربي) بلبنان.

ولقد كان هذا الوضع ثمرة المخطط الذي نفذه الاستعمار بدقة في هذا الجزء من عالم الإسلام؛ بهدف عزله وجعله منطلقًا لخدمة مصالحه، فقد عمد النفوذ الاستعماري علىٰ استغلال تعصب مجموعة من المسيحيين بالشام ليصبح في عقولهم فكرة أن لبنان دولة للمسيحيين الذين يشكلون غالبية سكانها، وأنها دولة تنتمي إلىٰ أوروبا قبل أن تنتمي إلىٰ العالم العربي؛ لتكون بذلك درعًا يقي من الشمال قيام دولته المصطنعة في أرض فلسطين، وتحميها من وحدة عرب الشام الذين شكلوا علىٰ مدىٰ التاريخ أحد عناصر التهديد الهامة لكل غزو أجنبي علىٰ أرض فلسطين، وكان هدف النفوذ الأجنبي أن تشكل لبنان مع إسرائيل عقبة في سبيل الوحدة العربية، وقد تحطم هذا المخطط بعد أن تبين تفوق المسلمين عددًا، وازدياد نفوذهم الاقتصادي، وكان

لثقافة القوىٰ العربية في الشام ومصر أثره الواضح، وقد كان لوجود نصف مليون لاجئ فلسطيني في لبنان أثره في وقوف القوىٰ غير المسيحية في وجه الانعزالية المسيحية المشكلة بشكل أساسي في مليشيا حزب الكتائب ومليشيا حزب الأحرار.

وقد عمدت عصابات الكتائب إلىٰ تصفية الثورة الفلسطينية في لبنان بوصفها حليفًا قوميًا للقوىٰ الوطنية، علىٰ أمل إعادة النفوذ الماروني القديم، وعملت الكتائب في محاولتها علىٰ تأليف كل القوىٰ اللبنانية ضد الفلسطينين تحت غطاء ادعاءات الوطنية والإقليمية الضيقة، ولكنها فشلت بعد جولة دامية قصيرة.

وتضاعفت معسكرات الكتائب، وزادت مساعدات الغرب من الأموال والأسلحة، وكذلك مساعدات إسرائيل، وكانت هذه المساعدات كلها ترمي إلىٰ تصفية الثورة الفلسطينية والقوىٰ الوطنية في لبنان.

وفي الوقت نفسه، تسلحت قوىٰ الثورة الفلسطينية وزادت قوة، وطال سباق التسلح داخل الساحة اللبنانية، ولم يتمكن الانعزاليون من تحقيق التفوق الذي يعتبرونه شرطًا أساسيًا لبدء مخططهم ونجاحه.

ويقول الأستاذ عمر نجيب: إنَّ ما يحدث في لبنان ليس سوىٰ تنفيذ لمؤامرة خطيرة جدًا تستهدف تصفية الثورة الفلسطينية، ومن ثم إزالة العقبة الأساسية التي تحول دون إحلال سلام يضمن لإسرائيل البقاء والتوسع، ويمْنع الشعب الفلسطيني من إقامة دولته علىٰ أرضه المغتصبة.

ولما كان هدف الكتائبيين هو تقسيم لبنان إلىٰ دولتين مسيحية وإسلامية بوصفه أصلح الحلول للحفاظ علىٰ سيطرة غربية استعمارية في منطقة الشام، فهذا الحل إذا تم سيكون بالنسبة للكتائب وأعداء الثورة الفلسطينية الخطوة الأولىٰ نحو تصفية الثورة الفلسطينية والقوىٰ الوطنية اللبنانية علىٰ يد إسرائيل التي لا شك تنتظر تقسيم لبنان

لتضرب الدولة الإسلامية فيه بكل ما لديها من قوة.

ويرى كثير من المعلقين أن هناك اتفاقًا بين اليهود ونصارى لبنان على إبادة عرب فلسطين، وبلغ من دهاء اليهود ومكرهم أن جعلوا المسيحيين مؤمنين بأسفار اليهود وبكل ما جاء فيها، وبأن اليهود هم شعب الله المختار، والمقصد المُجمع عليه هو إبادة الشعب الفلسطيني؛ حتى لا يطالب بوطنه الذي يصبح اليهود مالكيه دون أن ينازعهم فيه منازع، وما كان اليهود ليدخلوا فلسطين إلا بواسطة المسيحيين الذين مكنوا لليهود في فلسطين، والمسيحيون هم الذين سلبوا عرب فلسطين المسلمين أراضيهم وحقوقهم وسلموها لليهود، وهم الذين اشتركوا مع اليهود في تقتيل العرب رجالاً ونساءً وشيوخًا وأطفالاً، فلما أصبح اللاجئون الفلسطينيون في لبنان قوة، فإن المؤامرة كلها تستهدف تصفيتهم مع مسلمي لبنان، من أجل ذلك كما يقول الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار: وضع مخطط رهيب بالاشتراك مع الدول الكبرى ومع روسيا الشيوعية يقوم على ضرب مخيمات الفسطينين وإبادتهم.

ورأى اليهود وأعوانهم أن الوجود الفلسطيني قد انتهى من البلدان التي كانوا بها، ولم يبق إلا في لبنان، وعرفوا أن الفلسطينيين ومسلمي لبنان قوة واحدة تجمعها كلمة الإسلام، وهم ليسوا خطرًا على المسيحيين في لبنان؛ لأنهم يرونهم إخوة في الوطن، ولكنهم خطر على دولة واحدة في العالم هي إسرائيل التي رأت أن تتفق مع مسيحيي لبنان لضرب الفدائيين واللاجئين الفلسطينيين وكل مسلمي لبنان، وبلغ من توحش مسيحيي لبنان أن قتلوا الأطفال والعذارى والنساء، كذلك فإنهم أحرقوا مئات الألوف من المصاحف التي كانت معبأة لإرسالها إلى بعض بلدان العالم الإسلامي، وليس شك في أن الحرب في لبنان أشعلها المسيحيون لإبادة المسلمين والفلسطينيين؛ حتى يكون الأمن والاستقرار مضمونين لليهود في فلسطين، والأسلحة الإسرائيلية تتدفق على المسيحيين اللبنانيين، كما تتدفق عليهم الأموال من الدول الكبرى ومن اليهود،

فالحرب في لبنان علىٰ حقيقتها حرب دينية أشعلها المسيحيون علىٰ المسلمين؛ حتىٰ يتخلصوا منهم ومن الفلسطينين، هذا ومن ناحية أخرىٰ فقد ظهرت وثائق كثيرة تكشف أنَّ المسيحيين في لبنان أعانوا مع مسيحيي الغرب اليهودَ علىٰ إقامة دولة يهودية في فلسطين، وقد عقد المؤتمر الماروني الأول ١٩٨٠م برئاسة حزب الكتائب علىٰ هدف إقامة دولة مسيحية علىٰ نمط الدولة اليهودية (إسرائيل)، ووصف بأنه يماثل المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد برئاسة هرتزل في بال بسويسرا ١٨٩٨م، ومن قراراته إنشاء جيش ماروني عالمي، وإنشاء صندوق للضرائب المارونية لجمع مئة مليون ليرة ممن يعملون في الخليج وتنقية الشخصية المارونية من العرب، وتشكيل لجنة لوضع لغة مارونية خاصة متحررة من الحروف العربية، واستخدام الحروف اللاتينية، وتوثيق العلاقات مع الحركة الصهيونية، باعتبارها مناهضة للقومية العربية. وقال قائد القوات اللبنانية سعد حداد: إننا اليوم أمام خيارين لا ثالث لهما. إما الانتصار الساحق علىٰ الفلسطينيين وطردهم من الأراضي اللبنانية وإما الالتحاق فيدراليًا بإسرائيل.

وتجدد الحديث في هذه المناسبة بالوثيقة التي قدمها المطران أغناطيوس مبارك الماروني عام ١٩٤٧م إلىٰ لجنة التحقيق الدولية التابعة للأمم المتحدة والتي تقول: «إنَّ ضم فلسطين ولبنان إلىٰ مجموعة البلدان العربية يعني التنكر للتاريخ، وتدمير التوازن الاجتماعي في شرق المتوسط، وإن هذين البلدين فلسطين ولبنان، وهاتين البؤرتين تدلان علىٰ ضرورة وجودهما مستقلين متفردين. إن هذين الشعبين: اللبناني واليهودي يستطيعان أن يفتخرا بأن في صفوفهما من المثقفين والمفكرين أكثر من كل شعوب المنطقة كلها، وليس من العدل أن تحكم أكثرية جاهلة وليس من العدل أن يكون مليون من البشر المتطورين والمثقفين لعبة في يد بعض ذوي المصالح الذين يحكمون الملايين من المتخلفين.

إنَّ هناك أسبابًا مهمة - اجتماعية وإنسانية ودينية - تتطلب أن يؤسس في هذين

البلدين (وطنان) للأقليات، وطن مسيحي في لبنان ووطن يهودي في فلسطين. إنَّ هذين الوطنين المرتبطين جغرافيًا يتعاونان اقتصاديًا ويشكلان جسرًا ضروريًا بين الشرق والغرب، سواءٌ من الناحية الثقافية أو من الناحية الحضارية.

لا ريب كانت محاولة النفوذ الأجنبي الراغب إلىٰ تدمير الوحدة الإسلامية ترمي إلىٰ الدعوة إلىٰ تيارين في وقت واحد: التيار القديم السابق للإسلام، والتيار الغربي الوافد بالدعوة إلىٰ العنصرية.

وهذا ما قام به الاحتلال الفرنسي حين دعا إلىٰ الفينيقية وإلىٰ كون اللبنانيين غير عرب، وإنما ينحدرون من الفينيقيين القدماء، كرد فعل علىٰ فكرة الوحدة الإسلامية والعروبة، ومن ناحية أخرىٰ كان حزب الكتائب الذي ظهر ١٩٣٦م أحد الأطراف المسيحية بعدما أصبحت الفينيقية تيارًا عامًا بين المسيحيين، حيث برزت الدعوة إلىٰ القومية اللبنانية لمواجهة الوحدة العربية، وكانت البعثات التبشيرية المسيحية الأجنبية والفرنسية بوجه خاص وراء قيام هذا الاتجاه، حيث تم الاتفاق علىٰ أن يتنازل المسلمون عن كيان عربي وحدوي أكبر مع سوريا في سبيل قبول المسيحيين التنازل عن فكرة وطن قومي مسيحي بحماية الدول الأجنبية. فالمسيحيون بتخليهم عن فكرة الحماية الأجنبية تبنوا فكرة عروبة لبنان، والمسلمون بتخليهم عن فكرة ضم لبنان لكيان عربي أو سوري اعتبروا لبنان في حدوده الراهنة وطنًا نهائيًا لهم.

وقد اقتضىٰ ذلك - كما يقول (عصام شريح) - انفتاح لبنان علىٰ العالم العربي، ثم كان توزيع المناصب ضمن هيمنة مسيحية واضحة، حيث أعطت رئاسة الجمهورية للمارون، واعترف لهم بأنهم الأكثر تعدادًا بين الطوائف، وهو ما تنفيه الوقائع الديموغرافية الحالية في لبنان، حيث لم يسمح الموارنة بإجراء أي إحصاء للطوائف منذ عصر الاستعمار الفرنسي، وقد أسندت قيادة الجيش إلىٰ الموارنة، وبذلك قبض

الموارنة علىٰ أهم سلطتين، وضمن الميثاق ستة مقاعد للمسيحيين لقاء خمسة مقاعد للمسلمين، وهكذا أحرز المارون: (١) الرئاسة. (٢) التفوق العددي. (٣) تفوقه في البرلمان. (٤) قيادة الجيش.

ويقول **أنيس صائغ** (في كتابه لبنان الطائفي): إن الميثاق الوطني لم يضع أسس النظام الطائفىٰ في لبنان، ولكنه جمع وهندس واجهة لبنان الطائفية.

ويشير عصام شريح إلىٰ أن هناك عاملاً جديدًا دخل علىٰ العامل الاستعماري الأجنبي الذي يريد أن يحتفظ بلبنان والهيمنة المارونية، ذلك هو العامل الإسرائيلي؛ فقد عمل الإسرائيليون والأمريكيون علىٰ تحريض الموارنة وتسليحهم وتمويلهم وتدريبهم لمقاومة ما أسموه انتفاضة المسلمين المتوقعة، والتي أخذت بعض عناصر قوتها من وجود الثورة الفلسطينية علىٰ الأرض اللبنانية في الجنوب أعقاب ١٩٧٠م، وكان أن عمد حزبا الكتائب والأحرار إلىٰ مواجهة المسلمين الذين أخذوا يرفعون شعار المشاركة في الحكم وإنهاء الاستئثار المسيحىٰ بالسلطة، وإجراء إحصاء لعدد سكان لبنان، وتوزيع السلطات علىٰ أساس الإحصاء، ومن ثم بدأت الاشتباكات ١٩٧٥م بحادث عين الرمانة، واتسع نطاقها حتىٰ كانت حرب السنتين ٧٥/ ١٩٧٦م.

ولا ريب أن هذه حلقة جديدة من حلقات الصدام بين شعوب الغرب المسيحية وبين المسلمين والعرب، حقدًا وعصبية ورغبة في تدمير هذه القوة أو منعها من بلوغ غايتها الطبيعية لها، وهي مرحلة جديدة من مراحل الحروب الصليبية، ومن خطة احتواء العالم الإسلامي كله من خلال مدارس ومؤسسات التعليم والثقافة التي قامت علىٰ أساس التيارين الكاثوليكي والبروتسانتي (فرنسا وأمريكا)، وقد كان للصحافة دورها في سيطرة المارون عليها في مصر وشمال أفريقيا، ثم كانت المدرسة المارونية في التاريخ التي حاولت أن تصبغ التاريخ الإسلامي في هذه المرحلة بصورة مشوهة، وهي

التي حاولوا بثها في مدارسهم ومعاهدهم وتعليم أبناء المسلمين إياها، وقد أشار نجيب العقيقي في كتابه «المستشرقون» إلىٰ دور الموارنة في إنشاء المدارس التبشيرية في لبنان، وحصر نشاطهم في إظهار التاريخ الصليبي، وإثارة الشبهات حول الإسلام من حيث تعدد الزوجات وميراث البنت والجهاد والزكاة والطلاق والفتوحات الإسلامية ونبوة الرسول، ويقول: لقد بدأت الكتابة المحرفة في تاريخ لبنان منذ الانتداب الفرنسي علىٰ سوريا ولبنان، حينما طلب الجنرال غورو من الراهب اليسوعي الأب هنري لامنس أن يكتب تاريخًا لسوريا ولبنان قائمًا علىٰ الصلات التاريخية، خاصة مع فرنسا؛ فمضىٰ لامنس في كتابة تاريخ لبنان مقطوعًا عن العروبة والإسلام قدر الإمكان، ولكن لامنس لم يستطع أن يفعل ذلك بالدرجة التي فرضت عليه، وإن كان قد أبرز الجانب الماروني وحده، وحجب الجانب العربي الإسلامي الطويل، حيث دخل المسلمون الوطن اللبناني بعد ثلاثة عشر سنة من الهجرة النبوية، فكان أهل دمشق يرابطون في بيروت، كما ذكر ابن حوقل في كتابه «صورة الأرض»، وإن سيل تدفق القبائل العربية إلىٰ جباله وسهوله وسواحله لم تنقطع، وإن المسلمين قد أحبوا لبنان وعمروه، وأقاموا فيه كلمة الله، وقد أشار المسعودي في كتابه (مروج الذهب) عن إمارة التنوخيين والغساسنة، شأن ما ذكره الهمذاني وابن الفداء عن قبائل لخم وجذام التي وفدت إلىٰ لبنان في القرن الثالث الهجرىٰ، كما أشار مؤرخ بيروت (صالح بن يحيىٰ) أن المماليك قد طهروا بيروت من فلول الصليبيين عام ٦٩٠هـ.

وخطة المؤامرة علىٰ لبنان قديمة ومنوعة الأهداف، ومنها الدعوة إلىٰ الزواج المدني كمؤامرة لتذويب المسلمين في لبنان والقضاء علىٰ الأسرة الإسلامية والمحاكم الشرعية، واعتماد تدريس مادة التربية المدنية لإلغاء مادة التربية الدينية، وإلغاء معادلة الشهادات العربية، وتشجيع تجنيس غير المسلمين.

والمعروف أن إسرائيل كانت حريصة علىٰ إيجاد دويلات في المنطقة تبريرًا

لوجودها، وقد تبودلت وثائق بين بن جوريون وموشيه شاريت والياهو ساسون بشأن إقامة دولة نصرانية مارونية في لبنان، وهناك إشارة إلىٰ رسالة البطريرس إلياس الحويك ١٩١١م وأخرىٰ من أغناطيوس مبارك ١٩٤٧م تدعو إلىٰ تأسيس وطن مسيحي بلبنان.

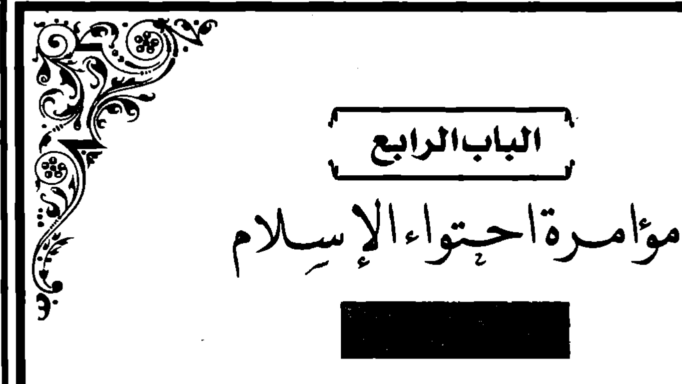
وهناك الوصايا العشر التي وصفها رجال الكنيسة الكاثوليك من فرنسيين وإيطاليين ولبنانيين للسيطرة الكاملة علىٰ لبنان.

المارون

تواعد الموارنة والصهيونية والنصيرية علىٰ خطة تدمير وتصفية الإسلام، ووجد الفرنسيون في المارونيين بعد الاحتلال إخوانًا لهم في الدين وعونًا لهم ضد المسلمين والعرب، واستغل المسيحيون الظروف، وأرسلوا أولادهم إلىٰ أوروبا والغرب، وأصبحت لهم صلات بالدول الصناعية ومتاجر ومحلات عديدة، وسبقوا مواطنيهم المسلمين في التعليم وفي طريقة الإنتاج. قال سعيد عقل: إن لبنان هو قلعة أوروبا في آسيا والواجهة الغربية وسط الصحراء الشرقية والأفريقية.

وكان الموارنة ركائز للاستعمار الغربي يسعون إليه ويخلصون له ويستفيدون منه، ولا يعتنقون أي رابطة تشدهم نحو العرب، فلغتهم وبيوتهم ومظاهرهم غربية فرنسية؛ لأنها الأم الحنون، وإن تظاهروا بالعروبة وهم يعتقدون أنهم السادة، ويستفيدون من كل خلاف يحصل بين العرب، ويعملون علىٰ تعميقه، ويخططون منذ القديم لإيجاد ما يسمىٰ بلبنان، وحكم لبنان والسيطرة علىٰ بلاد الشام.





الباب الرابع

مؤامرة احتواء الإسلام

مؤامرة احتواء الإسلام

القضايا المثارة في احتواء الإسلام

١ - الماسونية والفاتيكان

٢ - الحوار المسيحي الإسلامي

٣ - الصهيونية ومؤامرة تبرئة اليهود

٤ - البهائية والقاديانية ضرب الإسلام من الداخل

٥ - الباطنية

الفصل الأول

مؤامرة احتواء الإسلام

لم يكن النفوذ الأجنبي ليركز خططه في مجال واحد، ولكنه عمل في جبهات متعددة؛ بهدف (احتواء الإسلام)، وكانت الماسونية مدخلاً إلىٰ الصهيونية والماركسية معًا، وكان التبشير الغربي من المخططات الكاسحة التي عملت علىٰ احتواء الإسلام، إلىٰ جانب الاستشراق الذي قام بتقديم السموم التي كانت تدرس في مدارس الإرساليات أو تنشر في الصحف، أو تحملها القوىٰ الثقافية، وذلك من أجل القضاء علىٰ مفهوم الإسلام الأصيل، وخلق أجيال من الشباب المسلم المفتون في عقيدته؛ إيمانًا بأنه سيكون حربًا علىٰ الإسلام، وقد تعددت الوسائل وتطورت إلىٰ محاولات للمؤامرات الطائفية وحملة التنصير العالمي، وتزييف مفاهيم الإسلام والقرآن وتاريخ الرسول والإسلام، وإثارة الشبهات.

وكان سلطان الكنيسة الكاثوليكية بعيد المدىٰ في القيام بهذا الدور الخطير؛ يقول جان مينو في كتابه «القوىٰ الخفية التي تحكم العالم»: إن ادعاء الكنيسة بأنها بعيدة كل البعد عن السياسة ما هو إلا مجرد وهم أو خيال، وما دامت الكنيسة تعيش في هذا العالم الزاخر بمختلف متطلبات الحياة فمن العبث الادعاء بأنها تفلت من التأثر بالسياسة أو من التأثير فيها، إن أبرز أعمال البابوية هي البعثات والإرساليات الدينية، فقد بدأت تضفي علىٰ القساوسة ورجال الدين الذين تبعثهم إلىٰ المستعمرات أهمية خاصة جعلت كل واحد منهم يتمتع بشخصيته القوية التي تستمد قوتها من الكنيسة لا من السلطات الحاكمة، وقد بلغ عدد الأعضاء في المحافل أو الجمعيات الكاثوليكية

في العالم أجمع مليونًا و٣٠٠ ألف (إحصاء ديسمبر ١٩٥٧م).

هذا العدد الضخم يعتبر في الحقيقة جيشًا بالغ القوة يخضع طوعًا لتعاليم ونظم الكنيسة الكاثوليكية، ويضع هذا الجيش نفسه في أيدي المقر البابوي ورهن إشارته، وينفذ التعاليم الصادرة إليه في دقة وأمانة، هذه التعليمات تتعلق بالكثير من الحريات الأساسية للإنسان، في مقدمة هذه الجمعيات «جمعية المسيح»، وأشار الكاتب إلىٰ التدخل الواضح للكنيسة الكاثوليكية في السياسة الدولية وإلىٰ الضغوط التي تباشرها الكنيسة الكاثوليكية في ميدان السياسة الدولية، ومن أمثلة تدخل البابا في أمور اجتماعية بيانه بشأن تحديد النسل، وأكثر ما تعتمد عليه الكنيسة الكاثوليكية في دعواها هو محاربة الإلحاد ومقاومة الجهود التي يبذلها الشيوعيون لكي يبعدوا الجماهير عن «المعتقدات الدينية».

ولقد عملت الكنيسة الكاثوليكية علىٰ توسيع نطاق التبشير في العالم الإسلامي منذ استردت سلطتها ١٩٢٨م واسترجعت المبالغ الضخمة من حكومة إيطاليا بمعاهدة (لتيران)، وبدأ تنافس خطير بين البروتستانت والكاثوليك في مجال التبشير علىٰ النحو الذي كشفت عنه الدراسة التي نشرت تحت عنوان (الغارة علىٰ العالم الإسلامي)، وهي محاولات استطاعت أن تحقق بعض الانتصارات علىٰ أثر سقوط الدولة العثمانية وسيطرة الاستعمار الفرنسي والإنجليزي والإيطالي والهولندي علىٰ أجزاء واسعة من العالم الإسلامي، وقد بدأت هذه الخطط واضحة في المغرب والجزائر وتونس وفي الهند المسلمة، وفي جاوة وبلاد الملايو، وامتدت إلىٰ أواسط أفريقيا وشرقها وغربها في مواجهة الإسلام، وقد كشفت أبحاث عديدة عن أن هذا النفوذ الخطير للكنيسة الكاثوليكية والبورتستانتية خاضع خضوعًا حقيقيًا لنفوذ الصهيونية العالمية المسيطرة علىٰ الموارد والإمكانيات الاقتصادية والاجتماعية لهذه الكنائس في أوروبا والعالم كله.

ولذلك؛ فقد استطاعت الصهيونية أن تحصل من الكنيسة الكاثوليكية ومن مجلس الكنائس العالمي علىٰ تصريح أطلق عليه «تبرئة المسيح»، كان من أخطر ما تنازلت به المسيحية عن مفاهيمها وتراثها، فضلاً عن أن الكنيسة الكاثوليكية أعلنت منذ وقت ليس ببعيد أن انتماء المسيحيين إلىٰ المحافل الماسونية مسموح به بعد أن ظل قرونًا طويلة من المحاذير الخطيرة.

وفي كتاب جديد صدر ١٩٨٠م تحت عنوان (يجب هدم روما) لمؤلفه مارك آدم، ترجمه (الأستاذ نبيه عبد ربه)، يقول: الأخطبوط اليهودي يعمل علىٰ تطويق أي كتاب يحاول مؤلفه أن يفضح المخططات اليهودية في العالم، وهذا الكتاب يدق ناقوس الخطر ليس بالنسبة للفاتيكان فقط، بل بالنسبة للعالم الكاثوليك كله. يحذرهم من خطة شيطانية وهجمة شرسة يهودية علىٰ الديانة المسيحية الكاثوليكية تستهدف تحطيم الكنيسة من الداخل، ويقول: إن الأيدي الخفية التي تعمل علىٰ تحطيم الكنيسة الكاثوليكية إلىٰ ثلاث فئات: (الصهيونية، والماسونية، والماركسية)، استعملت كل فئة من الفئات الكثير من الوسائل السرية للوصول إلىٰ المركز الحساس في الفاتيكان بصفة كرادلة وأساقفة وكهنة، يلبسون مسوح الرهبان، فيما تزرع في قلوبهم نجمة داود السداسية، وشعار الصهيونية والماسونية، أو المنجل والمطرقة شعار الشيوعية، وباسم التجديد في الدين والعصرية في المذهب الكاثوليكي يحاول هؤلاء المتآمرون التشكيك في العقيدة المسيحية، وزعزعة الثقة في شخصية البابا رمز الكاثوليكية، وتغيير عادات الكنيسة وتقاليدها التاريخية، والمؤامرة علىٰ الكنيسة الكاثوليكية قديمة قدم الصراع بين المسيحية واليهودية، وقد أشار البابا «بيوس العاشر» إلىٰ هذا الخطر في رسالته التي أذاعها، والتي جاء فيها: «لم يعد ضروريًا أن نبحث عنهم بين الأعداء الظاهرين، إنهم يختفون في قلب الكنيسة، وإنهم أعداء شديدو الخطر؛ لأنهم يتسترون، إنهم العلمانيون والكهنة الذين يدعون إلىٰ تجديد الكنيسة وتطورها متسترين بحبهم

لها، إنهم لا يسعون إلىٰ تدميرها من الخارج بل من الداخل، فالخطر اليوم كامن في أحشاء الكنيسة وفي عروقها، والضربات الموجهة إليها موجعة وصائبة؛ لأن أصحابها يعرفون أين يوجهون ضرباتهم.

ويشير المؤلف إلىٰ أن في فرنسا أربعة أساقفة شيوعيين، وفي فرنسا ألف كاهن ماركسي إيطالي.

ويتحدث عن الأبعاد الحقيقية للمؤامرة علىٰ الكنيسة الكاثوليكية: فيؤكد أن الفئات الثلاثة المتآمرة ما هي إلا واجهات لفئة واحدة هي اليهودية. واليهود هم محركو الماركسية والماسونية منذ نشأتها وحتىٰ يومنا هذا.

وهذا يؤكد أن هدف هذه الفئات الثلاث هو هدف اليهودية القديم القائم علىٰ تحطيم الكنيسة من الداخل بعد أن عجز اليهود عن تحطيمها من الخارج، وكل القصص التي تدور وقائعها داخل الفاتيكان تؤدي إلىٰ الكشف عن تغلغل الماسونية اليهودية في قلب الكنيسة الكاثوليكية، وقد أمكن ضبط عدد من الكهنة الذين بعث بهم الفاتيكان إلىٰ البلدان الشيوعية، فأُلْقِيَ القبض عليهم علىٰ الحدود، وأعدموا جميعًا، وهناك تنسيق بين الفئات الثلاث؛ لأن الأسلوب الذي يتخذونه لغزو الفاتيكان أسلوب واحد، وهو إيصال أتباعهم إلىٰ المراكز الحساسة في الفاتيكان والكنائس الفرعية الأخرىٰ، حيث يعملون علىٰ تحقيق أهداف اليهودية بينما هم يلبسون مسوح الرهبان.

وفي أمر شيوعي مترجم عن الصينية: «يجب أن يفهم كل رفيق أنه من الضروري هدم الكنيسة الكاثوليكية والإطاحة بها. أما المذهب البروتستانتي الذي يقول بالتعايش، فعلينا أن نتركه وشأنه، إنه يحتضر، وسيموت ميتة طبيعية. يجب أن يدخل الرفاق إلىٰ الكنيسة الكاثوليكية، وأن يتعمدوا أو يصيروا أعضاء في المنظمات الكنيسية، وهناك تستطيعون التأثير في أبناء الكنيسة الآخرين واستمالتهم».

وقد اتخذ اليهود فرصتهم في الدعوة إلىٰ الإصلاح الديني وتجديد سلطة الكنيسة، وأخذوا ينضمون إلىٰ صفوف المسيحيين ويتظاهرون بالتنصير والإخلاص للمسيحية، حتىٰ صار منهم كرادلة وقسس ورهبان، ومن نتائج ذلك أن انقسم النصارىٰ إلىٰ فرق متعددة فيها من الخلاف أكثر مما فيها من الوفاق، واستغل اليهود هذا الوضع، وأخذوا يتغلغلون في كل فئة علىٰ حدة، ويتعاملون معها بما يضمن مصالحهم ويحقق أهدافهم، ومع الأيام استطاعوا أن يحتووا ويسيطروا علىٰ معظم المذاهب والطوائف المسيحية، واستطاع اليهود تحطيم روسيا القيصرية حامية الطائفة الأرثوذكسية، وما بقي من كنائس هذه الطائفة في أوروبا وأمريكا تغلغل فيها اليهود المتنصرون حتىٰ كسبوها إلىٰ جانبهم، حتىٰ إن البطريرك (إياكس) - رئيس الكنيسة الأرثوذكسية في أمريكا الشمالية والجنوبية - رحب بالقرار الذي أصدره الفاتيكان (١٩٦٥م) بتبرئة اليهود من دم المسيح.

أما البروتستانتية فقد غزاها اليهود في أسس عقيدتها، واستطاعوا تحويرها إلىٰ عقيدة أقرب إلىٰ اليهودية منها إلىٰ المسيحية، فقد استغل اليهود (الحرية الفردية) في النصوص الدينية، فأخذ اليهود المتنصرون يفسرون الكتاب المقدس تفسيرًا توراتيًا محضًا، ونشأت جمعيات مشتركة بين رجال الدين البروتستانت واليهود، ومولت اليهودية هذه الجمعيات بالمال والرجال والخبراء حتىٰ استطاعت السيطرة عليها، وبعد أن كان النصارىٰ يُحمِّلون اليهود دم المسيح (عَلَيْهِ السَّلَامُ)؛ لأنهم حينما (قتلوه) قالوا: دمه علينا وعلىٰ أبنائنا.

(ومن المعلوم شرعًا أن المسيح لم يقتله اليهود، بل رفعه الله إليه).

وأصبحت البروتستانتية تقول: إنَّ صلب المسيح وتحمله التعذيب والقتل كان تكفيرًا عن خطايا البشرية؛ فإن هذا التكفير سيشمل اليهود كما يشمل غيرهم من الأمم،

وإنه من الخطأ بعد هذا أن تلصق تهمة الصلب بالجيل الحالي من اليهود. وهكذا استطاع اليهود أن يزيلوا عقدة الجريمة التي كان المسيحيون يكرهون اليهود من أجلها، ولذا نرىٰ أن بريطانيا وأمريكا تدعمان إسرائيل وتدافعان عن اليهود؛ لأنهما يعتنقان المذهب البروتستانتي، واستغل اليهود (دعوة البروتستانتية) وأتباعها إلىٰ العودة إلىٰ الكتاب المقدس بعهديه (القديم والجديد) - التوارة والإنجيل - فكانت هذه الخطوة سببًا لإقناع البروتستانت بأن فلسطين هي أرض الميعاد، وأن عودة الشعب المختار إليها بمشيئة إلهيه يجب علىٰ المؤمنين بها العمل علىٰ تحقيقها.

وهذا ما دفع خمسة آلاف قسيس بروتستانتي أمريكي إلىٰ القيام بمظاهرة في (شباط) ١٩٤٥م يطالبون الحكومة الأمريكية والكونجرس بالعمل علىٰ تحقيق نبوءات التوراة بفتح أبواب فلسطين لهجرة يهودية محدودة وإقامة إسرائيل فيها، يقول الكاتب اليهودي ألفريد لينتال: إنَّ الإحساس بالصهيونية لم يقتصر أبدًا علىٰ اليهود؛ فالصهيونية في الولايات المتحدة اعتمدت علىٰ المسيحيين الأمريكيين في خدمات كثيرة، وإن الحماس الديني لدىٰ المسيحيين الصهاينة كان كثيرًا ما يفوق التدين لدىٰ اليهود الصهيونيين، إنَّ هؤلاء يسيطر عليهم الإحساس القومي لا الديني للصهيونية. أما في بريطانيا فتقول دائرة المعارف البريطانية: إنَّ الاهتمام بعودة اليهود إلىٰ فلسطين قد بقي حيًا في الأذهان في الجزء الأول من القرن الـ١٩ بفعل المسيحيين المتدينيين، وبالأخص في بريطانيا أكثر مما فعل اليهود أنفسهم. أما بالكنيسة الكاثوليكية فإن وضعها يختلف: فقد استطاعت اليهودية استمالة الفاتيكان والكاثوليك إلىٰ طرفها بعد أن استطاعت التسلل إلىٰ قلب الفاتيكان والكنائس الرئيسية الأخرىٰ، وصار لها أتباع فيها يعملون علىٰ تنفيذ مخططاتها كما صرح بذلك (مارك آدم) في كتابه (يجب هدم روما).

ومن الوسائل الرئيسية التي اتبعها اليهود في ذلك أن يتنصر بعضهم ظاهرًا، ويدخلوا

الأديرة ويعملوا حتىٰ يصلوا إلىٰ مراكز حساسة تمكنهم من أن يحطموا الكنيسة الكاثوليكية من الداخل، واعترف الحاخام ريكسورن ١٨٦٩م بأن عددًا من اليهود تنصروا، «تعمدوا بأجسادهم، وستظل أرواحهم يهودية، وسوف يكونون لنا مشعلاً نستنير به في اكتشاف خبايا النصرانية، ومساعدين لنا علىٰ رسم الخطط التي تهدم المسيحية، إن الكنيسة عدونا الخطير، فإن تنَّصروا فسوف يبثون الفساد في الكنيسة، ويشيعون أسباب الخلاف والفرقة والصراع بين المسيحيين، ونشر الأخبار المشوهة التي تسيء إلىٰ رجال الدين، فيقل احترامهم ويزدريهم الشعب في كل مكان» ا. هـ.

ويقول دكتور معروف الدواليبي: الحروب الصليبية التي عبأتها اليهودية العالمية كما ثبت بالوثائق كيف تبحث وقد كانت منطلقًا لليهود لنشر الأكاذيب عن الإسلام، فاليهودية العالمية تحول بين رجال الكنيسة والتوجه إلىٰ هذا الاتجاه، فقد تَبَيَّنَ أن اليهود نجحوا في التسلل إلىٰ المناصب العليا في الكنيسة، وكان أحد الكرادلة، وهو من أصل يهودي، قائدًا لحملة انفتاح المسيحية علىٰ اليهودية في مجمع الفاتيكان الثاني عام ١٩٦٢م، وقد نجح في حمل المجمع علىٰ الموافقة بالإجماع - عدا العرب الذين اعترضوا علىٰ تخصيص اليهودية، وطالبوا بأن يكون هناك انفتاح علىٰ الإسلام، ولولا إصرار البابا بولس السادس والكردينال بنبو دولي لما أمكن إصدار قرار لاحق بالانفتاح علىٰ الإسلام. وكان قد صدر كتاب في ١٥٠ صفحة من مجمع الفاتيكان الثاني الذي استمر أربع سنوات (١٩٦٢م - ١٩٦٥م) تحت عنوان «توجيهات للمسيحيين من أجل حوار بين المسلمين والمسيحيين»، ويعترف هذا الكتاب بأن الكنيسة قد ظلمت المسلمين، وتناولتهم بالافتراء والتشويه، وأن علىٰ الكنائس كلها أن تصحح معلوماتها عن الإسلام، وأن تعتبره دينًا مشحونًا بأعظم ما عرفه الإنسان من فضائل وقيم، وأن تقيم مع الإسلام حوارًا لا تسعىٰ فيه أن تعلم المسلمين بل تتعلم منهم، فالإسلام يمكن أن يساعد علىٰ تنقية عقيدة المسيحيين، وأن يطهرها مما لحق بها من غموض وإبهام.

ولكن اليهودية حريصة علىٰ صلتها بالمسيحية؛ لأنها ترىٰ أن تناقضها الرئيسي مع الإسلام، واليهودية في تهجمها علىٰ الإسلام لا تريد أن تظهر بوجهها السافر تريد أن تستعين بالكنيسة، وقد أثبتت الوثائق المسيحية أن الحروب الصليبية كانت بتحريض من الحركة اليهودية عن طريق رشوة الملوك ورجال الكنيسة وتمويل الحملات الصليبية للشرق الأوسط، وقد جعلوا العهد الجديد (الإنجيل) مرتبطًا وقائمًا علىٰ (العهد القديم)، مع تأكيد أنهم شعب الله المختار؛ ليجعلوا من المسيحي تابعًا لليهودي من حيث العقيدة، هذا ومن ناحية أخرىٰ فإن دور اليهودية في تحطيم الدولة العثمانية وإسقاط الخلافة الإسلامية واضح، ودلائله موجودة في عشرات الأبحاث.

إن الاحتواء اليهودي للمسيحية لتعمل في خدمة أهدافها واضح، وهي حقيقة أكدتها كثير من الأحداث والوقائع، وأخطرها:

- قبول الكنيسة للماسون بعد أن كانت الكنيسة تعتبرهم خارجين علىٰ المسيحية.

- قبولها بتبرئة اليهود من محاولة قتل السيد المسيح وهي ثابتة عليهم.

- سيطرة اليهودية واضحة علىٰ كلا القوتين المسيحيتين: الكنيسة البابوية ومجلس الكنائس العالمي.

ويقول الحبر اليهودي الكبير (مورد بيرجر): إنَّ الطوائف المسيحية واليهودية في العالم العربي الإسلامي هي الوسيط الرئيسي الذي تُثبَّت بواسطته الأفكار الغربية والمنتجات والأذواق والأفكار، وإذا كان المسيحيون واليهود هم التجار الأساسيين، والمصرفيون وأصحاب المصانع تمكنوا من بث الأفكار الأوروبية لقومهم كمسيحيين، وهي أفكار علمانية تنقصها الصفة الدينية التي للقومية العربية الإسلامية، وهناك الأقليات غير العربية من المسلمين ممن يحملون أحقادًا اجتماعية من الحاكمين.

وهناك الجامعات التبشرية (الإرساليات)، ولها أهداف مضمرة في احتواء الإسلام والحملة ضد الإسلام والمسلمين، وفيما نشرت بالنسبة للجامعة اليسوعية من أهداف بما فيها معهد الآداب الشرقية التابع لها:

أولاً: هدف يتعلق بتثقيف أبناء جلدتهم ودينهم من المسيحيين ثقافة روحية، وغرس الحقد في نفوسهم علىٰ المسلمين ودينهم.

ثانيًا: السيطرة علىٰ العالم العربي الإسلامي وتوجيهه واحتواؤه، وذلك:

١ - باستخدام بعض تلاميذ المستشرقين والمبشرين عملاء الاستعمار من الذين درسوا بجامعاتهم وتشربوا بمبادئهم.

٢ - قيام بعض الغربيين بإنشاء مؤلفات عن الثقافة الإسلامية وعمل موازنات بينها وبين الثقافة النصرانية، ثم العمل علىٰ تشويه الحقائق.

وفي كتاب تاريخ فرنسا (الذي يدرس في مدارس اليسوعيين، ص٨٠، ٨١ (أن محمدًا مؤسس دين المسلمين قد جر أتباعه أن يخضعوا العالم، وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو)، وهي من أخطر الأكاذيب فإن محمدًا (ﷺ) هو الذي روىٰ علىٰ لسان ربه في القرآن ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

والجامعة اليسوعية جامعة بابوية كاثوليكية تمولها دولة الفاتيكان وفرنسا. وقد نظر اليسوعيون في منطقة الانتداب الفرنسي؛ فاختاروا أن يوسعوا جهودهم في بلاد العلويين بين «النصيرية»، ونشروا بينهم المذهب الكاثوليكي. واليسوعيون لا يقبلون أي مسلم للتدريس في مؤسساتهم، ويشترطون أن يكون المعلم أجنبيًا أو وطنيًا مسيحيًا. وندوات اليسوعية ومقرراتها لا تخرج عن هدم التراث الأدبي العربي والتشكيك التاريخي، والدس علىٰ الإسلام والطعن في رجاله الأبرار. وقد عمل العلويون المبرزون أمثال:

أسعد علي، وزكي الأرسوزي في خدمة الماسونية واليسوعية، كما أن اختيار اليسوعية للكويت لعمل فرع لها بها هو من سياسة تقريب النصرانية إلىٰ المسلم.

ومن محاولات احتواء الإسلام التي تتأثر فيها القوىٰ المسيحية واليهودية (بعد احتواء اليهودية للمسيحية) هي:

أولاً: جعل حركات التحرير وطنية وليست إسلامية خالصة حتىٰ في المناطق التي للإسلام فيها أغلبية شاملة، فقد عمدوا إلىٰ تغليب روح القومية كما في المغرب وباكستان.

ثانيًا: إلغاء القيادات التي من خارج نطاق الغرب ولم تتعلم في جامعاته، وعدم تمكينها من العمل.

ثالثًا: إفساد مفهوم الإسلام الجامع والتجمع حول الوطنية والقومية.

رابعًا: القضاء علىٰ نظام السيادة الذي يمثل الأغلبية الإسلامية.

ويرددون دعوات ونداءات بواسطة بعض أجهزة الإعلام وبعض المفكرين في العالم الإسلامي والبلاد العربية ملخصها شعار (الدين لله والوطن للجميع)، وهي مقولة نادت بها فئات غير مسلمة تعيش في أحضان الأمة الإسلامية، وذلك بقصد عرقلة مسيرة المسلمين نحو تحكيم كتاب الله وسنة نبيه في مجالات الحياة المختلفة.

ومنها دعوتهم الذائعة إلىٰ العلمانية، وهي دعوة تحمل في طياتها خبثها وسمومها ومحاولة طرح مفهومها في الغرب في أفق الإسلام مع اختلاف الدوافع والأسباب، فهي في الغرب محاولة لسد قصور مبادئ الدين عن استيعاب شؤون الحياة وتحجر الكنيسة ووقوفها في وجه العلوم والمعارف، وتحالفها مع السلطة المستبدة ضد الطبقات الضعيفة والفقيرة والمقهورة. وهذا الذي يؤخذ علىٰ المسيحية في الغرب،

يختلف تمامًا عن موقف الإسلام من العلم وعن شموله لمنهج حياة واسع مرن قابل لكل متغيرات العصور والبيئات، والأمة الإسلامية لم تشهد وضعًا مشابهًا لما جرىٰ في الغرب في العلم.

فالعلم التجريبي نشأ وترعرع وازدهر في أحضان الإسلام الذي دعا إليه وشجع عليه واعتبره من أعظم العبادات والقربات.

إنَّ العلمانية واللائكية دعوة زائفة لا تصلح في مجتمعنا الإسلامي، ويردها تكامل الإسلام ورحابته.

- وهناك محاولات كثيرة لاحتواء الإسلام والمسلمين تتمثل في تلك الإذاعات الموجهة من الغرب إلىٰ بلاد المسلمين (من فرنسا وأسبانيا وسويسرا وغيرها) وآلاف بطاقات التبشير التي يزخر بها البريد العربي والإسلامي.

- وتلك المجلات التي تصدرها المراكز التبشيرية، وترسل إلىٰ مختلف البلاد الإسلامية والنسخ الفاخرة من كتب الجيب لأناجيل يوحنا وغيره بالعربية والفرنسية.

ومن محاولات الاحتواء:

١- ضرب المسلمين في لبنان لحساب المسيحيين.

٢- مؤامرة تحديد النسل.

٣- مؤامرة الحوار بين الأديان.

٤- تصفية المسلمين في الفلبين والملايو.

٥ - ما يحدث في جنوب السودان.

ولقد تعددت الخطط في تآزر الكنائس الكاثوليكية والإنجيلية، وتوحدها على مقاومة الإسلام، وقد رسمت مخططات التنصير على هذا المستوى.

لقد توزعت المحاولات التي استهدفت تغيير هوية المسلمين بين الديمقراطية والقومية والاشتراكية، ولكل من هذه الاتجاهات فلسفة تقوم عليها ومنهجًا تسلكه في تحقيق أغراضها، والغاية من ذلك توزيع عقليات المسلمين ومشاعرهم بين تيارات وافدة لها بريق متصل بالحضارة والدول الكبرى، وبذلك يُحجب مفهوم النظام الإسلامي ويختفي، فإذا عرض فإنما يعرض بالمقارنة مع أحد هذه الأنظمة على النحو الذي عرف في فترات سابقة كالحديث عن ديمقراطية الإسلام أو اشتراكية الإسلام.



الفصل الثاني

القضايا المثارة في احتواء الإسلام

١- الماسونية والفاتيكان:

بلغ عداء الكنيسة الكاثوليكية للماسونية أن أعلن القائد العسكري «جاريبالدي»- مُوحد إيطاليا والأستاذ الأعظم للماسونية عام ١٨٦٤م - الحرب علىٰ الكنيسة الكاثوليكية وأسمىٰ حصانة البابا «ماستاي» نكاية في البابا «بيوس التاسع»، ومن ثمَّ فقد أصدر البابا من جانبه إعلانًا عام ١٨٦٩م يحدد فيه شجبه وتهديده للماسونية واعتبارها نكوصًا عن الدين، ثم جدد البابا «ليو الثامن» هذا الإعلان في نهاية القرن التاسع عشر، واصفًا الماسونية بأنها (معبد الشيطان)، ولعله أراد باستعمال معبد اليهودية الإشارة بطرف خفي إلىٰ العلاقة الكامنة بين الماسونية واليهودية، وقد ضُمِّن هذا الإعلان بصورة رسمية في القانون الكنسي ١٩١٧م والماسونية كما جاء في الإعلان «جمعية سرية تتآمر ضد الكنيسة والدولة». ثم استطاع اليهود احتواء المسيحية وتخفيف العداء عن الماسونية، وكان للمصالح المشتركة دخل كبير في ذلك.

وبالقدر نفسه ظلت الماسونية شوكة تُوخز جنب الكنيسة الإنجيلية، تارة يبرز ألمها إلىٰ السطح وتارة يختفي. وفي بعض مرات يُهدد بالانفجار، وقد أدىٰ موقف الفاتيكان المتجدد من إدانة الماسونية وانفجار فضيحة المحفل الماسوني بها وما تكشف عنه من ممارسات إجرامية، وقد جاء ذلك بعد أن اعترفت الكنيسة بالمنظمات الماسونية؛

فكشف عن أن العلاقة بينهما ليست طبيعية.

فقد كشفت الفضيحة الماسونية مظاهر التآمر التي كانت خافية، ومن الأسف أن «جاريبالدي» الذي وُصف في المشرق بالبطولة، لم يكن إلا ماسونيًا يُنسب إليه توحيد إيطاليا وكان الأستاذ الأعظم للماسونية عام ١٨٦٤ م.

٢ - الحوار:

وصف الباحثون المصنفون (الحوار المسيحي الإسلامي) بأنه محاولة لتغطية الفشل الذريع الذي أخذ يلاحق الكنيسة والعقيدة الكنسية بالخصوص، لا خارج العالم المسيحي فحسب، بل داخل ذلك العالم وبين أوساط شبابه، ومن ثَمَّ جرت محاولة الالتجاء إلىٰ الإسلام كوسيلة أخيرة لإثبات قيم المسيحية كدين صحيح الأصل له وزنه بين الأديان الكتابية، وقد عبر عن هذه الظاهرة بعض الباحثين بأن الحوار لم يكن إلا محاولة تستهدف القول بأنه لا خلاف بين المسيحية والإسلام في مفهوم الدين وأن هناك وجوهًا واسعة للالتقاء، ومن هنا يُقال لماذا إذن دعوة الأمم إلىٰ الدخول في الإسلام مادام ما يعرضه الإسلام هو مثيل ما في المسيحية؟ وتلك قضية دقيقة غاية الدقة ماكرة أشد المكر، استخدمت لها أسماء لامعة من كتَّاب المسلمين؛ لأنها القضية القديمة التي بدأت أيام الحروب الصليبية تعود وتتجدد، وذلك حين عاد الأوروبيون إلىٰ بلادهم يُشيدون بالإسلام وعدالته؛ فقُتلوا حتىٰ لا ينشروا هذه الحقيقة، ولتبقىٰ الكلمة المتعصبة الباطلة قائمة، والواقع أن هناك وجوهًا عديدة وعميقة من الخلاف يجب أن تكون واضحة.

وقد قرر علماء كثيرون يعرفون أبعاد مؤامرة احتواء الإسلام التي تهدف - كما يقول الدكتور عمر فروخ - إلىٰ جمع نفر من المثقفين ذوي الكلمة المسموعة في قومهم علىٰ مناقشات علنية لا تمت بظاهرها إلىٰ التبشير، وإن كانت غايتها بالحقيقة

زعزعة العقائد؛ مما يجر الناس إلىٰ القول والرد، ثم النفاذ من خلال الأخطاء والجمل المتشابهة إلىٰ التأثير علىٰ ذوي النفوس الضعيفة، فغاية الحوار، زعزعة العقائد علىٰ ألسنة أشخاص معروفين في قوتهم، والحوار كالمعاهدات يظفر بالغنائم فيها من كان أقوىٰ يدًا وأرفع صوتًا.

وقد أدرك المخلصون أن الحوار هو وسيلة جديدة من وسائل التبشير الديني والسياسي معًا، وقرر المجمع المسكوني الثاني (١٩٦٦م) إعداد رجال دين عندهم استعداد للحوار، رجال دين يعرفون كيف يُصغون إلىٰ الآخرين وكيف يفتحون قلوبهم لجميع حاجات النفس الإنسانية، رجال دين من طبيعتهم أن يُوقظوا الاهتمام في النفوس، ويكونوا معلمين للإيمان المسيحي، ومن المهم أن نذكر أن حركة الحوار تهدف إلىٰ خدمة النظام الرأسمالي وتثبيت دعائمه.

ومن ناحية أخرىٰ فإن الدعوة إلىٰ الحوار ينقضها عوامل:

أولاً: استمرار حركة التنصير العالمية التي تأخذ خطوات واسعة في جنوب شرق آسيا وقلب أفريقيا.

ثانيًا: دعوة البابا ورحلاته إلىٰ البلاد الأفريقية وغيرها وتحريضه الرهبان والدعاة علىٰ بذل الجهد في عمليات التبشير والتنصير.

ثالثًا: أن العالم الغربي ينظر إلىٰ الحوار نظرة غير نظرتنا، ويهدف إلىٰ غير ما نهدف إليه. إنه يريد إزالة جدار الرفض الإسلامي العقائدي للحضارة الغربية والرأسمالية بدعوىٰ أن العالم الإسلامي والمسيحي يواجهان عدوًا مشتركًا هو الشيوعية، ورغم أننا نؤمن بعداوة الشيوعية ونختلف معها جذريًا إلا أننا نريد أن نُثبت هنا أن عداوة الإسلام للشيوعية وحربه معها لا تُنسيه صراع وحرب الرأسمالية الغربية التي لا تقل بُعدًا عنه وتناقضًا معه وحربًا عليه، وأننا كمسلمين عندما نرفض الشيوعية نرفضها من

منطقنا الخاص ومن وجهة نظر مستقلة تتميز بما عندنا من عقيدة، وأن الإسلام يرىٰ في الشيوعية والرأسمالية رغم ما بينهما من تناقضات، وجهان لعملة واحدة؛ فهما الابنان غير الشرعيين لحضارة الغرب التي تُعلي قدر المادة وتحط من قدرالإنسان، سواءً كان مبتنىٰ الحضارة علىٰ النفعية كالرأسمالية أو علىٰ المادية كالشيوعية.

ونذكر في هذا المجال تصريح «هنري كسنجر»، وفيه يرىٰ أن الخطر علىٰ الحضارة الغربية بشقيها الرأسمالي والشيوعي يأتي من خطر التعصب الإسلامي المتصاعد، ويرىٰ أن الحضارة الغربية لها شقان رأسمالي وشيوعي، وأنها تُواجه خطرًا مشتركًا يتمثل في الإسلام.

الحوار الإسلامي المسيحي:

ليس هناك شيء اسمه التقارب الإسلامي المسيحي، وقد أوعز الاستعمار الرأسمالىٰ بهذا الشعار بعد أن تفشَّت الشيوعية ونخرت في عظام الغرب، عندما أفلس الغربيون بادروا بالدعوة إلىٰ توحيد وتقارب الأديان لحماية الرأسمالية الغربية لا إيمانًا بهذا المفهوم، فالغرب الآن يمر بفترة قاسية من رفض شباب الغرب عقيدة التثليث وأسطورة العشاء الرباني، وقد نادىٰ الغربيون بهذا الشعار بعد أن غزت الشيوعية العواصم الغربية وصار أساطين الضلالة محاطين بعدد أكثر منهم حقدًا وفتكًا وإفسادًا، والذين رفعوا هذا الشعار متهمون مارقون، ومن الحركات التي عملت لوحدة الأديان وتقاربها: الماسونية والقاديانية والبهائية وهي حركات إلحادية هدَّامة وأفكارهم مدونة في كتبهم.

أما الفاتيكان القائم علىٰ هذا الأمر فإنه حليف الصهيونية وعميل المخابرات الأمريكية.

أما المحاورون من المسلمين فهم عيِّنات منتقاه، والمدعوون من النصارىٰ ماكرون خبثاء.

٣ - الصهيونية ومؤامرة تبرئة اليهود:

لا شك أن مخطط الصهيونية في تمزيق وحدة العالم الإسلامي وإقامة رأس جسر في فلسطين من أخطر التحديات التي واجهت الدعوة الإسلامية، والتي جاءت متصلة اتصالاً مباشرًا مع سقوط الخلافة وتحول الدولة الإسلامية الكبرىٰ العثمانية التي تجمع بين العرب والترك، وقد جاء تمزق الدولة وإسقاط الخلافة مقدمة لإشاعة روح القومية والإقليمية والعنصرية بين العرب والترك توصلاً إلىٰ قيام ما يُسمىٰ بالقومية اليهودية في فلسطين بدعوىٰ أنها أرض الميعاد، وقد كانت هذه من أكبر خدع التمويه الكبرىٰ؛ إذ إنه كما تبين تاريخيًا وبمختلف الوثائق أنه ليس لليهود الذين اقتحموا فلسطين أي علاقة بها أساسًا، وقد أكد ذلك عدد من اليهود أنفسهم منهم الدكتور «الفريد لينتنال» بأن الصهيونية أُكذوبة اخترعها اليهود في القرن التاسع عشر؛ لتكون مرتكزًا لما يُسمىٰ بالقومية الأوروبية التي سادت في تلك الفترة في أوروبا. وأن معظم اليهود النازحين إليها لا تربطهم أي جذور بفلسطين؛ لأنهم ليسوا منحدرين من منطقة الشرق الأوسط، وأن «الأشكنازيم» - اليهود الغربيون - الذين يحكمون إسرائيل الآن لا علاقة لهم البتة بالشرق الأوسط وبفلسطين، أما السفارديم (الشرقيون) فربما كان لهم علاقة إثنية؛ لأنهم عاشوا حياتهم في الشرق الأوسط بشكل عام وليس في فلسطين بالذات، وهؤلاء لم يطالبوا بدولة يهودية ولم يعتنقوا الصهيونية، بل الصهيونية هي التي اقتحمت عليهم حياتهم وأسوارهم، وآية ذلك ما كشفت عنه الأبحاث التاريخية أن اليهود الذين هاجروا إلىٰ فلسطين هم من يهود الخزر الذين لا تربطهم باليهودية ولا بنسل إسرائيل أية صلة، والمعروف أن الخزر كانوا يسيطرون علىٰ الطرق التجارية التي تمر علىٰ بحر قزوين ونهر الفولجا والبحر الأسود ونهر الرَّاين، وقد رأوا بأن اعتناقهم النصرانية سيقتضي التحاقهم بالدولة البيزنطية عدوهم التجاري كما أن اعتناقهم الإسلام سيجعلهم يخضعون لسلطة الخلافة في بغداد ودفع الجزية؛ لذا قرَّر سادة

هذه القبيلة اعتناق الديانة اليهودية التي لا تعني التبعية لأي سلطة سياسية تجعلهم يتنازلون عن بعض مغانمهم وثرواتهم من ضمن سياسة تُسنها الدولة أو السلطة التي سيلتحقون بها، وقد تغلغل يهود الخزر في دول أوروبا الشرقية والغربية، وتعاونوا مع يهود أوروبا الغربية ومنطقة الراين وانجلترا، وتحوَّلوا في هذه البلدان إلىٰ مرابين وتجار وسماسرة، وقد كشفت هذه الحقائق عدة أبحاث في مقدمتها كتاب (امبراطورية الخزر وميراثها: القبيلة الثالثة عشرة) للباحث «أرثر كوستلر» وترجمة الأستاذ حمدي متولي صالح، ومن هذه الوثائق تبين أنه لا يوجد لهؤلاء صلة بأبناء إسرائيل ولا بأُسطورة التفوق والشعب المميز وأن هؤلاء اليهود «الاشكنازيم» هم من هذه السلالة، أما يهود «السفارديم» فقد عاشوا في أسبانيا الغربية التي عاشت حتىٰ طُردوا منها في القرن الخامس عشر، واستقروا في حوض المتوسط ـ البلقان، وتُقرر الأبحاث أن يهود الخزر هم أساس نداء التجمع اليهودي الأمريكي بعد أن هاجر قسم كبير منهم إلىٰ القارة الجديدة ومن ثمَّ تحوَّلوا إلىٰ فلسطين، وعلىٰ هذا نستطيع القول بأن يهود اليوم أتوا إلىٰ فلسطين من ضفاف نهر الفولجا والراين والبحر الأسود وليس من وادي نهر الأردن، قدموا من سهول القوقاز وتلال روسيا وليس من سلالة كنعان صاحبة الحق الأساسي بالأرض، وأنهم أقرب إلىٰ قبائل الهون واليوجر والمجر منهم إلىٰ إبراهيم وإسحق ويعقوب؛ مما ينسف إدعاءاتهم بالسامية من أساسها.

* * *

استطاعت الصهيونية أن تسيطر علىٰ الدوائر العليا للفاتيكان، وأن تحتوىٰ خططها وأن تحقق نصرًا كبيرًا بإقرار وثيقة تبرئة اليهود من الاتهام الذي تتضمنه النصوص المقدسة من اضطهاد السيد المسيح، ومحاولة قتله هو عمل نظَّمه زعماء اليهود وحمل مسؤوليته الشعب اليهودي بأجمعه.

بدأت فكرة تبرئة اليهود من محاولة صلب المسيح مع «يوحنا الثالث والعشرين» عام ١٩٦١م؛ فقد دعت الوثيقة التي أعدها الكاردينال «بيار» إلىٰ أن هذه الجريمة يتحملها الجنس البشري كله لا الشعب اليهودي، ودعت إلىٰ عدم تضمين الخطب الدينية وكتب التعليم المسيحي ما يُشير إلىٰ مسؤولية الشعب اليهودي في (محاولة) صلب المسيح، وقالت أنه لا ينبغي اعتبار الشعب اليهودي «ملعونًا».

وتؤكد (جذور المسيحية في التوراة). وعوضًا من أن تُبرئ اليهود صراحة من الجرم، دعت إلىٰ عدم تضمين الخطب الدينية أو التعاليم المسيحية (ما يرمي باللوم علىٰ يهود عصرنا فيما خص عذاب وآلام المسيح)، كذلك رغب الكردينال الألمانىٰ (فريجز) وصحبه من كرادلة ألمانيا إلىٰ تأييد الوثيقة «للتكفير عن اضطهاد النازيين لليهود» وأمكن حشد غالبية المجمع باستثناء بعض الكرادلة الإيطاليين المحافظين والبطاركة العرب».

ولم تُجمع الكنائس المسيحية علىٰ هذه الوثيقة، وظهرت كتابات كثيرة تكشف زيفها واحتواء الصهيونية للقائدين عليها والداعين إليها، وأنها خطوة من خطوات السيطرة التي استطاعت الصهيونية أن تفرضها علىٰ الكنيسة، وتوجيهها الوجهة التي تُريدها بدءًا من احتواء الفكر المسيحي لفكرة التوراة بالوعد الزائف بما سُمِّي أرض الميعاد، وكانت خطة تبرئة اليهود جزءًا من مخطط تصفية الأجيال الجديدة من الكراهية التي تحملها الأجيال للدور الخطير الذي قام به اليهودية لهدم المسيحية والسيطرة عليها، ولأنه كان للنفوذ الاقتصادي الذي تملكه الكنيسة وتُسيطر عليه الصهيونية داخل الكنيسة في كل هؤلاء الخطر.

* * *

٤ - البهائية والقاديانية - ضرب للإسلام من الداخل:

ومن أخطر دعوات احتواء الإسلام: البهائية والقاديانية:

يقول تشرشل في كتابه (حرب النهر): لقد عرفنا مدىٰ اهتمام المسلمين بكتابهم القرآن؛ ولذلك عملنا علىٰ تغيير ذلك باحتضان أمثال غلام الدين القادياني، ودعوته إلىٰ إلغاء الجهاد.

وتلك إحدىٰ خطط النفوذ الأجنبي في احتواء الإسلام، وذلك بتغيير معالمه، ولما كانت أبرز معالمه فريضة الجهاد، وذاتيته الخاصة المميزة له عن الأديان، فقد كانت البهائية والقاديانية عاملة علىٰ هدم هاتين الدعامتين، وقد كشفت الأبحاث التاريخية عن علاقة أكيدة بين هاتين الدعوتين وبين الاستعمار والصهيونية والهندوكية، فقد ظهرت إحداهما في فارس والأخرىٰ في الهند، وحاولتا بث الفتنة، وزعزعة العقائد، وإثارة الشبهات والشكوك، وإضعاف شوكة المسلمين، وتثبيط عزائمهم في المكافحة ضد النفوذ الأجنبي، والكيد للإسلام، وتضليل المسلمين عن حقائق عقيدتهم، وتفريق وحدتهم، ولم يعد هناك ريب في أن هذه الطوائف الدخيلة تتلقىٰ العون والتوجيه من منظمات التبشير والاستعمار واليهود، وهم يعدونها لما أطلقوا عليه (حرب الإسلام من الداخل) وعلىٰ الرغم مما تُصاب به هذه الدعاوىٰ بالهزيمة والسقوط، فإنها تحاول الظهور مرة أخرىٰ وبأسلوب آخر وتحت أسماء أخرىٰ.

وأبرز ما دعت إليه القاديانية: مهاجمة فريضة الجهاد والدفاع عن النفوذ الأجنبي باعتباره الطاعة لأولي الأمر، وقد رحبت الهندوكية بالقاديانية ودافعت عنها، ثم جاءت الأحمدية بديلاً للقاديانية عندما تكشَّف أمرها وأنها خدعة مضللة، وأن الترجمة التي كتبها محمد علي اللاهوري للقرآن محشوَّة بكثير من الدعاوىٰ الباطلة والسموم المضلِّة مع استغلال تفسير القرآن في خدمة أغراض ونوايا القاديانية، وتنفيذ مؤامراتها الحاقدة علىٰ الإسلام؛ لمحاولة تشكيك المسلمين في عقيدتهم السمحة، وهي تستهدف أساسًا:

أولاً: قطع صلة هذه الأمة بماضيها وعن خير أيامها وأفضل رجالها.

ثانيًا: فتح الباب أمام الأدعياء ومدعي النبوة.

ثالثًا: خروج علىٰ النبوة المحمدية وعلىٰ صاحبها.

رابعًا: إيئاس المسلمين في مستقبلهم.

أما البهائية فإن أخطر ما دعت إليه هو:

أولاً: تأويل نصوص الشريعة، والزعم بأن شريعتهم - البهائيين - ناسخة للشريعة الإسلامية، ويستهدف التأويل تحويل القرآن والحديث وصرفهما عما يُراد بهما من حكمة وهداية، وقد ابتدعت البهائية لأتباعها أحكامًا خاصة خالفت بها أحكام الإسلام وقواعده وغيرت أحكام الصلاة والصوم وأبطلت الحج، وأنكرت معجزات الأنبياء موسىٰ وعيسىٰ ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه، وقالت بقدم العالم، وادعت بأن الأنبياء ستروا الحقائق تحت ستار الشعارات، ولا ريب أن التأويل فن ابتكره اليهود، وقام فيلسوفهم (فيلون) بتأويل التوراة ذاهبًا إلىٰ أن كثيرًا مما فيها رموز إلىٰ أشياء غير ظاهرة، ومن تأويلاتهم أن القيامة هي قيام الروح الإلهية في مظهر بشري جديد، وقالوا عن الجنة أنها فرح روحي، وأن النار حرمان من معرفة الله.

ثانيًا: إنكار البعث والجنة والنار، وقد قادت البهائية في إنكار البعث طائفة الدهريين، وهم يرون أن الجنة والنار في الكتب المقدسة حقائق مرموزة.

ثالثًا: إسقاط التكليف والدعوة إلىٰ فلسفة وإباحة الشهوات، ودفع الإنسان ليكون أسيرًا لشهواته وغرائزه وأهوائه. وقالوا إن أحكام الشريعة الإسلامية قد نُسخت، وأن الشريعة الثانية لم تصل إلينا، فنحن الآن في زمن لا تكليف فيه بشيء، فافعلوا ما تشتهون. وقد اتخذوا مدخلاً إلىٰ ذلك: الدعوة إلىٰ المساواة بين الرجال والنساء في الميراث وغيره.

وقد تعالت دعوتهم إلىٰ تمزيق الحجاب بين الرجال والنساء تحت اسم «دين الحب» الذي كان مفهومه الصحيح (شيوعية الحب)، ودين الحب الذي طبقوه في مجتمعاتهم لم يكن سوىٰ إلغاء كامل لكل الضوابط الأخلاقية؛ كي تنطلق الشهوات الدنيا في الإنسان؛ حتىٰ يمارس فوضوية الجنس والمتعة الحيوانية المشاعة.

رابعًا: دعوتهم إلىٰ نزع السلاح وإنكار الجهاد.

خامسًا: ادعاء النبوة لبعض زعماء المذهب، بل ادعاء الألوهية بالحلول والوحي من الداخل.

سادسًا: اعتمادهم علىٰ تفسيرات الباطنية للمصطلحات المعروفة في اللغة.

سابعًا: التقاؤهم مع الماسونية في تقويض الدين في نفوس الناس ومحو آثاره من المجتمع البشري كله، والماسون لا يُخفون عداءهم للإسلام والمسيحية، بل ويجهرون بالحديث عن سحق ما يُسمونه عدوهم الأزلي الذي هو الدين، مع إزالة رجاله، وعدم التردد في شن الحرب علىٰ كافة الأديان؛ لأنها العدو الحقيقي للبشرية، ولأنها سبب في التطاحن بين الأفراد والأمم.

ثامنًا: أسقطت البهائية فرائض الصلاة، والصيام، والحج، والجهاد، والحدود والقصاص، وسائر ما جاء في الكتاب من تعاليم.

تاسعًا: مهاجمة اللغة الفصحىٰ التي نزل بها القرآن إلىٰ ما يُسمونه اللغة النوراء، واستنكار كون العربية لغة «الدين الإسلامي»، ودعوتها إلىٰ اختراع لغة جديدة، وإنكار إعجاز القرآن وأنه من عند الله ـ تبارك وتعالىٰ.

وقد كشفت الوثائق عن صلة البهائية بالصهيونية والبروتوكولات من جهة، وصلتهم بالماسونية من جهة أخرىٰ واستمدادهم من الباطنية القديمة، واعتمادهم علىٰ الفلسفة المادية ومفاهيم الفرويدية والجنس. وقد وصفهم صاحب كتاب (مفتاح باب الأبواب)

بأن لهم دينًا خاصًا مزيجًا من أخلاط الديانات البوذية، والبرهمية الوثنية، والزرادشتية، واليهودية، والمسيحية، والإسلام، ومن اعتقادات التصوف الفلسفي، وبالجملة فإن نحلة البهائية قد عارضت مفهوم الإسلام الصحيح الجامع في عقائد أربعة أساسية:

أولاً: عقيدة جهاد الأعداء والصمود لعدوانهم.

ثانيًا: عقيدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثالثًا: عقيدة الاحتفاظ بالذاتية الإسلامية وحمايتها من الذوبان.

رابعًا: عقيدة الحج؛ لتثبيت الوحدة ودعم الجماعة.

٥ - الباطنية:

قاوم «سوكارنو» الحركة الإسلامية التي حملت لواء الجهاد في سبيل تحرير أندونيسيا من النفوذ الغربي، ثم فتح الباب للماركسية فاستولت علىٰ مقادير البلاد. وقد بدأ حياته مع المجاهدين الذين قدموا كل شيء في سبيل التحرر من النفوذ الأجنبي، ولكنه شأن ذلك الرعيل من القادة التابعين للنفوذ الغربي أمثال أتاتورك وغيره، سرعان ما كشف القناع عن وجهه الحقيقي فإذا هو مندفع إلىٰ الأهواء والأحقاد. مستعلٍ علىٰ طريقة الطغاة والدكتاتوريين، متقلب بين النظامين الغربي والماركسي، في سبيلَ المحافظة فقط علىٰ وجوده وكيانه في لعبة ماكرة متآمرة علىٰ شعبه وعلىٰ قوىٰ شعبه الأمينة المخلصة لوجه الله والوطن. وقد وُصف بأنه كلاعب السيرك الذي يقفز من فوق الحبال، وأنه من كثرة قفزه احترف اللعبة حتىٰ سقط به الحبل واستمر السيرك، ولكنَّ اللاعب الماهر قُتل. (كما وصفته جريدة الليموند).

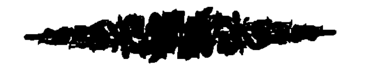
ولعل أخطر ما خلَّفه «سوكارنو» هو ذلك الوضع الخطير الذي تحولت إليه أندونيسيا حين اتَّجهت إلىٰ الغرب؛ فأصبحت تُقاسي صراع العديد من القوىٰ في مقدمتها حركة التبشير العالمية الخطيرة، والشيوعية، ودعاة البهائية والقاديانية، وبروز

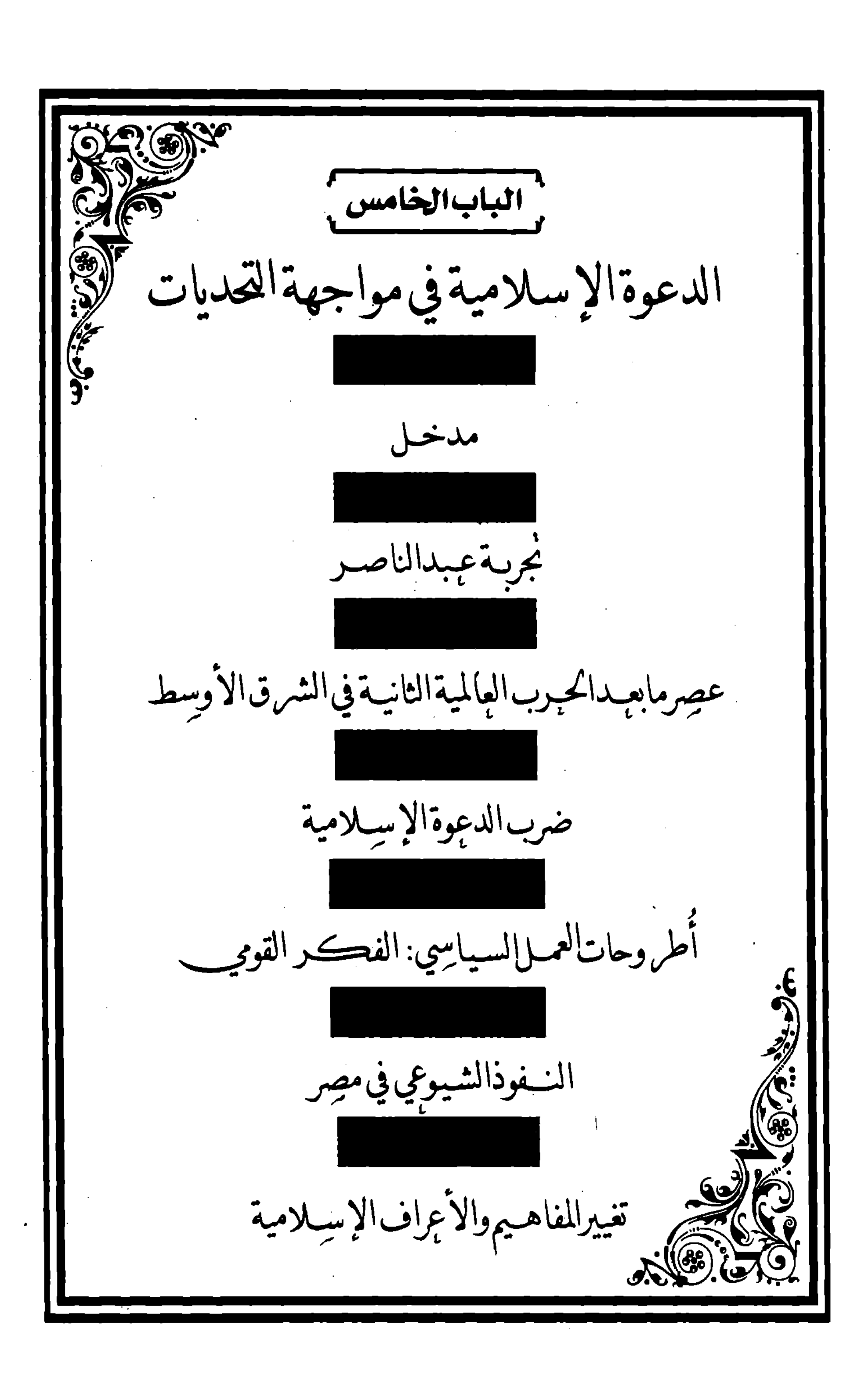
مذهب قديم هو الباطنية والتي تحمل معتقد بدائي يُسمىٰ دين الكائن الأعلىٰ وليس هو دين التوحيد الإسلامي مطلقًا، وليس للكائن الأعلىٰ صلة بأخلاق الإنسان ولا بخلق العالم، وقد يُفهم منه النظرة الإلحادية والإباحية التي تجعل من الإنسان حيوانًا لا يُسئل عما يفعل، ولا يُفرق بين فضيلة ورذيلة، والباطنية ترفض الاعتراف بالعبادات - من الصلاة والصيام والحج؛ لأنهم يرونها رسومات وشكليات؛ حيث إنهم لا يعرفون المعاني الموجودة فيها.

ويقول دكتور محمد رشدي: إن الأمة الأندونيسية المسلمة تفقد كل سنة آلافًا من أبنائها؛ بسبب التنصير، وبواسطة الوسائل المادية من مدارس ومستشفيات وإعانات مالية ودعاية باطلة.

وقد أحس الغربيون بأثر التنصير والباطنية في أندونيسيا، وقد ظهر كتاب جديد باسم (إنسانية الإسلام) كتبه الأستاذ «مارسل بواساد»، سكرتير جمعية الإسلام والغرب العالمية، يقول: إن الدولة الإسلامية تقبل كل طائفة ترضىٰ أن تدخل تحت رايتها من غير المسلمين بشرط ألا يعملوا علىٰ تقويض الدولة الإسلامية، وأن يقوموا بواجباتهم نحو الدولة التي تؤمِّن حياتهم وأموالهم وديانتهم.

وهكذا نجد أن خطرًا جديدًا يُحلق في أفق المسلمين في أندونيسيا، وأن الدين الباطني يجد تأييدًا من المسؤولين، ويشق طريقه بقوة ضد الإسلام.





الباب الخامس

الدعوة الإسلامية في مواجهة التحديات

مدخل

تجربة عبد الناصر

عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية في الشرق الأوسط

ضرب الدعوة الإسلامية

أطروحات العمل السياسي: الفكر القومي

النفوذ الشيوعي في مصر

تغيير المفاهيم والأعراف الإسلامية

الفصل الأول

مدخل

ظهرت الدعوة الإسلامية في ظلمات التبعية الغربية كالضوء الساطع، يبدأ خافتًا ثم ينتشر حتىٰ يعم الأفق كله، وينتقل من مرحلة إلىٰ مرحلة في محيط استشرىٰ فيه التغريب وانفصلت فيه السياسة عن الدين، وعلا فيه جيل جديد من المتفرنجين الذين صنعهم الاستعمار، ولكن كلمات الدعوة لم تمت يومًا، فقد كانت تجري علىٰ ألسنة صفوة المفكرين جيلاً بعد جيل، وكان الأزهر ما يزال يحمل الفكرة وينشرها، منذ أن انفصلت الحركة الوطنية عن الإسلام علىٰ يد «سعد زغلول» و«لطفىٰ السيد»، فلم يعد أحد يسمع لهذا الصوت، وبدأ ينتشر مفهوم زائف هو قولهم أن (الدين محله القلب، والعبادة في المسجد، وأن الدين لله والوطن للجميع).

وكانت صيحة «جمال الدين» واضحة في الدعوة إلىٰ العودة إلىٰ القرآن، وجاء «محمد عبده» في أعقاب الاحتلال الانجليزي، فالتمس أسلوبًا يرد به عن الإسلام عادية أحقاد النفوذ الاستعماري والاستشراق؛ فدافع عن جوهر الإسلام النقي وكشف عنه الزيف وصحح كثيرًا من المفاهيم، وأعلن أن الإسلام دين قوة وجهاد وأن أهله لا يُمكنهم أن يستسلموا للغزو ولا للظلم، وتابع صيحة العصر في إعلاء شأن العقل والعلم، وواجه جبرية الصوفية، وحرر أسلوب التعليم (وكانت لهذه الخطة بعض التجاوزات)؛ فلم يكن أسلوب الدعوة الإسلامية في هذه الفترة بقادر علىٰ أن يمتلك إرادة التحرر الكامل، ثم جاءت الأحداث تتْرىٰ عن طريق الأقطار الإسلامية غير العربية التي استطاع النفوذ الاستعماري أن يدفعها إلىٰ التغريب بقوة، وجاءت جريمة إسقاط الخلافة من حلفاء

الاتحاديين الأتراك الذين سيطر عليهم «يهود الدونمة» وأصحاب المحافل الماسونية، وساقوا دعوتهم القومية إلىٰ كراهية الإسلام والحرب عليه وكذلك فعلت إيران، ولكن العالم العربي كان واقعًا تحت نفوذ الاستعمار في عدة أمور:

(١) في أسلوب الحكم؛ فقد فرض عليه النظام الغربي الديمقراطي الليبرالي.

(٢) في أسلوب الاقتصاد؛ فقد فرض عليه النظام الربوي.

(٣) في أسلوب التربية؛ فقد فرض عليه النظام العلماني.

(٤) في أسلوب الاجتماع؛ فقد حل القانون الوضعي محل الشريعة الإسلامية، وتوقفت الحدود، وبدأت موجات الفساد والتحلل وانحراف الأسرة وخروج المرأة.

ثم جاءت بعد ذلك موجة التبشير عن طريق أضخم معهد للإرساليات في مصر، ذلك المعهد الذي صنعه أهله خصيصًا ليقضي علىٰ الأزهر وأبنائه، وفي نفس الوقت بدأت الجامعة تتحدث عن مذهب «ديكارت» وتُنكر وجود إبراهيم وإسماعيل، وتدعو إلىٰ فصل الأدب عن الإسلام، وبدأت دعوىٰ مسمومة إلىٰ القول بأن الإسلام نظام روحي، وأنكر أزهري مارق أن الإسلام دين ونظام مجتمع.

وفي ظل هذا كله بدأت حركة اليقظة الإسلامية تأخذ طابعًا جديدًا، هو طابع التربية وبناء أجيال جديدة مؤمنة تحمل لواء الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع، وتدعو إلىٰ العودة إلىٰ تطبيق الشريعة الإسلامية التي حل محلها القانون الوضعي.

وفي خلال سنوات ١٩٣٣م - ١٩٥٢م قام هذا الكيان الإسلامي المؤمن، وبدأ يتلقىٰ الضربات من النفوذ الأجنبي الذي كان وما زال مسيطرًا علىٰ حكم البلاد من وراء حكومات وأحزاب، ومن الحكومات والأحزاب نفسها التي أحسَّت بمدىٰ التنافس الخطير بين هذه القوة الجديدة وبين أتباعها، ووجهت الاتهامات إلىٰ رجال الدعوة

الإسلامية بأنهم يعملون علىٰ تغيير نظام البلاد بالقوة، فكانت أُولىٰ عمليات السجن والتشريد والمحاكمة، واستشهد قائد هذه الدعوة وحُجبت عن الحركة، ثم أُعيدت بعد أن كشفت أحكام القضاء براءتها، وأشادت بدورها العظيم في حرب فلسطين.

كانت هذه الدعوة خلال هذه الفترة تُدافع عن أهداف عديدة:

(١) تحرير البلاد من الاستعمار الأجنبي والنفوذ الغربي.

(٢) حشد الجهود لمقاومة اليهود في فلسطين، وعدم تمكينهم من إقامة دولتهم.

(٣) بناء قاعدة عريضة من المؤمنين بالدعوة الإسلامية الحاملين لواءها والمدافعين عن حق الله في إقامة المجتمع الرباني.

وكانت كل الدلائل تدل علىٰ أن الحرب العالمية الثانية سوف تكشف عن تسلم الوطنيين في كل أجزاء العالم الإسلامي لإرادة الأمة، وفي إقامة النظام الذي يتفق مع حرية الوطن وسلامته ووفق إرادة الأغلبية فيه، وكانت الطبقة المثقفة كلها تتطلع إلىٰ النظام الإسلامي بديلاً للأيدلوجيات الغربية من ديمقراطية وليبرالية ورأسمالية.

* * *

«أيزنهاور» في هذا الشأن، «هذا الدور الذي حول الهزيمة العسكرية إلىٰ نصر سياسي وأصبح ناصر أول من يُصدق أنه قد انتصر، وكان سريع الاستثارة وديكتاتوريًا تستحوذ عليه طموحات العظمة، وفي الوقت الذي كان الفقر يسود معظم المصريين وقد أنفق ناصر مصادر بلاده القليلة علىٰ مغامراته الأجنبية، فيما عزز عداءه لإسرائيل مكانتُه في الوطن العربي، فإنَّ هذا العداء جلب لقواته هزيمة فادحة في حرب ١٩٦٧م، وخلال خمس سنوات شنَّ حربًا باهظة التكاليف في اليمن، ولكنَّه هُزم هناك أيضًا. إن سياسات عبد الناصر أدَّت في النهاية إلىٰ تصاعد العداء بين الإسرائيليين والعرب، وإلىٰ الاعتماد غير الصحيح علىٰ عدو العرب (الاتحاد السوفييتي).

لقد اهتم عبد الناصر بالمسارح والفنون والغناء والرقص، وفتح لها سوقًا رائجة عامدًا إلىٰ إلهاء الشعب بشتَّىٰ أنواع الملاهي؛ لشغل الناس عن سيطرته وسطوته، وحتىٰ لا يُركز الشعب اهتمامه بالبحث وراء القضايا الكبرىٰ مثل النفوذ الصهيوني «الغربي»، أو بالبحث وراء ثروات مصر وأموال العصور الملكية وأين ذهبت؟ وقد اتَّسع نطاق هذا التيار عن طريق دعم بالغ للمسرح والسينما وحفلات أم كلثوم الصاخبة.

لقد جاءت حركة الجيش في ١٩٥٢م؛ لتعلن في إصرار بأن التاريخ يبدأ بها، وأنه لم يكن لمصر تاريخ قبلها ولا زعامات، وأن كل شيء كان في مصر فاسدًا، وأنها فجر جديد في حياة مصر والعالم العربي، ولكنَّ هذه الدعوىٰ العريضة الباطلة لم تلبث أن تحطمت وكشفت الأحداث أنها قمة الفساد الذي شهده تاريخ مصر كله، ومن ذلك قولهم أن هزيمة ١٩٥٦م كانت نصرًا.

وقد كان من خداع النظام السياسي الناصري دعوىٰ العدل وتكافؤ الفرص وأن التنظيمات لكل المواطنين، مع أن الحقيقة التي عرفها الجميع أنه لم يكن في مصر إلا

حزب واحد مقسَّم إلىٰ فروع هو حزب العسكريين الذي كان يضم منذ تأسيسه كل الاتجاهات المتناقضة: اليمين واليسار والوسط والشيوعيين والرأسماليين والمتدينين والمستقلين، ولم يكن هناك اتجاه إلا ذلك الذي يرسمه الحاكم الديكتاتور، وليس لأحد هنالك وجهة نظر، وقد كان الاتجاه في السنوات الأخيرة عن طريق تنظيمات الطليعة والشباب وغيرها يهدف إلىٰ توحيد البلاد تحت راية الماركسية اللينينية، هذا في الخفاء أما في الظاهر فكانت عبارات برَّاقة خادعة وتزييف للحقائق، وقد أفسد هذا الاتجاه الشباب، وقاسىٰ من المعاناة والانحلال والانحراف والتميع والليونة والإلحاد ما قاسىٰ، وقد صور الدكتور عادل صادق، «لماذا يضل الشباب؟» فقال:

(١) «ظلَّ الإعلام» موجهًا لسنوات طويلة للدعاية لقلة معينة، وتشجيع كل ما هو سطحي وتافه؛ ليصرف أنظار الناس عن الحقيقة، وقتل إحساسهم بالمسؤولية.

(٢) «نظام تعليم» أجمع كل المتخصصين علىٰ أنه تعليم فاشل، كل وظيفته تخريج موظفين لا يُفكرون.

(٣) قَتْل الإحساس بالانتماء إلىٰ الوطن؛ وذلك بقصر النشاط السياسي علىٰ المنتفعين المتعاونين.

(٤) قَتْل العقيدة من خلال إضعاف مركز الدين والأخلاق والقيم.

(٥) قَتْل روح الطموح في نفوس أبناء هذا الوطن، وتحطيم كل القيم الإنسانية، وإعلاء راية الانتهازية.

«فقد سخَّر عبد الناصر أجهزة الإعلام تُطبل له وتُزمر، وتتحدث عن السفاسف وتبرز القشور والمغريات الجنسية؛ ليشغل الناس والشباب بهذه السيئات ويُشبعون بها نهمهم الجنسي، فلا يأبهون لما يجري في بلدهم من فساد تُدمره سياسة تعمل

ليل نهار علىٰ إغراقهم في التافه الحقير، كذلك فقد زعزع العقيدة في نفوس الشباب بالسخرية من الدين ورجال الدين الذين استحقوا هذه السخرية فعلاً بسكوتهم عليها والرضا بها، فصور المشايخ التي تظهر في الأفلام مثيرة للسخرية، ثم إغراق الأسواق بكتب الإلحاد والجنس التي تباع بأرخص الأثمان وإلقاء القبض علىٰ كل متمسك بدينه وحبسه، وتحريض الشباب علىٰ الارتماء في أحضان الرذيلة، وقَتْل الطموح، فالدرجات والمراتب العالية لا ينالها إلا ذوو الثقة المتزلفون المدَّاحون للحاكم علىٰ ضلاله وإضلاله وفساده وإفساده».

وهكذا فتح عبد الناصر أبواب الفساد علىٰ مصراعيه وسقطت كل الضوابط؛ فأصبح تقديم الخمر في الحفلات والفنادق وعلىٰ موائد الطعام في جرأة بالغة، كما رُفعت أقدار الراقصات والمغنيات والممثلات، وبرقت أسماؤهن ولمعت شهرتهن ووضعن كأنهن مثال أعلىٰ للمرأة؛ فأفسد ذلك قلوب المسلمات، وذهب عبد الناصر يطعن في علماء المسلمين دون تحرز أو تحرج فكان مما قاله:

(الشيخ من دول يرقع وزه ويروح فاقع فتوىٰ)، وكانوا يطمعون في إغراء العلماء؛ لتأييد مفاهيم الماركسية بدفع مبالغ كبيرة نظير مقالات تقول إن الاشتراكية هي العدل الاجتماعي، وقد رفض كثيرون هذه الوجهة ووقفوا في وجه هذا التيار، ومن هؤلاء الشيخ محمد أبو زهرة الذي هاجمه الماركسيون - وفي مقدمتهم «أحمد بهاء الدين» - هجومًا شديدًا، والشيخ عبد الوهاب فايد والشيخ كشك والشيخ محمد الغزالي، وقد احتمل هؤلاء العلماء ظلمًا كبيرًا، ولكنَّهم صمدوا في وجه العاصفة.



الفصل الثاني

تجربة عبد الناصر

في قصة (مزرعة الحيوانات) التي ظهرت في الغرب صورة واضحة لظاهرة الحكم المطلق الذي ظهر باسم الثورة أو باسم الشعب في أرجاء الشرق الأوسط وآسيا وأمريكا اللاتينية وأفريقيا، وقد أشار المؤلف إلىٰ أن هذه الثورات بدأت بآمال وأحلام تملأ القلوب وتُحرك المشاعر، فتراءت أمام الأعين وفي خيال الجماهير صورًا مشرقة لمستقبل ينعم الناس فيه وأولادهم ومن بعدهم بالأمن والحرية والعدالة وبالحياة الطيبة الكريمة، وهناك سمة لازمت هذه الثورات بوجه عام، فقد اقترنت كل ثورة باسم فرد أو أفراد تتعلق بهم آمال الشعوب، ففي نشأتهم وفي سيرتهم وفي مسلكهم ما يُوحي بأنهم جزء حميم من شعوبهم، فرأت الشعوب من هؤلاء الأفراد طرازًا جديدًا من القادة والحكام لم تعرف مثله من قبل، ولكن هذه الثورات جميعها أصابها داء واحد هو داء التحول إلىٰ الحكم المطلق، هذا التحول في مسار هذه الثورات ما يُوصف أحيانًا بأنه انحراف عن مسار الثورة يحتاج إلىٰ تقويم، أو أخطاء قومت فيها الثورة تتطلب التصحيح.

ومثال ذلك الديكتاتوريات الأوروبية المعاصرة: روسيا «ستالين»، ألمانيا «هتلر»، وما تفرع من ديكتاتوريات صغيرة في شتَّىٰ أرجاء أوروبا، انتهت هذه الديكتاتوريات إما بالهزيمة التي حاقت بهتلر أو الموت أو القتل كما حدث لستالين، ويده اليمنىٰ في البطش والإرهاب (بريا) الذي سيطر علىٰ أجهزة التجسس والأمن في السنوات الرهيبة التي نُشرت بعض صفحاتها السوداء وطُويت حتىٰ الآن معظم تلك الصفحات السوداء.

أما الحكَّام الجدد فهم يبدأون حياتهم ثائرين علىٰ أوضاع ظالمة أو خاطئة، فإذا نجحت الثورة أضفت عليهم صفة الزعامة، وأسلمت لهم الشعوب زمامها وقيادتها، هؤلاء هم الحكام المطلقون الذين حكموا ويحكمون في تاريخنا باسم الثورة أو باسم الشعب. ومادام الحكم المطلق باسم الثورة أو باسم الشعب فلابد إذن من وسائل أخرىٰ تتمشىٰ مع التيار الشعبي وتتسم بطابع الأوضاع الديمقراطية، أي لابد من وسائل وأساليب مخاطبة الجماهير ولإقناع الجماهير ولتكوين رأىٰ عام مشترك بين الجماهير، هذه الأساليب والوسائل التي يتخذها الحكم المطلق الجديد في مخاطبة الجماهير وإقناعها وتسييرها، صارت معروفة مألوفة في كثير من الثورات، وفي كثير من الشعوب، إنها العبارات المؤثرة الأخَّاذة التي تتحول إلىٰ شعارات يرددها الناس دون أن تتوقف عقولهم عند مغزاها ومعناها، ثم إنها تُكوِّن كادرًا من المؤمنين بالنظام القائم تعمل علىٰ حمايته وتدعيمه، ويتسلل ويتغلغل رجال هذا الكادر ونساؤه في كل مكان في العلن وفي السر غالبًا، فإن لم يَكفِ هذا كله فهناك ما تعارفنا عليه باسم مراكز القوىٰ التي تحرس بالأنياب والمخالب نظام الحكم ومبادئه، جميع هذه الثورات ترفع صوتها عاليًا، بشعارات العدالة والإخاء والمساواة، ويلتفت حولها الجماهير في ثقة وأمل وفي حماس وإخلاص واندفاع، وتنجح الثورة ثم يبدأ التطبيق فإذا الأمور تتغير وتتطور شيئًا فشيئًا، فالحرية في حاجة إلىٰ قيود وإن كانت تختلف عن قيود الماضي، والمساواة تنقلب إلىٰ فوضىٰ.. إلخ (ترجمة عبد الحميد الكاتب).

هذه هي الصورة التي عرفتها تجربة عبد الناصر في مصر (١٩٥٢ - ١٩٧٠م)، لقد ردد عبد الناصر في بعض أحاديثه أكثر من مرة أن مثله الأعلىٰ هو: «مصطفىٰ كمال أتاتورك» وقد عجب الناس أول الأمر لذلك، ولكن الخطط الخفية التي تكشَّفت، والتي كانت تتستر أنيابها بقفَّازات الحرير أكدت هذه الحقيقة؛ فقد تبين أن له هدفًا واضحًا في سبيل تدمير الدعوة الإسلامية؛ مما يؤكد صدق هذه الوجهة، ويضع رمزًا كئيبًا من القادة

الذين أُتيحت لهم السيطرة علىٰ مُقدرات الأمور في البلاد الإسلامية، وتؤكد نجاح النفوذ الأجنبي في إعداد قادة يضربون آمال أمتهم ووجهتها وأصالتها، ويُفسحون الطريق لمؤامرة التغريب لكىٰ تنمو وتُثمر وتُركز خناجرها في قلوب المسلمين، فإن الذي قام به عبد الناصر في مواجهة الدعوة الإسلامية كان أقسىٰ مما قام به النفوذ الأجنبي نفسه، وما قام به «كرومر» «ودنلوب» في مصر «وليوتي» في المغرب تحت أسماء برَّاقة زاهية هي: «الثورية – القومية – الاشتراكية»؛ التي رُصدت لها قوىٰ وأموال ودعايات استنزفت ثروة الأمة، وتركت آثارها العميقة، وأخّرت اليقظة الإسلامية عن الوصول إلىٰ غايتها، ولقد استطاع عبد الناصر خلال السنوات الأولىٰ من حكمه ومن خلال بريق الكلمات أن يخدع الكثيرين، وكانت خطواته المرتبطة بماضيه من الاتصال بالدعوة الإسلامية قد راودت في نفوس الكثيرين من فكرة العمل تحت هذا اللواء المنشود، وقد مضينا في هذا الطريق؛ ظنًا منا أنه كذلك ثم تبين لنا من بعد خداع النظر.

فعبد الناصر هو الذي فتح الطريق أمام الشيوعية والماركسية والفكر الباطني الوثني باحتضانه محافل البهائيين، والإعجاب والتأييد لنهرو والهندوكية وهيلاسلاسي، وتعصبه علىٰ مسلمي أفريقيا، والأسقف مكاريوس وخصومته مع مسلمي الحبشة، وتأييده للأحزاب التي تحمل لواء القوميات بينما هي تُضمر الحقد الشديد للإسلام كالبعث، وبذلك حقق لأعداء الإسلام ما لم يستطع تحقيقه «ساطع الحصري» و«علي عبد الرازق» و«سلامة موسىٰ» و«طه حسين»، فقد جعل تلك المفاهيم التي كانت تجري علىٰ ألسنة التغريبيين دون أن تنال شيئًا، حقائق واقعة يتمسكون بها بعد ذلك ويتحدثون عنها من خلال واقع ماثل، وقطع عبد الناصر خطوات واسعة في التغريب، كانت خطوات عصر الأحزاب والملكية بالنسبة لها شيئًا هينًا يسيرًا؛ فقد انفتح الباب أمام العلمانية والعنصرية والمادية والماركسية، ورفعت الشعوبية والإباحية والباطنية رأسها، فعل ذلك عبد الناصر؛ لتأكيد ذاته ولتثبيت مركزه، ومن منطلق خصومة طبيعية

مع الإسلام قائمة في أعماقه، فحقق في سنوات ما لم يستطع التبشير والاستشراق تحقيقه في قرن كامل. فهو قد عمل في ميدانين في وقت واحد:

الأول: القضاء علىٰ مفاهيم الإسلام في الحكم والسياسة والاجتماع والاقتصاد وذهب بعيدًا جدًا؛ حيث أدخل مفاهيم الماركسية وأطلق عليها الاشتراكية العلمية، وأمر بتعليم الشباب النظرية المادية صراحة، فلا يؤمنون إلا بالمحسوس ويُنكرون الغيب وذلك في دوائرهم المغلقة التي أطلقوا عليها التنظيم الطليعي والثقافة الجماهيرية، وابتُعث «طه حسين» و«علي عبد الرازق» و«سلامة موسىٰ» من جديد بوصفهم القمم العليا المقدسة للفكر المصري.

الثاني: القضاء علىٰ القوة التي بنتها الدعوة الإسلامية لتكون ركيزة في مواجهة التحديات، وهي القوة التي واجهت الصهيونية في فلسطين والإنجليز في القناة.

وهو بهذا خدم الشيوعية والرأسمالية والصهيونية علىٰ السواء، وأدَّىٰ لهم جميعًا يدًا لا تنساها تلك القوىٰ، فقد كان فرح الغرب باتجاه عبد الناصر إلىٰ الماركسية كبيرًا، وإن خالف مذهبهم ووجهتهم، ذلك بأنهم كانوا يعلمون أن هذا سم جديد من السموم الناقعات، قد فُتحت له الآفاق؛ لتدمير النفوس الإسلامية الحقيقية في عالم الإسلام، ويزيدها شبهات وأزمات واضطرابًا وتمزقًا؛ ليجهز علىٰ هذه الفريسة، وكأنما كان الفكر الغربي الليبرالي بمفاهيمه المادية هو المقدمة والتمهيد للدور الذي قام به هؤلاء الرواد الماركسيين.

ومن أجل هذا خرجت مصر من تجربة عبد الناصر منهارة، وخرجت الدعوة الإسلامية مثخنة بالجراح؛ فقد تراجعت في جولة كانت فيها علىٰ ميعاد، وكانت وجهة عبد الناصر الحقيقية هي: إخراج المجتمع المتجه إلىٰ تطبيق الشريعة الإسلامية، وبناء قوة الجهاد لردع عدوان إسرائيل، إلىٰ البحث عن الطعام ولقمة العيش في صفوف

المجمعات وطوابير التموين، وقد جرت هذه التمثيلية الخبيثة: (توزيع الأراضي)؛ لينقل وجهة الشعب عن النظرة العامة إلىٰ المجتمع وتحديات الصهيونية ومؤامرات الغرب إلىٰ أضيق نظرة خاصة، من الخارج إلىٰ الداخل؛ خدمة لإسرائيل والنفوذ الأجنبي.

وقد صرف عبد الناصر الملايين من إمكانيات مصر في المحافظة علىٰ كرسي الحكم؛ حماية لنفسه من المحاكمة إذا تخلىٰ عن السلطة، ودفاعًا عن نفسه من أن تغتاله اليد التي اغْتيل بها عشرات في كل بلاد العرب، ولكن يد الله هي التي اغتالته لتحمىٰ المجتمع من فتنة كبرىٰ كانوا يعدون لها؛ فقد كان جبانًا في مواجهة التاريخ والقضاء العادل. إن هزيمة ٥ يونية المريرة الأليمة هي التي قتلت عبد الناصر: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ (الحشر: ٢) تحطم عبد الناصر بعد هزيمة يونيو، وحكمت مراكز القوىٰ لحساب موسكو، ووقف عبد الناصر في مؤتمره الصحفي يتحدىٰ العالم، فقامت إسرائيل وفي ساعة زمن واحدة وأنهت سلاح الطيران المصري، وقيل أن عبدالناصر مات كمدًا من تآمر روسيا عليه بعد أن قطع علاقاته مع أمريكا ووصل إلىٰ نقطة اللاعودة، لقد قال «شواين لاي»: لقد خدعه السوفييت وأوقعوه في مأزق ثم تخلوا عنه وتركوا قواته تتحطم وتنكسر، ولم يترك عبد الناصر قوة من قوىٰ التآمر علىٰ المسلمين إلا عمل معها وأيدها، الشيوعية والبهائية والماسونية، فقد قال عبد الناصر للمحفل الماسوني: إن دستور ١٩٥٦م وضع بوحي من تعاليم الماسونية، وهذه تكشف لماذا تآمر عبد الناصر علىٰ دعاة الإسلام عام ١٩٥٤م و ١٩٦٥م، ولماذا أمر عبد الناصر الجيش المصري بالانسحاب عام ١٩٥٦م و ١٩٦٧م من سيناء حتىٰ تحتلها إسرائيل؛ لتقيم الدولة اليهودية الكبرىٰ من النيل إلىٰ الفرات، وكان أصدقاؤه نهرو ومكاريوس وهيلا سلاسي.

وقد شهد عهد عبد الناصر تخريب نفسية الإنسان المصري، حتىٰ أولياءه

الماركسيون قالوا بذلك من أمثال فؤاد زكريا الذي يقول: «إنَّ هناك حقيقة كان يعيشها كل مصري بنفسه حتىٰ كان المصري يتكلم في بيته بلغة معينة ويتكلم في أي مكان لغة أخرىٰ، فالذين عُذِّبوا خُرِّبت نفوسهم، والذين ظلَّوا خارج المعتقلات ألجم الخوف ألسنتهم ولاذوا بالسلبية أو النفاق، إنَّ أكبر خطأ ارتكب في حق الإنسان المصري كان هو زرع الخوف، فبدلاً من أن نبني الإنسان أصبح كل همنا أن نُخيفه والخوف هو أخطر ما يهدم كيان الفرد أو الشعب، إن شعبنا قتله الخوف من الداخل قبل أن يهزمه العدو من الخارج» أو كما قالوا!

قال ارفع رأسك يا أخىٰ ! ثم حطَّم كل رأس فكَّر في الارتفاع، وهكذا بُني جيل الحقد الذي بناه عبد الناصر علىٰ كل المستويات حتىٰ علىٰ مستوىٰ الأسرة؛ حيث يمكن للابن أن يتجسس علىٰ أبيه وأخيه كما يحدث في الأنظمة الفاشية.

وإذا نظرنا إلىٰ تجربة عبد الناصر نظرة متحررة لوجدنا مجموعة من الحقائق لا سبيل لإنكارها أو تجاوزها:

أولاً: أنه أول من أعلن أننا لا يمكن أن نُفرِّط في حبة رمل واحدة، بينما ضاعت في عهده مليارات من حبات الرمل، وأصبحت مصر أسيرة في أيدي العدو، ولأول مرة في عهده احتلت سيناء مرتين (الأولىٰ في عام ١٩٥٦م، والثانية في عام ١٩٦٧م)، وفي كل مرة كان البعض يُحاول أن يجد مسميات يخدع بها الشعب، ففي العدوان الثلاثي قالوا إننا انتصرنا بينما كانت الهزيمة منكرة، كما قالوا عن هزيمة ٦٧ نكسة بينما هي هزيمة منكرة.

ثانيًا: وفي عهده فقدنا آلاف مؤلفة من خيرة شباب مصر في حرب اليمن، وفي حرب ٥٦، وفي حرب ٦٧، وقد وصل الأمر ببعض الصحف والمجلات العالمية أن تصور جثث أولادنا وهي ملقاه في العراء تنهشها الكلاب.

ثالثًا: وفي عهده كان سجن حمزة البسيوني، ومحكمة الدجوي اللذان لم يعرفا

رحمة ولا ضميرًا.

رابعًا: وفي عهده كانت الرقابة علىٰ الصحف، وكان حكم الفرد الواحد الذي نتج عنه الهزيمة التي أدت إلىٰ توجيه كل شيء للمعركة؛ مما أدَّىٰ إلىٰ إضعاف مصر داخليًا، فلا مرافق ولا خدمات ولا تليفونات، وستظل مصر تعاني من هذا لفترة طويلة.

خامسًا: في عهد عبد الناصر كان كل شيء مختفيًا تحت الأرض، وكانت مصر تغلي وتُرتكب فيها المحرمات وتُنتهك فيها الأعراض ولا أحد يدري.

سادسًا: استبدل عبد الناصر النفوذ البريطاني بالنفوذ الأمريكي ثم بالنفوذ الشيوعي، وبالنسبة لإسرائيل كان هناك تفاهم خفي وظاهر معارض، وكان هدف عبد الناصر الحقيقي هو البقاء في الحكم، وكانت له صلات قديمة مع ضباط يهود، وكان معجبًا بالنظام الديمقراطي الغربي، ثم تحول إلىٰ الاشتراكية، وقد لجأ إلىٰ القومية العربية بعد فشل تجربته مع السودان، وكان يتطلع إلىٰ الزعامة عن أي طريق.

سابعًا: كانت أيام عبد الناصر كلها هزائم، فخروج الانجليز من مصر كان مقررًا من قبل ومعاهدته مع الانجليز لا تُشرِّف، أما في مجال القومية والاشتراكية فقد كانت كلها هزائم، وقد مكَّن للشيوعية في البلاد العربية.

ثامنًا: فشل في كل خطوة اتخذها، حرب ٥٦، وحرب ٦٧، ومع الأمريكيين، ومع الروس، ومع العرب؛ فقد كانت محاولاته لإحداث اغتيالات في البلاد العربية؛ مما أوصد أبواب البلاد العربية أمام المصريين.

تاسعًا: استغل معارضة الاستعمار والدعوة إلىٰ الوحدة العربية سبيلاً لكسب عواطف الشعوب، وقد كانت هناك وسائل مرفوضة لكسب هذه المشاعر، هي إعانات الصحف واللافتات ومرتبات العناصر التي تهتف.

عاشرًا: لم يستطع عبد الناصر أن يجمع حوله أنصارًا يثقون به، بل عملاء يستغلون

نفوذه، ولم يستطع أن يُشكِّل نظرية أو يُكوِّن وجودًا عقائديًا (وهذا من فضل الله)، وكانت كل تجاربه لإنشاء حزب أو نظرية فاشلة.

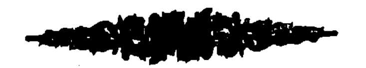
حادي عشر: ارتبط تغيير الناصرية بالشيوعية علىٰ أساس أن عبد الناصر دعا إلىٰ التطبيق الاشتراكي، وانتهز الاتحاد السوفييتىٰ حاجة عبد الناصر إلىٰ قوة تُسانده، وقد أدَّىٰ هذا الاتحاد إلىٰ تخوف الدول العربية والإسلامية من الناصرية والشيوعية معًا، وساءت علاقات مصر مع جميع الدول العربية والإسلامية، وارتبطت الناصرية والشيوعية بالقهر ومعاداة الإسلام.

ثاني عشر: أخذ المنتفعون بالناصرية يتحدثون عنها كما يتحدث الناس عن الهتلرية، وقد كانت في واقعها تعني القهر والظلم والإرهاب والسجون والمعتقلات.

ثالث عشر: خرجت مصر من تجربة عبد الناصر بضياع غزة وسيناء والعريش، ودَيْن يبلغ ألف مليون جنيه، واقتصاد تحت الصفر، وضياع أكثر من ١٨ ألف جندي، وموقف خارجي ممزق، ونفوذ روسي في مصر.

رابع عشر: تتمثل تحولات مصر التي أدَّت إلىٰ النكسة في فرض المفاهيم الوافدة سواء القومية العربية أو الاشتراكية، أو في مفهوم الثورة نفسه وانتمائه الصهيوني اليهودي التلمودي، ولم تلبث المواجهة بين مفهوم التضامن الإسلامي وبين المفهوم الذي دعا إليه عبد الناصر (القومية والاشتراكية) أن كشف زيف الفكر الوافد.

خامس عشر: كان ضرب الإسلام واضحًا في القضاء علىٰ الدعوة الإسلامية، وتعذيب القائمين بها، وإلغاء المحاكم الشرعية، وإخراج قانون تطوير الأزهر.



الفصل الثالث

عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية في الشرق الأوسط

مما أوردته دراسات متعددة حاولت أن تُلقىٰ الضوء علىٰ عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية في الشرق، أنَّ الغرب بقيادة أمريكا كان يُحس بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أن منطقة الشرق الأوسط - ومصر بصفة خاصة - تتجه إلىٰ ما بعد التحرر من النفوذ البريطاني إلىٰ امتلاك إرادتها وقيام أنظمة سياسية وطنية تستملي روحها وقيمها وتاريخها، وأنها بذلك ستخرج من أيدي الغرب، وأنها في مصر تتجه إلىٰ نفوذ الدعوة الإسلامية التي تقف موقفًا واضحًا من التعامل مع الغرب ومن فكرة التغريب، وتهدف إلىٰ إقامة علاقات متحررة من السيطرة علىٰ الموارد، وإقامة حضارة إسلامية متجددة يكون فيها الغرب صديقًا علىٰ مستوىٰ الند، ويكون لها مطلق الحرية في التصرف في مواردها لا يفرض عليها نفوذ مُسيطر، وألا تكون سوقًا لبضائع الغرب، أو تستسلم أمام مواردها، ومن حقها أيضًا أن تبني صناعاتها ووجودها الاقتصادي المستقل، كل هذه المعاني أزعجت الغرب ودفعته إلىٰ إجهاض هذه الوجهة سواء في إيران، أو في مصر، أو في سوريا، بدعوىٰ أن هناك قُوىٰ معادية للغرب يجب أن تُستأصل، هذه القوىٰ أيضًا كانت لها مواقفها إزاء نفوذ إسرائيل التي بدأ يتشكل، وكان من عمل القوىٰ الغربية حمايتها منه، وإقامة أنظمة لا تقوم علىٰ أساس الجهاد الإسلامي، وإنما تقوم في إطار مفاهيم الغرب السياسية والاقتصادية مع الولاء للديمقراطية الغربية، وهي بالطبع لا تُواجه نفوذ إسرائيل إلا من خلال الأساليب السياسية المعروفة، ومن هنا تدخلت الولايات المتحدة وأحدثت انقلاباتها العسكرية في سوريا، وأسقطت مصدق في إيران،

وتفاهمت مع بعض القوىٰ في مصر علىٰ قيام انقلاب سريع يسبق القوىٰ الوطنية في الوصول إلىٰ الغاية، ولقد فصَّلت هذه الدراسات كيف تمت الاتصالات مع تنظيم الضباط الأحرار الذي نشأ أول مرة في أحضان الدعوة الإسلامية بشهادة المنصفين من رجاله، والذي تحوَّل من بعد بقيادة عبد الناصر إلىٰ خدمة هذا الهدف، وقد أشارت هذه الدراسات إلىٰ اختيار هؤلاء الضباط واختيار عبد الناصر بالذات؛ لأنه أكثرهم دهاءً، فقد تظاهر لرجال الدعوة الإسلامية بأنه باع نفسه لله، وسيعمل علىٰ أن يكون القرآن الكريم هو دستور هذه الأمة، وكان يقوم بصيام يومي الاثنين والخميس، ويُطيل الصلاة، وذلك عند التقائه بضباط الدعوة الإسلامية وقادتها السياسيين، وفي نفس الوقت تظاهر أمام الشيوعيين أنه يساري، وارتبط بصداقة مع مجموعات منهم، كما ارتبط بصداقات ومصالح مع بعض الضباط، وأوهم الذين ساندوه بعد ذلك في أن يكون في مركز قيادة الثورة، وكان الاتفاق أن يكون الحكم بكتاب الله، وألا تصدر قوانين إلا بعد موافقة مسؤولي الدعوة الإسلامية عنها، وأن يتم إعداد البلاد اجتماعيًا وخلقيًا وعسكريًا لذلك، وأن يكون رجال الدعوة هم الجيش الشعبي للحركة، هذه الشروط التي كان يسخر منها عبد الناصر بعد انفراده بالسلطة، ويقول إنَّ الثورة لا تقبل الوصاية عليها من فرد أو جماعة، وأشارت المراجع (سواء الغربية أو التي كتبها المشتركون في هذا العمل من أمثال صلاح شادي وغيره) إلىٰ أن الضباط بعد أن وافقوا علىٰ شروط الدعوة الإسلامية حلفوا يمينًا علىٰ المصحف، وقام الانقلاب مكونًا من المجموعتين، ثم أخذ عبد الناصر يُصفي الجناح الإسلامي؛ لينفرد بالحكم.

* * *

حاول «مايلز كوبلاند» في كتابه (لُعبة الأمم) أن يُصور حركة الجيش في ٢٣ يوليو ١٩٥٢م بأنها من عمل الولايات المتحدة، التي ابتدعت هذا النوع من العمل السياسي بعد الحرب العالمية الثانية في وجه البلاد التي نضج فيها الوعي الإسلامي، وأخذت

تستعد لامتلاك إرادتها وفق الوجهة التي تشكَّلت في هذه الأمم بعد عشرين عامًا من نمو الدعوة الإسلامية التي رفضت الأنظمة الوافدة، وربَّت أجيالاً علىٰ الإيمان بالمنهج الإسلامي القرآني، وأنه الطريق الوحيد لبناء المجتمع الجديد بعد فشل الأيدلوجيات الواحدة.

يقول الأستاذ «جابر رزق»: وقد جاء هذا الانقلاب بالنموذج الكامل لشخصية الحاكم الذي تطابقت ملامحه الشخصية مع ما رسمته المخابرات الأمريكية، واستطاع أن يؤدي الدور المرسوم له بعبقرية إجرامية فاقت خيال الذين جاءوا به، وكان ضرب الإسلام ممثلاً في ضرب الدعوة الإسلامية هو أهم إنجاز لرجال الانقلاب إن لم يكن إنجازهم الوحيد خلال الحقبة السوداء من حكمهم؛ والسبب في هذا أن أعداء الإسلام غربيون ويهود يُدركون أنه - أي الإسلام - هو الذي يُعطي الشعب المصري أهميته الاستراتيجية في العالمين العربي والإسلامي، ومصر بدون الإسلام لا قيمة لها ولا دور، وتُدرك الولايات المتحدة الأمريكية أن الشعب المصري المسلم يجب أن يُخلَّىٰ بينه وبين الإسلام؛ لأنَّها تعتبره مكمن الخطر الذي يُهدد مصالح الامبريالية لا في المنطقة العربية فحسب، بل في العالم الإسلامي كله؛ لأنَّ مصر هي الرائدة، وهي القاعدة، وهي القلب، وهي القادرة علىٰ التأثير في شعوب الأمة الإسلامية العربية منها وغير العربية، كما تُدرك العقلية اليهودية أن مصر المسلمة هي التي تستطيع أن تُبدد أحلامها، وتسترد منها ما اغتصبته من أرض إسلامية؛ حتىٰ يُهيئ الله لها من يقودها إلىٰ النصر كصلاح الدين، وما ذلك علىٰ الله بعزيز.

ولقد نفَّذت أمريكا - متعاونة مع اليهودية العالمية - الجزء الأكبر من المؤامرة علىٰ يد رجال الانقلاب، وحقَّقت الكثير من الأهداف والتي في مقدمتها تحقيق الحلم اليهودي في قيام دولة الاغتصاب الصهيوني علىٰ أرض فلسطين المسلمة، وتأمين هذا الوجود باعتراف رسمي من حكام المنطقة، ولقد لعب انقلاب يوليو ١٩٥٢م الدور

الحاسم في تحقيق هذا الحلم الأسود، ولعل هزيمة الخيانة التي تمكنت اليهود من إيقاعها بجيش مصر وشعب مصر في يونيو ١٩٦٧م هي أفدح ما قدَّمه رجال الانقلاب؛ لتحقيق حلم اليهود.

* * *

لقد استطاع النفوذ الغربي أن يُحوِّل وجهة المجتمع الإسلامي عن الغرض الأصيل؛ فدفع الأنظمة إلىٰ غير وجهتها، فقد فصل أولاً بين الدعوة الإسلامية وبين الأنظمة الإسلامية الأخرىٰ؛ حتىٰ لا تلتقي علىٰ طريق الوحدة الإسلامية الجامعة، وأوجد بينها الخلاف، بل الخصومة حين دفع قادة الجيش إلىٰ أسلوب عصري بدلاً من التمسك بالمفاهيم الإسلامية؛ حيث يقول «مايلز كوبلاند» (إنَّ حكومة الولايات المتحدة لم تكن مرتاحة للفكرة الإسلامية، واقترحت علىٰ ناصر أن يظهر بمظهر (تقدمي) في العالم الإسلامي، وأن يجعل من مصر حصنًا ضد الشيوعية. ومعنىٰ هذا أنها وضعت الشيوعية بمثابة الخطر، في حين أغفل عمدًا الخطر القريب والحقيقي وهو الصهيونية في فلسطين المجاورة، وقد جرَّب العسكريون هذه الوجهة حتىٰ جاءت حوادث «دير ياسين» التي لفتت نظر عبد الناصر إلىٰ الخطر الصهيوني، فهل استطاع بعد أن يُغيِّر الطريق الذي فُرض عليه؟ الحقيقة أنَّ الأمور مضت كما أراد النفوذ الأجنبي من خصومة مع الأنظمة الإسلامية المجاورة بلغت أقصىٰ حدودها.

ولكن فكرة التضامن الإسلامي التي حمل لواءها الملك فيصل واجهت التيار الاشتراكي الذي غلب علىٰ مصر بعد أن تحوَّل عبد الناصر إلىٰ صداقة السوفييت، ولكنه لم يستطع أن يُحقِّق هدفه أيضًا؛ لأنه محاصر.

يقول أمين مدني: إنَّ أمريكا فضَّلت النظم الثورية علىٰ التضامن الإسلامي؛ لأنها أدركت كما يقول «مايلز كوبلاند»: أن أي بعث لأمثال هذه الأفكار والمشاعر لا يعني

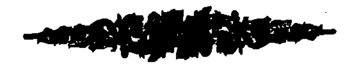
سُوىٰ الكشف عن سلاح ذي حدَّين يقف في وجه المد الشيوعي والمصالح الغربية في آنٍ واحد، وأن أمريكا لم تُبارك دسَّ الشيوعية للدعوة الإسلامية، بل هي تواطأت مع روسيا لإبادة الدعوة؛ ففي الوقت الذي ساد فيه الفتور بين حركة الجيش وبين الروس، أخذت موسكو تدس للدعوة بإعلانها ثقتها فيها من جهة، وأخذت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في مصر تقضي بالأخبار التي تقول بأنهم علىٰ أهبة التسلط علىٰ الثورة، وأن هدف أمريكا ينحصر في نقطتين: صد الزحف الشيوعي، وتوثيق اقتصاديات الشرق بالإنتاج الأمريكي، وتقول إنَّ الهدف الأساسي هو تحويل وجهة المشاعر في المجتمع المصري الإسلامي عن إسرائيل والصهيونية، والقضاء علىٰ مفهوم الجهاد الذي كان في ذُروته؛ من أجل مقاومة نفوذ إسرائيل الوليد في العالم الإسلامي، وأنَّ مسألة التخويف بالشيوعية إنما هي محاولة لإحلال خطر بعيد بديلاً من خطر مُحقق مُجاور، وإلىٰ أن يتحوَّل عبد الناصر إلىٰ طريق السوفييت، فإن الموقف من ناحية إسرائيل لم يكن قد بَردَ تمامًا تحت ضغط التحوُّلات في الوجهة التي قام بها النظام لشغل الناس بمطالب القوت، وما كان من مسرحيات القضاء علىٰ الإقطاع وذوي النفوذ، إلىٰ أن يصفي الوجود الإسلامي تمامًا؛ فأصبح أعزلاً غير قادر علىٰ شيء بعد ما حقَّق لإسرائيل وأمريكا كل ما ترغب فيه.

ويُشير مُؤلِّف (لعبة الأمم) إلىٰ أن الهدف كان هو: (١) الحلول محل بريطانيا (٢) وتأمين إسرائيل (٣) القضاء علىٰ القوىٰ الوطنية (٤) التحرك إلىٰ الداخل والانشغال به، بدلاً من قضية فلسطين والوحدة الإسلامية، وقد أشار في تقريره إلىٰ أنه بعد شهر من وقوع الانقلاب لم تعد الثورة الشعبية ـ التي كانت تسعىٰ إليها الدعوة الإسلامية وتخشاها وزارة الخارجية الأمريكية ـ واردة في الحساب، أما بالنسبة لعدو يلتقي الجميع علىٰ كراهيته والخوف منه، فإن هذا العدو لن يكون إسرائيل بل طبقة السياسيين القدماء والإقطاعيين في مصر ثم البريطانيين.

وكان هذا هو الخط الذي رُسم، والذي وصل إلىٰ غايته من بعد.

وقد فرض الغربيون الخطة كما فرضوا علىٰ الزعامة مُثُلهم ومفاهيمهم «يقول - مايلزكوبلاند - في مواصفات الزعامة: كانت الحاجة إلىٰ حاكم يستطيع أن يُضفي علىٰ نفسه صبغة القداسة والإنقاذ، سواءً بقي الحاكم مسيطرًا علىٰ زمرة صغيرة تمكنت من حكم البلاد، أم تحوَّل إلىٰ زعيم ذي شعبية كبيرة، فإنه يبقىٰ دون مُقوِّمات الزعامة كما نتصورها نحن الغربيون»، ويقول «كانت الجهود التي بُذِلت في سبيل العثور علىٰ زعيم متعطش للسلطة، بونابرتي الطراز، ذي قدرة علىٰ جمع شمل شعبه حول قضية ما تتوحد معها مخاوف الأمة وآلامها» وهذا يعني أن يكون قادرًا علىٰ صرف الأمة عن الوجهة التي عاشت لها أكثر من عشرين عامًا، والتي فرضتها ظروف النفوذ الأجنبي وولادة إسرائيل في المنطقة، من جهاد واستعداد للبذل وتنادي إلىٰ الوحدة الإسلامية الجامعة كأسلوب صحيح لمواجهة الخطر، وقد أمكن تصفية ذلك كله عن طريق هذا العمل الذي تم إعداده، ومن الغريب أنَّه خرج من المجموعة نفسها التي كانت متصلة بالدعوة الإسلامية من قبل، والتي بايعت علىٰ هدفها ووجهتها.

وأشار التقرير إلىٰ التفرقة بين ما يجب أن يكون خطة للعمل، وبين ما يجب أن يبقىٰ في حيز الاستهلاك المحلي؛ لإلهاء الشعب به داخل حدود البلاد.



الفصل الرابع

ضرب الدعوة الإسلامية

شهد كثير من الباحثين الغربيين بأن الدعوة الإسلامية وجدت استجابة من النفس المسلمة العربية لاحد لها؛ لأنها تلاقت مع الفطرة، وكانت أصيلة في تمثيلها لمطامح أهل المنطقة علىٰ عكس مفاهيم الليبرالية والفاشية والقومية والشيوعية والاشتراكية، فقد كانت كلها دعوات غربية الأصل وافدة لا تجد في النفس العربية الإسلامية قبولاً صادقًا؛ لأنها لم تنبع من مشاعر المسلمين وأشواقهم ومطامح أرواحهم، وقد كانت الدعوة الإسلامية نبتة صادقة الوجهة عميقة الجذور، فقد ظلّت وقتًا طويلاً تحت التراب، منذ أن تضافرت القوىٰ علىٰ إهمالها، فما أن أُزيلت عنها الغواشي حتىٰ نمت وأيْنعت، وصدق من عبر عن هذا أصدق تعبير حين قال: إن الدعوة الإسلامية أنشأت جيلاً جديدًا يعيش لفكرة ويعمل لغاية، ويُكافح في سبيل عقيدة، يُعطي ولا يأخذ، يُؤثر البذل والتضحية في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وينصرف عن مطامح الدنيا وأهوائها، ويتميز في المجتمع بذوقٍ خاص، وحكمٍ خاص، وفلسفةٍ ربانية، فقد وضعت الدعوة الإسلامية الهدف المستنير أمام النفوس المشرقة؛ فنشأ جيل مختار قوي عزيز كريم، فقد كان هدف الدعوة الإسلامية إقامة مجتمع إسلامي يُطبِّق حكم الإسلام في الدين والإنسان والحياة، ويدين بالولاء للمفاهيم الإسلامية وفق القرآن والسنة، ويتوسل إلىٰ ذلك بالخطابة، والتدريس، والتعليم، والصحف، والكتب، من أجل بناء جيل جديد مؤمن بالإسلام، متحرر من أهواء العلمانية والمذاهب الغربية الوافدة، وتهدف إلىٰ عرض الإسلام بأسلوب قرآني (لا بأسلوب فلسفي ولا بمنطق علم الكلام)؛ لمخاطبة

العقل والروح معًا، وبناء الإيمان وتعميقه في القلوب، والنظرة الإسلامية نظرة جامعة شاملة قائمة علىٰ التوازن والتكامل الجامع بين الروح والمادة، والقلب والعقل، والدنيا والآخرة.

وكان أبرز ما هدفت إليه الدعوة الإسلامية، هو حماية مقومات الأمة وخصائصها من أن تذوب في الحضارة الأوروبية (خيرها وشرها، وحلوها ومرها، ما يُحب منها وما يكره، وما يُحمد منها وما يُعاب) بألفاظ طه حسين في «مستقبل الثقافة»، وفات هؤلاء أنَّ الأسس التي قام عليها المجتمع الأوروبي قد لا تكون بالضرورة هي الأسس التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي.

وقد كانت الدعوة الإسلامية بمثابة رد فعل قوي وصادق إزاء تلك السموم التي حملها علي عبد الرازق، وسلامة موسىٰ، وطه حسين، ومحمود عزمي، فسرعان ما اكتسحت حقائقُ الإسلام المضيئة علىٰ لسانه وقلمه تلك الدعوات المسمومة، ودفعتهم إلىٰ تغيير خططهم، فبدأو يلجأون إلىٰ السيرة، يُحاولون أن يعتصموا بها في سبيل أسلوبٍ آخر فيه تراجع ظاهر، وتُبيِّت لهدف مسموم من وراء محاولة جديدة ظهرت في هامش السيرة والفتنة الكبرىٰ، وظهرت في كتاب حياة محمد (ﷺ) إلىٰ حد ما، ولقد استطاعت الدعوة الإسلامية أن تضرب هذا التيار التغريبي الذي كان يظن أنه في أمان، وأنه قد غيَّر الحياة والفكر والعقيدة والعرف، وأنه قادر علىٰ دفع المسلمين إلىٰ طريق التغريب من خلال مفاهيم تُخرج الفكر الإسلامي من إسلاميته وعروبته إلىٰ مفهوم غربي؛ فقد دعا طه حسين إلىٰ فصل الأدب العربي عن الفكر الإسلامي، ودعا علي عبد الرازق إلىٰ أن الإسلام عقيدة رُوحية عبادية، وسار ذلك الرعيل من التغريبيين إلىٰ نشر سمومهم، ولكن سرعان ما ظهرت كلمة الحق بارزة قوية فاضطروا إلىٰ التراجع وتغيير أساليبهم، ولقد ادَّعىٰ هؤلاء أنهم مؤرخو الإسلام وكتَّابُه ولكن من داخل دائرة العلمانية، فلم يتجه العقاد إلىٰ الكتابة الإسلامية إلا بعد أن ارتفع المد الإسلامي ـ بفضل الدعوة الإسلامية،

وبعد أن انقطع البريد الأوروبي بسبب الحرب، وقبل أن يكتب الدكتور هيكل في فترة المد الإسلامي إسلامياته، كانت صحيفة «السياسة الأسبوعية» هي ملاذ كل التغريبيين والشعوبيين والماسون والناقدين للاتجاهات الإسلامية، وكانت الامتداد لسياسة «أحمد لطفىٰ السيد» «بنتام مصر» وناقل مذهب النفعيَّة إليها، فضلاً عن أن هيكل نفسه كان من دعاة الفرعونية قبل أن يتعرف علىٰ منزل الوحي.

وهكذا استطاعت الدعوة الإسلامية أن تُغيِّر خطة التغريب، وأن تفتح القلوب والعقول لفهم أصيل للمجتمع الرباني القائم علىٰ الحكم بكتاب الله، يُؤهِّلها لأن ترث الأحزاب التي أفسدت الحياة السياسية خلال أكثر من نصف قرن.

وقد نما ذلك البناء خلال عشرين عامًا حتىٰ أصبح شيئًا ضخمًا مزعجًا للنفوذ الأجنبي؛ فقد بلغ أتباع الدعوة من العاملين مليونًا، ووقع المحظور الذي كان يخشاه الغرب والذي عاش حياته كلها من أجل حماية وجوده منه؛ فقد قضىٰ الاستعمار علىٰ القوىٰ الإسلامية التي كانت موجودة في البلاد، وأنشأ قوة مستعارة تحت أسماء الأحزاب، تدين له أساسًا بالولاء وتختلف معه في الفروع، من جماعة المُغرَّبين الذين كان يُسمِّيهم «كرومر» المتفرنجة المؤمنين بالنظام الغربي الليبرالي، المتحرِّكين في داخل دائرته، والمتعاملين مع الغرب من خلال تقدير وإعجاب بحضارته ونظامه، وعلىٰ إيمان بالتعامل معه وقبول خط المراحل؛ إيمانًا بأنه لا طريق إلا هذا الطريق.

فلما أمِن الغرب لهذه الدائرة التابعة له، وظنَّ أنَّه سيمضي علىٰ طريقه في نهب الثروات والتَّبعية المُغرِضة، انفجرت هذه الثغرة، وسرعان ما نمت واتَّسع نطاقها، وبدأ خطرها علىٰ هذا الوجود المُوالي المُذْعِن، ومن ثمَّ بدأت المؤامرة عليها.

وتتابعت الخطط خلال (١٩٤٨ - ١٩٨١م) حلقة وراء حلقة تستهدف محو هذا التيار، وضربه وتذليله، فما استسلم أبدًا، وكان ينمو من جديد، ويُثبِّت وجوده، ويُؤكِّد

هذه الحقيقة التي أثمرت هذه الشجرة الضخمة بأنها ليست نبتًا رخوًا يسهل انتزاعه من التربة.

وكانت معركة فلسطين، هي التي كشفت المذخور في أعماق الدعوة الإسلامية أمام الاستعمار والصهيونية؛ فقد وُجد أنَّ الرعيل الأول الذي كان يُحارب ببني قينقاع، قد عاد مرة أخرىٰ، فأزعجهم ذلك أيما إزعاج، ودفعهم إلىٰ القضاء علىٰ هذه القوة الجديدة التي لم يعرف العصر الحديث مثيلاً لها في ميدان الجهاد.

خاض رجال الدعوة الإسلامية مع اليهود معركة ١٩٤٨م ببسالة وإيمان استرعىٰ إعجاب الضباط المصريين، وفتح الطريق أمام مخاوف اليهود وقُوىٰ الغرب التي عاشت السنوات الطوال تبني البلاد الإسلامية علىٰ الهزيمة والاحتواء، وتفريغ العقول والقلوب من الجهاد والإيمان ومقاومة الظالم والدفاع عن الأرض والعرض والدين، كانت أشد القُوىٰ حماسًا للتطوع والقتل هي الجماعة الإسلامية، وقد أبلىٰ رجالها وشبابها في الجهاد البلاء الحسن، وسقط منهم الشهداء الكثيرون، وبينما كانوا في أرض المعركة يذودون عن الوطن بالمهج والأرواح، كانت الدوائر الاستعمارية تُدبِّر لهم وتُجمِّع خيوط المؤامرة؛ فقد أُعْتقل المجاهدون في الجبهة وزُجَّ بهم في المعنفلات الصحراوية، ولما عادوا إلىٰ المدينة عادوا مكبَّلين بالأغلال ليقضوا أيامهم خلف أسوار المعتقل، لقد نُصبت كماشة حول الدعاة في فلسطين لا من اليهود، ولكن من الذين اشتركوا فيها بعد خيانة تجريدهم من السلاح (النقراشي وجلوب)، وإسرائيل ترقص طربًا لما حدث، إنه مكر الصهيونية أوقع في شباكه رجال السياسة في مصر.

وكانت الجولة الثانية مع الإنجليز عام١٩٥١م مع قوات الاحتلال البريطاني، فقد استأنفوا حرب العصابات بعمليات جريئة خاطفة، واستمرت العمليات العسكرية علىٰ طول قناة السويس والقاعدة البريطانية، حتىٰ تحوَّلت القاعدة ساحة حرب تتلظىٰ

بالنار والدخان، وسجَّلوا أنصع صفحات البطولة؛ حيث قاتلوا بأسلحتهم الخفيفة مصفَّحات العدو ومدافعه، فأضافوا عددًا آخر من الشهداء إلىٰ سجل الخلود.

وفي موقف آخر عندما بدأ عبد الناصر مفاوضاته مع الإنجليز، ووقفوا موقف العناد وتدخلت قوىٰ الدعوة الإسلامية فأزعجت الانجليز الذين سارعوا إلىٰ قبول ما عرضه المفاوض المصري، وكان من نتيجة ذلك من بعد، أن سحق عبد الناصر أولئك الذين أعانوه، واتَّهمهم بالتآمر والمولاة للانجليز، وعلَّق منهم علىٰ المشانق قائدا هذه المعركة (الشيخ فرغلي، ويوسف طلعت).

وقد كان معروفًا وواضحًا أنَّ تنظيم الضباط الأحرار عندما نشأ كان جزءًا من الدعوة الإسلامية، وكان القائمون عليه قد عاهدوا الله علىٰ إقامة نظام إسلامي يحكم بكتاب الله، ومع أن ضبَّاط الجيش الذين بايعوا قيادة الدعوة الإسلامية رجعوا عن بيعتهم بعد غياب الإمام، فإنهم لم يلبثوا أن عادوا يطلبون معونة الدعوة الإسلامية ويُجدِّدون عهدهم؛ فقد كان نفوذ الدعوة الشعبي في ذلك الوقت قد بلغ الآفاق، وقد قام رجال الدعوة بالدور الذي أُلقي عليهم مرتين: الأُولىٰ عشيَّة الانقلاب؛ حيث قاموا بحماية المرافق العامة وطريق مصر السويس خوفًا من هجوم الانجليز المُعَسكِرِين في الإسماعيلية، والثانية عندما فشلت المفاوضات بين رجال الحركة والانجليز؛ فقد تطوَّع رجال الدعوة لضرب معسكرات البريطانيين في السويس والإسماعيلية وفايد علىٰ نحو دفعهم إلىٰ الإسراع بالمطالبة بتنفيذ الجلاء علىٰ شروط رجال الحركة.

وفي كلا الموقفين اتَّخذ رجال حركة الجيش موقفًا انتقاميًا شديد الخطورة؛ ليمحوا تلك البطولة محوًا، كذلك فقد انتقموا من «عبد القادر عودة» الذي استطاع أن يُفرِّق المظاهرات العارمة المُتَجمِّعة في ميدان عابدين في لحظات، بعد نداء واحد (انصرفوا)، وقتلوا جميع الذين اشتركوا في حرب معسكرات البريطانيين، ونسبوا كل هذا المجد

إلىٰ ضابط الاتصال.

ولقد رفض بعض رجال الدعوة الإسلامية إلىٰ آخر لحظة قيام الجيش بحركة عسكرية كخطوة نحو الثورة العامة؛ لأنهم لا يثقون في حركات الجيوش، ولكنَّ المتحمسين لم يسمعوا إلىٰ مشورة هؤلاء، ورأوا أن مخاطر مشاركة العسكريين في الحركة أهون من بقاء النظام القائم في مصر، وحسبوا أن الضباط العسكريين يُمكن أن يصدقوا في دعواهم في الحرص علىٰ الحرية والدستور وكرامة الإنسان.

وكان الاتفاق كما يقول «حسن العشماوي» في مذكراته: أن تُجرىٰ انتخابات سريعة يحكم البلد بعدها من يختاره الشعب في ظل الدستور الذي له السيادة وحده، ولكنَّ عبد الناصر أصرَّ فيما بعد ألا وصاية لأحد علىٰ حركتهم، وفاته أن الأمر لم يكن أمر وصاية هيئة علىٰ هيئة أو شخص علىٰ شخص، بل لإقرار أوضاع البلاد علىٰ حال يُمكن أن يستقيم، وكان الاتِّفاق واضحًا علىٰ أن يُعاد إلىٰ الدستور، ولمَّا وقعت حركة الجيش فرح الناس بها في دهشة، وتهاوىٰ أنصار الملك، ثم لم يلبث الأمر أن وضح..

وكان عبد الناصر يبني وحده في الخفاء مجده، وامبراطوريته الواسعة التي بدأها أحلامًا ثم بدت كأنها تتحقق.

إن المراقب للأحداث يَحس بالاتِّجاه إلىٰ إقامة حكم الفرد وتزعُّم عبد الناصر لهذا الاتِّجاه، وهكذا اختفت شيئًا فشيئًا صورة الهيئات الشعبية التي كانت تُنادي بسيادة الدستور، والواقع أن عبد الناصر تنكر بعد نجاح الثورة لاتفاقاته السابقة مع الدعوة الإسلامية، وبدأ يصرف الأمور دون أن يُحس بالتزامه بأن يرجع إلىٰ من شاركوه أو أعانوه من غير زملائه العسكريين؛ فإن الاتفاقات التي تمت بينه وبين رجال الدعوة الإسلامية لم تكن لمصلحة شخصية أو حزبية، بل كانت لمصلحة أمة وإقامة دستور، وقد اكتفىٰ رجال الدعوة بما قطعه عبد الناصر علىٰ نفسه وزملائه علىٰ أنفسهم من

عدم إقامة حكم عسكري، ومن احترام حريات الناس وسيادة القانون، واستمر عبد الناصر يُصفي الجيش من منافسيه ويُصفي جبهة الشعب من مُعارضيه، مستعينًا بكل منهم على الآخر؛ حتى لا يبقى غيره، كما عمل عبد الناصر على أن يُحدث خلافًا بين رجال الدعوة؛ فاستطاع أن يضم إلى صفِّه كثيرًا، وكان ذلك مقدمة لأن يضرب ضربته بالقضاء على هذا الوجود الإسلامي.

لقد ساندت الدعوة حركة الجيش على النجاح ووفَّت، ونكث عبد الناصر عما عاهد الله والدعوة عليه، واستجاب لنداء القوى الكبرى؛ إذ نصحوا له بعدم الانحياز إلى الإسلام؛ ليكسب ود الدول الكبرى، واختيار شعارات تقدمية عصرية بدلاً من الشعارات والنظم الإسلامية، وشرع يحكم البلد منفردًا ويقودها القيادة التي انتهت بمصر إلى الهزيمة والإفلاس، وكانت قد طرحت وثيقة زائفة تدل على أن الدعوة الإسلامية تتفاهم مع الشيوعيين في سبيل بناء ما يُسمى بالجبهة الوطنية ضد عبد الناصر لإسقاطه، ووقع عبد الناصر في الفخ وزجَّ برجال الدعوة الإسلامية إلى السجن، وحكم على ٨٦٧ عضوًا بالسجن، وبالإعدام على (فرغلي، وعودة، ويوسف طلعت)، وفي الوقت نفسه أرسل عبد الناصر إلى الحاخام الأكبر لليهود (حاييم ناحوم) يسأل عنه - مع أنه الحاخام الذي ساعد كمال أتاتورك في ضرب الإسلام في تركيا والقضاء على الخلافة الإسلامية - في نفس اليوم الذي أعدم فيه أبطال معارك فلسطين وقادة كتائب المتطوعين، وكان هذا عربونًا لإسرائيل وللصهيونية العالمية التي اختارت عبد الناصر رئيسًا لمحفل الماسونية من بعد، وقد قِيل إن مأساة ١٩٥٤م كانت لحساب بريطانيا التي كانت تريد القضاء على الشيخ «محمد فرغلي» الذي دوَّخ الصهيونية ودوَّخ بريطانيا، ورصد الانجليز لرأسه خمسة آلاف جنيه، ورصدوا مثل ذلك «ليوسف طلعت»، و«عبدالقادر عودة» الذي ألف كتابًا يُعد فتحًا في الفقه الجنائي الإسلامي المقارن.

لقد سجَّلت الدعوة الإسلامية موقفها من رفع لواء الجهاد في نفس الوقت الذي بدأت فيه قصة الصهيونية، وشهدت ساحات فلسطين أبطالها المتطوعين الذين دخلوا

قبل الجيوش العربية ببضعة أشهر، تولَّوا خلالها حماية كل شبر من قرىٰ العرب وأراضيهم في جبهة تمتد شمالاً من رفح إلىٰ المجدل، أي أكثر من سبعين كيلو مترًا، حتىٰ إذا وثبت جيوشنا كانوا هم في المقدمة.

وفي عام ١٩٥٤م كانت المؤامرة تُركِّز علىٰ تمثيلية قاموا بها من أجل رفع شعبية عبدالناصر، قال «حسن التهامي»: لقد شدَّ انتباهنا أن خبيرًا - أمريكي الجنسية - في الدعاية والإعلام - ويُعد من أشهر خبراء العالم وقتها في الدعاية - قد حضر إلىٰ مصر، وكان من بين مقترحاته غير العادية والتي لم تتمشىٰ مع مفهومنا وقت اقتراحها هو اختلاق محاولة لإطلاق الرَّصاص علىٰ عبد الناصر ونجاته منها، فإن هذا الحادث بمنطق العاطفة والشعور الشعبي لا بد أن يزيد من شعبية عبد الناصر؛ لتأهيله للحكم الجماهيري أكثر من أي حملة دعائية منظَّمة تُوصله إلىٰ القيادة، هذا هو حادث «المنشية» وهو الحادث الذي ابتدعه عبد الناصر، وعلىٰ أساسه المُصطنع استباح كل شيء في مصر بلا روية ولا هوادة، ولا أخلاق ولا دين، فالعملية عملية ظالمة تمامًا ذهب ضحيتها الكثيرون، لقد كانت ذروة المؤامرة اتِّهام الدعوة الإسلامية باغتيال عبد الناصر، وحقيقة الأمر أنها مناورة كريهة ترمي إلىٰ التَّخلص من الذين نصروه في معركة الجلاء، والقضاء علىٰ هذا النفوذ الذي كان قد تشكَّل عندما أقسم عبد الناصر يمينًا علىٰ المصحف ساعة الصفر أمام مُمثل الدعوة، علىٰ أن يكون نظام الحكم إسلاميًا إذا نجحت، وهناك رواية أُخرىٰ تقول أن «كافري» - السفير الأمريكي - تقدَّم بخطاب إلىٰ عبد الناصر يقول إن الولايات المتحدة علىٰ استعداد لمساندته بشرط القضاء علىٰ الدعوة الإسلامية، فبدأ يتنكر لوعد قطعه علىٰ نفسه بأن يجعل الشريعة أساس الحكم، ولما عُيِّن «كافري» مستشارًا في البيت الأبيض قدَّم تقريرًا يتحدث عن الصُّلح بين العرب وإسرائيل، وقال إن هذا الصُّلح ممكن بشرط القضاء علىٰ الدعوة الإسلامية؛ لأنها العقبة الكؤود التي لا يُمكن تخطِّيها في هذا الصدد لنفوذهم السياسي في مصر

والبلاد العربية (علىٰ حدِّ عبارة مجلة لايف).

وكانت الجولة الثانية في «الكرملين» ١٩٦٥م عندما أعلن عبد الناصر الحرب علىٰ الدعوة الإسلامية، فاعتقل في ليلة واحدة سبعة عشر ألفًا من رجالها، وفي كلتا المرتين جرت المحاكمات ظالمة قاسية، فأورثت المعتقلين ذلك الطابع من العنف والاغتراب، والدعوة إلىٰ كراهية المجتمع والحاكم، والحقيقة أن الخلاف بين الدعوة الإسلامية وبين رجال الجيش كان خلافًا عقائديًا؛ فالدعوة الإسلامية تُؤمن بضرورة تبني الحركة لمبادئ الإسلام وأحكامه في جميع الخطوات الإصلاحية، وفي الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، وفي مواجهة الاستعمار والصهيونية والشيوعية، وأن معركة فلسطين هي المعركة الرئيسية التي يجب أن تُحشد لها القوىٰ والجهود، وترىٰ أن تأجيل المعركة أو تحويلها إلىٰ معارك داخلية أو دعوة قومية علىٰ مفهوم الغرب لا تخدم إلا إسرائيل، وتُعطيها الفرصة للتَّسليح والتمكين، وجرىٰ في أخبار كثيرة أن الأمريكيين اتَّفقوا مع عبد الناصر علىٰ هُدنة مع اليهود لمدة عشر سنوات، وقد غفل عبد الناصر علىٰ أنها كانت فرصتهم للاستعداد للضربة الحاسمة في ١٩٦٧م؛ فقتلوه حيًا، وهدموه وحطموه، حتىٰ قال «حسين الشافعي» أنه مات فعلاً في هذا اليوم.

لقد حلَّ عبد الناصر الدعوة الإسلامية مرتين، مرة لحساب الأمريكيين، ومرة لحساب السوفييت، ونكَّل بأفرادها، وأعدم قادتها، وأوقع بهم من صور التعذيب والاضطهاد ما تقشعر له الجلود، وستظل إلىٰ الأبد وصمة عار تُلوث صفحته وتُلطخ كل ما جاء بها، ومع ذلك فقد ظلَّت الدعوة قائمة، وظهر جيل جديد في ظل الاضطهاد يفوق في حماسته حماسةَ الجيل الأول واكتسح الجامعات الإسلامية، وقد بذل عبدالناصر في ضرب الدعوة الإسلامية ما لو بذل بعضه في حرب إسرائيل لانتصر عليها، أو علىٰ الأقل لما انهزم أمامها بتلك الهزيمة المذلة المخزية.

وكان عبد الناصر قد أشار واعترف أكثر من مرة أن الدعوة الإسلامية كانت الساعد الأيمن لحركة الجيش التي أطاحت بالملك فاروق، وأنهم كانوا القوة الشعبية إلىٰ جانب العسكريين، ولكنَّ عبد الناصر تآمر علىٰ الدعوة الإسلامية وتنكر لها عندما حانت الساعة، وتراجع عن المسار الذي كانت حركة يوليو مُهيأة له، وكانت عاقبة ذلك أن لقي النهاية الطبيعية للدكتاتور؛ فجنىٰ علىٰ نفسه وجنىٰ علىٰ مصر، وجنىٰ علىٰ الدعوة الإسلامية جنايات لا تُغتفر، وترك صفحة قاتمة شديدة السواد ستظل باقية علىٰ مدىٰ التاريخ مهما حاول الكذَّابون والدجَّالون التماس كلمات ومواقف له.

وقد استخدم جمال عبد الناصر كل قوته؛ لتحقيق هدف النفوذ الاستعماري بضرب الاتِّجاه الإسلامي الذي استدار عليه بعد تصفيته للدعوة الإسلامية. فأُرغم علىٰ قبول الاعتراف بإسرائيل (مشروع روجر) وبات ذليلاً في نظر الأمريكيين، قميئًا في نظر السوفييت، مهزومًا أمام الصهيونية، واقتُطع ثلاثة أرباع جمهوريته في الاحتلال الصهيوني وبائت بلاده علىٰ شفا الإفلاس، وكانت دعوياه اللتان حملهما واحدة بعد الأخرىٰ - القومية والاشتراكية - مُعارضتين للإسلام، وهما اللتان أوردتاه النهاية المظلمة.

لقد كانت ثقافة المدارس الحربية المفرَّغة من الدين ومن ترابط الوطنية بالإسلام، القائمة علىٰ تقليد النُّظم الغربية، والإعجاب بالمدرسة الانجليزية في الملبس والحركة، هي التي أعجزت عبد الناصر أن يستوعب المعادلة؛ فجعلوه أداة لهدم الدعوة الإسلامية، ثم هدموه.

لقد كان عبد الناصر أداة مُلوثة لخدمة أهداف القوىٰ العالمية الكبرىٰ التي تكَّون في أحضانها (مدارس التبشير التي تربىٰ فيها أولاً)؛ فقد كانت ترىٰ في الدعوة الإسلامية خطرًا علىٰ وجودها، وفي تطبيق الإسلام خطرًا علىٰ عملائها وأتباعها في الداخل، أولئك الذين يسرقون لها الثروات، ويقنعون بالفتات؛ حتىٰ تحميهم من أن تُقام عليهم

الحدود، وليذهبوا في الإباحية والخمر والزنا والربا إلىٰ أبعد الغايات، وقد أُسْتُعمل في هذا الوقت أسلوب نفسي، وهو استغلال تلك الكبرياء العريضة التي عُرف بها جمال عبد الناصر، وتخويفه من إسقاطه، فأمعن في ترصد كل كلمة إسلامية أو صوت إسلامي؛ حتىٰ خشي الناس علىٰ أنفسهم من الصلاة في المساجد، أو حمل المسابح، أو ذكر اسم الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ في الطرقات.

وهكذا استطاع عبد الناصر خلال فترة حكمه كلها خلال سبعة عشر عامًا (١٩٥٣ - ١٩٧٠م) مضت، حفلت بالأحداث، أن يحجب صوت الدعوة الإسلامية، وألا يُسْمِع الناس إلا من خلال نغم واحد منفرد بالإيقاع، ومن بوق واحد ملأ الأسماع بالإجرام والعطش لسفك الدماء، واستطاعت أجهزة الدعاية بإمكانياتها الضخمة التي جعلت من هزيمة ٦٧ نصرًا، أن تجعل هذا القول أشبه بالمُسلَّمات، ثم عرف الناس بعد ذلك الحقيقة التي كانت خافية عنهم، ولكن بعد أن عجزت هذه السنوات أن تُضيف إلىٰ رصيد الدعوة الإسلامية شيئًا ما؛ نتيجة الخوف الذي ملأ القلوب رهبة من كلمة الإسلام؛ حتىٰ هجر الناس المساجد، ولكن الحق ـ تبارك وتعالىٰ ـ الذي يعلي الحق، جنَّد القوىٰ لكشف هذه الحقيقة باهرة كالضياء علىٰ أيدي وألسنة وأقلام كتَّاب ليس لهم صلة ما بالدعوة الإسلامية، ومن هذه الكتب (الصامتون يتكلمون) في طبعات ستة؛ فقد كشف حشدًا من المعلومات التي كانت مدفونة أمدًا طويلاً، كشفتها أقوال شخصيات بارزة كان لها دورها خلال فترة حكم عبد الناصر، ويُمكن تلخيص هذه الحقائق علىٰ النحو الآتي:

- كان عبد الناصر مع الدعوة الإسلامية يعد نفسه قبل الحركة أحد رجالهم في الجيش، وربما كان يُضمر في نفسه غير ذلك، ولكنَّ ذلك لا يُعد شيئًا من واقع هذه العلاقة في مجال الحكم عليه بالخطأ أو الصواب من الجانب السلوكي والأخلاقي، وأنَّ زعماء الدعوة الإسلامية كانوا علىٰ علم مُسبق بحركة الجيش سنة ١٩٥٢م، وأنَّهم

وحدهم هم الذين جرت معهم اتفاقات سياسية وأمنية للحفاظ علىٰ هذه الحركة وإنجاحها، وقاموا بها فعلاً كما تشهد بذلك دوائر الأمن حينذاك.

وأن اتِّهام الدعوة الإسلامية بالاتصال بالانجليز سنة ١٩٥٤م لم يشهد النور في أي ساحة من ساحات المحاكم، بل علىٰ العكس خرج رجال الدعوة الإسلامية من اعتقالهم بعد أشهر من هذا الاتِّهام ليُفاجأوا بزيارة خفية من عبد الناصر لتهنئتهم بالخروج من المعتقل، في نفس اليوم الذي خرجوا فيه من محبسهم في منزل المرشد العام؛ حتىٰ يكون ذلك دليلاً علىٰ براءتهم من هذا الاتِّهام.

- وما قيل عن الأسلحة والمفرقعات المضبوطة، كانت في حقيقتها أسلحة سلَّمها عبد الناصر لرجال الدعوة أثناء حرب الانجليز في القنال، وأن بعضها قد اشتراه بنفسه لهم، ودفعوا ثمنها، وبعضها كلَّفهم بنقلها أثناء حرق القاهرة في مخبأ حدَّده لهم بنفسه.



الفصل الخامس

أطروحات العمل السياسي: الفكر القومي

خلال هذه المرحلة «١٩٥٢ - ١٩٧٠م» طرح العمل السياسي أكثر من صيغة للعلاقات الخارجية؛ فقد بدأ أولاً بالوطنية المصرية والوطنية النيلية القائمة علىٰ وحدة مصر والسودان، ولكنَّ هذه المرحلة سُرعان ما انطوت عندما أعلن السودان رغبته في الاستقلال عن مصر، ثم ظهرت من بعد ذلك فكرة العروبة، والقومية العربية التي وصلت من بعد إلىٰ طريق مسدود، ثم جاءت فكرة الاشتراكية التي انتهت إلىٰ نكسة ١٩٦٧م، وتوالت آثارها إلىٰ أن انتهىٰ النفوذ السوفييتي بالعودة إلىٰ تجديد الصداقة الأمريكية التي فتحت الطريق أمام الصُّلح مع إسرائيل، وفي خلال هذه المراحل المختلفة كانت مصر فقدت دورها الحقيقي ومفهومها الأصيل؛ مفهوم الوحدة الإسلامية الجامعة في سبيل مقاومة نفوذ إسرائيل، وإعادة النظام الإسلامي في مجال السياسة والاجتماع والتربية، علىٰ النحو الذي كان مطمح الملايين قبل حركة الجيش، والتي حاولت الحركة امتصاصها وتذويبها وتحويل الأنظار عنها بهذه الدعوات التي تحمل المظهر البرَّاق والمضمون المدخول، والتي لم تكن تهدف في الحقيقة إلىٰ إصلاح المجتمع أو تحقيق العدل الاجتماعي، أو إقامة وحدة حقيقية، وإنما كانت ترمي إلىٰ تحقيق مطمع فردي واستعلاء ذاتي للفرد الحاكم المستبد ولو كان وراءها هدف حقيقي، لِما جاءت بعد ذلك بتلك النتائج الخطيرة من تمزيق وحدة الأمة الإسلامية وتصارعها، وقيام حرب اليمن وضربات إسرائيل في نكسة ١٩٦٧م وسيطرتها علىٰ القدس وسيناء والجولان والضفة الغربية.

كانت القوىٰ التغريبية قد حاولت أن تُجدد وجودها وتنتفع بالنظام السياسي الجديد بعد سقوط النظام الملكي، فسرعان ما بدأت صيحات الفرعونية والشعوبية والإقليمية المفاخرة بالعنصر والدم؛ وذلك لهدم الخط الذي سارت فيه البلاد من قبل وهو الخط الإسلامي، الذي يحمل لواء الوحدة الإسلامية، الذي مضىٰ طويلاً في تقريب الأقطار الإسلامية للالتقاء مرة أُخرىٰ علىٰ الوحدة الإسلامية التي عمل النفوذ الأجنبي علىٰ تمزيقها بإحياء المفاهيم الإقليمية والقومية، وهو ما تعمق بعد سقوط الخلافة الإسلامية؛ فقد علت هذه الصيحات وانتشرت في أول مجلة صدرت بتوجيه رسمي، ثم تحوَّلت السياسة العامة إلىٰ مفهوم القومية العربية بعد فشل مخطط الوحدة بين مصر والسودان.

وقد اتَّسع نطاق هذه المرحلة وامتد طويلاً، ودخلت فيه الوحدة مع سوريا، وعلت مفاهيم القومية واستمدت مفاهيمها من المفهوم الغربي، وكان البعث قد سبق إلىٰ هذه الوجهة في معارضة الوحدة الإسلامية، وخَلْق اتجاه قومي يحمل طابع العقيدة علىٰ النحو الذي دعا إليه «ميشيل عفلق» و«زكي الأرسوزي»، وكان شعارهما (حرية – وحدة – اشتراكية)، وقد صاغا مذهبهما علىٰ الخطوط التي رسمها «ساطع الحصري» كمفهوم القومية الغربي العلماني المفرغ من مفهوم الإسلام، وكان الدعاة الثلاثة (ساطع الحصري، وزكي الأرسوزي، وميشيل عفلق) لهم تاريخ وخلفيات، من حيث العقيدة والمذهب والانتماء؛ مما يجعلهم غير مُمثلين حقيقيين للأمة الإسلامية، وليسوا علىٰ المفهوم الأصيل للعروبة المرتبطة بالإسلام التي عرفها الدعاة المسلمون بعد سقوط الخلافة، وإنما مفاهيمهم مستمدة من المفهوم الوافد للقومية التي عرفته أوروبا المسيحية عندما تمزقت قومياتها بعد سقوط وحدة الكنيسة الأم.

هذه المرحلة كانت بعيدة المدىٰ في تاريخ العالم الإسلامي؛ فقد نشأت زعامة قومية حاولت أن تقضي علىٰ الوجهة الصحيحة للعرب في مواجهة الصهيونية، والقضاء علىٰ

مفهوم الوحدة الإسلامية، وهي زعامة فرَّقت العرب إلىٰ تقدميين ورجعيين، ومضت في طريقها في صراع مع السعودية واليمن تارة، ومع سوريا ولبنان والعراق تارة أخرىٰ، ولقد كانت هذه الزعامات والخلافات قائمة علىٰ الزعامة الفردية والخلاف الشخصي، وكانت صورتها قاتمة، ثم جاءت الماركسية من بعد فأعطت هذا الفكر القومي وجهة جديدة، وخشيت الدول العربية من مصر، وتمزَّقت العلاقات مرة أخرىٰ علىٰ صورة أشد وأقسىٰ، والحقيقة أن موقف حركة الجيش من العلاقات العربية والخارجية كان مضطربًا ومتخبطًا بين الإقليمية والوحدة العربية، وبين الاشتراكية، وكانت النظريات المطروحة كلها فاسدة وباطلة، تُسيطر عليها الأفكار الصهيونية التلمودية المبثوثة وراء النظام الرأسمالي والنظام الماركسي علىٰ السواء؛ فقد كانت كلها كتبًا لدعاة العلمانية والماركسية والوجودية والبهائية، وقد كُتبت عشرات الكتب والدراسات لفترة استمرت من (١٩٥٦م إلىٰ ١٩٦٢م) عن القومية ومن (١٩٦٢م إلىٰ ١٩٧٠م) عن الاشتراكية، وتحوَّلت المفاهيم إلىٰ ازدواجية بين الاشتراكية والقومية تحت شعار (حرية - اشتراكية - وحدة) وهو نفس شعار البعث مقلوبًا، وكان ذلك كله خطوات علىٰ طريق التغريب ومرحلة جديدة من التبعية للغرب، وإذا كانت إسرائيل هي مصدر الاتِّجاه القومي والتَّجمع في وحدة عربية لمقاومة نفوذ الصهيونية، فقد استطاعت القوىٰ الغربية أن تُفسد هذه الوحدة وأن تُفرِّغها من مفهومها الأصيل، وأن تدفع قضية فلسطين إلىٰ مفاهيم رسمها الغرب والصهيونية، بأن قصرت هذه القضية علىٰ العرب وحجبت عنها الدول الإسلامية، وكان التحرك نحوها بمفاهيم الغرب في القوة العسكرية المادية وحدها، ومن ثمَّ كانت هزائم العرب المتوالية، وعجزهم عن تحقيق النصر؛ لأن الوجهة التي توجهت لها حركة الجيش وعبد الناصر هي مهادنة إسرائيل، وهي مهادنة استفاد منها العدو وخسر العرب، وقد أوصلنا دعاة القومية وزعماء العرب إلىٰ هزيمة ١٩٦٧م، التي كانت أقسىٰ من نكبة ١٩٤٨م التي قامت حركة الجيش علىٰ أنقاضها؛ لاسترداد الكرامة لها، ففي ١٩٦٧م سقطت القدس في أيدىٰ الصهيونية، وكانت حركة

القومية العربية قد تحولت منذ عام ١٩٦٢م إلىٰ قضية الاشتراكية، وسيطر الشيوعيون علىٰ مقاليد الأمور من إعلام وفن ومسرح، وتراجع النفوذ الأمريكي خطوة إلىٰ الوراء، ليحل محله النفوذ الشيوعي، ولمَ تحقق دعوة القومية أي عمل إيجابي في مواجهة الصهيونية، وتمزَّقت البلاد العربية بين نفوذين أمريكي رأسمالي، وروسي شيوعي، وظنَّ البعض أن السوفييت سيساعدون العرب علىٰ إحراز نصر في مواجهة إسرائيل والصهيونية والشيوعية، وتبيَّن أن الذي يحتوي العرب هو مخطط مرسوم بدقة بين الصهيونية والشيوعية والغرب الرأسمالي، وكان العمل ضد إسرائيل والصهيونية صوريًا؛ فقد كان هناك احتواء بين الصهيونية والماركسية، وطُرحت في هذا الوقت مفاهيم للقومية فاسدة، مُستمدة من علاقات القوميات في الغرب بالكنيسة، لا تصلح للتطبيق في العلاقات بين العروبة والإسلام، ثم جاءت مرحلة الماركسية فطُرحت مفاهيم أشد خطورة، ثم بدأ الارتباط بين البعث والناصرية، ثم بين الناصرية والبعث السوري والبعث العراقي، وكان لهذا كله آثارًا بعيدة المدىٰ في نكسة ١٩٦٧م.

لقد كانت (فكرة الوطنية) هي أسلوب الحياة السياسية المصرية في فترة الاحتلال البريطاني، وكانت تهدف إلىٰ قطع العلاقات مع الأمة الإسلامية، وإعلاء شأن الإقليميات، وابتعاث التاريخ القديم قبل الإسلام كالفرعونية، فهي دعوة مظهرها مقاومة الاستعمار، ولكنَّها في أعماقها تهدف إلىٰ القضاء علىٰ مفهوم الوحدة الإسلامية، وكذلك كان الأمر في مختلف البلاد العربية التي انفصلت عن الدولة العثمانية قبل أن تسقط الخلافة وبعدها، ولما برزت مأساة احتلال اليهود لفلسطين برزت فكرة العروبة، وهي التي اتُّخذت بديلاً لفك الوحدة الإسلامية بعد سقوط الخلافة، في محاولة للتَّجمع تحت لواء مقاومة القومية الصهيونية التي بدأت تُسيطر علىٰ فلسطين بمعاونة النفوذ الأجنبي، وكانت (فكره العروبة) في أول أمرها حلقة من حلقات الوحدة الإسلامية ترتبط بها هي والوطنية، تضيق وتتسع حسب الظروف،

غير أن القوىٰ الاستعمارية جعلت من العروبة فكرة عزل وتضييق وتمزيق للوحدة الإسلامية علىٰ النحو الذي ظهر في لبنان بتأثير الإرساليات التبشيرية ومعاهد التغريب وجامعاته؛ فقد التقط المارون العروبة ليمزقوا بها الوحدة الإسلامية، فلما تمَّ لهم ذلك بعد سقوط الخلافة بدأوا يتحدثون عن القومية وفق مفاهيم الفكر الغربي، وسيطر هذا الموضوع علىٰ الأتراك الذين خطوا خطوتين غاية في الخطورة:

المرحلة الأولىٰ: حملوا لواء القومية الطورانية، وعمدوا إلىٰ تتريك العرب الواقعين تحت أيديهم هذا في المرحلة الأولىٰ.

أما في المرحلة الثانية: فحملوا لواء العلمانية في الحكم؛ حيث أسقطوا نظام الإسلام الاجتماعي والسياسي وأقاموا القانون الوضعي بدلاً من الشريعة الإسلامية.

وفي كلتا الدعوتين المطروحتين في مصر منذ الاحتلال البريطاني (١٨٨٢ - ١٩٥٢م)، وفي مرحلة حركة الجيش (١٩٥٢ - ١٩٧٠م) فقد كانت الوطنية والقومية كلاهما من المحاولات التي ترمي إلىٰ إزالة الوحدة الإسلامية والقضاء عليها، وتمزيق الجبهة الإسلامية السياسية إلىٰ دول وعنصريات، وقد تحولت الوحدة العربية إلىٰ دعوة شوفونية عنصرية فيها استعلاء بالجنس والعرق، وخصومة للعناصر الإسلامية غيز العربية، كما فُرِّغت العروبة من الإسلام ومُلئت بالمفاهيم الماركسية الاشتراكية، كذلك فقد اندفع الكتَّاب المحترفون ليخلقوا مفهومًا للقومية سابقًا للإسلام، ويُفسروا الإسلام وتاريخه وأحداثه بالقومية، علىٰ أساس أن العروبة سابقة للإسلام مع أن العروبة نفسها لم تنشأ إلا بقيام الإسلام، أما قبل ذلك فلم تكن للعرب أمة واحدة بل كانت قبائل متفرقة، وأن الإسلام هو الذي شكَّلها كافة.

إن مفهوم العروبة الذي طُرح لم يكن إسلاميًا ولكنَّه كان مفهومًا تغريبيًا وافدًا يرمي إلىٰ تفريغ العروبة من أصالتها الإسلامية؛ فقد كانت العروبة تتحاكم إلىٰ مفهوم

القوميات الغربية مع اختلاف جذري عميق بين مفهوم الدين في القوميات الغربية (الذي لم يكن إلا مجموعة من الوصايا) وبين الإسلام الذي هو في حقيقته نظام شامل جامع، وحيث تنفصل القومية لتضاد الدين في الغرب، نجد الإسلام هو الذي أنشأ القومية العربية، ووضع لها المفاهيم التي تجعل الأمم تحت لواء الإسلام تتعارف وتتلاقىٰ، فليس مفهوم القومية في الفكر الإسلامي منفصلاً عن الإسلام، بل متكاملاً علىٰ وجهه الصحيح.

وهذا ما حرص النفوذ الأجنبي علىٰ القضاء عليه، وإحلال مفهوم القومية الغربي الوافد الذي احتضنته تركيا عن طريق الاتّحاديين وفلسفة «ضياء كوك ألب» علىٰ النحو الذي صوَّره تلميذهم وتابعهم «ساطع الحصري» الذي جاء ليقنِّن القومية العربية، والتي رسمتها تجربة برجماتية «ميشيل عفلق» المسيحي، و«الأرسوزي» النُصيري.

ولمَّا كان النفوذ الأجنبي حريصًا علىٰ القضاء علىٰ المفهوم الإسلامي كله، والقضاء علىٰ ما طرحته الدعوة الإسلامية، فقد أغرىٰ النظام العسكري بالقومية العربية؛ ليتحرك في دائرتها، ويُحارب الإسلام بإحلال غيره، فارتفعت أصوات القومية تُهاجم في جرأة غريبة وعجيبة الإسلام والمسلمين، وتعمل لسلخ العرب عن أصولهم وتاريخهم، وتزعم أن الإسلام قد ولَّىٰ أمره، وأنه لا نهضة إلا بالخلاص منه، فهو لا يصلح أساسًا لوَحْدَة ولا نِظَامًا لدولة، وبدأ تزييف التاريخ الإسلامي وتفسيره تفسيرًا قوميًا (محمد صبيح، وجمال حمدان)، وبعد أن كانت القومية سبيلهم إلىٰ فصل العرب عن الإسلام، وسلخ تركيا عن هويتها وأصالتها، صارت القومية سبيلاً لتجزئة عالم العرب نفسه؛ فارتفعت أصوات «طه حسين» و«لويس عوض»، تُنادي بالفرعونية، وفي الشام كان الحزب القومي والعناصر المسيحية تُنادي بالقومية الفينيفية؟.

والقومية العربية بالمفهوم الغربي - كما يقول «جمال سليم» - تعني الانسلاخ عن

الإسلام تحت شعارات ومُسمَّيات شتَّىٰ، والفصل بين العرب والإسلام.

لقد كانت العروبة في مفهوم السلف شعورًا بالتكريم لدول الرسالة العربية ولاصطفاء الرسول (ﷺ) من العرب، ولأن الجزيرة كانت مهبط الوحي والوطن الأول للدين، علمًا بأن الإسلام لم يجعل العرب جنسًا فوق الأجناس، ولكن جاء يضع روابط الدم والقُربىٰ في موضعها الصحيح.

لقد كان مفهوم العروبة سليمًا قبل ظهور تيار القومية الوافد، كما يُصوِّره أحد رُواده «مُحب الدين الخطيب» يقول: إن مفهوم العروبة ومفهوم الإسلام لم يكونا منفصلين، وكانت العروبة تعني ارتباطها بالإسلام ولا تنفك عنه، ومفهوم الإسلام أنه قام ويقوم بالأمة العربية الأُولىٰ التي لم تكن منفصلة عن أرضية الفكر الإسلامي، وإنما كانت حلقة من حلقاته، وإذا كان دُعاة الفكر الإسلامي قد عملوا في جانب العروبة بعد الحرب العالمية الأُولىٰ، فمعنىٰ هذا أنهم اعتبروها القلعة التي يُمكن أن يجري من خلالها العمل لمحاربة الاستعمار، والنفوذ الغربي، وحركة التغريب، والغزو الثقافي».

وقد حرص الإسلاميون علىٰ الربط بين مصر الإسلامية ومصر العربية، أما الفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية فقد كشفت الأبحاث أنها موجات استقرت هنا أو هناك ثم زالت، ثم إن محاولة الاستعمار استغلالها للقفز كانت محاولة باطلة، وقد عبَّر الإمام «حسن البنا» قائد الدعوة الإسلامية عن «أن العروبة أو الجامعة العربية لها في دعوتنا الدور البارز وحظها الوافر، فالعرب هم أمة الإسلام وفيهم قال الرسول (ﷺ): «إذا ذلَّ العرب ذلَّ الإسلام» ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ونهضتها، وأن كل شبر أرض في وطن عربي نعتبره من صحيح أرضنا ومن لُباب وطننا، وهي خُطوة في رجوع الأمة العربية إلىٰ سابق عهدها مع الإسلام الذي شرَّفها الله بالسَّبق إليه، وبالسَّبق في الدعوة إليه، والوحدة العربية في منزلتها الصحيحة خُطوة علىٰ الطريق إلىٰ

وحدة إسلامية، فالعروبة في بناء الوحدة الإسلامية ليست منفصلة عن الإسلام، بل هي له ومن أجله وفي سبيله» وهكذا كانت دعاوىٰ القومية التي تفصل بين عروبة العرب وإسلامهم قد رفضتها الدعوة الإسلامية، فالعرب جزء من الأمة الإسلامية، وجزء هام وخطير، وله دوره الأساسي الرائد، وهذا الدور مرتبط بالإسلام إيمانًا عميقًا وفهمًا سليمًا. وهكذا فإن دعاة الإسلام بمفهومه الجامع لم يرفضوا العروبة بل اعترفوا بها في موضعها الصحيح من الفهم والعاطفة والسلوك، يقول الدكتور «ضياء الدين الريس»: كان الأمل كبيرًا حين قام الجيش بحركته في يوليو ١٩٥٢م في أن تزيد مصر من اهتمامها بالعالم الإسلامي - إذ ما هي إلا جزء منه ويرتبط مصيرها بمصيره - وأن تزيد من اتصالها بسائر الشعوب الإسلامية، ولا سيما والعالم الإسلامي ينظر إليها علىٰ أنها المركز الأكبر للثقافة الإسلامية، ويعرف دورها ومكانها في التاريخ الإسلامي، وهي كبرىٰ دول المنطقة العربية؛ حيث كان ظهور الإسلام وشروق حضارته، كان الأمل أن تُضاعف مصر جهودها وتقوم بدور كبير في التعاون مع الشعوب والدول الإسلامية الأخرىٰ الشقيقة؛ لتؤدي ما يُوجبها عليه، وخاصة لمساعدتها لمقاومة الخطر الصهيوني، فقد ظن الشعب أن حركة الجيش إنما قامت لتعبر عن آمال الشعب، ولكن تبين أنه يُراد قطع مصر عن المسلمين؛ حتىٰ لا تتفق الكلمة علىٰ معاداة إسرائيل، وقد أشار «أيوب خان» حاكم باكستان بأنه تحدث مع «عبد الناصر» بشأن أن تقوم مصر وباكستان بدور أصيل لخدمة الإسلام والوحدة الإسلامية فلم يجد قبولاً منه.

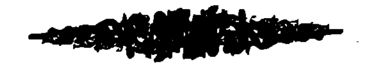
وإذا كان بدا في أول الأمر أن حركة الجيش تعمل نحو الترابط الإسلامي؛ بإنشاء المؤتمر الإسلامي (مصر - السعودية - باكستان)، ولكن سرعان ما تغيرت الأمور وانحرف الذي آلت إليه قيادة الحركة بعد عامين انحرافًا شديدًا عن المقاصد التي قامت من أجلها، بل قلب ظهر المجن وأعلنها حربًا علىٰ الدعوة الإسلامية، ومن ثَمَّ تغيَّر اتجاه الحركة فصارت عملاً شخصيًا من أجل السلطة ثم اتباعًا للنظام الشيوعي

المعادي للإسلام، فقامت السعودية بأداء الواجب الذي تنتظره الأمة الإسلامية، فدعا الملك فيصل إلىٰ التضامن الإسلامي، وبذل جهودًا كبيرة في إنجاح المشروع، وما كان لمصر كنانة الإسلام أن تنكمش وتتضاءل وتتقاعس عن أداء واجبها فتقصر كل جهودها علىٰ مشاكلها الداخلية، ولكنَّ التجربة القومية بعد أن أُفرغ فيها جهد كبير وجهد كثير، وكتابات ضخمة، ودعوات، وأُنفقت أموال لتكون بديلاً عن الإسلام، تراجعت وكشفت عن فسادها وفشلها فشلاً ذاتيًا؛ لأنها لا تستطيع أن تكون منهج حياة بديلاً عن الإسلام، علىٰ الرغم من العبارات المفوَّهة التي أطلقها «ميشيل عفلق»، وكذلك من ناحية التجربة التي اشتركت فيها الناصرية والبعث، وقد باءت بالفشل والخذلان، ثم باءت مرة أخرىٰ التجربة التي جرت بين مصر وسوريا والعراق من بعد بالفشل، وجماع القول في هذا: أن القومية بمفهومها الوافد المتداخل مع مفاهيم العلمانية والشعوبية والماركسية، لن تكون بديلاً عن الإسلام ولن تكون بديلاً عن العقيدة، ولن تحل محل النظام الإسلامي، فقد حاول الدعاة فيها لي أعناق الحقائق؛ ليُدخلوا الإسلام الضخم الكبير الرباني في نطاق القومية الوضعية، كما حاول ذلك (جمال حمدان)، أو القول بأن القومية العربية لا تعتبر الدين عنصرًا من عناصرها، وهو يُقصر الدين علىٰ المفهوم اللاهوتي الذي عرفه الغرب في المسيحية، وكل هذا باطل وقبض ريح، وقد هوىٰ وسقط ولم تستطع القومية أن تكون دينًا جديدًا وبديلاً للإسلام.

ويرىٰ «أبو الحسن الندوي» أن القومية نبتٌ أوروبيٌ لا ديني، ويُنكر أن تكون لها مكان في فكر الإسلام وعالمه دون تمييز بين القوميات التي تُزكي نضال الأمم في سبيل الحق والعدل، وعلىٰ التيار القومي إذا كان يريد الحياة أن يكون إسلاميًا، فلا يكون معارضًا للتيار الإسلامي بل جزءًا منه ومرحلة من مراحله، ولن تكون القومية نظام حياة ومنهج مجتمع؛ لأنها لا تملك الوسائل إلىٰ ذلك فهي ليست أُطروحة كاملة، ولن

تسبق الإسلام أو تسود عليه، وليست العروبة حاجزًا عن سائر الأجناس الإسلامية، وإنما هي رسالة نزول القرآن بالعربية، واصطفاء الرسول (ﷺ)، ومن يستطع أن يُنكر كفاح العرب وجهادهم في سبيل نشر الإسلام ومبادئه؟! ولقد كانت نظرية الفكر القومي مشوبة بالعنصرية والعلمانية والماركسية وهي مفاهيم باطلة وزائفة في نظر كل مسلم.

إن مفاهيم دعاة القومية العلمانية في العصر الحديث التي اصطنعها عبد الناصر ولفَّقها من مفاهيم مضطربة مُشوَّشة لم تكن إلا مؤامرة علىٰ الإسلام والمسلمين، وقد فشلت التجربة فشلاً ذريعًا، وكشفت عن هزيمة ساحقة في مواجهة إسرائيل، ومزيدًا من تمزيق الأمة، فضلاً عن الاستعلاء بالصلف الاستبدادي والفردي، ولقد كانت القومية ومن بعدها الاشتراكية من نظريات وافدة، إنما تُحاول بأحقاد أتباعها إيجاد هذا الضغط الشديد علىٰ الدعوة الإسلامية؛ رغبة في تصفية هذا التيار وهزيمته فهل استطاعت؟ ذلك ما يُجيب عنه التاريخ.



الفصل السادس

النفوذ الشيوعي في مصر

بعد أن قطعت حركة الجيش مرحلة طويلة في مُخطَّطها العروبي، وفي الاتجاه الغربي تعقدت الأمور، ولم تتمكن القوىٰ الأجنبية الليبرالية من أن تفرض سطوتها وسلطانها علىٰ النحو الذي رسمته، ومن ثم اتجه عبد الناصر إلىٰ المعسكر السوفييتي تحت إغراءات كثيرة، وكان من قبل ذلك قويُّ الصلة بالمنظَّمات الشيوعية المصرية، واللذان كانت تُراودهم آمال كثيرة في احتواء زعامات في هذه المنطقة، ولا بد أنهم قد سرَّبوا إلىٰ عبد الناصر من يُغريه، وكانت صفقة السلاح هي الطُعْم الذي قلب موازين القوىٰ.

يقول «عبد القادر عيد»: «بدأ الاتِّحاد السوفييتي بتخطيط مُحكم، يبحث له عن أعوان مُخلصين من بين رجال الصف الثالث؛ حتىٰ يضمن لنفسه نفوذًا مطلقًا ووجودًا مستمرًا في مصر، وامتدادًا لأوروبا الشرقية، ومنذ تلك اللحظة اهتزَّت (حركة الجيش) وبدأ تحوُّلها إلىٰ طريق آخر، بدأ دور جديد في تنفيذ الخطة السوفييتية يرتكز علىٰ تصعيد هذه الفئة إلىٰ المناصب المتاخمة مباشرة للقيادات العليا؛ انتظارًا للفترة التالية تمامًا فوق القمة، وكان لا بد من إزاحة العوائق وخصوصًا أولئك الذين كانوا يُلقون الأضواء الكشَّافة علىٰ عُمق الحفرة التي ينتهي إليها المسار الجديد، ودأبوا علىٰ تقديم الرأي الشريف.

وقدَّم لنا الاتحاد السوفييتي سلاحًا متخلفًا في بعض أنواع التسليح كالمدفعية المضادة للطائرات مثلاً، وكنَّا قد عبرنا مرحلته بكثير، وقاربنا مرحلة استيعاب الأسلحة

الإلكترونية، فإذا بنا نبدأ من جديد بالمدافع اليدوية، واشترط الاتحاد السوفييتي أن يكون التدريب علىٰ السلاح الجديد تحت إشراف خبراء سوفييت هم في حقيقتهم جنود - أي عساكر.

ويبدو أن مصالح القوىٰ الكبرىٰ التقت علىٰ تحقيق هزيمة ساحقة لقواتنا ١٩٦٧م، بدأت من تدعيم إسرائيل بقنبلة ذرية، وللتاريخ فقد التقت مصالح روسيا وأمريكا في أمر الهزيمة».

وتلك نقطة خطيرة لم ينتبه إليها الأذكياء النوابغ الذين لم يكن يفوتهم شيء أو يخدعهم أحد، ولكنَّ الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ يُضل الطاغين، ففي الوقت الذي ظن عبد الناصر أنه انتقم من الأمريكيين بالانضمام إلىٰ الروس، كانت المخططات ترسم لاحتوائه تمامًا والقضاء علىٰ مصر تمامًا، فلم يكن أي تحرك له بسر عند الأمريكيين، كما أن الدولتين تجمعتا عليه وتآمرتا عليه ـ كما يقول «عبد القادر عيد» في مذكراته المستفيضة التي نشرها في المصور (١٩٧٦م) ـ واستفاد الغربيون من دخول الشيوعية إلىٰ مصر، أنهم وجدوا قوة جديدة فوق الديمقراطية والقومية والرأسمالية لتحطيم مصر، هي الماركسية.

كذلك فإنه لم يتبين للأذكياء النوابغ من المستشارين الذين كانوا ينصحون لعبد الناصر أن السوفييت خادعون، وأنهم لن يُحققوا له ما يُريد، وأن أمر دفاعهم عن الحريات والدول الحرة في مواجهة الغرب الاستعماري خداع ووهم، وأن مساعدتهم للعرب إزاء الصهيونية أُكذوبة كبرىٰ.

وإذا كانت الفكرة البارزة التي خدعوا بها الشعوب أن السوفييت سيعاونون العرب في مواجهة إسرائيل التي تحتضنها أمريكا، وأن الاتصال بالسوفييت من شأنه أن يُمكِّن العرب من القضاء علىٰ إسرائيل، كل ذلك كان باطلاً قبل أن نكتشفه قبل وقوع نكسة

١٩٦٧م لمن كان له بصر قليل بتاريخ العلاقات بين الصهيونية والماركسية، وهو ما كشفه الملك فيصل في تصريح خطير حين قال:

«الشيوعية وليدة الصهيونية»: لقد كان ما كشفته الأحداث علىٰ عكس ذلك تمامًا، فقد تبين أن هناك تنسيق خفي بين إسرائيل والسوفييت، وأن السوفييت لا يُعطون العرب أسلحة هجومية، ولا يُمكنونهم من أن يكونوا في مركز مساوٍ لإسرائيل، بل لقد تبين أخطر من ذلك: تبين أن أمريكا كانت تضغط علىٰ مصر لتلقي بنفسها في أحضان السوفييت؛ فتُمكِّن إسرائيل من الانفراد بالثقة ككلب حراسة للمصالح الغربية في المنطقة، وأن تتحقق المقارنة التي تقوم بها الصهيونية العالمية وهي خلق معسكرين متنازعين؛ فينقسم العرب فلا يستطيعون الوصول إلىٰ الوحدة المرتجاة التي تُمكِّنهم من القضاء علىٰ إسرائيل».

ولقد كشف «عبد القادر عيد» في مذكراته عن أمر خطير لا حد لخطورته، هو أن القرارات الاشتراكية التي أعلنها فجأة جمال عبد الناصر ١٩٦٣م إنما تمت بناءً علىٰ إنذار سوفييتىٰ قدَّمه «خروشوف»، وكان وقحًا للغاية؛ فقد تهجَّم علىٰ مصر وقادتها وسياستها في الوقت نفسه، يطلب بتطبيق النظام الماركسي في مصر.

يقول «عبد القادر عيد»: سلَّمني المشير «عبد الحكيم عامر» هذا التقرير الذي يتضمن الإنذار لأُصوِّره، وطُلب «جمال عبد الناصر» كل ما صدر من كتب عن الماركسية - جمعنا هذه الكتب في مكتبة ضخمة أفزعت «جمال عبد الناصر»، وطلب البحث عن ملخصات، واعتكف هو والمشير في استراحة القناطر ٢١ يومًا، خرج بعدها ليعلن هذه القرارت الاشتراكية علىٰ الجماهير، والغريب أن تُطبق هذه الاشتراكية في مصر في نفس الوقت الذي كانت كل خلايا الأحزاب الشيوعية إما في السجن أو في المعتقلات، لقد قَبِل عبد الناصر الإنذار السوفييتي».

وهكذا وصل عبد الناصر إلىٰ أحرج مرحلة في حياته كلها، حين حرَّضه الروس علىٰ تصعيد خصومته مع الأمريكيين إلىٰ الدرجة التي وصلت إلىٰ مرحلة اللاعودة، هنالك وضعوه بينهم وبين الحائط، وفرضوا عليه نفوذهم وما كان أغناه، ثم هزموه في حرب ١٩٦٤م واضطروه إلىٰ قبول مشروع «روجرز»، يقول «عبد القادر عيد»: في ديسمبر ١٩٥٢م بدأ «جمال عبد الناصر» يُفسح الطريق لينفرد بالسيطرة علىٰ مجلس قيادة الثورة، وبدأت التصفية بتنحية «رشاد مهنا» ـ أحد الأوصياء، وتبع ذلك عمليات قبض علىٰ بعض الضباط، وكان رد الفعل في نفوس الضباط سيئًا، ثم أشار إلىٰ مساعي عملاء السوفييت فيما بعد، التي كانت ترمي إلىٰ إزالة العوائق التي تقف أمام تصعيد العصابة؛ حتىٰ تقع البلاد في قبضة السيطرة السوفييتية الكاملة، والمذهل أن عبد الناصر وعبد الحكيم سارا مُغمضين إلىٰ الهوة السحيقة التي حُفرت لهما وحُفرت لمصر».

والمعروف أن الاتحاد السوفييتي كان أكبر أعداء العرب قبل احتلال فلسطين واستيطان اليهود فيها، وقد قدَّم ٤٠٪ من الأموال الضخمة التي تدفقت علىٰ اليهود لشراء أراضي العرب، بينما قدَّمت دول أوروبا الشرقية ٢٨٪، وقدَّمت الولايات المتحدة ١٩٪، من نسبة هذه الأموال.

وقد أعلن «بن جوريون» أن الاتحاد السوفييتي هو الذي ساند إسرائيل في إلحاق هزيمة العرب ١٩٤٨/١٩٤٩م، وقال إن الروس كانوا يُرسلون الأسلحة إلىٰ «تشيكوسلوفاكيا» لتصل إلىٰ اليهود الذين قاتلوا العرب وطردوا الفلسطينيين من أوطانهم.

ولقد كان تواجد السوفييت في مصر منطلقًا لأن يطرقوا أبواب الخليج، وليدعموا وجودهم في منطقة تمتد من المحيط الهندي إلىٰ الخليج العربي، والسيطرة علىٰ مداخل البحر الأحمر، والقيام بأعمال التجسس علىٰ الدول المطلة علىٰ البحر الأحمر.

إنَّ أخطر ما أحدثه الشيوعيون في مصر هو التنظيم الطليعي وسيطرتهم علىٰ منظمة الشباب، وقد كان التنظيم الطليعي اقتراحًا سوفييتيًا وكذلك منظمة الشباب؛ من أجل إجراء عمليات غسيل المخ للشباب والشابات؛ حيث كانت تتم قرب السويس ومرسىٰ مطروح، وكان يُدرَّس في هذه المعاهد والمنظمات كتاب «رأس المال» «لكارل ماركس»، وكتاب «نظرية فائض القيمة»، وكتاب «أصل العائلة»، الذي كتبه «انجلز»، وكلها كتب تحمل تشكيكًا في الدين، وفي الخالق ـ سبحانه ـ وفي بداية خلق الكون، كما كانت تُقدِّم محاضرات تضم ملخصات للمؤلَّفات الماركسية التي تصدر عن دول الكتله الشرقية، كما تُقام في مساء كل يوم حلقات تدور حولها مناقشات تنتهي إلىٰ إقناع الدارس بأن كل ما في مصر فساد وعفن، وكل من في مصر يجب أن يُباد، أما الصراع العربي الإسرائيلي فكان يُدرَّس لشباب التنظيم الطليعي من وجهة نظر إسرائيل، ووجهة نظر الاتحاد السوفييتي، ومما كان يُقدَّم في هذه الدراسات، أن العدو الحقيقي لمصر والعرب هو الولايات المتَّحدة وليس إسرائيل والصهيونية، وأن إنهاء الصراع العربي الإسرائيلي يجب أن يتم، ولن يتم إلا علىٰ أساس أن يُضمن لإسرائيل حدودها، وأن مئات الألوف من أبناء الاتحاد السوفييتي التي تهاجر إلىٰ إسرائيل، هم من المؤمنين بالاشتراكية، وهم أقرب إلىٰ العامل المصري من الرأسمالي، وهكذا كانت الأفكار كلها ترمي إلىٰ أن تقوم القوىٰ الموالية للسوفييت بالاستيلاء علىٰ السلطة في إسرائيل، وعند ذلك يسهل علىٰ نظام الحكم الاشتراكي في مصر أن يتفاهم مع الحكومة الاشتراكية الإسرائيلية.

وكانوا يُوزِّعون مجلة الاشتراكي، وعشرات الألوف من الكتب الماركسية في كل مكان، والمُعتقَد أنه تخطيط صهيوني ماركسي، والصهيونية أعلىٰ مراحل الاستعمار، والاستعمار الجديد يجعل من أمريكا الرأسمالية والاتِّحاد السوفييتي الذي يرفع راية الماركسية علىٰ قدم المساواة، فهما متَّفقان في الهدف وإن اختلف الأسلوب.

لقد كان الهدف من هذا هو إلغاء الماضي العربي الإسلامي كله، والقضاء علىٰ الذاتية الإسلامية.

* * *

تطورت العلاقات بين عبد الناصر والاتحاد السوفييتي تطورًا خطيرًا، كانت منذ اليوم الأول تمكينًا لرجالهم من قيادة البلاد الفكرية والسياسية، وإعداد رجالهم للسيطرة علىٰ الحكم. وكانت مؤامرة إسقاط نظام الوحدة مع سوريا مقدمة لتحقيق الخطة النهائية، يقول «إبراهيم البعثي»: «لهذا رسموا مخططًا خبيثًا للتعامل مع عبد الناصر، ظاهره القبلات والأحضان، وباطنه الإجهاز عليه، ولكن علىٰ أن يستفيدوا منه أكبر الفوائد قبل أن ينتهي حكمه.

بدأوا بتجاهل هجومه عليهم ثم الإشارة بوطنيته، ثم تأييد هجومه علىٰ ما يُسمونه بنظم الحكم الرجعية في البلاد العربية، وتوَّجوا ذلك بزيارة «خورشوف» لمصر عام ١٩٦٤م، وباختصار وضعوا للتعامل معه خطة علمية نفسية سياسية، وفي الفترة بين حدوث الانفصال وبين زيارة «خورشوف» أوعزوا إليه بأن حكمه في الداخل سيكون في خطر شديد بعد الانفصال السوري ما لم يكن له تنظيم خاص يعتمد عليه إذا حاولت بعض العناصر أن تتآمر عليه وعلىٰ نظام حكمه، علىٰ أن يكون الشعار الذي يُرفع هو «كيف نحمي مصر؟»، هذا الشعار خدع كثيرًا من الشرفاء فدخلوا التنظيم الطليعي وهم لا يعلمون من خفاياه وأهدافه الخفية شيئًا، وساعد علىٰ اقتناع جمال عبد الناصر بهذه الكلمة أنه طلب من الأجهزة التي يحكم بواسطتها، أومن خلالها أن يقدم كل منهم أسوأ الصور المحتملة دون مواراة أو تزييف، وطبعًا حرص كل من هذه الأجهزة أن يُصور له الأخطار من وجهة النظر التي تتفق مع مصلحته، فمنهم من أثار خوفه من الإخوان، وبعضهم شكَّكه في الوفديين المتآمرين عليه، ومن المؤسف أن أحدًا

منهم لم يُشر إلىٰ دور الصهيونية العالمية والمخابرات الإسرائيلية في كل ما يُصوره من احتمالات، ولمَّا كانت قيادة التنظيم تضم صفوة رجال عبد الناصر، وكان هو يستغل التناقضات بين هذه الأجهزة والسباق الذي يجرىٰ بينها للتقرب منه؛ للسيطرة علىٰ الحكم، وكذلك كان يستغل كراهية هذه العناصر لبعضها.

وفي عام ١٩٦٦م نصح السوفييت بإقامة منظمة الشباب؛ بحجة أنها ستكون إحدىٰ دعامات النظم الطليعية، ولكنَّ الواقع أن دورها كان أخطر من ذلك بكثير، فقيادات التنظيم الطليعي كان بوسعها أن تُخطط وتتآمر، وأن تبث الأفكار السامة بين المواطنين، وتُمهد بين الشعب؛ لكي يقبل الفكر الماركسي ويُؤمن بالاشتراكية العلمية، ولكن هذه القيادات في التنظيم الطليعي كانت في حاجة إلىٰ من يُنفذ مؤامراتها؛ ولهذا أوعز السوفييت بضرورة قيام منظمة للشباب تستغل سذاجة وحماس بعضهم، وتُغري بعضهم بالمال والسهرات، ويمكن قياس ذلك بمقارنة موقف الطالب الذي يحصل من والده من ٣ إلىٰ ٥ جنيهات شهريًا عندما يجد المنظمة تدفع له ثلاثين جنيهًا في الشهر، بخلاف الشقق المفروشة، والسفريات إلىٰ الخارج، والمعسكرات الترفيهية في السويس ومرسىٰ مطروح وغيرهما، هذا الشباب يُمكن أن يفعل أي شيء.

هؤلاء الشباب والشابات عندما دُفعوا إلىٰ المحظور، وحققت معهم النيابة أنكروا ولاءهم لوطنهم، وهتفوا في بعض المحاكمات للسوفييت، بل منهم من تنكَّر لأبيه، ورفض نصحه أمام المحققين.

وقد اتَّضح أن الهدف من إقامة منظَّمة الشباب لم يكن لتربية النشء سياسيًا، ولكن كان الهدف أن يتدربوا علىٰ كيفية تدمير مصر وحرقها في حالة سقوط حكم عبد الناصر، ومن قد يخلفه من قيادات التنظيم الطليعي، وكانت تُجرىٰ لهم إلىٰ جانب عمليات غسيل المخ، تدريبات قتالية في مناطق معينة في جبال أسيوط والصحراء الغربية بالقرب

من خليج السويس، كل ذلك تم تحت شعار «كيف نحمي مصر؟» هذا الشعار الذي ضلَّل كثيرًا من الشباب، ولا يزال يُسمَّون بالناصريين.

ولعل أخطر ما درسوه في دورة من دورات منظمة الشباب ما أسموه «خطة إحراق القاهرة ونسف محطاتها الكهربائية»، وهي خطة كان قد وضعها بعض الضباط الشبان الوطنيين أثناء الحرب العالمية لضرب القوات البريطانية؛ أملاً في التخلص من الاستعمار البريطاني، وهذه الخطة كانت قد تسربت وقتئذ إلىٰ القوات البريطانية وإلىٰ جواسيس فاروق، وقد استطاع البعض الحصول عليها وتدريسها لبعض فرق منظمة الشباب. وكانت هناك كتب يقرأونها في خلاياهم السرية.

«وقد كشفت الوثائق عن أن عددًا كبيرًا من الشباب الذين ضمتهم منظمات الشباب قد رفضوا الماركسية؛ فسِيقوا إلىٰ الليمانات والسجن الحربي»، وكانت الدراسة في ألف صفحة مطبوعة عن الفكر الاشتراكي مكتوبة بأسلوب ملتوٍ، ودليل المناقشة المطبوع أشد خبثًا، وقد «تمركس» الميثاق، وعُرِض كل فكر اشتراكي غير الماركسية علىٰ أنه فابي أو طربي أو خيالي، وكان الغرض من هذه المحاضرات التصديق علىٰ التحويل الجذري للتراث والإنسانية إلىٰ المسار المطلوب، وكانت هذه الدراسات تقول بأن القيم والأخلاق والدين والوطن والاقتصاد إنما هي نتيجة وانعكاس لتطور أدوات الإنتاج والصراع بينه وبين الأساليب، وقد خرج البعض من هذه الدراسات مؤمنًا بأن العلم الماركسي هو الجهل بعينه، وأنه تدبير يهودي ماكر يُردده الببغاوات لأسباب كثيرة ومُعقدة.

وقال البعض: إننا نرفض تذويب مصر الحبيبة في أممية بروليتارية، ونرفض بإصرار أن نُضحي بسبعة آلاف سنة من الحضارة؛ حتىٰ لا يكون بدء تاريخنا هو «كارل ماركس».

وكانوا يرفضون أن يكون الصراع الطبقي هو أُس المنهج ومُحرك التقدم، ولم

يقبلوا القول بأن العلم يتطلب تأصيل الحقد الطبقي، وتعميق الصراع بين العمال في البيت الواحد، وقد عجب الكثير منهم أن يكون شخص واحد هو وحده دون خلق الله جميعًا الذي يتحكم في عطاء الله هو «كارل ماركس»، وأن ما قبله كان الباطل والزيف والخداع، وأنه لا يُخطئ أبدًا، وكل ما قاله هو بمثابة قوانين ونظريات أبدية، كالشمس والأرض، بل الوجود ذاته، إن هذا عبث وخرافة وإلغاء لكل عقول الناس، ومما كان يُقال لهم ويسخروا منه قولهم: « إن الروس وطنيون وأن الرفيق «لينين» حلَّ في «الكرملين» محل «بطرس الأكبر»، وأن اللغة الروسية هي السائدة غصبًا علىٰ باقي الرفاق الصغار في آسيا الوسطىٰ، وأن الذي انتصر في الحرب العالمية ليس الشيوعية علىٰ النازية، بل روسيا علىٰ ألمانيا، السلاف علىٰ الجرمان».

ولم يقف الأمر عند هذا، بل أُتيح للمنظمات الشيوعية اتخاذ قاعات الدرس في الجامعة وفي الاجتماعات والندوات العامة مجالاً فسيحًا للنشاط المحموم في الهجوم والتشكيك والإثارة المواجهة لكل القيم تحت دعوىٰ الحرية، كذلك فقد سيطر السوفييت سيطرة تامة علىٰ الإعلام المصري، وكان هناك أكثر من ١٨٠ فيلمًا سوفييتيًا معروضًا علىٰ المشاهدين في مصر بأوامر من الاتحاد السوفييتي (عبد القادر حاتم)، كما احتفل بذكرىٰ «لينين» في نفس أيام المولد النبوي، واستمر الاحتفال شهرًا كاملاً، بل أُقيمت احتفالات ذكرىٰ «لينين» في داخل بيوت الله.

وهذا هو ما لم يسلم به الشعب فواجه هذا الغزو الشيوعي، حيث أقام الأهالي أربعة عشر ألف مسجدٍ، بينما كانت الدولة تملك أربعة آلاف مسجدٍ فقط.

ولعل الحاكم كان محاصرًا في هذه الفترة، ولكنه كان سعيدًا بأنه أبعد الأمة عن الفكرة الإسلامية تمامًا، وإن من مميزات الاشتراكية أنها تضع في يد الحاكم كل مُقدرات الأمم، فلا يُحاسب عليها، ويُوجهها في سبيل حماية وجوده، ودعم أنصاره من أصحاب الثقة، وحجب كل مُعارض أو من لا يقبل أن يعمل تحت لواء السيطرة

الاستبدادية، وقد عمد عبد الناصر إلىٰ تحويل أنظار الشعب عما هو واقع داخل الوطن؛ بافتعال معارك خارجية كتلك التي خاضها لإجبار الدول العربية علىٰ قبول النفوذ السوفييتي، وتقسيم الدول إلىٰ تقدمية ورجعية.

ومن ناحية أخرىٰ؛ فإن الغاية من المناداة بالاشتراكية هو تحقيق العدالة الاجتماعية، التي لم تحقق أي شيء يُذكر، وإنّ التطبيق استهدف في الدرجة الأولىٰ تحقيق المقاصد الماركسية اللينينية المبنية علىٰ الصراع الطبقي، والهادفة إلىٰ قلب المجتمع الإسلامي رأسًا علىٰ عقب، والقضاء علىٰ أعرافه، وانتهاك حرماته ومقدساته، واعتبار الأخلاق التي كان يقوم عليها أخلاقًا رجعية يجب استبدالها بالأخلاق التقدمية، وكان هذا من أخطر الأخطار التي فتح بابها عبد الناصر أمام الأمة الإسلامية. والشيوعيون كانوا ماكرين؛ فقد أخفوا خطتهم تحت شعارات برَّاقة تحت اسم الدفاع عن الحريات، وهم أول من يفهم أن الوطنية لا مكان لها في قاموس شيوعيتهم، وأن العالم الواحد الذي يعترفون به هو الذي نادىٰ به «كارل ماركس»، وهو الذي يعلم أن الحريات في عرفهم ليست إلا كلمة تُطلق في مجال الدعاية، وليس لها من ترجمة في لغتهم إلا العبودية والسُخرة والحكم الدكتاتوري المطلق، وأن كل ما كسبه الشيوعيون من شيوعيتهم أنهم صاروا آلات في جهاز الإنتاج العام، ولم يعودوا بشرًا ذوي إرادة، لقد كفروا بالدين وكفروا بالفرد وبالحرية والمساواة.

إن برنامج حزب العمال الشيوعي يقوم علىٰ إثارة الصراع الطبقي عن طريق استغلال الأزمات الاقتصادية، وتحقيق ثورة شعبية تستهدف الاستيلاء علىٰ الحكم عن طريق الإرهاب والوسائل الأخرىٰ غير المشروعة، وإثارة روح السخط باستخدام الأزمات الاقتصادية.



الفَصْلُ السَّابِعُ

تغيير المفاهيم والأعراف الإسلامية

سارت حركة الجيش في مرحلتين: (١٩٥٢م - ١٩٦٢م) الوجهة الغربية، ومن (١٩٦٢م - ١٩٧٤م) الوجهة الشيوعية.

في المرحلة الأولىٰ: مرحلة النفوذ الأمريكي بديلاً للنفوذ البريطاني؛ فقد تحرك كل المثقفين والصحفيين وأساتذة الجامعات لأداء هذا الدور، ودعا «طه حسين» إلىٰ صفحة جديدة من التعامل مع أُفق الثقافة الأمريكية، وبدأ يُترجم كتب أعلام الصهيونية الأمريكية من أمثال «إدسون»، و«ول ديوارنت»، وبدأ النفوذ الأجنبي يأخذ صورة جديدة أُخرىٰ مُختلفة عن الصورة التي عُرفت في عهد الاحتلال البريطاني؛ فقد كان الحكام الجدد يتطلعون إلىٰ وضع مختلف، والنفوذ الأجنبي قادر علىٰ أن يُغير جلده وأساليبه؛ بحيث تُرضي في الظاهر رغبة القادة الذين يرون أنهم أكثر وطنية من النظام القديم، ولقد أعطىٰ العصر الجديد صورة بارعة من الدعوات كالحرية، والعدل، والكرامة، وتكافؤ الفرص، وكان شعاره النظام والعمل.

وتبيَّن أن وسائل السيطرة والاحتواء التي يصطنعها النفوذ الأجنبي ماكرة خبيثة دقيقة؛ بحيث لا يلحظها إلا الباحث المدقق المتعمق، فقد كان النفوذ الأمريكي الذي ورث مكان النفوذ البريطاني قد وضع خططًا جديدة لاحتواء المنطقة والسيطرة عليها عن طريق التعليم والتربية والثقافة؛ بحيث تُوجه شعوبها نحو التبعية المجردة؛ وذلك لتصفية المفاهيم الإسلامية التي كانت قد وصلت إلىٰ قدر كبير من القوة واليقين بأنها هي المنطلق الحقيقي لهذه الأمة إلىٰ بناء مستقبلها وحضارتها والتحرر من النفوذ

الأجنبي، ولما كان النفوذ الأمريكي قد جاء في مرحلة مختلفة من النفوذ الانجليزي القائم علىٰ السيطرة العسكرية، أو النفوذ السياسي المكشوف، فقد كان ماكرًا في إخفاء مراميه، كما كانت من وراء هذا النفوذ خطط الصهيونية العالمية المؤازرة له، والتي كانت تهدف إلىٰ إعداد المنطقة كلها لالتهامها، ولذلك بدأت سلسلة من المؤتمرات دُعي إليها عدد من الأسماء اللامعة في المنطقة من العلمانيين والمشتغلين بالشؤون الإسلامية، وهي مؤتمرات حول الشريعة الإسلامية وحول التربية والتعليم، وهي ترمي في مجموعها إلىٰ محاصرة الإسلام؛ لتضييق دائرة نفوذه وقصرها علىٰ شؤون العبادات، وإلغائها المعاملات التي يقوم عليها تنظيم المجتمع، والإشارة إلىٰ تجربة تركيا التي قام بها «أتاتورك»، وكان هذا واضحًا في تصريحات عبد الناصر الذي قال إنَّ «أتاتورك» مثله الأعلىٰ، وكان معنىٰ ذلك هو الدولة العلمانية التي كان يسعىٰ إلىٰ تحقيقها علىٰ مراحل، ومن ثم ترددت الأصوات والكتابات عما أُطلق عليه تطوير الشريعة الإسلامية؛ حتىٰ تصبح أداة لتبرير القيم الغربية، وتحريف تفسير النصوص من القرآن والحديث علىٰ النحو الذي يُبرر العادات الغربية السائدة، ومن ذلك بعث التاريخ السابق لعصر ما قبل الإسلام بإحياء الحضارات القديمة، وكان أخطر هذه المؤامرات احتواء التعليم في العالم العربي، وكانت النظم التي قام بها الاستعمار البريطاني في مصر والسودان، والفرنسي في بلاد المغرب وسوريا، تُعدُّ تمهيدًا للخطوات الجديدة التي حاول النفوذ الأمريكي تنفيذها، وقد توقَّف هذا النفوذ فترة الخضوع للنفوذ السوفيتي، فلما تخلصت منه مصر في أوائل الحكم الساداتي، بدأ النفوذ الأمريكي يُجدد مناهجه في المنطقة بصورة أشد قوة وخاصة في مجال التعليم؛ فأرسل البعثات من الشباب إلىٰ أمريكا، وأنشأ معاهد السياحة، وتدريب المصريين الذين يعملون في الفنادق الكبرىٰ، والشركات الأمريكية، والمصارف الأجنبية الجديدة، وقد حرص علىٰ أن يكون هؤلاء من خريجي الجامعات الأمريكية، أو من غير المسلمين المثقفين ثقافة أمريكية الذين يحصلون علىٰ المقررات الضخمة.

كانت مرحلة الحكم الذي قام في يوليو ١٩٥٢م من الناحية الثقافية والاجتماعية متابعة عميقة لمخططات التغريب والغزو الثقافي مع قشرة خادعة من الهجوم علىٰ الاستعمار والنفوذ الأجنبي، ولكنَّ الناظر إلىٰ الأعماق يجد أن قوىٰ النفوذ الغربي ازدادت تغلغلاً، وما تغيرت غير الواجهة فحلَّت الأيدلوجية الأمريكية محل الأيدلوجية الإنجليرية، ولقد كان الدعاة الجدد وهم يُريدون السيطرة علىٰ بلاد الإسلام، ويُحلون نفوذهم محل النفوذ البريطاني والفرنسي، قد رسموا خططًا خطيرة لاحتواء المنطقة الإسلامية، وبذلوا جهودًا واسعة في مؤتمرات متعددة حُشد لها عدد كبير من المثقفين والعلماء، واهتمت بمجال الشريعة الإسلامية والتربية، في محاولة لاحتواء هذه المفاهيم وتجنيد من تستطيع من هذه الكفاءات، وأبرز ذلك فكرة إعادة النظر في الدين وتطوره، حين تُطالب بوضع تجربة الدين وتجربة النبوة والمعجزات والصلاة والحياة الآخرة موضع البحث، وإخضاعها لقواعد علم النفس الحديثة والتي تقوم علىٰ الحدس، والتي تخضع نفسها للتغيير والتبديل، وتطوير الشريعة الإسلامية؛ بحيث تُصبح أداة لتبرير القيم الغربية وإزالة الفوارق بين القيم والعقائد، ومن أساليبهم في هذا التطوير استدراج بعض علماء المسلمين للكلام في نقاط معينة عن نظم الشريعة التي تُخالف ما استقر عليه عرف الغربيين مما يَجرىٰ باسم المدنية؛ وذلك لكي يُلجئوهم إلىٰ تحريف نصوص القرآن والحديث، والميل بها إلىٰ ما يُوافق العادات الغربية السائدة - كما يُشير إلىٰ ذلك الدكتور «محمد محمد حسين»، بالنسبة لمؤتمر «برنستون» الذي عُقد ١٩٥٣م، ومن ذلك بعث التاريخ السابق للإسلام علىٰ أن يبذل علماء الآثار الغربيون جهدًا في هذا الصدد؛ بهدف تلوين الحياة الاجتماعية في كل بلد من البلاد الإسلامية بلون خاص، يستند في مقوماته إلىٰ أصوله الجاهلية الأولىٰ، وبذلك تعود الحياة الاجتماعية التي وحَّد الإسلام مظاهرها إلىٰ الفرقة والانشعاب، ويستريح بذلك المستغلون من احتمال تكتل المُستعَبدين، ثم تكون الأمة الإسلامية وهي متفرقة غير قادرة علىٰ استعادة إرادتها وإقامة مجتمعها الصحيح؛ وبذلك تأكلها

الحضارة الحديثة، ووفقًا لذلك تجري المحاولة إلىٰ سلب التعليم من قبضة الأزهر، أو احتواء الأزهر نفسه وتطويره؛ بحيث تضيع ميزته الحقيقية التي تتمثل في قدرته علىٰ مقاومة الفكر الوافد، ومواجهة التغريب والغزو الثقافي تحت اسم (السير في قطار الحياة العصرية).

وقد أُستحدثت في هذه الفترة وسائل لاحتواء التربية والتعليم، تكاد تكون أشد وأعنف مما سعىٰ إليه «طه حسين» في كتابه (مستقبل الثقافة)، وما قام به في مناهج التعليم والتربية، وقد هدفت المؤسسات الأمريكية المتصلة بالتعليم من ترويج مبادئ وأساليب يُقال أن المقصود بها هو رفع مستوىٰ التعليم وإصلاح شؤون الجيل الجديد، بينما هي تعمل لابتلاع هذه الأمة واحتوائها؛ ذلك لأن أي تقدُّم صناعي لابد أن يجري في إطار قيم هذه الأمة أساسًا، والدين واللغة هما أهم دعائم الأُلفة والتماسك في كل مجتمع إنساني، والإسلام هو الذي يُوحِّد العادات والأمزجة؛ فيجمع الناس في وحدة فكرية وثقافية وروحية، ولذلك فإن هذه المعاهد المُريبة مثل المركز الدولي للتربية الإسلامية وغيرها في العالم العربي، لا عمل لها إلا سلخ الريف العربي من دينه وخلقه وعروبته، وطبعه بالطابع الغربي إتمامًا لما يبذله الغرب من جهود في فرنجة هذه المنطقة بعد أن تبيَّن أن تأثير التغريب لم يتجاوز المدن، ويرمي شعار التربية الأساسية إلىٰ تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات علىٰ أسس غربية خالصة تُروَّج باسم العلم، وهذه هي أهداف المؤسسات الأجنبية والمناهج الأجنبية، ومن أهدافها أيضًا إفساد المرأة الريفية وفرنجتها، واستئصال حياة المرأة الريفية المسلمة، واستيفاء معلومات دقيقة من مصادر موثوق بها تخدم الذين يرسمون الخطط السياسية والحربية لهذه المنطقة، ومن ذلك إحياء العادات القديمة والخرافات والأساطير التي هدمها الإسلام، بإحياء ما يُسمىٰ «الفلكور»؛ وذلك بقصد تحليل نفوس أصحابها وإدراك دوافعها ونوازعها، وفهم ما يتنظم عواطفها؛ بُغية الوصول إلىٰ أمثل الطرق وأصدق الخطط للتمكن منهم

واستغلالهم وإدامة عبوديتهم، وكذلك ما يتصل بإحياء العصبيات الشعوبية والفرعونية الجاهلية، واتخاذ اللهجات السوقية التي يُطلق عليها العامية.

ومن ذلك دعواهم إلىٰ فرنجة المرأة الشرقية، وحملها علىٰ أساليب الغرب في شتَّىٰ شؤونها، في الزواج والطلاق، وفي المشاركة في العمل والاندماج في شتَّىٰ الميادين، وفي الزي وفي المحافل، وهذا الاتجاه هو بدوره جزء من اتجاه أكبر يُراد به سلخنا عن أدب إسلامنا وتشريعه، وإلحاقنا بالغرب في التشريع والأدب والموسيقىٰ والرسم وسائر فنون الحياة من جد ولهو، وأبرز جوانبه: اختلاط النساء بالرجال، واشتغال النساء بأعمال الرجال، إن ما يُنادَىٰ به علىٰ أنه حقوق المرأة، لا يهدف من ورائه إلا مخالفة عُرف راسخ، وتحطيم قاعدة مُقررة، وإقامة عُرف جديد في الدين والأخلاق والذوق، وخَلْق المبررات والمُعوقات التي تجعل انسلاخنا عن أسلافنا وعروبتنا وشرقيتنا أمرًا واقعًا، كما يجعل دخولنا في دين الغرب ومذاهب الغرب ونسق الغرب أمرًا واقعًا كذلك، وأخطر ما في هذه الدعوة وأمثالها مما يُراد به حملنا علىٰ كل فاسد من مذاهب الغرب، أن أصحابها يرون إقحامها علىٰ إسلامنا زاعمين أنها لا تعارضه».

هذه هي الصورة التي رسمها الدكتور «محمد محمد حسين»(١) التي كانت تُحاول أن تصبغ وجه الحياة الاجتماعية في مصر في السنوات العشر الأولىٰ من حركة الجيش، وقبل التَّحول إلىٰ النفوذ السوفييتي، وهي صورة مظلمة قاتمة.

* * *

وسُرعان ما سيطر الشيوعيون علىٰ الثقافة في المسرح والإذاعة والسينما، وصبغوها بصبغة ماركسية، وتوسَّع النظام في المسارح ودور السينما والأفلام، وأُعطيت موارد ضخمة لهذا العمل؛ بقصد صرف مشاعر الناس ووجهتهم نحو التسلية والاشتغال

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية، د. محمد محمد حسين.

بهذه الوسائل عن حقيقة الأوضاع في الوطن، وشغل الناس بالأغاني الهابطة والكلمات التي تدور علىٰ ألسنة الممثلين والمغنيين، وخسرت الدولة في هذا الصدد ملايين الجنيهات راضية؛ لأنها إنما كانت تُحقق هدفًا أساسيًا، هو أن تُوجِّه الكلمة الوجهة التي ترضاها، وأُنفق علىٰ الراقصات والمغنيات والممثلات ما لم يُصرف جزء من مئة منه علىٰ المجلات الثقافية، وحظي عدد من الكتَّاب اليساريين بالعطاءات والمكافآت والجوائز، والتفرغ بأجور كبيرة، وفي هذه المرحلة كان هناك فكر واحد هو الذي يُذاع ويُعلن في الصحف والمسرح، ووجهته تأكيد الزعامة، ثم في المراحل التالية الدعوة إلىٰ الشيوعية الخفية تحت عبارات اشتراكية باردة، وأبعدت كتابات الذين لم يجروا في هذا الخط، فأوقف أمثال «علي أحمد باكثير» و«عبد الحليم عبد الله». وفتحت أبواب الجنس والجريمة والصور القاتمة التي تُمثل المجتمع الاشتراكي الذليل بالوجوه المرهقة الحاقدة التي لم تعرف الله يومًا، وسيطر الشيوعيون علىٰ هذه المجالات كلها، ووجَّهوها لغايتهم، وخفت صوت الإسلام وقضاياه ووجهته، بل أُمحي تمامًا، وكان الفكر المُتاح هو الفكر العلماني الساخر من الأديان والقيم.

وعمد المسؤولون عن المسرح والسينما إلىٰ تخريب مُقومات الأمة، وإشاعة الفحشاء والمنكر والتفاهات، كالرقص الخليع، والموسيقىٰ المجنونة، والإقبال علىٰ الخمور، واستخدام العنف للتمايل والاغتصاب، وجعلوا من الراقصات بطلات ومثلاً أعلىٰ للفتاة الغريرة التي لا تعرف شيئًا، وأبرزوا البيت المصري للملأ الخارجي كما لو كان حانة أو ماخورًا ـ كما يقول «أحمد جمال الدين البنا»، ومن أسوأ ما تُظهره السينما المصرية وما تُصوره، مدىٰ الاستهتار والاستهانة وانعدام الوعي الإسلامي عند المحرِّضين، ومنها تلك الصور الشائهة الساخرة التي يُصورون بها الشيخ في الأفلام سواءً كان مأذونًا أو إمام مسجد، وكأنَّ الشيخ بهلوان أو مُهرج يتعين إظهاره بصورة مضحكة، فأصبح التلفزيون أداة إفساد.

أما الكُتَّاب والصحفيون فقد انطلقوا انطلاقة خطيرة في كشف كل مستور، وإثارة

كل قبيح تحت اسم العصرية والتقدمية، وهكذا تلقفت البلاد يد ماكرة من يد أشد مكرًا، وهو احتواء مُتَّصل انتهىٰ باسم الاستعمار، وتحوَّل إلىٰ القومية في إطار نفوذ، ثم إلىٰ الاشتراكية في إطار نفوذ آخر، ودخل الفكر الإسلامي في التَّحدي مع الماركسية، بعد أن عرف التَّحدي في مواجهة الديمقراطية والقومية.

وبتأثير المذاهب الهدَّامة التي انتشرت خلال مرحلتي التبعية للنفوذ الغربي والنفوذ الشيوعي، ظهرت عشرات المفاهيم المسمومة، وقد بدأت موجة جديدة تتجاهل الوجود الإسلامي وما له من مبادئ وقيم محددة، وتدعو إلىٰ أن حضارة الغرب هي المثل الأعلىٰ، وليت الأمر وقف علىٰ إغفال الرؤية الإسلامية والمفاهيم الإسلامية، بل تعدَّاه إلىٰ إنكارها تمامًا، وسلب المجتمع أهم مُقوماته، والترويج للماركسية ومحاولة إعطائها مفهومًا إسلاميًا، ومن ذلك الدعوة إلىٰ أن الدين أيدلوجية مخلَّفات الإقطاع والاستعمار، أو الدعوة إلىٰ القول بأن النظريات الاجتماعية الحديثة لا تتعارض مع الإسلام، كنظرية فائض القيمة، والصراع الطبقىٰ، ومن ذلك القول بأن «القرامطة» حركة عُظمىٰ من حركات الإصلاح الاجتماعي والعدالة الاجتماعية، وترويج مفاهيم ضالة، كقولهم أنه في ظل النظام الشيوعي لم يعد هناك شيء اسمه الدين.

ولم يلبث أمثال «محمد التابعي» أن شكَّك في مفاهيم الإسلام بأحاديث تحت عنوان (هل هناك حياة بعد الموت؟)، وهي عناوين مضلِّلة تنقل الشك من دائرة ضيقة هي تحضير الأرواح، إلىٰ دائرة أوسع تشمل الحياة الأخرىٰ، ومن ذلك كتاب «عبد الرحمن الشرقاوي» عن الرسول بوصفه بطلاً من أبطال الحرية.

ويتعرض «أحمد عبد المعطي حجازي» لكتابة سلسلة مقالات يتَّجه منها إلىٰ التركيز علىٰ بشرية الرسول، ونفي الخوارق عنه، وإبراز المواقف التي عاتبه الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ عنها.

ولا تلبث الحاجة أن تُلبي نداء العلمانية والإلحاد، فإذا برسالة عن «أصوات المد في القرآن» لطالبة تحت إشراف شيخ كبير، ذكرت فيها أن الرسول (ﷺ) كان يستبدل كلمات النص القرآني لفظة بلفظة أُخرىٰ؛ يعلم أنها أكثر شيوعًا في تلك البيئة، أو يرىٰ أنها تحمل شحنات من المعاني تُوضِّح الفكر أكثر، أو أن يُغيِّر في نظام الجملة؛ ليجعلها أكثر وضوحًا أو يُكسبها بلاغة أكثر في نظر القوم الذين يقرأ لهم، وهكذا بدأ صوت جديد يتحدث بجرأة ويُهاجم المقدسات تحت اسم حرية البحث العلمي، والغض من قدر علماء الإسلام ومفاهيمهم، كذلك فقد طُرحت أفكار مسمومة حول الشريعة الإسلامية وإتهامها بالقصور، وعن تحديد النسل ومهاجمة مفهوم الإسلام في التناسل والتكاثر، وروَّج بعض العلماء لتحديد النسل كما روَّجوا للاشتراكية، واستشرت الدعوة إلىٰ رفع ولاية الرجل علىٰ المرأة، وطُرحت مفاهيم غاية في الجرأة مخالفة لمفاهيم الإسلام؛ بهدف تدمير الأسرة، وإثارة الخلاف بين الرجل والمرأة.

وحرص الكُتَّاب اليساريون المُسيطرون علىٰ الصحف والمسرح والفنون، علىٰ تعمد ربط القسوة الحاكمة بالعصور الإسلامية، مع التجاهل الكامل لعصور الفراعنة مثلاً؛ وذلك لإثارة الشبهات حول الحكم الإسلامي بصفة عامة، وتوالت القصص الجنسية، وكان «لإحسان عبد القدوس» القدح المُعلىٰ في ذلك، وكان التركيز علىٰ تبرير الخيانة الزوجية، وسلامة وشرعية الاغتصاب.

ومن ذلك قولهم: (للزوجة جانبها الاجتماعي العام وهذا تخصصه للزوج، وجانبها الفردي الخاص وهذا تتصرف فيه كيف تشاء)، وكانت هذه القصص تُزين وجود خليل للزوجة، وخليلة للزوج تستمر مع بقاء الحياة الزوجية العفنة، ومن المسرحيات التي نُقلت من الفكر الغربي والماركسي مسرحيات ترمي إلىٰ التنديد والسخرية بالأديان السماوية (بريخت وغيره)، والحكم عليها بالفشل في حل مشاكل الإنسان، وكانت هذه المسرحيات تُختار بدقة؛ لتُوجَّه إلىٰ غرض واضح كالسخرية بآيات الله وبالكتب

المقدسة وبرجل الدين، وقدمت أفلام كاملة للسخرية من عَالِم الدين والاستهزاء بآرائه وعمامته، واستشرىٰ هذا في الصحف؛ فعُني الكاريكاتير والفكاهات بالتركيز علىٰ عَالِم الإسلام وحده دون رجال الدين الآخرين.

وتوسَّعت الجهات المختصة في عرض المسرحيات والمسلسلات التي تُركز علىٰ الجنس والجريمة، مما خلق في نفوس الشباب والشابات إحساسًا عميقًا بشرعية هذه الأوضاع، وبما وصفه البعض بأنه يُشكل خطرًا شديدًا علىٰ سلامة بناتنا، وقد كان من العجيب أن تُعرض أفلام تُصور الشذوذ الجنسي في حياة أبطالها، أو أن يُقدَّم رجل الأزهر بملابسه الإسلامية في مواقف جنسية فاضحة، ولم يُكتف بهذا بل وُضعت لوحات واضحة في أماكن تجمع الشباب كالجامعات للدعوة لدخول هذه الأفلام.

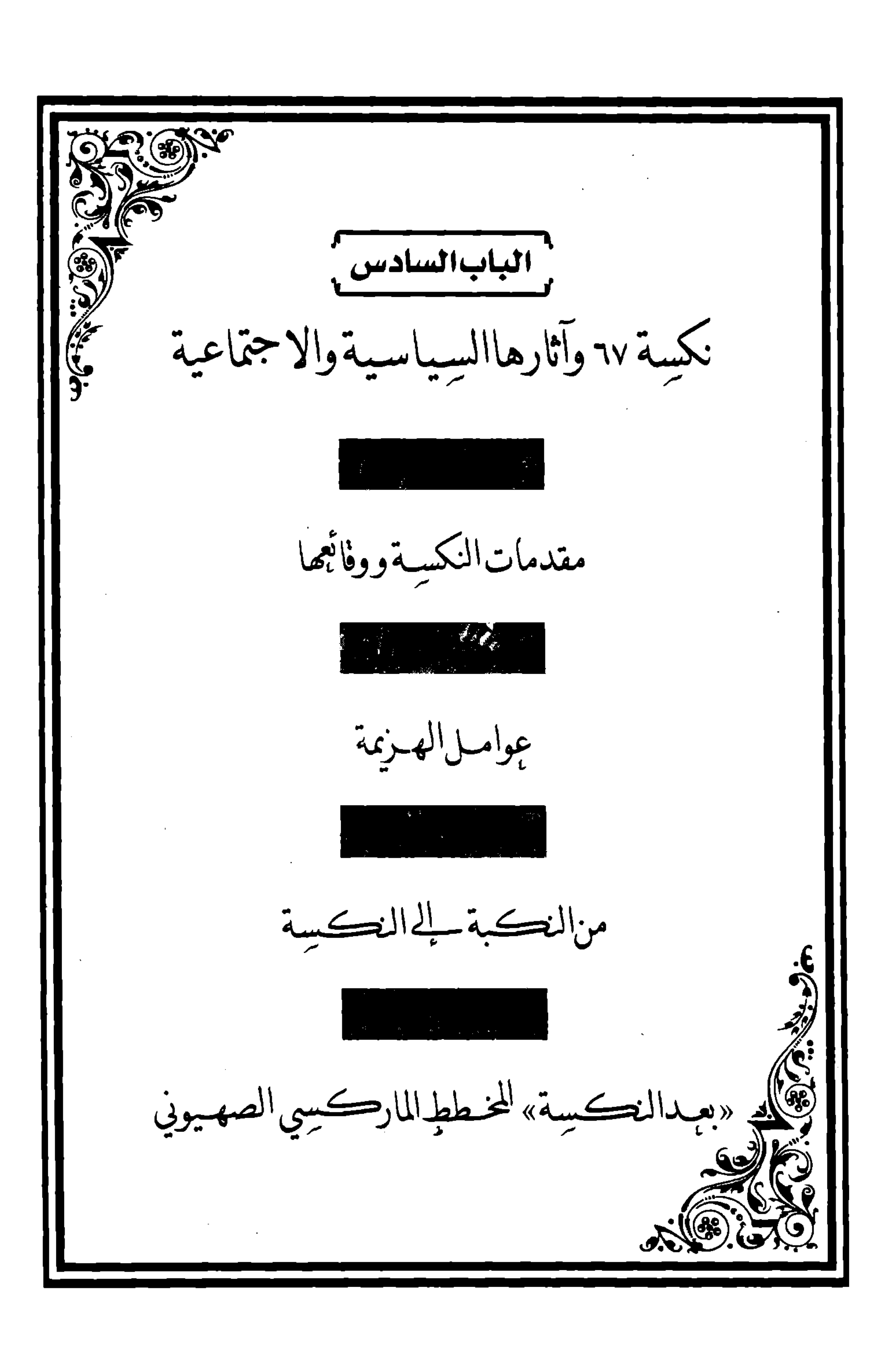
وتناول الماركسيون تاريخ الإسلام في حلقات متعددة في المجلات والصحف؛ بقصد الغض من شأن عصر النبوة والخلفاء الراشدين طبقًا للتفسير الماركسي والمنهج المادي التاريخي، وجعل الصراع يدور في هذه المرحلة بين ما أسموه اليمين واليسار، فأبو بكر عندهم يميل إلىٰ اليمين وعمر إلىٰ اليسار، ومحاولة اتهام أبي ذر الغفاري بالماركسية، (أول اشتراكي في الإسلام)، وإعادة تقييم الصحابة لا علىٰ أساس المقياس الإسلامي (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، ولكن علىٰ أساس فلسفة الصراع بين طبقة الأغنياء والفقراء.

وجاءت مسرحية «الحلاج» ومسرحية «الحسين»، لتقدم مفاهيم زائفة ومخالفة لحقائق التاريخ الإسلامي، وكذلك السخرية من الملائكة، وعرضها في صورة ساخرة، وتناول كثيرون مقدسات الدين بالهجوم الصريح، كالموت والقدر في معرض شعرهم، أو تعليقاتهم علىٰ الأحداث، وقد تداولت الأقلام المادية عبارات مثل القدر الغشوم، وضحكات القدر.

أما الكاريكاتير، فقد أشبع القيم الإسلامية تهكمًا وسخرية، وامتدت سخريته إلىٰ خلق العالم، وحساب الملائكة، والحياة الأخرىٰ، ورسمت صور للعمامة وتحتها قرد قميء يحاول أن يلبسها.

وفي الإجابة علىٰ تساؤلات القرَّاء قُدمت فتاوىٰ غاية في الانحراف، كمن ينصح باللجوء إلىٰ الزواج العرفي توقيًا لحكم القانون، أو مهاجمة رقابة الآباء علىٰ بناتهم وحرمانهم من الحب، والدعوة إلىٰ خلوة الفتاة بخطيبها، والدعوة إلىٰ الاختلاط وعدم الفصل بين تعلم البنات والبنين، والدعوة إلىٰ تعميم الاختلاط بين الجنسين في جميع مراحل التعليم، والدعوة إلىٰ تبرير وإثارة الإعجاب بالعلاقة بين «سارتر» و«سيمون»، وهي علاقة إباحية، لا تقوم علىٰ الزواج المشروع ووصْفِها بأنها علاقة فريدة، والقول بأنها أغنت الحياة الأدبية والعاطفية للعصر كله، وهي من عوامل الثورة الاشتراكية.





الباب السادس

نكسة ٦٧ وآثارها السياسية والاجتماعية

مقدمات النكسة ووقائعها

عوامل الهزيمة

من النكبة إلى النكسة

«بعد النكسة» المخطط الماركسي الصهيوني

الفصل الأول

مقدمات النكسة

في عام ١٩٦٧م وقعت النكسة، فكانت حصيلة حقيقية للتَّحول الخطير الذي وقع للبلاد منذ خمسة عشر عامًا كاملة، سارت فيها الأمة سيرًا خطيرًا نحو الغاية التي رُسمت لها، والتي حقَّقت غايتها تمامًا؛ من حيث إنها باعدت بينها وبين قيمها الحقيقية ومنهجها الأصيل، الذي كانت قد مضت علىٰ طريقه، مخترقة السدود التي وضعها الاستعمار خلال سبعة عقود، وبعد أن كادت تُوفي علىٰ الغاية، وتُحقق مطمحًا إسلاميًا غاليًا، وهو العودة إلىٰ منهج الله، إذا بالسفينة تتجه وجهة أخرىٰ معارضة تمامًا للغاية والهدف، وتُوغل في الولاء والتبعية للفكر الغربي، ثم تزداد انحرافًا، فإذا بها تقع في دائرة الاحتواء الشيوعي الماركسي الذي سار بها إلىٰ أبعد الغايات ظلامًا وانحرافًا، فأوفىٰ بها علىٰ الهزيمة الساحقة في مواجهة العدو الحقيقي الذي تحولت من مواجهته إلىٰ مهادنته، حتىٰ إذا حانت الساعة اهتبلها وضرب ضربته.

ولم تكن نكسة ١٩٦٧م هي الضربة الأولىٰ، ولكنها كانت الضربة الثانية القاتلة، أما الضربة الأولىٰ فكانت عام ١٩٥٦م حين تحالفت فرنسا وإنجلترا وإسرائيل علىٰ غزو بحري خطير استهدف منطقة قناة السويس، وهي معركة هُزمت فيها مصر، ولكنَّ المخططين صوَّروا الأمر علىٰ عكس ذلك، وكتبوا في كتب التاريخ المقرَّرة علىٰ المدارس أنها كانت انتصارًا، بل إن بعض المراقبين السياسيين اعتبر أن ما سُمي «النصر» الذي حققناه عام ١٩٥٦م، كان أشهر عملية تزوير في التاريخ، فلأن تظل أمة عشر سنوات تجهل أنها هُزمت هزيمة فادحة، وتظل معتقدة أنها انتصرت، وأن احتلال

اليهود لسيناء كان عبقرية سياسية من جانبنا؛ إذ أُمرنا بالانسحاب البارع والإفلات من الكمَّاشة، فهذا يُعد من قبيل التغرير بأمة كاملة، وإخفاء الحقيقة عن الجماهير.

ومن هنا ظهر ما أُطلق عليه «أُكذوبة الانتصار عام ١٩٥٦م»، فقد كذبنا علىٰ أنفسنا، وصدرت الكتب المدرسية تُحاول أن ترسم هذه الصورة، ثم كانت الوحدة مع سوريا التي لم تستمر طويلاً، ووقع الانفصال ١٩٦١م، وهذا الانفصال الذي حطَّم أعظم أحلام الحالمين، وقضىٰ علىٰ أكبر إمكانية أُتيحت لمواجهة إسرائيل، وقد توالت الانقلابات العسكرية التي دمرت كل أسس الدفاع الوطني، وقِيل إن الجيوش العربية جيوش احتلال تُمارس الحكم، وتستغل موارد البلاد لحسابها الخاص، وهي أبعد ما يكون عن متطلبات القتال.

وبعد الهزيمة (٥ يونيو) حرصت المصادر الإسرائيلية علىٰ ترويج زعم أن روسيا قدَّمت للعرب السلاح الذي يكفل فتح إسرائيل ولكنَّ الجيش لم يُقاتل، بينما الذي ظهر أن التسليح الروسي كان دفاعيًا لا يتجاوز قوىٰ إسرائيل، وكان الغرب يمنحها ضعف ما كانت روسيا تُعطي العرب.

ومن العجيب أن الجيش هُزم في ١٩٦٧م بنفس الخطط التي هُزم بها في ١٩٥٦م، وأن الجميع كانوا يعرفون موعد ضربة إسرائيل (٥ يونيو)، ولكنَّ صداقة مصر للدول الشيوعية حالت دون البدء بالقتال، وقِيل إن السفير السوفيتي أيقظ عبد الناصر في فجر يوم ٢٧ مايو ليطلب منع الهجوم الذي كان محددًا له ٢٨ مايو، وفتح خليج العقبة لأول مرة بعد أن ظلَّ ثماني سنوات مغلقًا في وجه الملاحة الإسرائيلية بمعاهدة سرية، ثم جرت محاولة إغلاق خليج العقبة عام ١٩٦٧م.

ويقول المُعلق: لقد عادينا تركيا من أجل «مكاريوس»، وعادينا باكستان من أجل «نهرو»، وحاربنا إيران، وصمتنا عن صوت الإجماع ضد أي عنف أو اضطهاد يقع علىٰ

المسلمين، تركنا الأغلبية المسلمة في أثيوبيا، وتنكرنا لثورة إريتيريا.

كذلك، فقد جاءت الهزيمة في ١٩٦٧م بعد جولة من الهزائم والتخبطات التي ترتبت علىٰ انتهاء الوحدة العربية السورية؛ فقد بدأت بعدها بعام واحد مأساة اليمن، وهي مأساة أليمة مدمرة هزتنا هزة عنيفة من الأعماق، وكانت أشبه بحريق هائل أكل اليابس والأخضر أشعله طفل وهو يلهو بعود ثقاب، يقول «وجيه أبو ذكري» في كتابه (الزهور تُدفن في اليمن): كان الضابط يعيش في المعركة منذ تحركت طلائعها في سبتمبر عام ١٩٦٢م حتىٰ فصلها الختامي في عام ١٩٦٧م، وكان يرىٰ الوقائع رأي العين، ويُشاهد الأسرار الأليمة التي لا تُذاع علىٰ الناس، ويعلم الحقيقة في أمور تدفع إلىٰ الهاوية دفعًا، وكانت الزوجة في القاهرة ترىٰ الصورة المقلوبة لتلك المأساة، الصورة المزورة التي يتحدث بها المتحدثون في القاهرة، ويرددها الجالسون في المقاهي والسائرون في الشوارع، عشرون ألف شابٍ من الشباب النضر دُفنوا في اليمن، ومازالت عظامهم متناثرة في رمالها، لم تجمعها مقبرة إلىٰ اليوم، وقد تركوا وراءهم عشرين ألفًا من الأمهات والأرامل والأبناء اليتامىٰ، وليس هذا هو مقدار الخسارة الباهظة التي حلَّت بنا، ولكنَّ هناك الخسائر التي دمرت اقتصادنا، وأنهكت قوانا، وبددت نظامنا، ومن هنا كانت الكارثة التي حلَّت بنا في سيناء عام ١٩٦٧م، وهي في الحق كارثة صُنعت في صنعاء قبل أن تقع في سيناء، هذه المأساة التي غامرنا فيها زهاء سبع سنوات، ولم تُعرف لها غاية.

وقد كشف الفريق صلاح الحديدي - مدير المخابرات الحربية السابق - (روز اليوسف ١٦/ ٥/ ١٩٨٠م) عن أن دخول مصر في مسألة اليمن قد جاء بعد أن وقع الانفصال السوري كرد اعتبار لمصر بعد أن كانت الوحدة مع سوريا تُمثل أعز أحلام عبد الناصر، وأنها كانت بمثابة ضربة سياسية مضادة للدول التي كان لها دور في فك الوحدة السورية، ورغبة في ازدياد النفوذ المصري في جنوب شبه الجزيرة العربية،

ومعنىٰ هذا أن التدخل في اليمن لم يكن من أجل هدف إقامة الوحدة العربية أو استعادة فلسطين، وإنما كان من أجل المطامح الشخصية، وهكذا كانت هزيمة ١٩٥٦م، وهزيمة الوحدة في سوريا، وهزيمة اليمن، مقدمة للهزيمة الشاملة في ١٩٦٧م، ولم تكن من أجل تحقيق هدف عربي أصيل، وإنما من أجل كبرياء واستعلاء الحاكم المستبد، وكان حقًا علىٰ الله أن يُزيل كل عمل غير خالص لوجهه.

وقال الفريق «صلاح الدين مرتجىٰ»: إن أي إنسان أعطاه الله سندًا من العقل كان يمكن أن يُقَدِّر أن مصر المتورطة في حرب اليمن، والتي أنهك هذا المسرح معظم قواتها المسلحة العاملة والأحسن تدريبًا وتنظيمًا، لا يمكنها أن تُخاطر بدخول حرب أخرىٰ أو صراع مسلح مع عدو يستعد لحرب جديدة مع الدول العربية؛ ليكسب أرضًا جديدة.

لقد كانت حرب اليمن بمثابة المسمار في نعش القوات المسلحة مزايا وعيوبًا، فبينما القوات المصرية مُتورطة في حرب اليمن، وزاد عدد القوات المصرية في اليمن عما هو مُتوقع، فإن مصر تندفع وتدخل حربًا جديدة في سيناء، وتضطر القوات المصرية إلىٰ المحاربة في ميدانها الرئيسي في سيناء بقوات احتياطية لم يسبق لها التدريب أو التهيؤ للقتال، واستمرت حرب اليمن حتىٰ قيام حرب يونيو ١٩٦٧م، وجاءت الطامة الكبرىٰ حين انزلقت القيادة بسهولة ووافقتها القيادة العسكرية إلىٰ مصيدة ١٩٦٧م، والتهمت الطُعم المدسوس لها لتفقد كل شيء؛ فالوقت لم يكن مناسبًا، واقتصادنا مُهلهل بعد معركة ١٩٥٦م، وحرب اليمن ١٩٦٣م، ولم يكن لمصر حُلفاء في الصراع الذي قادته ضد ما أسمته بالرجعية وتورطها في اليمن، ولم تكن تملك التفوق النوعي، وقد استجابت للخدعة الأمريكية الروسية، واستمعت لهما، وقررت عدم البدء بالضربة الأولىٰ، بينما إسرائيل كانت تُعد نفسها لهذه الخطة منذ أن انتهت معركة ١٩٥٦م، واعتبر «موشىٰ ديان» أن من أخطاء ناصر أنه لم يُقدِّر الأهمية الجدِّية للضربة الأولىٰ.

كان المصري بعد حرب يونيو يتوارىٰ عن الأنظار التي تُمزقه، والمهانة التي تُدمره؛ نتيجة انسحاب القوات المصرية، ورصاص الطائرات الإسرائيلية تصطادهم الواحد بعد الآخر، بعد أن تجعله يجري لعدة أميال يبحث عن ملجأ يقيه القذائف دون جدوىٰ.

لقد كانت المعركة العسكرية علامة من علامات الانهيار المعنوي لمجتمع غارق في الملذَّات، ويمضي قادته لياليهم علىٰ موائد خضراء أو حمراء، وكانت العملية العسكرية لا تحمل أي قدر من الإيمان بالله أو بالوطن أو بالكفاءة القتالية، وقد غرَّتهم كثرة الأسلحة وضخامتها، وظنوا أنها كافية، بينما الساعد الذي يحملها كان منهارًا، ولم يكن مؤمنًا بشيء حقيقي، ولم يُقدِّر العسكريون ما وصل إليهم من نُذر بشأن استعدادات إسرائيل، ولم يُقدِّروا الأهمية الحيوية للضربة الأولىٰ، ولم يكونوا قد درسوا علىٰ الأقل تجربة العدو معهم في حرب ١٩٥٦م، فقد أعاد العدو العملية بنفس الصورة، وهزم قوات الجيش المصري في الساعات الأولىٰ، وكان هناك استخفاف واضح بقوات العدو الذي ظل يستعد هذه السنوات الطويلة، ويترقب الفرصة ليضرب ضربته، بينما ذهب المسؤولون في مصر وراء المطامح والأهواء والزعامات، ويُكتشف أخطر ما هنالك، أن اتفاقية سرية أُبرمت مع إسرائيل تمر بها من المضايق وتستمر سبع سنوات دون علم البلاد بها، أما في الحرب نفسها فقد كانت معركة لم يرتفع فيها اسم الله مرة واحدة، ولم تُوزَّع فيها المصاحف علىٰ المحاربين، وإنما وُزِّعت صور أم كلثوم، ونشرت بعض مجلات الجيش هجومًا علىٰ الله (تبارك وتعالىٰ)، ووضعت الدين في مُتحف.

وقد تساءلت إحدىٰ الصحف (الأنباء): لماذا لم يوافق عبد الناصر علىٰ أن تكون مصر هي البادئة بالضربة الأولىٰ؟ فأجابت الصحيفة: لقد اتخذت الزعامة المصرية أخطر قرار، مما يعتبر العامل الأساسي في نكبة ١٩٦٧م، هذا القرار يُعتبر هدية ثمينة قدمتها مصر لإسرائيل، وساعدتها علىٰ تدمير القوات الجوية المصرية، ومن ثَمَّ هزيمة

القوات البرية.

ولقد كان دور الاتِّحاد السوفييتي خطيرًا في هذه النقطة بالذَّات، كذلك فقد أكَّد قادة المعركة أن هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧م كان سببها الأساسي الاتحاد السوفييتي، فقد كان تسليح القوات الجوية والدفاع الجوي قبل النكسة وبعدها بأسلحة وطائرات لا تُحقق واجبها في مواجهة العدو.

كما أنَّ السوفييت كانوا يُعطوننا طائرات لا يُغطي مداها الأهداف الحيوية للعدو، ومعنىٰ هذا هو إعطاء الميزة لإسرائيل أن تضرب أهدافنا الجوية، ونحن لا نستطيع أن نرد عليها؛ لأن مدىٰ الطائرات السوفييتية لا يصل إلىٰ مصانع إسرائيل وأهدافها الحيوية، وكان الاتحاد السوفييتي يضع العراقيل أمام خلق أجيال من الطيَّارين نواجه بها العدو، كما كان يتحكم في قطع غيارات الطائرات.

ويقول **«مدكور أبو العز»**: إن الاتحاد السوفييتي مسؤول عن هزيمة ٥ يونيو، وأنه كان يُريد استعمار مصر، وقال: إن السلاح الذي موَّلنا به الاتحاد السوفييتي حتىٰ عام ١٩٧١م، لم يكن سلاحًا مؤثرًا بالقدر الذي يُحقق تحرير الأرض، وقال: إن الأخبار التي وصلت عن طريق الاتحاد السوفييتي عن وجود حشود إسرائيلية علىٰ حدود سوريا غير صحيح، وأن المعلومات عن هذه الحشود لا تستند إلىٰ واقع، فلم تكن هناك حشود إسرائيلية علىٰ الإطلاق، علىٰ خلاف ما تعمَّد أن يُبلغنا به الاتحاد السوفييتي، كما كان هدف السوفييت إبعاد القيادات الوطنية من مواقعها في القوات المسلَّحة والسيطرة عليها، كما عمل الاتِّحاد السوفييتي علىٰ تحطيم اقتصاد مصر.

وقد تمت الهزيمة علىٰ صوت الأفلام الجنسية والمسرحيات المثيرة والإباحيات في الأغاني، وقد وُزِّعت علىٰ الجنود في الجبهة، وفي كل مكان علىٰ نحو مثير؛ رغبة في صرف الناس عن نتائج النكسة، وربط تسليح القوات المسلحة باقتصادنا القومي.

تُجمع مصادر كثيرة علىٰ أن الروس كانوا يعلمون بموعد الضربة الجوية الإسرائيلية التي حسمت نتيجة حرب يونيو منذ ساعة اندلاعها الأولىٰ، ورغم ذلك فإن الحكومة السوفييتية لم تُبلغ القاهرة، بل إن السفير طلب عدم البدء بالحرب؛ نتيجة الاتفاق الذي تم بين موسكو وواشنطن، أي إنّ موسكو لم تُخف موعد الضربة الإسرائيلية فقط، وإنما طلبت من مصر ضبط النفس ومنع أي ضربة من جانبها، فالاتحاد السوفييتي (صديق مصر) علم بالهجوم، وتعمد كتمانه وعدم إحاطة مصر بشيء منه، فقد كان يُريد لحرب (٥ يونيو) أن تبدأ وتنتهي كما خطَّطت إسرائيل بالضبط. وكان الاتحاد السوفييتي يُريد الهزيمة لمصر والنصر لإسرائيل، وتصورت الحكومة السوفييتية أن مصر لن تدور في فلك الشيوعية العالمية ما دامت لديها قوات مسلحة ضخمة، وكبرياء تاريخي مستمر، فإذا شنَّت إسرائيل حربًا فإن كبرياء مصر يتبدد وحكومتها تسقط، وكان الاتحاد السوفييتي يُخطط لالتهام مصر بواسطة أعوانه من المصريين الذين باعوا بلادهم للفوز بالسلطة (إبراهيم سعدة: الروس قادمون).

كذلك، فإن الروس طلبوا من مصر عدة مرات التفاوض مع إسرائيل، ومنعوا السلاح عن مصر؛ لإجبارها علىٰ التسليم لإسرائيل، وفي عام ١٩٦٧م رفضت أن تُعطي مصر أسلحة هجومية، وأزكت الخلاف بين العرب، هذا هو ما كان من الدول التي حالفها عبد الناصر، ومكَّن لها في الشرق الأوسط، وروَّج لمبادئها بعد هزيمة يونيو ومن قبلها، وقد استمرت علاقته مع الروس بعد الهزيمة مما يُؤكد أنه كان يهدف إلىٰ جعل مصر شيوعية، وأن يزول عنها الإسلام. قال حسين الشافعي: إن هزيمة ١٩٦٧م خيانة.

ونتيجة الانفتاح علىٰ السوفييت تغلغل النفوذ السوفييتي في المنطقة إلىٰ البحر الأبيض وإلىٰ البحر الأحمر والمحيط الهندي عن طريق عبد الناصر، لقد ثبَّت عبدالناصر أقدامهم في مصر، فاتخذوا منها نقطة وثوب علىٰ أجزاء كثيرة، أما مساعدة روسيا الحربية فقد كانت مشروطة بعدم المساس بالكيان الصُهيوني، وقبول هجرة

اليهود إلىٰ إسرائيل، وبفرض الوصاية السوفييتية علىٰ الدول العربية، والأسلحة دفاعية لا هجومية من بقايا مخزون الحرب العالمية الثانية، وكان توريد الأسلحة وقطع الغيار معلَّقًا علىٰ سلوك الحكومات تجاه المد الشيوعي في مصر وفي المنطقة، ودعم وسائل الإعلام للشيوعية في مصر.



الفصل الثاني

عوامل الهزيمة

تعدَّدت عوامل الهزيمة التي أطبقت علىٰ الأمة من كل ناحية، ففرضت عليها هذا المصير الكئيب، وهي جميعها تتلخص في أمر واحد في تقديرنا، هو خروجنا عن طريق الأصالة الإسلامي، ومنهج الإسلام في بناء المجتمعات، ومواجهة الأخطار، والاستسلام للاحتواء الأجنبي المتكاتف، الذي طوَّق وجودها من نواحيها الثلاث: غربية وماركسية وصهيونية، وتغريبها وإبعادها عن ذاتيتها الأصيلة، ومنعها عن الاستهداء بتراثها وتاريخها ومقاييس فكرها التي كانت دائمًا مصدر انتصارها كلما ادلهمَّت الأحداث، لقد فرض عليها طريق غير طريقها، فلما أرادت تصحيح مسارها، جاءت الطامة الكبرىٰ التي أدخلتها في جوف الظلمات الكثيفة.

ولا ريب أن كل عوامل الهزيمة تعود أساسًا إلىٰ «التغريب» والغزو الثقافي الذي سار بها إلىٰ طريق الأيدلوجية الغربية الرأسمالية (١٨٩٧م - ١٩٥٢م)، ثم إلىٰ طريق الأيدلوجية الماركسية الشيوعية بعد ذلك، حتىٰ كان عام ١٩٦٧م الذي يُعتبر حدًا فاصلاً في تاريخها الحديث كله.

«إنَّ حجم الصدمة التي أحدثتها هزيمة يونيو ١٩٦٧م أكبر مما يتصوره الكثيرون، فقد كانت بمثابة إعلان عن عجز وإفلاس ما كان مطروحًا في الساحة من شعارات ومُثُل، ودعوة صريحة إلىٰ البحث عن بديل لها، وكان الإسلام هو البديل القريب إلىٰ العقول والقلوب، لقد أصبح المسرح مهيئًا بعد الهزيمة للتَّحرك في الطريق الإسلامي، فقد رُفعت رايات المصحف في أرجاء العالم الإسلامي؛ إذ بدأت خلال السنوات التي

أعقبت الهزيمة أن تأخذ الموجة الإسلامية طريقها، فتنتشر وتمتد وتجد لها مزيدًا من الأنصار، وتُثبت حقيقة واقعة هي أنها الطريق الصحيح.

لقد أثبتت تجربة الاشتراكية أنها ليست أقل من التجربة الغربية فسادًا وفشلاً؛ فقد ظلَّت اشتراكية الفقر ـ كما سموها ـ تنخر العظام وتُحطِّم كرامة الشيوخ والعاجزين، وتسد أبواب الرزق، إلا بالنسبة للصفوة المختارة من أهل الثقة، وكان الحزب الواحد والرأي الواحد والقرار من الواحد فقط، وكانت الصحافة تخضع لرقابة قاتلة، وكان رؤساء تحرير الصحف يُعيَّنون بجرة قلم، وكانت الأرض محتلة، وكان البترول المصري علىٰ الأرض المحتلة منهوبًا، وكانت كل الأصوات الجوفاء في كل أرض العرب تهتف بالخطب الرنانة.

أولاً: إنَّ السبب الأول لهزيمة الدول العربية أمام إسرائيل ١٩٦٧م يرجع إلىٰ نظام الإرهاب والاستبداد الذي كان يحكم هذه الدول، خاصة في مصر التي ارتكب نظامها أبشع الجرائم ضد الدعوة الإسلامية عامي ١٩٥٤م و١٩٦٥م.

فقد قامت الدولة قبل يونيو ١٩٦٧م بتصفية الدعوات الإسلامية، فبطشت بكل من له أدنىٰ علاقة ظاهرة بالإسلام، وكان من نتيجة ذلك أن ضعف روح الفداء والتضحية في نفوس الشعب، ودخل الجيش وهو خاوي القلب من إيمان بالله يَشد أزره، وقد تدخل السوفييت في توجيه الجيش وكانت لهم الكلمة العليا، فكان لابد أن يُحطِّموا معنويات الجيش وعقيدته؛ تحقيقًا لأهدافهم الإلحادية، وحالوا بين الجيش المصري وبين توجيه الضربة الأولىٰ، وطالبوا عبد الناصر بضبط النفس؛ فاستجاب لهم وكانت الضربة الأولىٰ من نصيب إسرائيل.

وكان أعداء الإسلام قد دفعوا عبد الناصر إلىٰ الدخول ثم المُضي في حرب اليمن، فأرسلت كل العناصر المُدرَّبة من الجيش إلىٰ اليمن، وأنفقت الملايين – التي أفقرت

مصر - في صحاري اليمن وجباله، لا لهدف إلا ليحارب المسلمُ المسلمَ، ويقتل المسلمُ المسلمَ؛ ليحقق الإلحاد تخطيطه، ويصل إلىٰ ما يهواه، وكانت الكارثة.

ثانيًا: نشطت وسائل الإعلام بكافة أجهزتها في محاربة العقيدة، وإفساد نفوس الشباب وإشاعة التحلل والانحراف بين صفوفهم؛ حتىٰ أصبح شبابًا ضائعًا لا يُفكر إلا في نفسه، ولو ضُحِّي بالمسلمين في كافة بقاع الأرض، ومن هؤلاء كان جنود في الجيش، فأعطوا العالم الصورة المُخزية عن الجندي المصري، وهو المعروف ببسالته وإقدامه في جميع معارك التاريخ، فكان قدر الجيش الهزيمة في يونيو؛ لأنه اتَّجه إلىٰ القتال غير مُسلَّح بروح الإيمان، فكان لقمة سائغة للعدو، تناولوها من غير حرب من الجو والبحر والبر، فكانت الكارثة؛ لقد وُضع الجيش في سيناء بلا خطة ولا قيادة، وما أفدح جريمة الرئيس الأعلىٰ للقوات المسلحة يوم أن وضع عشرات الألوف من المصريين في مواجهة العدو بلا خطة، وبلا إعداد، وبقلوب خاوية، وبلا قيادة، ومن ثَمَّ فلن تكون الكارثة فيها غرابة.

وكانت المراكز الثقافية الشيوعية قد ظلَّت تبذر بذور الفساد والإلحاد والشر في ربوع البلاد، وجنَّدت العملاء والخونة، وحاولت تهيئة المناخ لنشر الماركسية بين الطلبة في الجامعات، وبين العمال في مصانعهم، وكان علىٰ رأس هؤلاء العمال مراكز القوىٰ الذين باعوا أوطانهم، وهي سياسة تهدف إلىٰ القضاء علىٰ الإسلام، وصبغ مصر بالصبغة الشيوعية.

ثالثًا: إخفاء الحقائق وتزوير الوقائع:

حرصت وسائل الإعلام علىٰ الإلحاح في أن الهزيمة والنصر ليسا نتاج العقيدة واليقين، ولكنها نتيجة العلم والتكنولوجيا، وقد سخرت وسائل الإعلام من الشعب وقت القتال؛ لتردد علىٰ آذان الشعب أكاذيب تزعم فيها أن المئات من طائرات العدو

قد أُسقطت، وأن قواتنا تتغلغل نحو تل أبيب، وأُعلن أن بقاء جمال عبد الناصر هو أعظم انتصار، وأن ما ضاع من عقار، وما أُغتصب من أرض، وما قُتل من جند، فشيء لا قيمة له.

رابعًا: إن هزيمة يونيو كشفت للعرب والمسلمين أنهم كانوا يسيرون في طريق خاطئ منذ مئة عام على الأقل، حين أدخلوا على مفاهيمهم الإسلامية الأصيلة مفاهيم وافدة وزائفة في تقدير الأمور تقديرًا ماديًا، والإغضاء عن الجانب الروحي، والانسحاب من مفاهيم الإيمان والجهاد والمرابطة في الثغور، إلى التراخي والترف والتحلل والأمن الكاذب بعد جلاء القوات الأجنبية عن بلادهم ونيلهم للاستقلال، وقبول النظم الغربية في السياسة والاقتصاد والاجتماع، وتجافي الشريعة الإسلامية والتربية القرآنية، وقبول مناهج الغرب، ثم قبول مناهج الماركسية في بناء المجتمعات وإقامة النظم الاقتصادية، ولقد كشفت النكسة عن أمرين خطيرين:

١ - أن التجربتين الرأسمالية الغربية، والماركسية الشيوعية فشلتا ولا تصلحان للبلاد الإسلامية، وأن الكيان الإسلامي رفض الجسم الغريب.

٢ - لم يُهزم العرب ولا المسلمون، وإنما هُزم التخطيط العسكري والسياسي؛ ذلك أن الإسلام لم يكن موجودًا حتى تُنسب إليه الهزيمة، بل كان قد أُبعد تمامًا وحُوصر تمامًا، ولو كان موجودًا لما وقعت الهزيمة، والاتِّهام الذي يُوجَّه الآن إلى الإسلام باطل، والقول بأنه مصدر الهزيمة قول زائف.

خامسًا: تبيَّن أن هدف العدو هو تحويل الإنسان العربي إلى إنسان مقهور، إلى عبد، فالهدف هو الفقدان التام للثقة في النفس، ومحاولة قتل الروح الإسلامية في الإنسان العربي، لقد كانت الخطة الموضوعة تُصر على أن مصر لن تقوم من سقطتها إلا إذا تخلَّت عن عقائدها وحطَّمت تقاليدها، وداست على تاريخها، وتنكَّرت لإيمانها،

لقد خطَّطوا لفرض المفهوم الغربي للفكرة القومية، والمفهوم الماركسي للفكرة الاجتماعية.

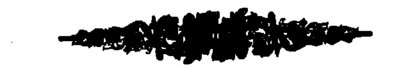
سادسًا: حصر قضية فلسطين في العرب وحدهم، وعزلها عن مُسلمي العالم، وقبول الوسائل السياسية الغربية في حلها، وإنكار أسلوب الجهاد الذي هو المنطلق الحقيقي لدحر العدو واستعادة الأرض، لقد كان العدوان الإسرائيلي غزوًا للقيم المادية والحضارية الأصيلة في المنطقة.

سابعًا: كان التَّحول أو البعد عن مفاهيم الإسلام الاجتماعية في بناء الأمة والحضارة عاملاً هامًا في الهزيمة، ويتمثل في انحراف العقيدة، وفساد العبادة، وهجر القرآن، واتِّخاذ أُسوة من بطولات الأمم، وتجميد الشريعة، والتحلُّل من مفهوم الأخلاق الإسلامي، واتِّخاذ أساليب للتربية غير إسلامية.

ثامنًا: إن الهزيمة في ١٩٦٧م لم تكن هزيمة عسكرية، ولكنَّها هزيمة نفسية تربوية فكرية شملت الأمة جميعًا، وطبعت الجيل بأكمله، لقد انهزمت الأمة في قيمها أولاً، فعكست آثارها علىٰ الهزيمة العسكرية التي هي مظهر من مظاهر هزيمة حقيقية تشكلت في داخلنا، وسيطرت علىٰ ميادين العقل والقلب والنفس قبل أن تظهر آثارها ومفعولها في ميادين الحرب والصناعة والاقتصاد. لقد انهزم الذين حملوا اسم الإسلام دون أن يُطبِّقوه سلوكًا في واقع حياتهم، أو نظامًا في أساليب حكمهم. هل كنا متمسكين بالإسلام حين هزمَنا الغربُ؟، لقد باعد الغرب بيننا وبين الإسلام حتىٰ لا نصطنع الوسائل في مقاومته، وجعلنا نُحاكم بمناهجه ونُحاربه بأسلحته، ولو كنا متمسكين بالإسلام ما هزمنا الغرب، لقد كنا في إطار الإسلام مسلمين اسمًا وليس نظامًا، أو منهجًا مُطبقًا.

تاسعًا: ليست هزيمة ١٩٦٧م إلا نتيجة لهزيمة ١٩٤٨م وامتداد لها، فإن العرب

لم يستطيعوا طوال هذه السنوات أن يخرجوا من دائرة الاحتواء الغربي، وعندما همَّوا بذلك وتبينوا أن طريق الغرب لا يُؤدي لنجاح، وأن طريق الإسلام هو الطريق الصحيح، هُزمت الدعوة الإسلامية، وسُلِّط عليها وأُبيدت؛ حتىٰ تمضي خطة النفوذ الغربي والاحتواء والتغريب، وأصبح المسلمون يتحركون من داخل دائرة الاستعمار، ويُفكرون بفكره، ويعيشون بمقاييسه، ولن يستطيع المسلمون والعرب تحقيق غايتهم إلا إذا حطَّموا هذه الدائرة الصمَّاء المظلمة المغلقة، والتمسوا مفهومهم الأصيل.



الفصل الثالث

من النكبة إلى النكسة

لا يمكن دراسة نكسة ١٩٦٧م إلا بربطها بنكبة ١٩٤٨م؛ فقد كانت هذه بداية المخطط الذي انتهىٰ بسقوط القدس ١٩٦٧م، وقيام هذا الوجود الدخيل علىٰ أرض الإسلام وفي قلب العالم الإسلامي، وعلىٰ مرمىٰ المدفعية من بيت الله الحرام، وهو الثمرة الحقيقية للغزو الاستعماري والتغريبي، هذا الغزو الذي بدأ باحتلال القوات الأوروبية للعالم الإسلامي، منذ أن اجتيحت الهند وأرخبيل الملايو والجزائر ومصر، وبدأت مؤامرات الدونمة علىٰ الدولة العثمانية، وقيام كيان خاص في لبنان ثم سقوط الخلافة، وعلىٰ الرغم من كل الإرهاصات التي سبقت الهجرة اليهودية إلىٰ فلسطين، فقد سار العالم الإسلامي في الإطار الذي رسمته له القوىٰ المستعمرة والمحتلة والوافدة، والتي سيطرت عليه سيطرة كاملة؛ حيث هزمت شريعته الإسلامية، وأحلَّت محلَّها القانون الوضعي وكيانه الاقتصادي؛ ففرضت عليه المصرف الربوي، وحطَّمت نظامه التربوي، وأقامت النظام العلماني للتعليم، ثم دفعته إلىٰ القوميات والإقليميات، ثم الاشتراكية كبديل عن نظامه الإسلامي الأصيل، ومن ثَمَّ خرجت تلك القيادات المُغرَّبة المفرغة من الإسلام، المُدافعة عن وجود هذا القَذَرْ لأنه وجودها.

وعلىٰ الرغم من قيام حركة اليقظة الإسلامية في مختلف أجزاء العالم الإسلامي، فإنها كانت دائمًا تُواجَه بالضربات الساحقة، وتُحاصَر حتىٰ لا تستطيع أن تُحقِّق أي خطوة في ميدان العمل الحقيقي؛ لتغيير مواصفات المجتمع الإسلامي، ودفعه إلىٰ الطريق الصحيح.

لقد حاول النفوذ الأجنبي وضعنا في دائرة الاحتواء والتذويب والقضاء علىٰ الذاتية بمناهجه الإقليمية والقومية والاشتراكية، ولكنَّ الجسم الإسلامي ظلَّ يرفض الوافد الغريب، وظلَّ قادرًا علىٰ الرفض والمعارضة، ولم يستسلم للانصهار، وذابت دعوات الفرعونية والفينيقية، وعجزت المحاولات الإقليمية والقومية، ولم تنجح الشيوعية كما لم تنجح الديمقراطية الغربية، وكان واضحًا أن الكيان الإسلامي علىٰ الرغم من عدم قدرته علىٰ امتلاك الإرادة، فما زال قادرًا علىٰ الرفض للانصهار في القوالب التي فُرضت عليه، واستطاعت شخصيته الإسلامية الأصيلة أن تُبرز ذاتيتها في مواجهة ما طرحه الاستشراق والتبشير والشعوبية، وتكشف زيفه، وتقف منه موقف المعارضة علىٰ النحو الذي وقفته في القرن الثالث الهجري من الفلسفات اليونانية، والفارسية، والهندية، والمجوسية.

لقد قبلت الشخصية الإسلامية الحضارة المادية، ولكنَّها لم تقبل نظمها الغربية؛ فقد فرَّقت بين استعمال الأدوات الحضارية المادية، وبين الانتفاع بالتنظيمات والأساليب الغربية في ميادين العمل، ولكنَّها رفضت الأنظمة، ورفضت أسلوب العيش الغربي، وعارضت مفهوم التقدم المادي والعصرية المنفصلة عن الالتزام الأخلاقي، وتمسكت بأصالة ذاتيتها وطابعها الخاص، وعرفت أنه هو الذي يستطيع أن يحميها من الذوبان والفناء، واستمدت دائمًا مفهومها في الحضارة والمجتمع من مفاهيم الإسلام الجامع بين الروح والمادة، والقلب والعقل، والدنيا والآخرة، وعرفت أن الإسلام يستطيع أن يُعطيها منهجًا متكاملاً جامعًا، واسع الأُطر، مرن الحركة، يقوم علىٰ أساس الثوابت الأساسية، وعلىٰ أساس حركة المُتغيرات في داخلها، دون أن تفنىٰ في التطور المُطلق أو النسبية الحادة، ودون أن تخضع للجبرية.

وقد أعادتها النكسة إلىٰ البحث عن الحقيقة، وانكشفت لها كذب تلك المناهج الضالة التي كانت تدعوها إلىٰ اتِّخاذ أساليب الغرب لمجاراة الغرب، وعرفت أنها لابد

أن تستمد وسائل النصر من مقوماتها، وأن تُواجه أزماتها بمفاهيمها الأصيلة التي كانت دائمًا مصدر قوتها بالعودة إلىٰ المنابع.

«لقد تحفَّزت شخصيتنا الحضارية في مواجهة الخطر الدائم منذ غزو نابليون لمصر، ولقد صمدت أمتنا أمام محاولات الأوروبة، وأفشلتها بفضل شخصيتنا الحضارية التاريخية التي تغلب عناصر القوة والصحة والصلاح المعقود عليها، لقد كانت حيلولة شخصيتنا الحضارية التاريخية دون أوروبة أمتنا خطوة سلبية، يجب أن تعقبها خطوة إيجابية، بأن تُولِّد إنسانها الحضاري المتماسك المتميز، الذي يمكن أن يشق طريقًا حضاريًا جديدًا يُحرر به نفسه وأرضه، ثم ينطلق إلىٰ تحرير العالم، ولكنَّ الدول الأوروبية استكلبت لتَحول دون تحقيق هذه الخطوة الإيجابية، وصعَّدت المعركة وجعلتها أشد شراسة وأحمىٰ وطيسًا، وعدلت من هدفها، فبعد أن كانت مرحلة أوروبة المنطقة، أضحىٰ تفتيت شخصيتنا الحضارية التاريخية، أو تذويبها تذويبًا كاملاً؛ لأنها هي السياج الحاضر المانع من نجاح هذه الأوروبة. لقد بدأت الولايات المتحدة بناء نفوذها في منطقة الشرق الأوسط ١٩٦٤م؛ بهدف تطوير المنطقة اجتماعيًا، هذا التطوير الاجتماعي هو العنوان الدبلوماسي السياسي الداعم لعملية تفتيت شخصيتنا الحضارية، فبينما تعمل الدعوة الإسلامية علىٰ رعاية عناصر الصحة والقوة في شخصيتنا الحضارية التاريخية، نجد القوىٰ الغربية تسعىٰ إلىٰ تفتيت هذه الشخصية الحضارية؛ لتحول دون ولادة هذا الإنسان.

إنَّ شخصيتنا الحضارية التاريخية هي الرصيد الواقعي المُساعد للدعوة الإسلامية علىٰ مُواجهة القوىٰ الأوروبية، لقد كاد أن يتم المخاض طبيعيًا للإنسان المحرَّر؛ فتنتهي عذابات أمتنا، ولكنَّ الغرب وعملاءه ما زالا يحولان دون مثل هذه الولادة. إنَّ هدف الغرب علىٰ الصعيد الحضاري في هذه اللحظة التاريخية تفتيت شخصيتنا الحضارية التاريخية بمختلف الوسائل، ومن ضمنها الحل السياسي» (غازي الربيعي).

يقول مؤلف كتاب ما بعد النكبتين (نكبة ١٩٤٨م ونكبة ١٩٦٧م): «إنَّ النكبة في جوهرها هي نكبة الفكر العربي، نكبتنا بأفكارنا قبل نكبتنا بأرضنا، بل كانت هي المقدمة والسبب البعيد للنكبة في الأرض، النكبة هزيمة اتِّجاه (تاريخيًا)، وهزيمة خصائص (جوهريًا).

(نكبة ١٩٤٨م) هي هزيمة ما أسميناه الفكر الليبرالي الغربي، وإعلان صارخ بخطأ الاتجاه، ونكبة (١٩٦٧م) هي هزيمة ما يُسمىٰ بالفكر الماركسي، وهو إعلان آخر بخطأ الاتجاه، وإيذان بنهايته مهما حاول الثوريون، وكلاهما هزيمة لتيار التغريب في الفكر العربي، من تجارب وأخطاء استمرت أكثر من مئة سنة. إنَّ كلتا الهزيمتين لم تكونا هزيمة للفكر العربي، بل هزيمة للفكر الليبرالي والعلماني والاشتراكي. إنها ليست هزيمة شعب ولا جنس، بل هزيمة لهذا الفكر وقياداته السياسية، القيادات التي صنعت فكرها مناهج الغرب في التربية والتعلم، ومدارس الإرساليات.

الفكر العربي لم ينطلق من واقعه أو من ظروفه، ولم يعرف نفسه ولا أين يقف في تيار التاريخ، وإنما انطلق من التَّعلق بدافع آخر سواه، فكر ليس مع الفكر الإسلامي في ماضيه، رغم أنه استمرار تاريخي له، ولا هو مع الفكر الغربي الحديث، رغم أنه يتداول ألفاظه ومصطلحاته.

هزيمتنا هزيمة فكر؛ لأن أزمتنا أزمة فكر.

عجز هذا الفكر عن تحدِّي الفكر الغربي الحديث؛ لأنه عجز عن إدراك جوهر الأزمة، وعجز عن إدراك الشرط الموضوعي والشرط النفسي لتجاوزها، والنكبة هي التجسيد الواقعي لهذه الهزيمة، والوجود اليهودي في فلسطين هو تجسيد التحدِّي الغربي الحديث، ودليل علىٰ أنه لا يزال قائمًا، وإذا نظرنا إلىٰ التحدِّي ككل، أمكن أن تعتبر ظاهرة الثقافة الليبرالية العلمانية في مجموعها محاولة لإضعاف التحدِّي، لا ردًا

عليه.

إنَّ رد الفعل الطبيعي علىٰ التحدِّي كامن في تيار الدفاع الإسلامي، الذي أدَّىٰ مهمة إرجاع التوازن النفسي للمجتمع الإسلامي، وللمسلم المثقَّف.

لذلك فلابد أن نتحرَّر من الواقع، ونبدأ تشكيل الفكر علىٰ أساس مضامينه وأُسسه، ولابد من إسقاط الأخطار التي أدَّت إلىٰ النكبتين، وهناك مسؤولية مُفكري ما بين النكبتين؛ فالالتزام الخلقي هو الأساس للمواقف الفكرية، إنَّ الإسلام، والإسلام وحده كدين وحضارة، هو الشرط الوحيد لبقائنا واستمرارنا كأمة وثقافة في وجه التحدِّي الغربي السياسي والثقافي علىٰ السواء، إنَّ نكبة ١٩٤٨م أثبتت فشل الليبرالية الغربية، فلم تمضِ إلا سنوات قليلة حتىٰ انهارت معظم أنظمتها السياسية، ونكبة ١٩٦٧م تُسجل موقفها من الأنظمة والمفاهيم الماركسية.

لقد انهارت الأوضاع الديمقراطية الزائفة علىٰ أثر النكبة الأولىٰ؛ لأنها فقدت مُبررات وجودها، وانهارت معها الثقافة التي تحميها؛ وقد كان ذلك السقوط مقدمة لتغيير الأفكار، وقد نبَّهت النكبةُ الأولىٰ العرب إلىٰ الخطر الذي يُهدد وجودهم كشعب، وفتحت عيونهم علىٰ حتمية الوحدة، كذلك فإن النكبة الثانية نبَّهتهم إلىٰ الخطر الذي يُهدد استمرارهم التاريخي كثقافة، ويفتح عيونهم علىٰ حتمية الحل الإسلامي. لقد كان هذا الخطأ الجوهري هو الذي أخَّر حركة التقدم في نهضتنا العربية.

ونتساءل: ما الحقيقة التي تمخضت عنها النكبتان؟

الجواب: إنَّ الإسلام والإسلام وحده كدين وحضارة، هو الشرط الوحيد لبقائنا واستمرارنا كأمة وثقافة في وجه التحدي الغربي الحديث السياسي والثقافي منه علىٰ السواء.

هذه الحقيقة التي حاولنا قرنًا كاملاً ـ منذ مطلع القرن ١٩ـ تجاهلها أو إنكارها أو اللف والدوران حولها، قد ردنا التاريخ إليها مرتين من خلال مأساة فلسطين، المرة الأولىٰ في نكبة ١٩٤٨م، التي أثبتت فشل الليبرالية الغربية، وفي نفس الوقت نهايتها؛ بحيث لم تستمر إلا سنوات قليلة حتىٰ انهارت معظم أنظمتها السياسية، وقد رافقت فشلها خيبة أمل مريرة لدىٰ الليبراليين العرب في قيم الليبرالية الأوروبية، كذلك جاءت النكبة الثانية ١٩٦٧م؛ لتفجِّر أزمة ما يُسمىٰ بالاشتراكية العربية (رغم قصر عمرها)، ويشمل في الوقت نفسه نهايتها؛ بحيث لن يمضي وقت طويل حتىٰ تتهاوىٰ أنظمتها الثورية الواحد بعد الآخر، وقد رافقها أيضًا خيبة أمل لدىٰ الاشتراكيين العرب باستثناء الشيوعيين من قيم الاشتراكية الأوروبية، ولذا فإن التجربة المقبلة تجربة خطيرة؛ لأنها قد تدفعنا إلىٰ الماركسية السوفيتية، وهو ما يُريده الشيوعيون، أو تردنا إلىٰ الإسلام، وهو ما يُتوقع من كنانة الله.

إن النكبة الأولىٰ التي انهارت علىٰ أثرها الأوضاع الديمقراطية الزائفة؛ لأنها فقدت مُبررات وجودها، وانهارت معها الثقافة التي تحميها، لابد وأن تتكرر دورتها اليوم مع النظم الثورية واليسار العربي اللذين فقدا أيضًا مبررات وجودهما.

يقول الدكتور برهان الدجاني: في مجال نقد الذات أُريد أن نتساءل: من الذي هُزم في ٥ حزيران/ يونيو؟ أقول لكم بإخلاص وتجرد: إنَّ الذي هُزم هو نحن. في عام ١٩٤٨م، كان من السهل علينا أن نقول هي الأسلحة الفاسدة، البلاط الفاسد، كلوت باشا، الرجعية، هي كل شيء عدانا نحن، وكنا نتساءل: وكيف يصلح الحال؟ وكان الجواب في قرارة نفوسنا عندما نصل إلىٰ مراكز السلطة في المجتمع العربي، لقد كنَّا قبل ٥ حزيران/ يونيو في مراكز السلطة في المجتمع العربي، فمن إذن الذي هزمنا، ويجب أن نُقر بمسؤولية الهزيمة، يجب أن نُراجع أخطاءنا، يجب أن نسأل أنفسنا: لماذا هُزمنا؟ ولماذا هُزمت الأمة العربية رغم قيادتنا الفكرية؟

قال الشيوعيون: إنها كلمة مظلمة؛ لأن الإجابة عن السؤال تعني حسب المنطق الذي برَّر الثأر لنكبة ١٩٤٨م، الثأر لهذه النكبة أيضًا أي «حتمية التغيير»، وكان أول شعار رفعه شيوعيو مصر عقب النكبة هو «لا تغيير»، والإجابة تعني ثورة حقيقية علىٰ هذه القيادات الفرعونية المهزومة، الثورة مستمرة وسُميت النكبة (أحداث ٥ يونيو).

وتتابعت الكتابات لطرح الشعارات التي تهدف إلىٰ غاية واحدة، هي صياغة تفسير ماركسي بمصطلحات غامضة للنكبة، لا يصرف النظر عن السؤال المطروح فحسب، بل وللمساهمة إيجابيًا لتعميق المفاهيم الماركسية؛ لأن القصة الأساسية عندهم ليست هي قصة فلسطين، لهذا كله كرَّروا فكرة استمرار الثورة، وأن العالم العربي مهيأ لتحول جذري شديد نحو الشيوعية، وهو ماض في هذا التحول، وأن النكبة في نظرتهم الماركسية كانت ضرورية؛ حتىٰ يُعاد النظر في الأمور كلها إعادة شاملة، وأن القضية ليست قضية فلسطين، ولكن قضية الثورة الاشتراكية.

وهذه النظرة نظرة مسمومة تُحاول أن تُبقي علىٰ وجود مُنهار، هو الوجود الشيوعي الذي كان مُسيطرًا إذ ذاك، وكان لابد أن ينتهي.

إذًا؛ فإن الحل الحقيقي هو الحل الإسلامي، وأن كل مكابرة أمام حتمية هذا الحل لن تكون أكثر من عائق مؤقت قد يؤخر الحل مرة أخرىٰ، ولكنَّه لن يستطيع استبداله. فقد كان هذا الخطأ الجوهري هو الذي أخَّر حركة التقدم في نهضتنا الحديثة، بالمقارنة بنهضة اليابان الحديثة، لقد أُنهكت أمتنا، وأُهدرت طاقاتها، وشُتِّت قواها في محاولات إيجاد بديل عن الإسلام بأيدلوجيات أُخرىٰ، سواءً التمس من الفكر الليبرالي الأوروبي، أو الاشتراكي الماركسي.

وقد فرضت هذه المحاولات نفسها، إما في ظل النظام الاستعماري المسيطر وحمايته في طور الثورة الوطنية علىٰ الاستعمار، أو بقوة الإرهاب في النظم الثورية العسكرية.

وجاءت «النكبة» لتثبت علىٰ نحو قاطع، أن كل محاولة للتعويض هي محاولة للتأخير لا أكثر ولا أقل. لقد كشفت هذه النكبة الثانية للمسلمين جميعًا عن المضمون الإسلامي والأبعاد الإسلامية لقضية فلسطين؛ فأبطلت بذلك أُسطورة الانغلاق القومي والعلمانية معًا، وأثبتت بما لا يقبل الشك أن مصير المسلمين السياسي - مصير العالم الإسلامي - مرتبط بمصير العرب السياسي، وأن مصيرهم الثقافي مرتبط بمصير الثقافة الإسلامية، وأن مستقبلهم جميعًا كأمة ذات رسالة، وثقافة ذات أصالة مرتبط بمستقبل الإسلام. إنَّ وحدة العقيدة، ووحدة التاريخ، ووحدة دار الإسلام، وكذلك وحدة المشكلة، تفرض وحدة المصير، لقد كشفت النكبة الأولىٰ عن وحدة المصير العربي، وكشفت الثانية عن وحدة المصير الإسلامي. إنَّ وحدة المصير تفرض وحدة الهدف، ووحدة البرنامج، ووحدة العمل، وهذا يعني وحدة الحركة الإسلامية.

وليس معنىٰ سقوط التجربتين الليبرالية والماركسية في العالم الإسلامي، أننا سنغلق باب الحوار مع الغرب، أو أننا سنقطع الطريق أمام محاولة فهم علمي دقيق، وتقييم موضوعي صحيح لهاتين التجربتين الأوروبيتين الهامتين لمجتمع حضاري، نحن مقبلون عليه بالضرورة، بل تعني فشل (التقليد) في تجاوز (أزمة الحضارة الإسلامية)، وضرورة التركيب المبدع علىٰ الوعي التاريخي لقيم التراث، وعلىٰ إدراك علمي واقعي لمشكلة هذه الحضارة، التي تُشكِّل جوهر التحدِّي الحديث.

وعلينا أن نشق طريقنا لمستقبل نصنعه بأيدينا، ونصنعه نحن وحدنا، ونصنعه نحن وكلنا رائدنا إيمان أساسه المعرفة، وعمل أساسه العلم، ومسؤولية أساسها الوعي السياسي لواقع عصرنا، والالتزام الخلقي بمعاني إسلامنا.



الفصل الرابع

«بعد النكسة»
المخطط الماركسي الصهيوني

كان المخطط الذي تبنَّاه الماركسيون والعلمانيون وخصوم الإسلام بعد النكسة، هو إخراج الجيل الجديد من إطار الدين، والدعوة إلىٰ علمنة الذات العربية، وإقفال الأبواب جميعها أمام الأمل، وخلق جو من التشاؤم، وتدمير مشاعر الإيمان في القلوب، وسَوْق الأمة كلها إلىٰ الهزيمة النفسية، والقول بأن الطريق إلىٰ النصر إنما يكون بالتجرد من الماضي الإسلامي كله، والتماس منهج الغرب، كل هذا قيل تحت اسم الدولة العصرية، وقد بلغ الأمر غايته، حين قال قائلهم: إن علىٰ العرب أن يفهموا أن عليهم أن يختاروا بين إلغاء الوجود العربي التقليدي، وبين بقاء الاحتلال الصهيوني؛ فيدركوا أن إلغاء الأول هو شرط أساسي لإلغاء الثاني.

ولقد كُتب عن النكسة مؤلفات كثيرة تُحاول أن تردها إلىٰ القديم، إلىٰ التراث، إلىٰ الإسلام، وكانت الكلمة الجديدة هي «علمنة الثورة»، وكانت الحقيقة هو أن الهزيمة والنكبة والنكسة ترجع إلىٰ:

- الدعوة إلىٰ القوميات في عالم الإسلام.
- الدعوة إلىٰ الليبرالية في عالم الإسلام.
- الدعوة إلىٰ الماركسية في عالم الإسلام.

وإلىٰ فساد التجربة الغربية بشقيها، وأن الدخول في التيه منذ بدأت رحلة الأيدلوجيات، هو وحده الذي وصل بالمسلمين إلىٰ النكسة، وأن النكسة تعني في الحقيقة فساد تجربة الغرب والتجربة الماركسية معًا، فساد سببه نقل تجارب الآخرين، ولقد ظهر الإسلام في أعقاب الهزيمة، وهو صاحب الدَّور الطليعي، العودة إلىٰ الله كانت صيحة المهزومين، والحل الوحيد بعد أن جرَّب العرب والمسلمون كلا المنهجين الرأسمالي والماركسي، وفشل كلاهما، لقد كانت تحدِّيات النكسة الحقيقية هي إهمالنا مُقومات الإسلام في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع، وتصديق نصيحة التغريبيين في أنَّ اتِّخاذ أسلوب العيش الغربي هو الطريق الصحيح للنهضة والتحرر من النفوذ الغربي، وقد سارت أجيال في هذا الطريق لا تلوي علىٰ شيء، حتىٰ غابت معالم الإسلام في حياة المسلمين، وأصبحت معايشهم كلها معايش مادية غربية، فما كان لهم أن يجدوا الضوء الحقيقي الذي يُعطيه الإسلام لأصحابه في أوقات الأزمات والنكسات، لقد كان أمام المسلمين والعرب بعد النكسة إعادة النظر في كثير من أساليب الحياة لدينا، وأن نُعيد النظر في الوافد وفي التراث جميعًا علىٰ قاعدة إسلامية أساسية-هي الأصالة والعودة إلىٰ المنابع، وأن نؤمن بأن التقدم مادي ومعنوي معًا، وألا نُضحي بالقيم الأساسية في سبيل تحقيق التقدم المادي، وأن نجعل أول وأهم وأقوىٰ ما يُتمسك به هو المحافظة علىٰ الذاتية الإسلامية من أن تذوب في أُتون الإلحادية الغربية، أو تنصهر في الحضارة الوافدة، فإنها هي الهدف الأساسي من حملات الغرب والصهيونية والشيوعية.

وقد كانت النتيجة الحقيقية للنكسة، أن علت موجة الإيمان بالله والعودة إلىٰ الله، وأخذت تُظهر أشد قوة علىٰ الرغم من كل ما أُريد لها، ومن كل ما دُبر لها، وعلىٰ الرغم من الأخطار التي ظهرت بعد النكسة، والتي ترمي إلىٰ هدم القيم، وإشاعة روح اليأس

بين المسلمين، وبدلاً من أن يخرج المثقفون من إطار الدين، كما طمح الماركسيون والشعوبيون، فقد دخل المثقفون إلىٰ الدين بمفهومه الأصيل، منهج حياة ونظام مجتمع، وانهارت النظريات الثورية والماركسية والتقدمية بكل زيفها وضلالها.

إن هزيمة يونيو قد كشفت أننا كنا نسير في طريق خاطئ، هو طريق الغرب والأيدلوجيات، والتعليم المفرغ من الإيمان والإخلاص، وكان لابد أن تتحقق كل هذه النتائج؛ لاستمرار الاندفاع في هذا الطريق، ولا يُمكن أن يحدث تغيير إلا إذا غيَّر المسلمون أنفسهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

* * *

لقد كشف الباحثون المسلمون مجموعة من الحقائق، منها أن العدو منذ نكسة ١٩٤٨م إلىٰ نكسة ١٩٦٧م، تسعة عشر عامًا كاملة، قضاها العدو في الاستعداد لمعركة جديدة حاسمة للتوسع، فالدرس الأكبر هو أن الاستهانة بالعدو هي أول الطريق إلىٰ الفشل والضياع، وأن تجاهل الحقيقة، من حيث الوقوف في وجه العدو بالتهديد العسكري وبالأدوات والرجال هو مصدر الخطر، ولقد كان أبعد الناس عن الفشل هم المسلمون الذي أوصاهم دينهم وقرآنهم بأخذ الحذر والاستعداد (وأعدوا) والمصابرة والمرابطة في الثغور.

لقد كانت كل المحاولات تُريد أن تحجب هذه الحقيقة، حقيقة أن النصر بعد الهزيمة لا يأتي إلا من العودة إلىٰ المنابع والتماس الأصالة، أما الثورية والعلمية والتقدمية، فكل هذه سحب سوداء يُراد بها حجب وجه السماء.

لقد كانت النكسة وحدها هي التي أيقظت العرب من سباتهم؛ فنهضوا ليُعيدوا النظر في كل جزئيات حياتهم السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وإعادة

النظر في أنظمة الغرب، والدعوة إلىٰ تنقية الفكر العربي من التأثير الأمريكي والتأثير الاشتراكي، وتقييم إنتاجه الفكري والأدبي والفني علىٰ ضوء الإسلام، بعد أن فشلت الأيدلوجيات الاشتراكية والماركسية والليبرالية.

لقد تبيَّن أن كل الذين يُحاولون فهم الهزيمة، إنما يصدرون من منطلقات غير إسلامية وغير أصيلة، وهم جميعًا من المُقَوْلَبين في مناهج الفكر الوافد، سواءً منهم الماركسيون أم الوجوديون أم ماديُّو التغيير، وهؤلاء جميعًا لا يُحسنون التفكير لهذه الأمة؛ لأنهم أولاً: لا يفهمونها فهمًا صحيحًا، وثانيًا: لأنهم ينظرون إليها بمنظار غربي أو منظار غريب، وثالثًا: فإنهم يظنون كما يظن دعاة الاستعمار والصهيونية والتغريب، أن منطلق التقدُّم هو اعتناق مذاهب الفكر الغربي والتحرك من داخله، ومن الحق أن هذه الهزيمة التي أُصيب بها العرب والمسلمون، إنما جاءتهم من الاطمئنان لقوالب الفكر الغربي ومنطلقاته ومذاهبه التي اعتنقوها، وظنُّوا أنها تُحقق لهم التقدُّم، ولقد كان أهل الأصالة يعرفون أن هذا الأسلوب لن يُؤدي إلىٰ شيء إيجابي، بل علىٰ العكس من ذلك فإنه سوف يستأصل لقبه، الذاتية العربية الإسلامية، وتسقط معه الأمة كلها في بوتقة الاحتواء الغربي. وقد كشفت الأحداث التاريخية والوقائع منذ تسلَّم زمامها أولئك المؤمنون بمذهب اتخاذ أيدلوجية الغرب منطلقًا للتقدُّم، كشفت عن زيف هذه الدعوىٰ وسُقوطها تمامًا، فإن التجربة الوافدة سواءً من جانبها الغربي، أم الماركسي لم تُحقق شيئًا إلا الهزيمة والنكسة والنكبة.

ومن هنا كان لابد من الكشف عن زيف هذه الدعوة، خاصة وأن عوامل النصر الأولىٰ ـ لا شك ـ تبدأ مع تغيير الأسلوب، والتماس المنهج الأصيل المستمد من النفس العربية والقيم العربية الإسلامية.

لقد كانت المؤامرة مُدبرة وفق مخطط مُسبق؛ حتىٰ يُنكر الإنسان العربي المسلم

تاريخه وتراثه وحضارته وماضيه ودينه، حين يصل إلىٰ هذه المرحلة بعد جولة واسعة، كان التحفظ يرمي إلىٰ ما يُسمَّىٰ بروح الهزيمة ضد الشعب المنهزم، وقد نشرت «مجازين ذي تايم» مقالاً عنوانه «سُقوط حضارة» Tle Yalay Culure.

حيث زعمت أن الإسلام واللغة العربية كانتا وراء هزيمة العرب، كأنما حارب العرب حرب ١٩٦٧م بروح إسلامية وحافز إسلامي وحسب متطلبات الإسلام وقواعده، ولعل من نافلة القول أن ننبه علىٰ أن الأمة التي تدخل في صراع حضاري مع أمة أخرىٰ تفقد نصف المعركة سلفًا، إذا ما دخلت الصراع وهي غير مؤمنة بشخصيتها الحضارية ومُقومات وجودها؛ ذلك لأنها تفقد سلفًا أكبر حافز لها علىٰ القتال والصبر والاحتمال، ولعل هذا ما كان يُراد منها علىٰ وجه التحديد في هذه المرحلة من تاريخها؛ حيث يُحض أبناؤها علىٰ الازدراء بتاريخها وحضارتها، ومن ثمَّ بالعقيدة التي قامت عليها هذه الحضارة.

ولقد كانت المحاولة أيضًا بعد النكسة ترمي إلىٰ هدم ثقة ما في النفوس من أمل في النصر عن طريق:

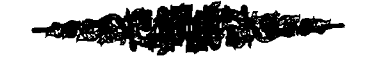
أولاً: ظهور الأفلام الجنسية واتِّساع عرضها في مصر، ثم سيطرة هذا اللون علىٰ الأفلام المصرية نفسها، وظهرت صور الممثلين والممثلات في الأفلام عارية، كما ظهرت اللقطات التي يبدو الرجل أو المرأة كأنما في وضع جنسي محذوف جزء منه، وأخذت مجلة «الشبكة» تنشر الصور العارية المُغرية، ثم تطورت بسرعة فنشرت صورًا عارية تمامًا إلا من ورقة التوت.

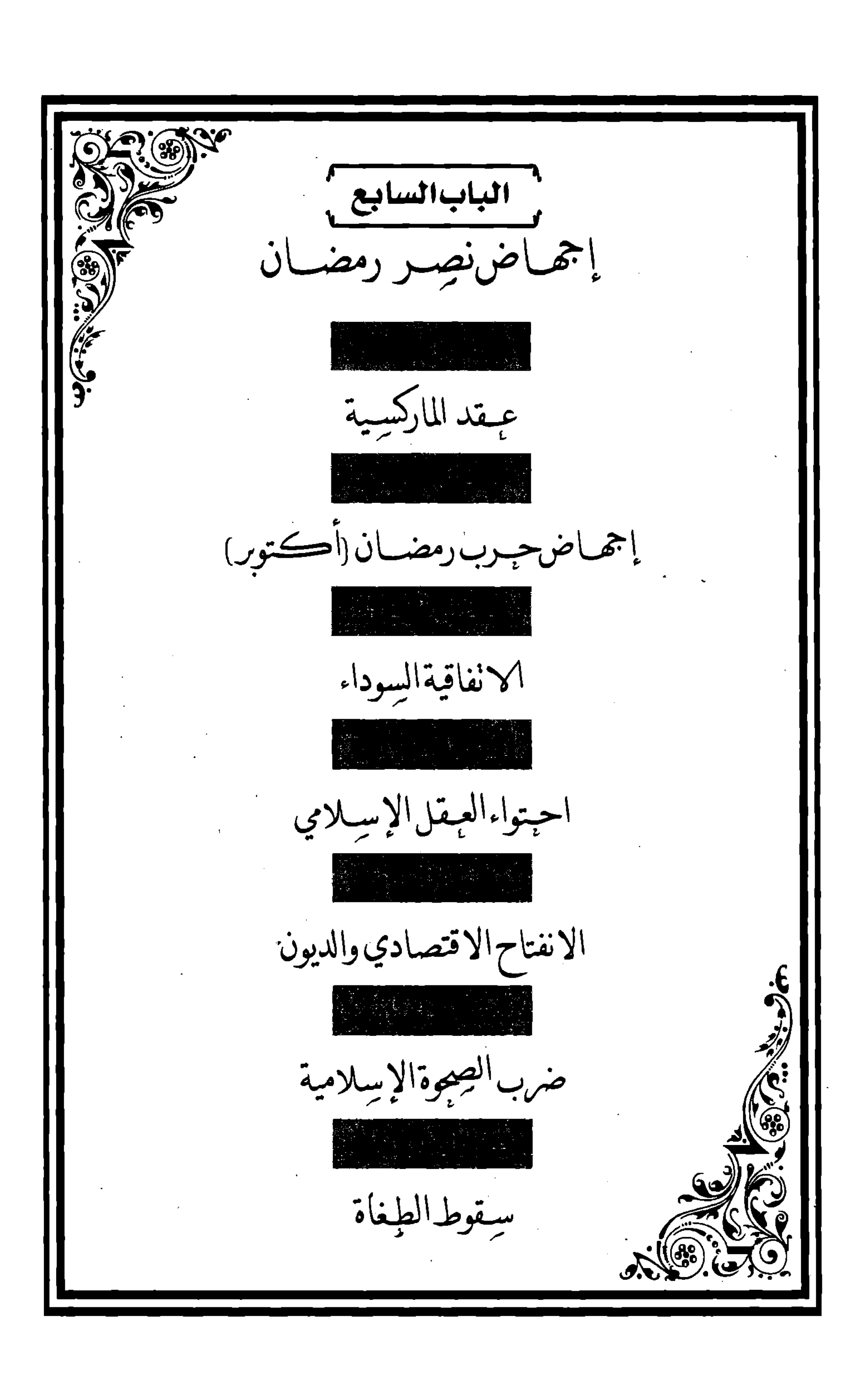
ثانيًا: انتشار موضة الملابس القصيرة بالنسبة للبنات والسيدات واستشرائها، وتنتقل من حالة إلىٰ حالة أشد، مع انتشار إطالة الشعر عند الشباب، وبشاعة السوالف، وزيادة

الشعر حتىٰ يقترب من شعر المرأة.

ولبست المرأة البنطلونات الضيقة والجاكتات، ولبس الشباب البنطلونات الضيقة الشبيهة بملابس الخواجات والعاملين في أوركسترا الموسيقىٰ أو الصيد، كل هذا كان يرمي إلىٰ تمزيق النفس الإسلامية العربية وهدمها وتغريبها.

ولكنَّ الصحوة الإسلامية لم تلبث أن غيَّرت كل شيء.





الباب السابع

إجهاض نصر رمضان

عقد الماركسية

إجهاض حرب رمضان (أكتوبر)

الاتفاقية السوداء

احتواء العقل الإسلامي

الانفتاح الاقتصادي والديون

ضرب الصحوة الإسلامية

سقوط الطغاة

الفصل الأول

عقد الماركسية

كانت الغزوة الشيوعية للعالم الإسلامي، من أخطر الغزوات التي كانت لها آثارها البعيدة في حياة المسلمين والعرب؛ بطرح هذه المفاهيم، وإغراء بعض شبابنا إلىٰ اعتناقها تحت تأثيرات ومُغريات وأوهام وأحلام، كان من ورائها أساطين اليهود الصهيونيين، وقد امتدت الأحزاب الشيوعية السرية في مختلف أجزاء الوطن الإسلامي، واتخذت من الفرص المتاحة وسيلة لكسب الأرض والأنصار، وكانت أكبر هذه الفرص دخول الغرب الرأسمالي مع روسيا السوفييتية في تحالف الحرب العالمية الثانية، مما أفسح الطريق في مختلف البلاد المحتلة من بريطانيا وفرنسا إلىٰ غض الطرف عن الدعايات الشيوعية والماركسية، وإن كان في التقدير السياسي الواضح أن الاستعمار الغربي احتوىٰ هذه الخطوات، ثم استخدمها في آخر الأمر لخدمة أهدافه في تدمير مُقومات المفاهيم الإسلامية في نفوس المسلمين والعرب؛ حتىٰ لا يستطيعوا إلىٰ وقت طويل استعادة قدرتهم علىٰ الأصالة، والتماس منابعهم الأصيلة.

وقد ظلَّت هذه الأخطار تنمو وتتسرب منذ ١٩٤٢م تقريبًا، حتىٰ بلغت أوجها من خلال تبنِّي حركة الجيش لصداقة موسكو، واشتراط موسكو تسلُّم دوائر الصحافة والثقافة والفن لأوليائها الماركسيين؛ حيث اتسعت دائرة البث الماركسي في الصحافة والثقافة خلال عشر سنوات كاملة (١٩٦٠م - ١٩٧٠م)، كان لها آثارها البعيدة في إلقاء السموم الناقعات في مختلف مجالات السياسة، والمجتمع، والاقتصاد، والتربية، وعلوم النفس، والاجتماع، والأخلاق، علىٰ نحو لم تخلص منه دائرة الفكر الإسلامي

حتىٰ اليوم (١٩٨٢م)، فقد تأثرت الأقلام الماركسية بعد أن غيَّرت مصر وجهتها، فانبثت في صحافة وجامعات البلاد العربية إلىٰ وقت طويل، وامتد أثرها في المسرح والسينما والقصة وغيرها، علىٰ نحو جدير بأن تُدرَس دراسة مفصلة وواعية.

بدأت هذه الحلقات الماركسية التي أسسها بعض الشيوعيين العرب والأجانب في مصر منذ ١٩٤٣م، والتي أسسها «هنري كوريل» وآخرون تحت أسماء مختلفة، وانضم لها «حسني العرابي» و«روزنتال» و«أنطون مارون» و«سلامة موسىٰ»، وظل الحزب يعتمد علىٰ أعضاء الأقليات والأجانب، وفي لبنان بدأت هذه الحركة عام ١٩٢٠م تحت اسم «عصبة شيوعية أرمنية»، ثم تأسَّس الحزب الشيوعي اللبناني، وفي فلسطين تأسَّس الحزب الشيوعي علىٰ يد نفر من اليهود الروس، أما في الجزائر وبلدان المغرب فقد كانت المنظمات الشيوعية فروعًا محلية للحزب الشيوعي الفرنسي الذي تأسس عام ١٩٢٠م، يقول «إلياس مرقص»: إن الحركة الشيوعية نشأت في المنطقة العربية أول ما نشأت علىٰ يد أفراد من الأقليات القومية، أو العنصرية، أو الطائفية، وفي أوساط هذه الأقليات، وكان نشوء الحركة الشيوعية تحت نشاط «موفدي الكومنترن»، وبعض العناصر المحلية المتصلين بالفكر الأوروبي، ويمكن القول بأن الحركة الشيوعية قد أتت إلىٰ الوطن العربي من الخارج، بمعنىٰ أنها لم تنشأ من التطور الذاتي للمجتمع العربي ومن حاجاته المسلمة، بل كانت جزءًا من الحركة الشيوعية الدولية؛ نتيجة تطور تناقضات النظام الامبريالي العالمي.

ولقد حاولت هذه المنظمات الشيوعية حمل لواء فكر التحرير الوطني، ولكنَّها بعد أن انتهت هذه المرحلة تبيَّن ولاءها وتبعيتها للسوفييت، وكان موقفها من القضية الفلسطينية موالاة كاملة للصهيونية العالمية، وفي سوريا كانت وجهة الحزب الشيوعي السوري اللبناني، التعاون الوثيق بين سوريا وفرنسا، وإبداء الثقة المطلقة بفرنسا، كما أيَّدت مشروع سوريا الكبرىٰ تحت النفوذ البريطاني الفرنسي، وكان الحزب الشيوعي

الجزائري يُنادي بإقامة جزائر متحدة مع فرنسا الحرة، وبعد أن حلَّ ستالين الكومنترن (الرابطة بين الأحزاب الشيوعية سنة ١٩٤٣م)، ولم تُشارك الأحزاب الشيوعية في المعركة النهائية ضد الاستعمار الفرنسي، وكانت هذه الأحزاب تُريد بقاء السيطرة الفرنسية إلىٰ حين أن ينتصر الشيوعيون في باريس؛ ليُسلِّموا الحكم في المستعمرات للأشقاء الصغار (أي للشيوعيين الجزائريين).

وقد بلغ الحزب الشيوعي في سوريا وفي لبنان ذروة القوة العددية؛ إذ كانت سوريا في نظر القوىٰ العالمية هي الثورة التي يجب أن تُدمر تمامًا عن طريق الحزب العربي السوري من ناحية، وحزب البعث من ناحية أُخرىٰ، والحزب الشيوعي مِن ناحية ثالثة؛ حتىٰ تُنهي طابعها الإسلامي القوي، ويتحقق للنفوذ الأجنبي غرس دُويلات صغيرة مارونية، وعلوية (نصيرية)، وصهيونية.

وفي العراق قام الحزب الشيوعي العراقي، وأقام عدة قواعد عمالية في بغداد وكركوك والبصرة، وقد وقف الحزب شأنه شأن الأحزاب الأخرىٰ موقف الشيوعية من قيام إسرائيل، وعرف أن الصهيونية العالمية تستخدم الأحزاب الشيوعية، وأن هناك علاقة جذرية بين الصهيونية والشيوعية علىٰ النحو الذي تكشَّف من بعد، لقد كانت هذه الأحزاب المختلفة تتلاقىٰ في البلاد العربية علىٰ غاية واحدة هي إضعاف مفهوم الفكرة الإسلامية والوحدة الإسلامية، وفي نفس الوقت كانت الجماعات الإسلامية تعمل بمواردها القليلة، بينما كانت هذه الأحزاب تتلقَّىٰ الإعانات الضخمة من الخارج.

يقول «**عبد الكريم أبو النصر**» في بحثه (الشيوعيون: أربعون سنة من العمل السري والعلني): الشيء البارز في نشوء الحركة الشيوعية في سوريا ولبنان هو عدم الوضوح في مقاصدها، وانعدام الدقة في تحديد أساليبها ووسائلها، فلم يكن الشيوعيون الأوائل يدعون إلىٰ فكرة ماركسية كاملة، بل كان اهتمامهم مُنصَبًّا علىٰ بعض الأفكار التي

تدور حول المساواة بين الطبقات، وإزالة الظلم اللاحق بفئات العمال والبؤساء من الشعب.

ويقول: ماذا كان موقف الحزب الشيوعي السوري آنذاك من قضية فلسطين؟

لقد كانت نظرته تنبثق من النظرة الشيوعية التي لا تعترف بوجود الأمم ومصالح الأمم، بل بوجود الطبقات ومصالح الطبقات بغض النظر عن الأمم التي تنتسب إليها كان الحزب يُهاجم الصهيونية لا اليهود، فلم يُهاجم الحزب الشيوعي اليهود؛ لأن فضلهم عليه كبير، فهم الذين عملوا علىٰ تأسيسه، ومدُّوه لفترة طويلة بالأموال. لم يكن الحزب الشيوعي ينظر إلىٰ هذه القضية بمنظار مصالح الشعوب العربية العليا، بل بمنظار الشيوعية العالمية ومصالحها.

وقد أصبح مركز توجيه الحزب الشيوعي السوري اللبناني موسكو، بل تل أبيب وباريس، وانتقل الحزب من فرع تابع للحزب الشيوعي اليهودي إلىٰ حزب تابع للحزب الشيوعي الفرنسي، ثم إلىٰ حزب له شخصيته المستقلة، ومُرتبط رأسًا بموسكو.

وعندما تحوَّل الاتِّحاد السوفييتي عن تأييده لمشروع إنشاء دولة عربية يهودية واحدة، وأعلن مُوافقته علىٰ تقسيم فلسطين إلىٰ دولتين عربية ويهودية، وانتهزت الأحزاب الشيوعية العربية بسرعة الحملة التي كانت قد بدأتها علىٰ مشروع التقسيم انسجامًا مع موقف الاتِّحاد السوفييتي؛ فأُصيبت بنكسة كبرىٰ.

ولقد عمد حزب البَعث العربي إلىٰ خطة للتعاون مع الشيوعيين، وبذلك استطاع الشيوعيون أن يُحققوا حلمهم القديم بالتوصُّل رسميًا إلىٰ تكتل شعبي له خطر قوي في الوصول إلىٰ الحكم، وتحقق لهم سنة ١٩٥٤م انتخاب مُمثل لهم في المجلس النيابي السوري، وكان من أبرز مظاهر التحالف بين البعثيين والشيوعيين تصفية الخصومات السياسية القديمة، وعلىٰ رأسها الحزب القومي السوري، وكان من نتيجة ذلك أن

ارتبطت سوريا ارتباطًا وثيقًا بالاتحاد السوفيتي، والبعثات العسكرية إلىٰ روسيا، والبعثات الثقافية والطلابية، وانسياق العديد من المثقفين والسياسيين والشباب والعمال والفلاحين خلف الحزب الشيوعي السوري، وقد ظن بعض الذين تحالفوا مع الشيوعيين أنهم يستطيعون تسخير الحزب الشيوعي للوصول إلىٰ أغراض معينة - خاصة في الداخل، دون أن يُدركوا أن الشيوعية أقدر منهم علىٰ اجتذاب الجماهير، والسيطرة علىٰ أفكار الشباب وعواطفهم، وحين وقع الانفصال بعد الوحدة مع مصر، هلَّل الشيوعيون للانفصال.

ولقد سيطرت الشيوعية علىٰ مُختلف وجوه النَشاط الاجتماعي والاقتصادي والثقافي في مصر سيطرة تامة، وجرىٰ عبد الناصر معها إلىٰ آخر الشوط؛ رغبة في إخضاع هذه الأمة وإذلالها، والقضاء علىٰ الضوء الإسلامي الذي تكاتفت عليه القوىٰ الغربية والماركسية جميعًا لتصفيته.

وقد رأىٰ من الشيوعيين بعد أن انفصل تمامًا عن الغرب كيف عاملوه بقسوة وفرضوا عليه وجهة نظرهم، وعلَّموا أبناء المسلمين في مصر النظرية المادية، وكوَّنوا الخلايا والنظام الطليعي للسيطرة الشيوعية الكاملة، وأعدَّت الطلائع نفسها لوراثة حكم عبد الناصر، وإقامة نظام شيوعي في مصر، وكان هذا أملهم ومطمحهم.

ولقد كانت نكسة ١٩٦٧م ضربة ضخمة أيقظت كثيرًا من القلوب والعقول إلىٰ خطر الاتجاه الذي تجري مصر فيه، فقد خدع الشيوعيون المصريين وتآمروا عليهم، ولكنَّ القوىٰ المُسيطرة مضت في طريقها بعد النكسة مُدَّعية أن السبيل إلىٰ النصر هو مزيد من الولاء للاشتراكية ومن بناء الدولة العصرية، وظهرت كتابات عملاء الروس التي تدعو إلىٰ التحرر تمامًا من سيطرة الإسلام، والتاريخ، واللغة، وكل مقومات الأمة الحقيقية.

ومات عبد الناصر، وقد لطَّخ اسمه بأنه قاد أمته إلىٰ أخطر تحوُّل، وأذلَّها بهزيمة

الصهيونية لها، ونقلُّص وجودها السياسي والجغرافي، وجعلها تفلس نتيجة هذا التحوُّل الخطير نحو الماركسية، وبذلك فشلت التجربة، وتحولت مصر تدريجيًا نحو أسلوب من الاعتدال في التعامل مع القوتين الكبيرتين.

يقول «أنور السادات» في كتابه (البحث عن الذات): كانت التركة التي ورثتُها اقتصاديًا أسوأ بكثير من التركة السياسية، فاستقلال أي بلد حر هو في حقيقته الاستقلال الاقتصادي، وليس الشعارات السياسية، ففىٰ سنة ١٩٦١م صدرت قوانين التأميم، وكان من الممكن أن ينطلق اقتصادنا بالقطاع العام مع تشجيع القطاع الخاص إلىٰ آفاق هائلة؛ لأن المنافسة بين الاثنين في صالح بناء أكبر واندفاع أعظم، ولكنَّ الذي حدث هو أن التطبيق الاشتراكي بدأ يتجه إلىٰ (الماركسية) فأي عمل حر (رأسمالية) يبغضه، وأصبح القطاع الخاص استغلالاً ولصوصية، فاختفىٰ تمامًا نشاط الأفراد؛ مما استتبع سلبية رهيبة إلىٰ جانب الشعب الذي عانىٰ منها إلىٰ اليوم، فقد أصبحت الدولة مُطالَبة بتوفير البيض والدجاج ومئات من الحاجات الضرورية التي كان يُمكن أن يُوفرها الأفراد بالمبادرة والنشاط الفردي؛ ونتيجة لهذا أصبح الشعب يعتمد علىٰ الدولة في كل شيء: الأكل والوظيفة والسكن والتعليم. فما دامت الدولة أصبحت اشتراكية فعليها أن تُوفِّر للمُواطن كل ما يتطلبه دون أي جهد إيجابي من جانبه، وهذا الانكماش هو زاوية الهبوط إلىٰ الهاوية، وفي سنة ١٩٧٠م صدر تقرير في أمريكا بعد تحليل لواقع مصر الاقتصادي، يقولون فيه: (اتركوا عبد الناصر يصرخ فسوف يركع علىٰ ركبتيه اقتصاديًا في القريب العاجل)، ولقد ضاع اقتصادنا؛ بسبب التطبيق الماركسي للاشتراكية، وحرب اليمن، والانفصال عن سوريا، وهزيمة يونيو المنكرة.

يقول الأستاذ «نبيه عبد ربه»: لقد كان الهدف من نكسة ١٩٦٧م فَرْض الوجود العسكري الإسرائيلي علىٰ المنطقة العربية؛ لإجبار العرب علىٰ الصُلح بالشكل والكيف الذي تُريده أمريكا وإسرائيل، ولكن بعد قيام المُقاومة المسلَّحة واشتداد

عودها، أدركت أمريكا والصهيونية أن النفسية العربية والفلسطينية بشكل خاص مازالت غير مُستعدة للصُلح، لهذا كان لابد أن يمر العرب بنوع من الترويض النفسي؛ حتىٰ يُصبح الصُلح مع إسرائيل مطلبًا وطنيًا، وكان دور الشيوعيين واليساريين أن يقوموا بهذه المُهمة، مهمة إجهاض المقاومة الفلسطينية؛ باستنفاد طاقاتها داخليًا، وإيصالها إلىٰ مرحلة يقتنع فيها قادتها بضرورة الصُلح مع إسرائيل، وإقامة دولة فلسطينية مهما كان نوعها وشكلها؛ لتُخلِّص الفلسطينيين من الاضطهاد والتشريد.

وكان الهدف من حرب ١٩٧٣م إيجاد وضع متوازن في المنطقة بين العرب واليهود لا غالب فيه ولا مغلوب؛ لكي يُساعد علىٰ إحلال السلام في المنطقة، ولذا نجد أنه بعد حرب ١٩٧٣م قامت روسيا بالضغط علىٰ العرب، وأوقفت مدَّها بالسلاح والعتاد وقِطَع الغيار؛ وذلك بدفع العرب للارتماء في أحضان أمريكا، وكانت مهمة الشيوعيين العرب تعميق الخلاف بين روسيا ومصر خاصة؛ لإقناع الشعوب العربية بأنه لم يعد لهم طريق إلا قبول الصُلح علىٰ الطريقة الأمريكية. أصبحت النفسية العربية الآن مُهيأة أكثر من أي وقت مضىٰ لتقبل فكرة الصُلح مع إسرائيل، وقيام الدولة القومية للفلسطينيين التي ستكون هزيلة ضعيفة تخر أمام أول ضربة لإسرائيل، حينما تنوي تحقيق مملكة إسرائيل من النيل إلىٰ الفرات، كما يجب أن تكون جسرًا للاقتصاد الإسرائيلي إلىٰ العالم العربي، وجسرًا للأموال العربية إلىٰ إسرائيل» ا.هـ.

ولا ريب فقد كانت لعلاقات عبد الناصر بالسوفييت أثرها البعيد علىٰ قضية فلسطين، فلقد فتح الروس باب الهجرة اليهودية إلىٰ فلسطين المحتلة في أواخر عهده، هذه الهجرة التي تصاعدت حتىٰ بلغت سنة ١٩٧٨م (١٢٥ ألف) شخص من العلماء والخبراء.

والمعروف أن الاتحاد السوفييتي ساند إسرائيل منذ قيامها، وكانت لمساعداته أكبر

الأثر في إلحاق الهزيمة بالعرب في حرب ١٩٤٨م، قال «بن جوريون» إنَّ الروس كانوا يُرسلون الأسلحة إلىٰ تشيكوسلوفاكيا لتصل إلىٰ اليهود الذين قاتلوا العرب، وطردوا اليهود من فلسطين وطنهم، والمعروف أنَّ هذه الأسلحة قتلت آلاف العرب أطفالاً ورجالاً، ودمَّرت مئات القرىٰ، وهدمت آلاف البيوت.

* * *

عبد الناصر والصهيونية

في الوقت نفسه الذي كان عبد الناصر يُفاخر بأنه سيُلقي إسرائيل في البحر، كانت تجري المفاوضات بينه وبين حكام إسرائيل للالتقاء بهم، فقد قرر عبد الناصر الاتصال مع بن جوريون وجماعة الصقور في إسرائيل اتصالاً متكتمًا سريًا، وكان هذا بتوجيه من حكومة واشنطون، وقد اعترف بذلك «أمين شاكر» وزير السياحة السابق ١٩٧٧م، وكان مديرًا لمكتب عبد الناصر.

كذلك فإن عبد الناصر وافق بعد العدوان الثلاثي علىٰ مصر ١٩٥٦م علىٰ وجود قوة دولية في شرم الشيخ، وفي عدوان ١٩٥٦م فقدت مصر سيادتها علىٰ مضايق العقبة، وتمكنت إسرائيل من إطلالة علىٰ البحر الأحمر مكنت لها من تهديد شواطئنا، ومن عودة نفوذها إلىٰ أفريقيا الشرقية وباب المندب.

وضاعت السيادة المصرية علىٰ مضيق العقبة طيلة أحد عشر عامًا، ويقول «بشير العوف» في بحثه (السياسة المرحلية): جمال عبد الناصر هو أول حاكم عربي تجرَّأ علىٰ القبول بقرار مجلس الأمن الذي أعطىٰ إسرائيل اعترافًا بحدود آمنة مضمونة، وأول حاكم عربي تجرَّأ علىٰ تقديم تنازلات لإسرائيل تُؤدي إلىٰ الاعتراف الشرعي بها.

إنَّ قبول عبد الناصر بهذا القرار قد أعطىٰ إسرائيل حجة قوية أمام الرأي العالمي، وقد أعطىٰ هذا إسرائيل مزيدًا من القوة والتصلُّب والتشدد؛ بحيث راحت تُناور وتُداور خلال أكثر من ست سنوات دون أن تُوافق علىٰ تنفيذ مادة واحدة من قرار مجلس الأمن، ومات عبد الناصر دون أن يستطيع تنفيذ القرار وفشلت مساعيه ومحاولاته.

وقد كانت الفكرة البارزة أن السوفييت يُعاونون العرب في مواجهة إسرائيل التي

تحتضنها أمريكا، وأن ذلك من شأنه أن يُمكِّن العرب من القضاء على إسرائيل، ولكن ما كشفته الأحداث من بعد وخصوصًا في معركة أكتوبر، كان عكس ذلك تمامًا؛ فقد تبيَّن أنَّ هناك تنسيقًا خفيًّا بين إسرائيل والسوفييت، وأن السوفييت لم يُعطوا العرب أي أسلحة هجومية، ولم يُمكنوهم من استعمال الأسلحة التي يحصلون عليها، كما تبيَّن أن الصهيونية والشيوعية هما وجهان لعملة واحدة.

وبعد، فهل استطاعت مصر أن تحتفظ بتوازنها بين القوتين؟، أم أنها خرجت من نفوذ الشيوعية لتقع في حبائل النفوذ الصهيوني.



الفصل الثاني

إجهاض حرب رمضان (أكتوبر)

كانت معركة رمضان خطوة على الطريق الصحيح في مواجهة الأخطار التي ألمَّت بمصر والعالم الإسلامي كله بعد هزيمة ١٩٦٧م الجائرة التي أحدثت أزمة نفسية خطيرة، وفتحت طريق الالتباس الذي سار فيه خصوم الإسلام: الشيوعيون، وأولياء الناصرية، والبعث، والشعوبيون، والتغريبيون جميعًا؛ فقد وجدوا في الهزيمة فرصتهم لضرب هذه الأمة الضربة القاضية، ودعوا إلى أن يقطع العرب علاقتهم بالإسلام كشرط أساس للعودة إلى الوضع الصحيح، وأعلنوا أن الدولة العصرية هي الحل الوحيد ولا حل غيره، وكتب العلمانيون والتغريبيون يُمزقون روح هذه الأمة، ويهدمون الإسلام من وراء كل مظاهر الحديث عن القديم والرجعية والهزيمة، حتى جاءت حرب رمضان التي كشفت زيف الادعاءات التي دعا إليها أولياء الشيوعية والناصرية والعلمانية، وكانت مُقدمة تحوُّل مصر نحو الغرب، والتحرر من التبعية للنفوذ الماركسي، ولكن هذا التحول نحو الغرب لم يلبث أن أصبح ولاءً مُزدوجًا للولايات المتحدة وإسرائيل، وفتح بابًا من الشر خطير، لا يقل خطورة عن التبعية للشيوعية والاتحاد السوفييتي التي توقفت رسميًا، وإن بقي الشيوعيون والماركسيون ينفثون سمومهم من خلال الصحافة والجامعة والثقافة.

وعلى الرغم من حسن الأداء في معركة رمضان على نحو رد للعرب اعتبارهم فإن المعركة كانت ناقصة؛ لأنها لم تُحقق الجلاء عن سيناء أو استعادة فلسطين. وقد كان أعظم ما حقَّقته معركة رمضان هو استعادة الروح الإسلامي للجهاد، الذي أزعج الدوائر

الغربية، ودفعها للإسراع بإنهاء هذه المعركة؛ حتىٰ لا يتسع نطاق الوجهة الإسلامية. وكان من سعي الغرب ومكره إجهاض هذا النصر، وتحويله إلىٰ قبول بالاستسلام أمام الغرب وأمام إسرائيل، وإيقاف القوة الدافعة المؤمنة باستعادة فلسطين والقيام بمعركة أخرىٰ تُحقق نصرًا أكبر مدىٰ، وكان من خطر هذا الاتجاه الذي حمل لواءه «أنور السادات»، هو القضاء علىٰ دور مصر في معركة فلسطين والقدس وتحييدها، والقضاء علىٰ هذه الوجهة كتابة وخطابة، والقبول بما يُسمىٰ السلام وإقامة العلاقات، وكشْف طرق مصر ومواقعها أمام العدو، فضلاً عن أن تحييد مصر قد فتح الطريق أمام إسرائيل لتضرب البلاد العربية، كما حدث في ضرب المفاعل العراقي، واجتياح لبنان، بينما قيدت مصر دون عمل أي شيء. كما فتح ذلك الطريق للصراعات بين الدول العربية، ووقوع الخلاف بينها نتيجة هذه الخطوة التي أخرجت مصر من الصف العربي، والإجماع العربي، وأحدثت انشقاقًا بالغ الخطر، مكَّن لإسرائيل أكثر، وعمَّق، وحال ـ وما يزال يحول ـ دون موقف مُوحَّد؛ فقد كانت إسرائيل تعلم أن البلاد العربية لا تستطيع أن تدخل معركة مع إسرائيل دون مصر، وقد تعهدت مصر بالوقوف علىٰ الحياد في أي حرب بين العرب وإسرائيل، وقد أشارت الصحف إلىٰ أن هناك وثيقتين سريتين لاتفاقية «كامب ديفيد»، تعهدت مصر في إحداهما بالوقوف علىٰ الحياد في حالة قيام نزاع مُسلَّح بين إسرائيل ودولة عربية أو أكثر، وأن مصر لن تُشارك بأي وسيلة في هذا النزاع، وأشارت الصحف إلىٰ أن «مناحم بيجين» رئيس وزراء إسرائيل كشف النقاب أمام الكنيسيت عن وجود وثيقتين سريتين، امتنع عن الإفصاح بتفصيلاتهما؛ لأسباب سياسية ونفسية (صحيفة الرأي الأردنية، جريدة الندوة مكة)، وقد أثارت تقارير متعددة إلىٰ أن نصر رمضان إنما كان خطة بين مصر وبعض الدول العربية لفتح القناة لتمرير البترول للدول الغربية، ولما كان من المستحيل أن تتنازل إسرائيل عن شبر من الأرض التي استولت عليها إلا عنوة، فقد وُضعت هذه الخطة للاستيلاء علىٰ خمسة عشر كيلو مترًا من صحراء سيناء؛ لتحقيق هذا الغرض، ولم يُتأكد بعد أن هذه

الخطة حقيقية أم لا، ولكن الواقع أن الغرب قد أزعجه أيما إزعاج عودة مفاهيم الجهاد الإسلامي مرة أخرىٰ إلىٰ البلاد العربية بعد معارك الجزائر التي صُفيت سريعًا؛ حتىٰ لا يتمكن هذا المفهوم من نفوس المسلمين - وقد كان النصر في كلا المعركتين مصدره الوجهة الإسلامية الصحيحة - وقيل أيضًا لو أن «فتح» اتخذت الأسلوب الإسلامي في المقاومة ضد الصهيونية لاستطاعت أن تُحقق نصرًا مؤزرًا، ولكن أمكن احتواء هذه المُنظمة، وتحويلها من الخط الإسلامي في فهم قضية فلسطين وفي الأداء؛ حتىٰ تظل قضية فلسطين في دائرة الاحتواء الغربي.

ولا ريب أن التقارير التي تقول بأن «نصر رمضان» كان مقدمة طبيعية لاتفاقية السلام مع اليهود، تحتاج إلىٰ وقفة؛ ذلك أن كثيرًا من الوقائع التاريخية منذ عبد الناصر تُؤكد أن هناك خطًّا حقيقيًا نحو الصُلح مع اليهود، وأن هذا الخط اشترك فيه أكثر من حاكم عربي، وأنه استمر مُتخفِّيًا يحذر غضب العرب والجماهير العربية، ولكنَّه كان موجودًا وقائمًا، وكانت تلك الصيحات التي تحمل طابع الانتقام والخصومة لإسرائيل إنما هي شيّء خادع للاستهلاك المحلي؛ ذلك لأن قيام حركة الجيش أساسًا إنما كان يرمي إلىٰ القضاء علىٰ القوة التي كانت تعمل علىٰ مواجهة إسرائيل والانتقام منها، والثأر للمسلمين ورد حقهم، فكان كل كلام عن الحق الفلسطيني أو الوحدة العربية هو مِن باب المُراوغة والخداع، وما كان يمكن أبدًا للذين فُرِّغت قلوبهم ونفوسهم من الإيمان بالله، ومن الإيمان بأمانة الأرض والعرض والعقيدة الإسلامية، أن يقوموا بدور صحيح في هذا المضمار، وهكذا تنتقل هذه القضية مرحلة بعد مرحلة في مخطط مسرحي خطير بين «فاروق» و«عبد الناصر» و«السادات»، لا هدف منه إلا إلهاء المسلمين والعرب، ومع التمكين في الوقت نفسه لنفوذ إسرائيل وبقائها.

ولقد أُحيطت معركة رمضان بشيء مختلف، ففي نظر الوطنيين الذين ظنوا أن الوجهة صحيحة كانت معركة جزئية ومقدمة لمعركة كبرىٰ، بل كان هناك من يرىٰ

قصور العاملين لها من الاندفاع لتحرير سيناء أو لدخول تل أبيب، ولكنَّ الوجه الحقيقي كان خدعة كبرىٰ، هي إعداد المسرح للاتفاق مع اليهود والصُلح معهم، ولذلك قِيل إن الموقف بعد حرب رمضان كان يُوحي بأن هناك تهديدات مُوجَّهة للسادات، وأن إسرائيل تستعد للقضاء عليه أو لجولة أخرىٰ، ولذلك سارع السادات لصُلح معهم، وتحقق ذلك الجو من الاستسلام الذي أُطلق عليه إزالة الجفوة بين العرب وإسرائيل، وقد خدع السادات الأمة حين قال: «إن هذه الحرب آخر الحروب»، ولم تقبل إسرائيل بذلك، فكأنه كان عقدًا علىٰ مصر وحدها، وقال «يا شعب بني إسرائيل»، فاعترف بهم، وفتح لهم الطريق إلىٰ ارتياد مصر ومعرفة طرقها ومواقعها، بينما لم يحدث ذلك علىٰ الجانب الآخر.

وقد تكشفت وثائق كثيرة تقول: إنَّ إسرائيل تستعد لتحطيم الجيوش العربية في عشر سنوات، وأن وثيقة خرجت عام ١٩٧٦م عشية زيارة السادات لإسرائيل تقول: إنَّ إسرائيل تستعد لحرب إفناء ضد الجيوش العربية، وحرب الإفناء تحتاج إلىٰ أسلحة غير تقليدية، تحتاج إلىٰ أسلحة نووية، والمُعتقد أن إسرائيل قد حصلت علىٰ كمية من «اليورانيوم» من مصنع في بنسلفانيا في منتصف الستينيات، وقد تكون حوَّلت «اليوارنيوم» إلىٰ قنابل ذرية، وقِيل إن إسرائيل سرقت كمية من «اليوارنيوم» كانت مُحملة علىٰ ظهر سفينة، أو أن الصهيوني الأمريكي «زالمان شابيرا» قد أعطىٰ إسرائيل كمية من «اليوارنيوم» تكفي لصنع عشرين قنبلة ذرية.

وقيل: إن العبرة من نشر هذه الأخبار هو بذر بذور الرعب في نفوس العرب، وتخويفهم من نشوب أية حرب جديدة؛ إذن فليس أمامهم إلا الاستسلام أمام التفوق الإسرائيلي الذري.

كما نُشر أنَّ إسرائيل قد خزَّنت حاجتها من السلاح والذخيرة والنفط؛ لتُحارب في

ثلاث جهات لمدة ثلاثين يومًا، قبل أن تحتاج إلىٰ تمويل من الولايات المتحدة، ويُقال أن السر في مدة العشر سنوات هو النفط، وماذا يبقىٰ لدول النفط إذا تحطمت جيوش مصر وسوريا، ومن يحول دون إسرائيل ومنابع النفط في السعودية والخليج، هذه الفترة تُمكِّن إسرائيل من الدخول في مرحلة لا يستطيع فيها العرب استخدام أموالهم ونفطهم للضغط عليها للانسحاب.

وهذه المعلومات قد طُرحت؛ لتدفع «السادات» إلىٰ قبول الاستسلام أمام إسرائيل، وإجهاض نصر رمضان.

والحقيقة أن «السادات» كان طموحًا إلىٰ رد اعتبار الجيش إزاء اجتياح اليهود لسيناء، وكان يطمح في انتصارات تُعطيه صورة باهرة بعد عصر عبد الناصر، ولم يكن الأمر كله خالصًا للوطن، وإلا فكيف يُمكن أن يُؤدي نصر رمضان الجزئي إلىٰ الاستسلام أمام إسرائيل، وكيف يُمكن أن ظاهرة (العودة إلىٰ الإسلام) بصيحة «الله أكبر» أن تكون منقطعة عما بعدها، وأن تسير الحياة الاجتماعية في مصر علىٰ طريق الانحلال والفساد. والحقيقة أن إخراج مصر من النفوذ الروسي الماركسي كان عملاً عظيمًا، لو أنه سار علىٰ الطريق الصحيح لعودة مصر إلىٰ الأصالة وإلىٰ هويتها الحقيقية التي طمسها عصر عبد الناصر، والتي كانت نكسة ١٩٦٧م علامة علىٰ دعوة جادة إلىٰ العودة إلىٰ الله، وظهر ذلك واضحًا في الاستفتاء علىٰ الدستور، والصيحة الشعبية العارمة لأن تكون الشريعة الإسلامية هي مصدر القوانين.

وقد كان القضاء علىٰ النفوذ الشيوعي الماركسي مقدمة لتغلغل النفوذ الصهيوني والأمريكي المُوجَّه إلىٰ احتواء الصهيونية لأكبر قطر عربي؛ وبذلك يكون قد تحقق للصهيونية هدف ضخم من أكبر أهدافها، وهو إبعاد مصر عن الساحة العربية، فلا يُمكن أن تقوم قائمة الجهاد الحقيقي في سبيل استعادة فلسطين وبيت المقدس، والسقوط في

أغوار تلك الأساليب الغربية من الحوار والمفاوضات المضلِّلة، وهو أسلوب زائف ساقط، كذلك فإن الصهيونية تكون بذلك قد نجحت علىٰ طول الخط منذ ١٩٤٨م عن طريق القضاء علىٰ الدعوة الإسلامية إلىٰ إبعاد مفهوم الإسلام الصحيح عن معركة الصهيونية مع العرب، وهو هدف ضخم سعىٰ إليه اليهود في تصريحات كثيرة معروفة.

فقد أشار تصريح لأحد قادة إسرائيل يقول: إننا نجحنا بجهودنا وجهود أصدقائنا في إبعاد الإسلام عن معركتنا مع العرب، ويجب أن يبقىٰ الإسلام بعيدًا عن المعركة، ويجب ألا نغفل لحظة واحدة عن تنفيذ خططنا من منع يقظة الروح الإسلامية بأي شكل وبأي أسلوب، ولو اقتضىٰ الأمر الاستعانة بأصدقائنا؛ لاستعمال العنف في إخماد أي بادرة ليقظة الروح الإسلامية، فإذا فشلنا في إقناع أصدقائنا في توجيه ضربة قاضية في الوقت المناسب، فإن علىٰ إسرائيل أن تُواجه حينئذٍ عدوًا حقيقيًا لا وهميًا، وهو عدو حرصنا أن يبقىٰ بعيدًا عن المعركة، وستجد إسرائيل نفسها في وضع حرج إذا نجح المتعصبون المسلمون في تحويل معركتها ضد البلدان العربية إلىٰ معركة المجاهدين المتعصبين، وهم الذين يعتقدون أن أحدهم يدخل الجنة إذا قتل يهوديًا أو قتله يهودي، وسيقوم الإسرائيليون بالدور الذي قام به المشرفون من عملائهم، سيقومون بدورهم في تغيير عقلية المسلمين وتفكيرهم، فينشرون حركة تجديد الدين، وذلك تحت اسم العلمانية، وهو اسم برَّاق، والمقصود به البعد عن الإسلام، وإبعاد المسلمين عن عقيدة وشريعة الإسلام، هذا مع العلم بأن إسرائيل قامت علىٰ أساس الدين، وعادت إلىٰ فلسطين (أرض الميعاد)، وتُحاول أن تجعل دولتها من النيل إلىٰ الفرات باسم الدين، ولكن تغريب الإسلام عن المسلمين من أهم خطط إسرائيل، وذلك في صحفهم الدينية العديدة.

تقوم إسرائيل بدورها في تحطيم الجسد والنفس في الوطن الإسلامي عن طريق نشر الجنس، وهي تهتم بذلك عن طريق الصور والأغاني والأفلام والمسرحيات؛ وذلك

بالسيطرة علىٰ أجهزة الدعاية والإعلام في العالم، والتي تُساهم عمليًا في هذا المخطط.

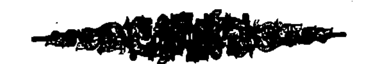
وقد كشفت وثائق كثيرة كيف كان الإسرائيليون يسعون علىٰ مر السنين لتحطيم الحزام العربي المحيط بإسرائيل؛ من خلال إقامة روابط مع دول إسلامية غير عربية في الشرق الأوسط، وقد تم إنشاء منظمة أُطلق عليها اسم (ترابدنت)، ضمت في عضويتها أجهزة مختلفة، من بينها جهاز «السافاك الإيراني»، كما كانت الموساد تُقدم للأتراك ملفات عن نشاط العملاء السوفييت في تركيا، في المقابل كان الأتراك يُزودون إسرائيل بمعلومات تتعلق بنوايا العرب السياسية التي قد تمس أمن إسرائيل.

كذلك فقد كشفت الوثائق عن أن المدينة المنورة هي هدف الصهيونية الأخير، فقد نشر «بن جوريون» كتابًا بعنوان (إسرائيل بين الأمم) سنة ١٩٥٢م جاء فيه: يجب أن يُدرك العالم الخارجي أنه بالإضافة إلىٰ الأهمية الاستراتيجية التي تُعلِّقها إسرائيل علىٰ كل من: شبه جزيرة سيناء، ومرتفعات الجولان، ومضايق تيران، فإن سلسلة الجبال الواقعة غربي نهر الأردن تقع في صميم التاريخ اليهودي؛ حيث يطمع اليهود في الاستيلاء علىٰ الأراضي السعودية الواقعة علىٰ خليج العقبة، وهي الحدود الشرقية لهذا الخليج البالغ طولها خمسة وتسعين ميلاً؛ لأن إسرائيل تُريد أن يكون هذا الخليج بحيرة إسرائيلية تصلها بالبحر الأحمر، وبدول شرق أفريقيا وآسيا، وهم يطمحون أن يمتد نفوذهم إلىٰ الجنوب، ليشمل (تبوك) حتىٰ المدينة المنورة، علىٰ اعتبار أن قسمًا من هذه المناطق كانت من أملاك اليهود، فأجلاهم عنها النبي (ﷺ)، ومن جنوب المدينة المُنورة حتىٰ ميناء (ينبع) مسافة ١١٢ كيلو مترًا، ثم إلىٰ مناطق آبار النفط السعودية في «نجد». وقد كانت المدينة المنورة هدف الصليبيين الذين تجمَّعوا من سائر أنحاء أوروبا في القرن الخامس والسادس للهجرة، وما بدا من الملك الصليبي «ريتالد» - الذي تُسميه الرواية الإسلامية (أرناط) - الذي كان متسلطًا علىٰ الكرك زمن صلاح الدين الأيوبي؛ فقد جرَّد ذلك الصليبي المتأثر بالتلمودية حملة كبرىٰ للاستيلاء

علىٰ المدينة المنورة، وسار بها إلىٰ خليج العقبة، فاستولىٰ علىٰ بعض المناطق، ثم توغَّل في شمال ساحل الجزيرة، وكان قصده السيطرة علىٰ المدينة المنورة ونبش القبر النبوي، فجرَّد له السلطان صلاح الدين حملة قوية.

وفي السادس من حزيران (يونيو ١٩٦٧م)، بعد احتلال القدس بيوم واحد، أعلن «موشىٰ ديان»: «لقد استولينا علىٰ أورشليم، لقد أصبح الطريق مفتوحًا أمامنا إلىٰ المدينة ومكة».

ولا ريب أن الصراع بين العرب واليهود في المدينة المنورة سابق للإسلام، وقد حاصرهم الرسول (ﷺ) في المدينة علىٰ أن يتركوا وراءهم السلاح، وقد انسحبوا إلىٰ وادي القرىٰ، ثم ساروا إلىٰ «أذرعات» ـ علىٰ حدود الشام، ثم أجلاهم الخليفة عمر إلىٰ أطراف الشام.



الفصل الثالث

الاتفاقية السوداء

لقد قدَّرت إسرائيل مدىٰ أهمية الاتفاق مع قُطْر عربي، كمرحلة من مراحل العمل اليهودي، فإذا كان هذا القطر هو مصر التي تُمثل ثلث العرب؟!

بدأ عمق المحاولة الخطيرة التي قامت بها أطراف يهودية في أوروبا وأطراف عربية مُوالية للصهيونية، علىٰ الرغم من مظهرها الخادع، وكيف أمكن احتواء عقل السادات، وكانت لعوامل خاصة اجتماعية دخل في هذا الانزلاق الخطير، وكان واضحًا للمشتغلين بالسياسة العالمية أن إسرائيل هي التي سعت في الخفاء، فإذا عُرض عليها الأمر في وضوح تحفَّظت منه، وهي تعلم أنها تسعىٰ لتحقيق هدف كبير، هو (تحييد) مصر بالنسبة لجاراتها العربية، التي اعتزمت إسرائيل ابتلاعها الواحدة بعد الأخرىٰ، فإسرائيل لم تقبل بالتعاقد مع مصر علىٰ نية قبول السلام، ولكن علىٰ غدر ومكر كامن وراء المُخطط كله، وخُطوة أُولىٰ إلىٰ تمزيق شمل المسلمين والعرب، فإن العدو الصهيوني بعد أن أمن جانب مصر سيتجه إلىٰ الدول الإسلامية واحدة بعد الأخرىٰ، ينتقص أطرافها، ويُحطِّم اقتصادها، ويُدمر أخلاقها، ويُباعد بينها وبين عقيدتها، وبعد الاتفاق مع مصر علا صوت إسرائيل، وقالت إنَّ مجالها الحيوي يصل إلىٰ حدود باكستان، وقد حدث هذا بالفعل، فإنه ما كادت إسرائيل تطمئن إلىٰ حياد مصر وتحييدها عن أداء دورها القومي ضد العدو الصهيوني، وبعد تجميد مصر بكامب ديفيد، بدأت إسرائيل تتحرك في لبنان دون أن تخشىٰ شيئًا، كذلك فقد حقَّقت إسرائيل من وراء ذلك مكاسب ضخمة:

أولاً: تجاهل منظمة التحرير الفلسطينية، وتمثيلها للشعب الفلسطيني.

ثانيًا: الضغط على العرب للجلوس على مائدة المفاوضات، وتقبُّل الصفعات المتوالية.

ثالثًا: تقبُّل المفاهيم اليهودية والدفاع عنها، وحذف ما يُخالفها من كتب المدارس.

رابعًا: القبول بجعل القدس عاصمة لإسرائيل إلى الأبد، وعدم العودة إلى حدود ٦٧ أو تعديل الحدود، وبقاء القوَّات الإسرائيلية في الضفة الغربية.

خامسًا: التنكر الكامل لقرارات الأمم المتحدة ١٩٤٧م بتقسيم فلسطين.

سادسًا: عدم إقامة دولة فلسطين، أو إشراك منظمة التحرير في أي مفاوضات.

سابعًا: إزالة كل ما يتعلق بالحرب العربية الإسرائيلية (١٩٤٨م/ ١٩٥٦م/ ١٩٦٧م) من الكتب المدرسية.

وقد حقَّق الاتفاق لإسرائيل أضخم مكاسب كانت تحلم بها، وعرَّض الفلسطينيين والعرب لأخطر التحديات، وبسببها تفجَّرت كل الخلافات، كما سقط تمامًا ذلك الخطر الذي كانت تخشاه إسرائيل، وهو تنسيق موقف الدول العربية بقيادة مصر في حرب ١٩٧٣م، وظلَّت إسرائيل تُحطِّم قواعد الاتِّفاق بشأن الضفة الغربية؛ حتى صيَّرت الاتِّفاق فرديًا بين مصر وإسرائيل، وقَّعت على كل الأسس التي بُني عليها إطار السلام، ورفضت جميع أحزاب إسرائيل إقامة كيان فلسطيني يمكن أن يتطور إلى دولة فلسطينية، وحتى لا يتمكن العرب في يوم من الأيام من حيازة قوة عسكرية تُضاهي قوتهم أو تزيد، فعجَّلت إسرائيل على إبقاء العرب مُتفرقين عن مصر، وأن تحرم أي دولة عربية من تصوُّرٍ بأنها يُمكنها أن تحصل على سلام يقف أمام تسلُّح إسرائيل، كذلك فإن ضرب المُفاعل الذري العراقي هو تحدٍّ واضح؛ حتى لا تتمكن أي دولة عربية من امتلاك القدرة النووية، وتظل إسرائيل وحدها هي المُتفوِّقة على العرب

والمسلمين في هذا الاتجاه.

كذلك فإن إصرار إسرائيل علىٰ إخراج الفلسطينيين كليًا من لبنان معناه ألا يكون هناك قضية فلسطينية، فضلاً عن تفرد المارون بالمسلمين بعد خروج الفلسطينيين والسوريين، كذلك فإن عدوان إسرائيل علىٰ هذا العدد الضخم في معسكرات «صبرا وشاتيلا» يهدف إلىٰ تقليص الفلسطينيين وفق هدف تصفية المطالبين بالوطن الفلسطيني، ومن ذلك أيضًا محاولاتها لإقامة كيانات صغيرة، وتمزيق لبنان، ومؤامرة إقامة دولة مسيحية في جنوب مصر، وإقامة دولة مارونية ودولة نُصيرية، كل ذلك يرمي إلىٰ توسيع سيطرتها، وتقزيم الجبهة العربية بعد تمزيقها.

فهذا الاحتواء يُسمىٰ السلام، وهو سلام مشروط ومُكبَّل، ليس فقط بكل القيود التي جاءت في نصوص المعاهدة، بل هناك شرط آخر غير مكتوب، هو عدم قدرة مصر علىٰ المشاركة في أي موقف عسكري إذا اعتدت إسرائيل علىٰ أي بلد عربي، والطائرات الإسرائيلية تُزوَّد ببترول مصري، وتمر سفنها في قناة السويس، فضلاً عن عدم قدرة مصر علىٰ تحريك قواتها العسكرية في سيناء، والوجود المُستديم لقوات الأمم المتحدة، وشرط المعاهدة الذي يمنع مصر من طلب سحب هذه القوات من سيناء، ومعنىٰ إشراك القوات الأمريكية في قوات الأمم المتحدة من شأنه أن يُمكنها من التحكم في مدخل خليج السويس والعقبة، والملاحة في البحر الأحمر، فضلاً عن تحكمها في ساحل البحر الأبيض من ناحية الشمال من سيناء.

ويقول **«إسماعيل فهمي»** وزير خارجية مصر: إنَّ اتفاقية «كامب ديفيد» قامت علىٰ أساس قرار انفرادي اتخذه السادات بزيارة القدس، ولم يتشاور مع أحد في مصر أو خارج مصر، فإذا أخذنا الشق الثاني من اتفاقية «كامب ديفيد» وهو الخاص بالشعب الفلسطيني، نجد أنها لا تتكلم عن:

(١) دولة فلسطينية.

(٢) أو حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني.

(٣) أو انسحاب إسرائيل بالكامل من الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧م.

وكان طبيعيًا بعد أن حيَّدت مصر أن تُعربد إسرائيل في العالم العربي؛ فتضم القدس، وتضم الجولان، وتضرب المفاعل الذري العراقي، ثم يجتاح لبنان، ومعنىٰ هذا أن زيارة القدس عام ١٩٧٧م لا يُمكن أن تُؤدي إلا إلىٰ السلام المنفرد مع إسرائيل، وأغلب عناصر هذا السلام لا مفر من أن تكون في صالح إسرائيل، أما مسألة استرداد سيناء، فأؤكد أن سيناء لم ولن تكون مشكلة في أي وقت إطلاقًا.

وقد وُقِّعت اتفاقية «كامب ديفيد» تحت نقد شديد حتىٰ من أقرب المقربين إلىٰ إسرائيل وأمريكا؛ فقد أشار «هنري كسنجر» في مذكراته إلىٰ عجبه الشديد من أن مصر لم تستطع أن تستفيد من نصر رمضان في استعادة حقوقها كاملة:

يقول في المحاضر السرية عن محادثاته (ص١٥٢): الحقيقة أنني مندهش من سلوك السادات؛ لأن الرئيس المصري لا يُظهر أنه حتىٰ الآن علىٰ استعداد لاستعمال كل قوىٰ الضغط السياسي التي خلقها الموقف العالمي الجديد (حرب رمضان) في مفاوضاته لفك الارتباط، إنَّ السادات يستطيع استعمال هذه الضغوط؛ لكي يفرض اتفاقًا شاملاً وعلىٰ شروطه، وحتىٰ لو تجددت المعارك فإن العالم سوف يُلقي اللوم كله علىٰ إسرائيل، إنني لا أعرف لماذا لا يُحاول السادات استعمال حقائق الموقف الجديد؛ لكي يضغط من أجل انسحاب إسرائيلي شامل، لقد وقع السادات ضحية الضعف الإنساني، إنه يتصرف بسيكولوجية سياسي يُريد أن يرىٰ نفسه وبسرعة راكبًا في سيارة مكشوفة، داخلاً في موكب منتصر إلىٰ شوارع السويس، بينما آلاف من المصريين يُصفقون ويهتفون له.

ويقول الدكتور «الشافعي محمد بشير»: كان لحرب ١٩٧٣م آثار بعيدة المدىٰ في الغرب، وبالنسبة للقوىٰ الكبرىٰ التي وجدت في اتحاد العرب وموقفهم من البترول خطرًا عليها وعلىٰ إسرائيل؛ ولذلك وضعت الخطط الحاسمة لكسر هذه الوحدة، وهذه ظاهرة ضخمة يجب أن تُدرس.

لقد كانت دول أوروبا الغربية متعاطفة مع إسرائيل منذ نشأتها، وتتخذ لها مواقف التأييد المطلق حتىٰ نشبت حرب أكتوبر ١٩٧٣م (حرب رمضان)، وفُوجئت بالعرب يتحدون ويستخدمون سلاح البترول في المعركة للضغط علىٰ أوروبا؛ حتىٰ تُقلل من دعمها لإسرائيل، وتُسلِّم بعدالة حقوق شعب فلسطين، وقد أفاقت أوروبا علىٰ حقيقة أن العرب مُمسكون بخناق الاقتصاد الأوروبي عن طريق تحكمهم في البترول، وهناك بدأت السياسة الأوروبية نحو طريق الواقع والتفهُّم العادل لقضية فلسطين، وكان مؤتمر القمة الأوروبية في «فينسيا» (يونيو ١٩٨٠م) من أخطر المؤتمرات الأوروبية التي أسفرت عن مبادرة سياسة تُؤيد الحق العربي، بينما يحدث هذا تقبل مصر في «كامب ديفيد» عدم إشراك منظمة التحرير، وقد كانت مصر تحتل دائمًا مركز الزعامة الإسلامية بحكم تراثها التاريخي، والثقافي، والمركز السامي الذي يتمتع به الأزهر الشريف في ربوع الأمة الإسلامية، بل كانت مصر المُدافع القوي عن الأقليات المسلمة في شتَّىٰ أنحاء العالم. فكان من نتائج «كامب ديفيد»:

(١) إيقاف عضوية مصر في منظمة المؤتمر الإسلامي (٤٢ دولة).

(٢) مقاطعة مصر اقتصاديًا.

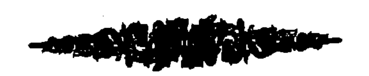
(٣) وضع مصر في القائمة السوداء مع إسرائيل، وتعرضت مصر لأكبر نكسة في علاقاتها مع الدول العربية؛ إذ تمزقت تلك العلاقات نتيجة للمبادرة، ورفضت الدول العربيَة معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، واتخذت إجراءات مضادة

لعزل مصر؛ فقطعت علاقاتها الدبلوماسية.

وقِيل إن اتفاقيتي «كامبَ ديفيد»، ومعاهدة السلام ستؤدي إلىٰ إقرار السلام في المنطقة العربية، غير أن الواقع يشهد بغير ذلك؛ إذ زاد التوتر في المنطقة، وزادت عربدة إسرائيل واعتداءاتها علىٰ مقدسات المسلمين والعرب في القدس الشريف والأرض الفلسطينية والعربية في لبنان وسوريا، وأصبحت المنطقة مُهددة بحرب أخرىٰ أوسع نطاقًا، وأصبحت الفرصة سانحة للإسرائيليين لتصفية القضية في المنطقة لصالحهم ضد مقتضيات أمن مصر ذاتها، وسلامة الأجيال المصرية القادمة.

كذلك فقد أُعتبر قرار مصر بالاعتراف بصورة انفرادية بإسرائيل، خروجًا علىٰ مُقررات التضامن الأفريقي (٦٠ دولة عربية وأفريقية)، واعتبر تصرف مصر بمثابة ردة هائلة عن مُقررات معظم دول الوحدة الأفريقية.

ومعنىٰ هذا كله أن إسرائيل ومن يقف وراءها لن ترضىٰ بغير الاستسلام التام، وتجريد العرب من كلِ وسائل الدفاع والنضال؛ حتىٰ يتم لها الغلبة في السيطرة علىٰ أسواق البلاد العربية المتخلِّفة، وبذلك يفتح المجال لمصانع أوروبا وأمريكا واليهود الذين يعلمون قبل غيرهم منطق التاريخ، أن إسرائيل لن تُسلِّم بالاستجابة وعدم التوسُّع إلا في مرحلة قصيرة وفي اتجاه واحد، أما علىٰ المدىٰ الطويل وبالنسبة للعرب كلهم، فإن أهدافها في التوسُّع قائمة، وقد تكسب إسرائيل ومن معها الجولة لفترة من الزمن، وقد تكسب إسرائيل بعض الزمن ما دامت أوروبا وأمريكا قوية متحمسة، حتىٰ ينهار هذا السند الخارجي، وقد تنعم إسرائيل بالدعَّة ما دام العالم العربي منقسمًا تستشري فيه الأطماع، ولكن إرادة المقاومة العربية الفلسطينية لا بد أن تتفجَّر يومًا، وتُدمر هذا الاستسلام.



الفصل الرابع

احتواء العقل الإسلامي

لعله في تاريخ المؤامرات الغربية والماركسية، لا يُوجد أشد خطرًا من هذه المحاولة الماكرة الخبيثة التي استطاعت احتواء حاكم مصري مسلم إلىٰ قبول الجلوس مع اليهود علىٰ مائدة صلح أو تفاهم، وما بينهما من دعوة إلىٰ وحدة الأديان الثلاثة، وتغيير مفهوم الجهاد الإسلامي المقدس إلىٰ نوع من الاستسلام لفكرة تُذيعها البهائية والقاديانية؛ بهدف القضاء علىٰ رُوح الإسلام الأصيلة، وما تبع ذلك من نظرة إلىٰ أهل الكتاب وإلىٰ دار الحرب ودار الإسلام، وإلىٰ تغيير المناهج الدراسية؛ بحيث يُرفع منها كل ما يتعلق بالصراع أو الحرب أو الخلاف بين العرب واليهود، ومحاولة إحلال مفاهيم زائفة تحت اسم أبناء العمومة، أو وحدة الأديان السماوية، وما يتصل بذلك من آيات القرآن التي تفضح اليهود وأهل الكتاب، وتكشف عن زيفهم وتحريفهم لمفهوم الدين الحق المُنزَّل، وبذلك يكسب التغريب مكسبًا كبيرًا، وتخسر الدعوة الإسلامية طابع الأصالة والتميز والذاتية الإسلامية الخالصة، التي هي الآن موضع تقدير وإعزاز الباحثين المُنصفين الغربيين الذين اكتشفوا روح الإسلام، وعرفوا ميزته ووجه الاختلاف بينه وبين المسيحية واليهودية، وهذا ما ترمي إلىٰ تحقيقه حركة الماسونية، وحركة التغريب، وحركة الحوار، وحركة الشعوبية جميعًا، والمحاولة الخطيرة التي تقوم بها إسرائيل تحت اسم التطبيع، هي تطويع العقل العربي الإسلامي لفكرة السلام المُستسلم المُتخاذل الخاضع، الذي تُسيطر عليه المُحاولات النفسية؛ لتذليله وقيادته وإخراجه من مفهومه الأصيل، وقد عمدت إسرائيل إلىٰ أسلوب التطبيع في

مجال الثقافة العربية الفلسطينية، وذلك عن طريق تبني بعض الأعمال الأدبية الهزيلة المنسلخة عن الواقع المُعاش، في الوقت الذي لعب فيه الأدب الصُهيوني دورًا بارزًا علىٰ الصعيد العالمي؛ لتجميع الرأي العام إلىٰ جانب إسرائيل.

أما بالنسبة للخطة التي تُتَّبع في العلاقات مع مصر فإنها أشد خطورة. لقد كان التركيز في التطبيع من جانب العدو علىٰ الجانب الثقافي، بالإيهام بأن التطبيع علاقة مع حضارة مُتطورة، وتناسوا أنهم مجموعة من الشباب تجمعت في ذلك الكيان العنصري، إننا نعرف أن إسرائيل واقع، ولكن هل كل واقع مُلزم، ما هي مصلحة المُواطن ومصلحة الوطن في تطبيع العلاقات مع العدو الصُهيوني. لقد أعلن «كيسنجر» حقيقة التطبيع، فقال: إنَّ الاعتراف بالدولة الإسرائيلية من جانب الدول العربية ومنظمة التحرير، لن تكون إلا بداية عملية تعديل وتنظيم للأوضاع الإقليمية تبعًا للإرادة الإسرائيلية.

إنَّ الخطر الحقيقي في هذه المنطقة سوف يُركز حول عدم القبول بالدولة الإسرائيلية، وما «كامب ديفيد» إلا نافذة يتسلل منها النفوذ الإسرائيلي؛ لتفتيت الوحدة الوطنية، وإقامة كيانات عنصرية في مصر، كما أُقيمت كيانات جزئية في لبنان مثل دولة «سعد حداد»، لقد زُيفت إرادة الشعب المصري منذ ١٩٧٧م إلىٰ اليوم، الاستفتاء الصحيح هو جنازة السادات، الشعب المصري ببساطته وشعوره الداخلي أبدىٰ رأيه في سياسات السادات، لقد سقطت تلك المدرسة التلمودية التي أقامها السادات؛ لإقناع من كان يُسميهم (أبنائي الشباب) بتلك المحاولات المضلِّلة؛ لإخراجهم من مفاهيم عداوة إسرائيل، ومن مفهوم الجهاد: تلك الفريضة الماضية إلىٰ يوم القيامة، إنَّ التطبيع هو محاولة احتواء العقل المصري العربي المسلم لمفاهيم الصهيونية ومقوماتها، وحقها في أرض الميعاد، وتوحيد الأديان الثلاثة.

ولقد تعالت الأصوات بالدعوة إلىٰ عقد مؤتمرات لدراسة المشكلة النفسية بين

العرب وإسرائيل، لا بهدف إقناع إسرائيل بمفهوم العرب، ولكن لاحتواء العرب، وصهرهم في مفهوم الصهيونية التلمودية.

ولقد حذَّر الكثيرون من خطورة الانبهار بالفكر الصُهيوني والاحتواء الصهيوني، ودعواهم أن العلاقة بين العرب وإسرائيل مسألة نفسية، وأن زيارة واحدة إلىٰ هناك ستُزيل الحواجز، وتهدم السدود، وتزرع المحبة، وتُنهي عصر الحروب والخراب والدماء.

والحقيقة أننا وجدنا من يقول بآخر الحروب، وبشعب إسرائيل، وبوحدة الأديان، بينما لا يتعرض للإسرائيليين بشيء من ذلك أبدًا، ويُصرون علىٰ أن يضعونا في دائرة فكرهم، ولا يقبلون بأي تنازل عن المفاهيم التلمودية، ولو مجاملة مع زعماء وخطباء أرادوا مجاملتهم.

والحقيقة أن السلام لا يصنعه الحكام، ولا يتحقق بالخداع، وأن الذين بحثوا من علماء النفس كانوا تابعين وخاضعين لنفوذ تغريبي خطير، حاولوا إقناعنا بأن المشكلة نفسية، وأنهم سيُحوِّلون إسرائيل إلىٰ حمل وديع، يرفع أغصان الزيتون بدلاً من البنادق، وأن مرحلة هواية قتل الأطفال، وبقر بطون الأمهات، وحرق المنازل، وإرهاب العزَّل، وحرق الآلاف بالنابالم، قد انتهت، وقد كذَّبتهم الأحداث، فما مضىٰ إلا القليل حتىٰ واصل الإسرائيليون مُخطَّطهم في دير ياسين، وفي بيروت ولبنان، وعلىٰ صورة أشد وأقسىٰ.

إنَّ أساتذة علم النفس يعلمون أنهم يُدافعون عن قضية خاسرة، وأنهم انساقوا إلىٰ خدعة كبرىٰ، فقد قال الدكتور «أحمد عكاشة»: ارفعوا أيديكم عن علم النفس، فما تفعلونه لا صلة له بهذا العلم، وأنكم لستم المؤهلين لخوض التجربة المُرة مع الصهيونيين وأعوانهم.

وقد أدرك المخدوعون أن الصراع مع إسرائيل لا علاقة له بالطب النفسىٰ، وأن ما تفعله إسرائيل هو محاولة لتجميع الموقف؛ حتىٰ تتمكن من تحقيق مآربها، وأنَّ هذا فخ منصوب لنا، ويتبين أن المشاركين من الجانب الإسرائيلي والجانب الأمريكي، هم خبراء في أجهزة التخابر، وكما قال أحدهم (وبدأ العدوان الوحشي علىٰ لبنان، وصمتت أصوات علماء النفس)، وكما استطاعت إسرائيل احتواء علماء النفس، كذلك فقد احتوت كبار الكتَّاب: «توفيق الحكيم»، «نجيب محفوظ»، «أنيس منصور»، «عبد العظيم رمضان»، فأضافوا ولاءً جديد إلىٰ ولاء «لطفي السيد»، و«طه حسين»، و«حسين فوزي»، القديم مع اليهود والماسونية والصهيونية وإسرائيل. إن كتاباتهم تهدف إلىٰ التمهيد لكل أهداف الصهيونية من وراء ستار رقيق، وعن طريق ماكر خبيث؛ وذلك بهدف أن تستسلم المنطقة لنفوذ الفكر الصهيوني الذي سيق عن طريق التحليل النفسي (فرويد)، والماركسية (ماركس)، والوجودية (سارتر)، ومدرسة العلوم الاجتماعية (دور كايم، وليفي بريل)، والوضعية المادية (زكي نجيب محمود)، ونظرية «ديوي»، وعشرات من المذاهب التي صاغها هؤلاء الكتَّاب، قصصًا ومسرحيات وكتبًا خدعت الكثير من شبابنا، وكانت بمثابة طلائع الاحتواء الصهيوني الغربي الماركسي.

كان هناك تساؤل خطير، وما زال قائمًا: هل من حق الحكام العرب إذا عجزوا عن تحرير فلسطين والأراضي العربية الأخرىٰ أن يُنهوا القضية؟، وأن يصفوا الحسابات لمصلحة اليهود؟، الإجابة الأمينة الصريحة تقول: لا، ليس من حق الذين عجزوا عن بلوغ الهدف أن يحشدوا الأمة في ساحة التوقيع علىٰ وثائق باطلة تُقر بوجود الكيان الصهيوني في فلسطين، وتصفية القضية لمصلحة الغزاة اليهود. إسلاميًا ليس من حقهم أن يفعلوا ذلك؛ لأن الباطل مهما طال عمره لا يُمكن أن يتحوَّل إلىٰ حق، وتقادُم الزمن علىٰ السرقة لا يُعطيها صفة الحلال أبدًا، وإن تم تزييف في صيغ تُسمىٰ قرار مجلس

الأمن رقم ٢٤٢ ،أو دعاوىٰ النفاق الدولي.

إن الباطل هو الباطل، أمس واليوم وغدًا، وفلسطين والقدس من حق أهلها، وهي أرض عربية، وجزء من الوطن الإسلامي، الذي عاهدنا الله علىٰ الدفاع عنه بأرواحنا وأموالنا.

ولقد تحولت معركة رمضان إلىٰ مأزق؛ فأصبحت انتصاراتها الجزئية التي كانت في نظر البعض طريقًا إلىٰ المعركة الحاسمة، تحولت إلىٰ اعتراف بالكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، وإقامة حواجز دولية بيننا وبين عدونا، وهي قوات الطوارئ الدولية، ومناطق منزوعة السلاح، ومزيد من تغلغل النفوذ الاستعماري الغربي، ولا شك أن هذه الخطوة ستكون بعيدة المدىٰ في حساب التاريخ، ومسؤولية الأجيال القادمة، كيف تحولت حرب رمضان إلىٰ اعتراف بإسرائيل بعد النصر الذي حققته؟!، وهل كان يُمكن أن تكون خطوة علىٰ طريق وعد «بلفور»، بعد أن شهد لها الناس بأنها أول انتصار عربي علىٰ طريق تحرير أرض القبلة الأُولىٰ.

ولقد تبيَّن الآن أن هذه المواقف كلها ليست إلا حلقة مُكمِّلة لمسلسل الحلقات المُتصلة للهزيمة والنكبة والنكسة، وأن الحكم العسكري الذي حُكمت به البلاد العربية، إنما كان جزءًا من العمل الذي مهَّد ودعَّم بقاء إسرائيل في أرض الإسلام.

وأن هذا الحدث هو خطوة علىٰ طريق قبول الوجود الصهيوني، والاستسلام له والقضاء علىٰ خطة الجهاد والمقاومة لتصفية إسرائيل، والحيلولة بين العرب وبين استعمال ثرواتهم التي جاءت في نفس وقت الهزيمة لتكون عامل قوة وقدرة علىٰ المقاومة، وانصهار الأمة العربية في الفكر الصهيوني، وامتلاك الصهيونية إرادة السيطرة علىٰ الاقتصاد، والبترول، والاستراتيجية العربية الإسلامية.

وإن كثيرًا من القوىٰ الحاكمة الآن إنما تعمل في سبيل دعم هذه الخطة، سواءً قدَّرت

ذلك أو غاب عنها، وأن كل خطوة في سبيل تقييد الحريات، أو السماح للانحلال والفساد الاجتماعي في الظهور، أو قبول احتواء الأنماط الاجتماعية الغربية، أو تأخير تطبيق الشريعة الإسلامية وبناء المجتمع الإسلامي، كل هذا من شأنه أن يدعم هذا الخطر، ويُمكِّنه من الزحف والسيطرة علىٰ العالم الإسلامي، ولا ريب أن هناك مرحلة جديدة تدخل فيها هذه اللعبة، وتُعد من أخطر المراحل التي يمر بها الإسلام والعرب في هذه الفترة الخطيرة من تاريخهم، وهي الاستسلام الكامل أمام إسرائيل، وهي خروج عن كل مواقف الصمود أمام النفوذ الصهيوني منذ الاحتلال اليهودي لفلسطين عام ١٩٤٨م حتىٰ الآن، ومع الأسف فإنها تأتي بعد هزيمة عاصفة للعرب والفلسطينيين واللبنانيين المسلمين في معركة لبنان، ومذبحة الفلسطينيين (أغسطس ـ سبتمبر ١٩٨٢م)، ولقد كان الأَوْلَىٰ أن تدفع هذه المعركة العزائم، لا أن تُؤدي إلىٰ الاستسلام أمام الغرب وإسرائيل بقبول التفاوض مع إسرائيل، وعقد صلح مع اليهود، والتسليم الكامل بالموقف الذي وصل إليه بعد نكسة ١٩٦٧م، وقد تنوسيت الحقيقة الأساسية، وهي احتلال فلسطين وبيت المقدس، واتفاق ١٩٤٧م الخاص بتقسيم فلسطين، بل إنَّ البلاد العربية قد حجبت مفهوم فلسطين الإسلامية، وقَصَرت الموقف علىٰ العرب وحدهم؛ عملاً علىٰ تثبيت الوجود القائم، وهذا هو الشر الثاني بعد الوقوف باستسلام أمام ضرب المقاومة، وضرب لبنان المسلمة قبل ذلك، وسوف يكتب التاريخ لهذا الموقف صفحة سوداء، لقد كسبت إسرائيل استسلام العرب بالعنف الذي قامت به، ولم يتمكن العرب من بناء قوة عسكرية تُواجه إسرائيل، وأصبحت يد مصر مغلولة، ماذا يعني هذا الاتجاه الذي تُركِّز عليه الصحف والإذاعات؟

كراهية الحروب والرغبة في السلام، وإثارة روح التراخي والترف والاستسلام بين شباب العرب والمسلمين، ماذا ستكون نتائج هذا الدور الذي استطاعت أن تفرضه الصهيونية خلال أربعين عامًا علىٰ العرب والمسلمين بدعواتهم ونظرياتهم المشبوهة،

وسيطرتهم على الإعلام العالمي، وتوجيهه لهدم العزيمة في النفس المسلمة؛ حتى يبقى اليهود وحدهم وهم الذين يملكون القدرة على الحرب والردع، وتوجيه الضربات العسكرية إلى كل مكان يرغبون.

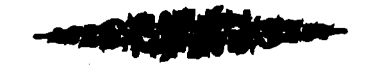
وبعد؛ فهل لنا أن نتساءل؟

هل العرب اليوم يدخلون عصرًا جديدًا يُمكن أن يُسمى عصر قبول الأمر الواقع والخضوع له دون أن يرتفع صوت بين قادتهم السياسيين يدعو إلى استئناف الجهاد في سبيل الله لتحرير الأرض المغتصبة، وإعادة القدس؛ حيث إن حكام العرب اليوم يقبلون مع إسرائيل بالحل السلمي.

هل هذه الفلسفة نتيجة لنضوج مذاهب البهائية والقاديانية في تأويل الجهاد، أو إسقاط هذه الفريضة؟

هل هذه المرحلة هي مرحلة انهيار، أم ترقب واستعداد للأحداث الحاسمة، التي قد تقع بعد عشر سنوات مثلاً؟

إذا كان هذا الحل فيما يتعلق بالأرض المغتصبة من إسرائيل سنة ١٩٦٧م، فما هو الحل بالنسبة للقدس؟، وماذا بالنسبة لقرار الأمم المتحدة ١٩٤٨م؟، وماذا بالنسبة لغزو اليهود لفلسطين أساسًا، وسيطرتهم عليها؟



الفصل الخامس

الانفتاح الاقتصادي والديون

جاءت مرحلة حكم السادات بعد عبد الناصر، مُغايرة في وجهتها، مُسايرة في نفس الخط الذي عُرف بحكم النظام العسكري الذي جاءت به حركة الجيش. وكان أبرز مخالفات حكم السادات، هو التخلص من النفوذ الشيوعي التابع للسوفييت، واتجاهه إلىٰ التبعية للنفوذ الأمريكي، وقد بدأ ذلك متدرجًا، حتىٰ تم بعد معركة رمضان، وكانت أبرز مظاهره:

١ - الانفتاح الاقتصادي.

٢ - اتساع نطاق الديون.

٣ - مزيد من التحلل الاجتماعي والتفسُّخ الخلقي عن طريق الصحافة والسينما والمسرح.

(١) أما بالنسبة للانفتاح الاقتصادي، فقد كانت تحولاً نحو التبعية الاقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية، أدخل مزيدًا من الديون والقروض، ولم يُحقق أي نتائج إلا في مجال الكماليَّات، وأدَّىٰ إلىٰ تسلُّل الشركات الأجنبية للسيطرة علىٰ الاقتصاد المصري، وزيادة طبع ورق البنكنوت المتداول؛ مما أدَّىٰ إلىٰ رفع الأسعار، والمعروف أن صدور عملة ورقية دون وجود غطاء لها من رصيد ذهبي أو عملات أجنبية، أمر يُؤدي إلىٰ التضخم وارتفاع الأسعار بنسبة تعلو كثيرًا علىٰ المعدل الذي يُمكن أن تُسببه ارتفاع الأسعار في الخارج.

وقد واصلت البلاد الاستدانة والاقتراض في سبيل تمويل المشروعات الكبرىٰ، وبدت ظاهرة ضخامة حجم القروض الأجنبية واضحة، والإقبال المتزايد علىٰ الاقتراض من الخارج؛ مما حمَّل البلاد أعباءً مالية ثقيلة؛ لخدمة هذه الديون في صورة أقساط السداد والفوائد، خاصة إذا كانت حصيلة هذه القروض تُصرف في الاستهلاك، وإصلاح المرافق التي لا تأتي بعائد يُمكن استخدامه في تغطية أعباء هذه الديون، ومن شأن هذه القروض أن تكون عقبة في سبيل النهوض والانطلاق، وتسمح لأصحاب القروض بالضغط علينا بشتَّىٰ الطرق والوسائل.

كذلك فقد كشف رجال الاقتصاد عن أن الانفتاح الاستهلاكي كان محطِّمًا لطاقاتنا الانتاجية، وأن عدم وضع ضوابط للانفتاح الاقتصادي لضمان عدم طغيان الاتجاه نحو إغراق الأسواق المحلية بالسلع الاستهلاكية الكمالية، التي لا يستطيع اقتناءها الأفراد العاديون، وتُزيد من أحقاد العاجزين عن اقتنائها، وتُنافس السلع المحلية منافسة قاتلة، وتُضعف من اتجاه أصحاب رؤوس الأموال المستثمرين إلىٰ المشروعات الإنتاجية.

كذلك فقد آذن التطبيع مع إسرائيل بنفوذ اقتصادي إسرائيلي تكون له خطورته، خاصة إذا جرىٰ الشأن في دراسة مشروعات استثمارات زراعية يُموِّلها الإسرائيلي اليهودي (إدموند روتشيلد).

والمعروف أن الاقتصاد المصري عام ١٩٧٠م (عام وفاة عبد الناصر) كان تحت الصفر، ولكنَّ توسعات قناة السويس فيما بعد حقَّقت إيرادًا سنويًا يزيد عن ألف مليون دولار، كذلك الاكتشافات البترولية التي قُدِّر عائدها السنوي بمليارات الدولارات، ومع ذلك فلم يتوقف الاقتراض من الدول الأجنبية حتىٰ بلغ ٢٠ مليارًا في آخر حكم السادات، وكان ٦ مليارات عند بدء حكمه، وقد أدَّىٰ الانفتاح الاقتصادي ـ الذي كان أحد المتغيرات بعد حرب رمضان ـ إلىٰ ظهور جماعات طُفَيْلية جديدة أُتخمت

بالمكاسب الشخصية الضخمة بدون إضافة حقيقية إلىٰ الثروة القومية.

ومن أخطاء الانفتاح أن ابتعد المستثمرون عن مجال الإنتاج والإسكان الاقتصادي، واتجهوا لبناء الأبراج العالية والبضائع الترفيهية المستوردة؛ لتحقيق أكبر ربح في أقصر مدة، مستفيدين من الفترة الزمنية الممنوحة للإعفاء الضريبي، ومن ثمَّ تحوَّل الانفتاح الاقتصادي إلىٰ سمسرة وتكوين ثروات، وفي نفس الوقت عجز المصريون عن سد حاجتهم من الحبوب، أو الاعتماد علىٰ النفس للاكتفاء في مجال احتياجات الطعام والكساء، وكانت البضائع المُستوردة كلها في مجال الترف والكماليات.

وبالجملة فإن الانفتاح تُرجم إلىٰ أعمال سمسرة وتكوين ثروات، بدلاً من أن يكون انفتاحًا إنتاجيًا يحل مشاكل البلاد الاقتصادية ويُزيد الإنتاج، كذلك فقد عمد النفوذ الأجنبي إلىٰ التحذير مما أُطلق عليه «الانفجار السكاني»، وعلت نغمة الدعوة إلىٰ تحديد النسل.

والانفجار السكاني بدعة سياسية غربية، ترمي إلىٰ بقاء السيطرة الغربية علىٰ الموارد والتجارة في عالم الإسلام، والحيلولة دون زيادة السكان في العالم؛ مما يُؤثر علىٰ الرفاهية الغربية.

ومع أن الكنيسة الغربية رفضت تحديد النسل كما رفضته الشيوعية العالمية، فإن ضحايا هذا التيار المسموم هم المسلمون وحدهم، الذين يُراد إنقاص عددهم مع نمو أهل الأديان الأخرىٰ، ونمو الهجرة اليهودية إلىٰ فلسطين المحتلة.

وهي دعوة باطلة ليست من الدين ولا من العلم، وهي بدعة ضد الفطرة، حملت لواءها الدول ذات النفوذ السياسي وقصرتها علىٰ العالم الإسلامي، وقد رفضت الدول الشيوعية أن تُبيح الإجهاض، أو تفرض التعقيم في أي من هذه الدول، وقال «خرشوف» عام ١٩٥٠م: «إنَّ الإمبريالية الجديدة تُصدِّر إلينا دعوىٰ لم تنجح عندها، وليست من

مصلحتنا؛ ذلك أن زيادة النسل ما هي إلا قوىٰ عاملة تُزيد الإنتاج، وقوة تُثبِّت دعائم الشيوعية».

ولا ريب أن تفاقم الديون الخارجية علىٰ مصر علىٰ هذا النحو؛ مما جعلها تدفع ستة مليارات دولار أقساط وفوائد الديون في عام واحد، مرجعه إلىٰ السباحة ضد التيار الإسلامي الذي قدَّم للمسلمين منهجًا اقتصاديًا كريمًا مُسعدًا للناس والبلاد، فقد اندفع الحكام إلىٰ الاقتراض والإنفاق المُسرف علىٰ الدعاية والحروب في اليمن، والمظهريات الباذخة الضالة، كل هذا من أجل لمعان أسمائهم وخداع الناس، وقد أثرىٰ أعوانهم وأتباعهم، وقد اتسع نطاق الديون حتىٰ أصبحت القروض تتم من أجل الاستهلاك وشراء السلع والأغذية، بل إن مصر وبعض البلاد العربية وصلت إلىٰ أسوأ الأحوال، حين أصبحت محتاجة إلىٰ استيراد القمح وهو الطعام الرئيسي، والاستسلام أمام قوىٰ كبرىٰ تُقدمه، وتستطيع في الوقت الذي تراه أن تمنعه، وأن تُهدِّد به في سبيل تنفيذ أهدافها، وإذلال هذه الأمة لأغراضها ومطامعها.

ولا ريب أن التوسع في هذه المعونات والقروض يجعل البلاد خاضعة، ولا بد من الاعتماد علىٰ الذات حرصًا علىٰ حرية الحركة، وسلامة الوجهة.

والمعروف أنه في مرحلة حكم السادات (١٩٧٠م - ١٩٨١م) قد فُتح الطريق لنفوذ البنوك الأجنبية، التي بدلاً من أن تُصبح مركز جذب للأموال إلىٰ مصر، تحوَّلت إلىٰ مركز طرد لهذه الأموال إلىٰ الخارج، وقد تكشف عن عملية السلب المُنظَّم التي تقوم بها البنوك الأجنبية لأموالنا، ومن خزائننا القومية.

كذلك فإن القروض والمساعدات الأجنبية لم تكن حرَّة، ولكنَّها كانت مشروطة باستيراد سلع من البلاد المُقرِضة.

وهدف البلاد الرأسمالية من هذه القروض أو المعونة هو الحصول علىٰ أسواق

جديدة وتأمين هذه الأسواق أمام صادراتنا؛ لتصريف ما لديها من فائض الإنتاج الزراعي والصناعي بما يضمن لها حالة من الاستقرار الاقتصادي، ويُمكنها من تخطي أزمات النظام الرأسمالي المتحدة التي تجمع الآن بين الانكماش والتضخم.

وقد تمكنت الولايات المتحدة من الاستيلاء علىٰ مساحة كبيرة من السوق المصرية واستحوذت عليها، وأصبحت هي المُورِّد الأول الرئيسي لمصر الآن.

وأن تلك القروض التي قُدمت لمصر هي فائض الحاصلات الزراعية التي تُلقىٰ في البحر إذا جاء موعد الموسم الجديد، وتُقدِّم أمريكا للدول الموالية لها هذه القروض تحت عنوان (الغذاء في خدمة السلام)، وهي تُتيح لأمريكا التخلص من فائض حاصلاتها الزراعية والمحافظة علىٰ التوازن الاقتصادي داخلها، بل إن هذا النوع بالذات من المساعدات والقروض الأمريكية إنما يُستخدم كسلاح فعَّال لضغوط سياسية علىٰ الدول النامية، فتتم هذه المساعدات للدول التي ترضىٰ أمريكا عنها، بينما تحجب عن تلك الدول التي تنتهج سياسات لا تروق للحكومة الأمريكية، وهذا ما فعلته أمريكا مع مصر في الستينيات عندما قطعت عنها هذه المعونات عندما تحولت في اتجاه الاتحاد السوفييتي.

وثمَّة خطر آخر لهذا النوع من القروض الأمريكية يُحذِّر منه رجال الاقتصاد، وهو خطر إضعاف القطاع الزراعي في هذه الدول التي تعتمد علىٰ المساعدات الغذائية الأمريكية؛ نتيجة لعدم الاهتمام به شيئًا فشيئًا، ثم تتعود هذه الدول علىٰ المساعدة الأمريكية فتُهمل تنمية القطاع الزراعي بها، فتضعف وتتخلف ويزداد اعتمادها علىٰ أمريكا، وهذا يحمل معه أخطار التبعية لها، وخلال سنوات قليلة صارت مصر تُعاني من هذا الخطر؛ فقد باتت تعتمد علىٰ أمريكا للحصول علىٰ ثلث حاجياتها من الحبوب، ولذلك فإن أغلب القروض الأجنبية للدول النامية هي قروض للاستهلاك،

أما القروض المُخصصة لتمويل المشروعات الطويلة الأجل ومشروعات التنمية فإنها لا تصل إلىٰ (٢ في المئة) من إجمالي القروض الأمريكية، ومعنىٰ هذا اهتمام أمريكا بزيادة صادراتها إلىٰ مصر ولا تهتم بمساعدة مصر علىٰ إنجاز التنمية بها، فإن أمريكا تفرض شروطًا لقروضها، ومساعداتها التي تُقدمها تتسم بقدر كبير من القسوة، فهي ترفع نسبة الفائدة، وتُقْصِر القروض الأمريكية علىٰ تمويل واردات أمريكية فقط، ومعظم السلع الأمريكية ترتفع أسعارها عن مستوىٰ الأسعار العالمية بنسب عالية (٢٠ إلىٰ ٥٠ في المئة)، وهذا يُؤدي تلقائيًّا إلىٰ زيادة أكبر في أعباء هذه القروض الأمريكية.

وهذا هو المأزق الذي وضع فيه حكمُ السادات مصر، ولا شك أن العالم الغربي حريص علىٰ ألا يُصدِّر للبلاد العربية والإسلامية القدرات التي تُمكِّنه من بناء تكنولوجيا خاصة به، وأن يظل تابعًا للتكنولوجيا الغربية، وهكذا ظهرت نتائج التبعية الأمريكية والإسرائيلية في العزل عن البلاد العربية وفي الأزمات الاقتصادية، ولم يصدق ذلك الحديث الذي كان يُصرح به بأن الاتفاقية المصرية الإسرائيلية ستكون مصدر رخاء واسع علىٰ نحو كشفت عنه أحداث ١٨ و ١٩ يناير، وفشل حكم السادات في فهم الظروف التي أدَّت إلىٰ التفاف الجماهير حوله في حرب أكتوبر، وظنَّ أن التساهل مع العدو، وليس تسديد الضربة ضده، هو الذي يُعيد الجماهير إلىٰ حظيرة الولاء.

وقد أشارت محكمة أمن الدولة أن أحداث (١٨ و ١٩ يناير) كانت نتيجة المعاناة الاقتصادية التي كادت أن تأخذ بخناق الأمة المصرية في ذلك الحين، والتي كانت تمتد لتشمل مُجمل نواحي الحياة والضرورات الأساسية للإنسان المصري؛ حيث كان يُلاقي المصريون الصعاب وهم يُواجهون صعودًا مستمرًا في الأسعار مع ثبات في مقدار الدخول، هذا إلىٰ جانب استحكام أزمة الإسكان وتطرق اليأس إلىٰ قلوب الناس والشباب في الحصول علىٰ مسكن، وما كان يُردده المسؤولون من إقبال الرخاء، وتعرض عليهم الحلول الجذرية التي سوف تُنهي أزماتهم وتُزين لهم الحياة الرغدة، ففوجئوا

بقرارات تُصدرها الحكومة برفع أسعار العديد من السلع الأساسية، فأتىٰ انفعال زلزل قلوب هؤلاء الناس، وكان لا بد لهذا الانفعال أن يجد له مُتنفسًا، فإذا الأعداد الهائلة من هذا الشعب تخرج مندفعة إلىٰ الطرقات والميادين، وكان هذا الخروج عفويًا وتلقائيًا محضًا، وإذا هذه الجموع تتلاحم هادرة زاحفة معلنة سخطها لتلك القرارات.

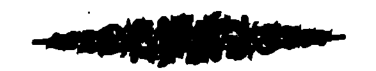
وقد تحدث كثير من الباحثين عن فساد التنمية في ظل التبعية السياسية والعسكرية للولايات المتحدة، وانعدام الديمقراطية خلال الحكم العسكري، وما فشلت سياسة الانفتاح في تحقيقه من زيادة الإنتاج الصناعي والزراعي، وقد تبين أن سياسة الباب المفتوح والاستثمارات القادمة من الغرب والشركات الدولية العملاقة، إنما هو في حقيقته تنمية رأسمالية خاصة في إطار النظام الرأسمالي العالمي الذي تقوده الولايات المتحدة.

مؤامرة تحديد النسل:

إنَّ مؤامرة تحديد النسل إنما تهدف إلىٰ إبادة العالم الإسلامي، وأن المخترعين لهذه الفكرة أرادوا أن يكيدوا بالأمة الإسلامية، وأن المجندين لها من المسلمين وقعوا في أحبولتهم، وسيكون لهذا التحديد عواقب سياسية واقتصادية واجتماعية. إن هذا التحديد مضاد للشريعة الإسلامية؛ فقد أجمع المسلمون علىٰ أن من أغراض الإسلام من النكاح هو التناسل، وصح في الأخبار عن الرسول (ﷺ): أن المرأة الولود خير من العقيم، ولا يُعتد بالأسباب الواهية التي يذكرها أنصار تحديد النسل، كتخوفهم من كثرة النسل، وتعذر التغذية، وفساد التربية، فالرزق علىٰ الله مكفول ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ (الإسراء: ٣١)، والثروات الطبيعية عظيمة في بلاد الإسلام، ومجالات العمل رحبة، والمساحات لإيواء السكان شاسعة. إن العدو الصهيوني يستورد من أقطار الدنيا شذاذ الآفاق؛ لتعمير بلاد العرب المُغتصبة، كما أن دولاً عظمىٰ مثل فرنسا لا تكتفي

بأبنائها للمُكاثرة، بل تفتح باب التجنيس علىٰ مصراعيه.

يقول «أبو الخير نجيب»: إنَّ اشتراك الدول العظمىٰ في الدعوة إلىٰ تحديد النسل في بلاد المسلمين يُضاعف من الارتياب الذي يُحرِّك القوىٰ الإسرائيلية ومن ورائه النشاط الأمريكي لوضع الأغلال والأسوار العالية حول الثروة البشرية المصرية لوقف أية زيادة في السكان؛ وذلك تجاه النقص الكبير في سكان إسرائيل، ويبدو أن السلطات في بعض الدول العربية قد وقعت فريسة الزعم الخادع بأنَّ المشكلة الاقتصادية ناشئة من زيادة السكان، فأخذوا في تصوير هذه الزيادة بأنها الوحش الكاسر الذي يستوجب التصدي له بكل الوسائل المتاحة، وقد فاتها أن الثروة البشرية هي العملة الصعبة التي تتوالد منها كل القوىٰ، وأنه مطلوب لتعمير جزيرة سيناء ما لا يقل عن عشرة ملايين مواطن مصري؛ بزيادة المواليد والصعود بهم إلىٰ ما لا يقل عن مئة مليون مصري، إنَّ الكثافة السكانية في الوادي شرقًا وغربًا يجب أن تكون هدفًا ثابتًا في المجالين الاقتصادي والعسكري معًا.



الفصل السادس

ضرب الصحوة الإسلامية

عندما سقط عبد الناصر بدأ فجر جديد من الأمل في العودة إلىٰ الأصالة، وتعالت صيحة عميقة من أحشاء الشعب بأن المجتمع والحكم قد انحرف في طريق بعيد كل البعد عن المواريث الإسلامية الأصيلة، وأن الهزيمة التي أُطلق عليها اسم النكسة، والتي كانت فادحة وشديدة، إنما جاءت نتيجة التخلف عن منهج الله.

وقد برزت هذه الموجة القوية عندما طُرح إعداد الدستور الدائم للجمهورية، وكان هناك ما يُشبه الإجماع علىٰ إضافة مادة «التشريع الإسلامي هو المصدر الأساسي للقوانين»، وكان الشعب كله يدعو إلىٰ ذلك ويتطلع إليه، وإن كانت المادة قد ظهرت بدون تعميم فأصبحت (مصدرًا)، ثم عُدِّلت بعد سنوات طويلة، ولكنَّها كانت منذ ذلك الوقت علامة علىٰ الاتجاه الشعبي العارم لتطبيق الشريعة الإسلامية كمخرج من الأزمة التي وقع فيها العرب والمسلمون بالهزيمة والنكبة والنكسة منذ ١٩٤٨م إلىٰ ١٩٦٧م، ومن ثمَّ فقد بدأت عمليات تقنين الشريعة وكانت قد بدأت قبل ذلك بخطوات مجموعة من الأبرار لإعداد القانون المدني، منهم: عبد الحليم الجندي، علي علي منصور، أحمد موافي، مصطفىٰ كمال وصفي، جمال المرصفاوي.

ثم جاء هذا التَّحول الكبير بإنهاء المد الشيوعي الذي كان قد استفحل ووصل إلىٰ مراحل خطيرة من السيطرة علىٰ الصحافة والإعلام والمسرح، فقد بدأت البلاد تتحول حثيثًا إلىٰ معسكر الغرب، وكان ذلك من الخطوات الحاسمة في التحول الذي حقق ذلك الانتصار المحدود في حرب العاشر من رمضان لاستعادة قناة السويس، وجزء من

صحراء سيناء، والجولان، والضفة الغربية من يد إسرائيل.

لقد انكسر القيد الحديدي الذي صنعه التغريب في مواقع كثيرة، انكسر بالتخلص من الشيوعية والولاء الماركسي الذي كان قد جثم علىٰ الفكر الإسلامي وأفسد كل شيء، وانكسر حين ارتفعت راية لا إله إلا الله في العبور بمفهوم الإسلام في مدافعة العدو، ولكن العتاة الذين يُريدون حركة التغريب ويرصدون الأمور لم يلبثوا أن احتووا هذا الاتجاه الذي ظننا أنه علىٰ الطريق الصحيح لتحرير الوطن الإسلامي من التبعية، وذلك بظهور مفهوم الجهاد مرة أخرىٰ بعد أن تحطم أكثر من مرة، بعد الموقف الذي وقفته الجزائر في وجه النفوذ الفرنسي، وبعد الموقف الذي بدأت به حركة فتح، وتحطم مرة أخرىٰ بعد العاشر من رمضان.

فإذا كان النفوذ الماركسي قد خفَّ وتضاءل - وإن كانت جيوبه لا تزال باقية من جوانب كثيرة في مجالات الصحافة والجامعة والثقافة، فإن الصهيونية والغرب أخذوا يحاصرون هذا الوطن محاصرة شديدة، فتحول نصر أكتوبر إلىٰ احتواء صهيوني خطير.

ذلك أن هناك مراصد دقيقة ما تكاد ترىٰ ظاهرة الاتجاه الإسلامي تبدأ حتىٰ تعمل علىٰ إزاحتها ومسحها، وذلك ما حدث فعلاً، فإنه ما كادت ظاهرة الدولة الإسلامية تظهر في إيران، وتقوم في تركيا حركة إسلامية، وتعدد ظهور الجماعات الإسلامية في عدد من البلاد العربية، حتىٰ انزعجت لذلك مراصد الغرب، وقامت حركات عسكرية لمقاومة هذا التيار فكان أن قُدِّم للمحاكمة في تركيا دعاة الإسلام، وحدثت اعتقالات واسعة في العديد من البلاد العربية.

وعلت كلمة فصل الدين عن السياسة علىٰ ألسنة كثير من ذوي النفوذ، وطالب غيرهم تحطيم قيم الإسلام في الزواج والطلاق، وحرَّف آخرون منطوق القرآن، وأعلنوا في جرأة بالغة مهاجمة السنة النبوية.

ولا ريب أن فكرة فصل الدين عن السياسة هي مؤامرة النفوذ الأجنبي على البلاد الإسلامية منذ اليوم الأول، وأن الدعوة الإسلامية ما قامت ولا استعلنت إلا لتصحيح هذا الخطأ، ولتُعيد المسلمين مرة أُخرى إلى إطار دينهم في مفاهيمه السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والتربوية.

ولكنَّ الواضح لمن يقودون العالم الإسلامي نحو الاحتواء ونحو سيطرة الشيوعية أو الصهيونية عليه، أو في سبيل البقاء في سدة الحكم، كانوا يُركِّزون تمامًا على هذا المعنى، وما علَّمتهم النكسة بعد النكبة والهزيمة شيئًا ذا بال، وما عرفوا أن صيحة الله أكبر في حرب رمضان كانت مصدر ذلك التحول الكبير وذلك النصر العظيم، وأنها هي مفتاح الطريق إلى تحرير الأمة الإسلامية لفكرها وأرضها من كل نفوذ، وأن الإسلام ما كان يومًا ما دينًا لاهوتيًّا، ولكنه كان دين عبادة لله في حقيقته، ومنهج حياة، ونظام مجتمع.

ومن هنا كانت تلك النقمة العنيفة على الدعوة الإسلامية مُمثَّلة في تلك الطلائع الشابة التي بدأت تظهر بعد نكسة ١٩٦٧م تحت اسم «العودة إلى الله»، ومن هنا كانت تلك المخططات المتآمرة التي عُقدت والتي استرجعت التاريخ الطويل للخطوات التي اتُّخذت في سبيل كبت الدعوة الإسلامية وتدمير وجودها، ولكن لما كان هذا الأسلوب لم يُحقق شيئًا، ولما كانت الدعوة إلى الديمقراطية تحمل في طيَّاتها تمكين القوى الوطنية جميعًا من إعلان رأيها والدفاع عن فكرتها في إطار الشريعة والدستور، فقد كان لا بد أن تُتاح الفرصة لهذه الجموع في أن تتكلم وتتحرك، ولا ريب أن ذلك من شأنه أن يُحقق الأمن لهذا الوطن.

ولا ريب أن ظاهرة العنف - كما يقول الدكتور إبراهيم العدوي وكيل جامعة القاهرة - ليست نابعة من داخلنا، بل هي ظاهرة وافدة علينا، وأن مصادر العنف كظاهرة هي من

مصادر غير إسلامية، إنها من مصادر شيعيَّة أو إلحادية، ذلك أن الإسلام لا يحض على العنف، وأن عظمته واستمراريته تكمن في أنه لا يدعو إلى العنف، بل ينأى بأتباعه قدر المستطاع عن العنف، ثم إن هناك عوامل كثيرة تُغذِّي ظاهرة العنف لدينا، من أهمها: سفر أبنائنا الطلبة إلى الخارج، إنَّ كل أبنائنا الذين يرحلون إلى أوروبا وأمريكا يعودون مُحمَّلين بظاهرة العنف، كذلك يرى الشيخ جاد الحق - شيخ الأزهر - أنَّ التَّطرف جاء من الثقافات الوافدة الواردة، وأنه قد وفدت إلينا أفكار ومذاهب وأيدلوجيات كثيرة لم نستطع مع الأسف أن نتصدى لها، أو أن نعصم منها شبابنا، وأنه لم يكن في إذاعاتنا أو مدارسنا أو برامجنا ما يكشف لشبابنا حقيقة هذه الأخطار، وكيف وردت؟ أو ما هو مركزها؟ أو ما هو مدارها في نطاق أحكام الإسلام؟

ويرى الشيخ الحسيني هاشم أن ظاهرة الانحراف جاءت كرد فعل للانحراف الفكري، وظاهرة العنف ظهرت بعد أحداث عبد الناصر وما فعله بالشباب المسلم في المعتقلات والسجون، وما أدخلته الشيوعية من فساد للمجتمع المسلم، وأن الفكر الشيوعي المنحرف هو الذي ولَّد الفكر الديني المتمرد.

وفي تقدير عدد كبير من الباحثين أن ظاهرة التطرف الديني يُمكن أن يقضي عليها:

أولاً: علاج تناقضات المجتمع التي تفرز العنف.

ثانيًا: وضع الحلول للمشكلات الاجتماعية التي تزرع العنف والإحساس بالاغتراب.

ثالثًا: تطهير الكثير من المقررات الدراسية التي تُربي الطالب على المبادئ الوافدة، وتربيته على المبادئ الإسلامية.

رابعًا: الرد على الأخطار الوافدة والنظريات العلمية الغربية التي تتناقض مع أساس

ديننا.

خامسًا: تصحيح الفهم أولاً، ثم مراقبة السلوك.

سادسًا: رعاية الأبناء في المدرسة والبيت والشارع ووسائل الإعلام.

سابعًا: علىٰ الدولة أن تُعنىٰ بالمظهر الديني العام، بمعنىٰ عدم السماح ببيع الخمور والمحظورات الشرعية، والحرص علىٰ إغلاق المحلات التجارية عند صلاة الجمعة.

ثامنًا: عدم السماح للسيَّاح الأجانب بالسلوك والمظهر المخالف لعادات وتقاليد البلاد.

تاسعًا: عدم السماح لشبابنا بالسفر إلىٰ الخارج في الإجازات الصيفية لما رأيناه من المظاهر السيئة التي جاءوا بها.

* * *

ويقول الدكتور إدريس الكناني: إنَّ مصطلح التطرف الديني هو من صنع الأجهزة الاستعمارية الغربية التي تُشرف علىٰ توجيه الإعلام الغربي، ووضع الصيغ والمصطلحات النفسية والاجتماعية الملائمة لمخططات السياسة في العالم العربي، كما استعملت عددًا آخر من المصطلحات، من بينها:

أزمة الشرق الأوسط، الدول المتطرفة والدول المعتدلة، الدول الفقيرة والدول الغنية، العالم الثالث، حقوق الإنسان.

ولهذه المصطلحات هدف استعماري يغيب عن أكثر الذين يعنيهم الأمر، في الوقت الذي يقعون بجهلهم في أحبولته.

إن قصة اغتصاب فلسطين، ومؤامرة الغرب الاستعماري مع الصهيونية العالمية

لتأخير نهضة العالم الإسلامي مئة عام أخرىٰ، يجري العمل علىٰ تقليل أهميتها، وإحاطتها في الإعلام العالمي بالغموض، واعتبارها مجرد أزمة عابرة بين دول المنطقة نتيجة صراع ديني وقومي بين اليهود والمسلمين، وخلاف حول حدودها، ومع ذلك فالإعلام العربي يتحدث هو نفسه يوميًّا عن (أزمة الشرق الأوسط). الدول الأفريقية الفقيرة التي هي غنية بمعادنها وثرواتها الطبيعية، ولكنَّ الإعلام الاستعماري يُريد إقناعنا دومًا بأنها فقيرة؛ لتستمر في خدمة واستجداء الدول الاستعمارية الغنية.

ووصف حركات التحرر من السيطرة الاستعمارية بأنها الاضطرابات في العالم الثالث، وتُوصَف بأنها خطر كبير علىٰ الأمن الأمريكي، ومصطلح «محو آثار العدوان» الذي أُطلق بعد هجوم إسرائيل علىٰ البلاد العربية ١٩٦٧م كان يبدو أنه مصطلح غربي لعب دورًا إعلاميًّا في التركيز علىٰ العدوان الجديد، وإغفال العدوان القديم.

وإذا قِيل التطرف الديني، فالمعنيون به هم المسلمون فقط من شعوب وحركات وجمعيات، فاليهود وديارهم منذ قيام إسرائيل حتىٰ الآن لا يُعتبر عملهم تطرفًا دينيًّا، وما تقوم به حكومات مسيحية كالفلبين ضد المسلمين لم يصفه أحد في الغرب بأنه تطرف ديني.

وعبارة التطرف الديني ترمي إلىٰ ضرب عصفورين بحجر:

أولاً: تخويف وتأليب الحكومات والرأي العام العربي ضد الحركات الإسلامية بصفة عامة، باعتبار أنها منبع خطر دائم عليها يتميز بالتطرف الديني بدل التعاون معها ضد الخطر الحقيقي الأجنبي المُتمثل في الإمبريالية والصهيونية.

ثانيًا: تخويف وتأليب الحكومات والرأي العام ضد الحركات الإسلامية، باعتبار أنها مصدر خطر جديد (غير معقول) يقف حائلاً ضد رخاء الغرب، إذ من غير المعقول أن تُصبح الشعوب التي حكمها الاستعمار بالأمس سيدة نفسها، بل تتحكم في مصير

أسيادها السابقين.

إن ما يُسمىٰ بالتطرف الديني لا يُمكن أن يُعتبر شذوذًا خارجًا عما تعرفه ظاهرة العنف والإجرام التي تتميز بها حضارة الغرب المادية المعاصرة، فحوادث العنف الإسلامية لا تزال أقل بكثير من حوادث الإرهاب التي تعرفها إيطاليا، وألمانيا، وأسبانيا، وانجلترا، وفرنسا، والولايات المتحدة، وهكذا تمر أخبار التطرف اليميني والتطرف اليساري في الغرب بهدوء تام، في الوقت الذي يدق فيه الإعلام الغربي يوميًا ناقوس الخطر ضد التطرف الديني. والإعلام الغربي يحكم مُسبقًا علىٰ كل عنف سياسي يصدر في العالم الإسلامي بأنه صادر من نزعة دينية محضة. إن الإسلام لا يُقر العنف والإرهاب، والعنف الذي حدث بقتل ثلاثة من الخلفاء الراشدين لم يُوصف بأنه تطرف ديني، ولكنَّه وُصف بأنه ظاهرة سياسية عربية.

العنف السياسي: سلوك مُخالف للقانون الجنائي، والأسلوب العملي لمنع الجريمة يتركز في منع أسبابها وعواملها، وقد فشلت جميع أسباب العلاج القائمة علىٰ الردع والزجر حتىٰ الآن، وكل محاولة لعلاج العنف السياسي بأسلوب الوعظ والإرشاد الديني مع استمرار الأسباب والعوامل الدافعه إليه سيكون مآلها الفشل.



الفصل السابع

سقوط الطغاة

كان من أخطر ما قصد إليه النفوذ الأجنبي في سبيل إدامة سيطرته علىٰ الأمة الإسلامية إنشاء جيل من القادة يحكم علىٰ طريقتهم، يُربيهم علىٰ مفاهيمه والولاء له، ويُفرِّغهم من الإيمان بالله وبالإسلام، ويفتح لهم طريق المطامع والشهرة والبطولة عن طريق الولاء له، وحين ننظر إلىٰ تاريخ الإسلام في العصر الحديث نجد هؤلاء القادة الذين انحرفوا بالأمة الإسلامية عن طريقها إلىٰ طريق العلمانية والتغريب، ففي مصر وتركيا وإيران وأندونيسيا والهند تجد هذه النماذج واضحة سافرة، قد جرَّأها النفوذ الأجنبي علىٰ الخروج من دائرة الإسلام - التي عاش فيها قادة المسلمين أربعة عشر قرنًا - ليحملوا لواء الفكرة الغربية، ويُدافعوا عنها، ويدعون إلىٰ فصل الدين عن الدولة، وإعلاء شأن الأقليَّات والقوميَّات، وإبراز الولاء للغرب وللنفوذ الأجنبي، والإشادة ببطولات الغرب وتعظيمه، والنظر نظرة الاستهانة والاحتقار إلىٰ أمجاد الأمة الإسلامية، ويُعد سعد زغلول أول هذا الجيل، فقد صنعه «كرومر» علىٰ عينه، وعلَّمه كيف يتجه في عنف وجسارة إلىٰ سحق القيم القائمة، وإعلان الولاء للغة الإنجليزية وللنفوذ الإنجليزي، واحتقار الإسلام والاستهانة به، والانتقاص من شأن القيم الإسلامية، وكسرها وتحطيمها في سبيل بناء القيم المصرية المنفصلة عن الإسلام وعن العالم الإسلامي والخلافة الجامعة، وقد استطاع سعد زغلول بمعونة النفوذ الأجنبي أن يُحطِّم الحركة الوطنية التي كان يحمل لواءها مصطفىٰ كامل ومحمد فريد، وتقديم رجالها للمحاكمة وهو وزير للحقانية، وكذلك كان دوره في سحق اللغة العربية وهو

وزير للمعارف، وإتاحة الفرصة لنمو اللغة الإنجليزية، وكذلك دوره في إعادة بعث قانون المطبوعات القديم، وذلك بمحاكمة الكتّاب والصحفيين بأقصىٰ العقوبات، يقول عن اللورد «كرومر»: كان يجلس معي الساعة والساعتين، ويُحدثني في مسائل شتَّىٰ؛ كي أتنور منها في حياتي السياسية، والمعروف أن كرومر بقي في مصر ربع قرن من أجل هدف واحد هو أن يُعد جيلاً جديدًا من الشباب المصري المتفرنج الذي يُعجب بالغرب، ويحرص علىٰ التفاهم مع الاستعمار البريطاني وقبول العمل معهم، ومن هذا كانت ثمرة سعد زغلول في المعارف، ولطفي السيد في الصحافة، وهو الذي حمل لواء الدعوة إلىٰ المصرية، ومهاجمة العروبة والإسلامية هجومًا عنيفًا.

وهكذا استطاع كرومر عن طريق سعد زغلول أن يكسر مفهوم الإسلام في الوطنية التي تتحرك في إطار الوحدة الإسلامية، وكان هذا منطلقًا للخطوة التالية وهي تمزيق الوحدة الإسلامية المُمثلة في دولة الخلافة بين العرب والترك، في سبيل إقحام إسرائيل علىٰ الأمة العربية، وكان دور مصطفىٰ كمال (أتاتورك) بعيد المدىٰ، فهو الذي فتح طريق تمزيق وحدة الإسلام دينًا ودولة لأول مرة في تاريخ الإسلام.

وكما كان سعد زغلول ماسونيًّا، كذلك كان مصطفىٰ كمال، وكانت الماسونية هي التي ترسم إخراج قادة البلاد الإسلامية في ذلك الوقت، وقد أُعطي أتاتورك النفوذ الوافر لدحر نفوذ الإسلام في تركيا، وفتح الطريق للتغريبيين والشعوبيين في مصر والشام وبلاد الإسلام، وما كاد مصطفىٰ كمال ينتصر باسم الإسلام حتىٰ تحول إلىٰ العلمانية، وألغىٰ القوانين الإسلامية، وطرد علماء المسلمين من الدولة التركية، وقتل العشرات، وعلَّق جثثهم علىٰ أعواد الشجر، وأغلق المساجد، ومنع الأذان والصلاة باللغة العربية، وأعاد مسجد أيا صوفيا كنيسة ومتحفًا، واستبدل بالشريعة الإسلامية قانونًا وضعيًّا، واتخذ الحروف اللاتينية بديلاً من العربية في كتابة «الأبجدية التركية»، وألغىٰ تدريس الإسلام في المدارس والجامعات، ودعا إلىٰ قومية طورانية عرقية

متصلة الأواصر بالوثنية السابقة للإسلام، ووقَّع مع الغرب معاهدة، تعهد فيها بقطع كل صلة بالإسلام، وإلغاء الخلافة، وإخراج أنصار الخلافة من البلاد، واتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا المؤسَّس علىٰ الإسلام، وكان أتاتورك في حياته الشخصية مثلاً رديئًا من الفساد الخلقي والخمر والنساء والفجور.

وعندما نستعرض حياة كمال أتاتورك منذ تولىٰ السلطة حتىٰ وفاته ١٩٣٨م، نجد صورة عاصفة من العنف والظلم والتسلط البالغ المدىٰ؛ في سبيل تثبيت دعائم هذا النظام الوافد، وآية ذلك الولاء المُزدوج لبريطانيا الرأسمالية وروسيا الشيوعية في آن واحد، ولقد استطاع أن يُحقق للصهيونية العالمية خطتها في السيطرة؛ بإلغاء الخلافة والوجهة الإسلامية، وكان إسقاطه للخلافة من أضخم الأحداث في تاريخ الإسلام كله.

وإذا نظرنا ناحية فارس وجدنا طاغية آخر علىٰ نفس النسق هو «رضا بهلوي» الذي حاول أن يُحطم الإسلام، ويُعلي عليه النظام الغربي العلماني، ثم جاء ابنه محمد رضا بهلوي فوصل في ذلك إلىٰ أبعد المدىٰ. ولعل أخطر ما مُنيت به إيران في تاريخها الحديث هو محاولة أسرة البهلوي إعادة الكسروية الفارسية المُتمثلة في قورش وقميز، أي إعادة ما قبل الميلاد (قورش ٥٥٩ ق.م)، بينما جاء الإسلام بعد الميلاد بستة قرون ونصف القرن، ودخلت فارس في دين الله، وزال من الوجود كسرىٰ ورستم ويزدجرد، وفُتحت أبواب الأهوار ونهاوند أمام الإسلام، هذه الردة الخطيرة حمل لواءها رضا شاه المُسمىٰ ببهلوي؛ لإعادة أمجاد الجاهلية، وأوغل فيها ابنه محمد، هذه الوجهة الخطيرة التي اتجهت إليها إيران المسلمة منذ خمسين عامًا مرحلة بعد مرحلة؛ رغبة في خلع لواء الإسلام وإعادة الرمز الفارسي، ومن ذلك تلك الاحتفالات التي أقامها الشاه علامة علىٰ العودة إلىٰ الوثنية الفارسية المجوسية، وكان أن تفجَّرت الثورة الإيرانية من جانب الأصالة الإسلامية ضد الجانب المظلم من التحديث.

وإذا وجَّهنا وجهتنا نحو الهند المسلمة نجد نفس الخطة، فالمسلمون الذين أنشأوا الباكستان تقودهم جماعة تُعارض قيام النظام الإسلامي، وتدعو إلىٰ القومية، وتضطرب مسيرتها في سبيل حجب الشريعة الإسلامية، فهم علمانيون تعلموا في مدارس الغرب، وعجزوا عن أن يفهموا الإسلام أو أن يحبوه، وعلىٰ الرغم من كل ما قِيل عن بطولة محمد علي جناح، فقد كان علمانيًّا، وكان معارضًا لتطبيق الإسلام، ووقف في وجه صيحة الجماعة الإسلامية بقيادة المودودي.

فإذا ذهبنا إلىٰ أندونيسيا وأرخبيل الملايو وجدنا صورة أتاتورك: «أحمد سوكارنو» ينتصر بقوة الجماعات الإسلامية وباسم المسلمين، فإذا تم له الأمر ضرب هذه القوىٰ وبددها، وأحال مفهوم الحكم إلىٰ ما أسماه (البانشيلا)، وهو مُركَّب ثلاثي من الدين والقومية والوطنية.

وهكذا نجح النفوذ الغربي في تقديم رجاله وصنائعه لمراكز القيادة.



عرض عام لأعمال المؤلف

كان لابد للدعوة الإسلامية، بعد أن استعلت في مفهومها الأصيل، من أن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع بعد أن فرض النفوذ الغربي مفاهيمه وحجب الشريعة الإسلامية أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان - كان لابد من ظهور طبقة من المفكرين والباحثين الإسلاميين القادرين على قيادة معركة خطيرة هي معركة (تصحيح المفاهيم)، وقد قام عدد كبير من الباحثين إلى كشف زيف المفاهيم المسمومة التي طرحتها مؤسسات التبشير والاستشراق والتغريب، عندما تكشفت مخططات الغزو الفكري التي كانت تعمل على حجب التطبيق الإسلامي، وتزييف مفاهيم الإسلام في مقرراته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، واستعلاء مفاهيم العلمانية التي تجعل من الإسلام دينًا لاهوتيًا، ثم جاءت بعد ذلك محاولات فرض مفاهيم الماركسية نتيجة ولاء بعض الأقطار الإسلامية للنظام الروسي والاشتراكي بنظمه، إنها محاولة لمقاومة النفوذ الاستعماري الغربي ففتحت آفاقًا جديدة للحوار والسجال، وتكشف فساد المناهج الوافدة جملة، وقد قام عدد كبير من الباحثين بدحض المفاهيم الزائفة التي طرحها الفكر الغربي بشقيه، وتأكيد رفض الجسم الإسلامي للعضو الغريب، وكان لابد من إعادة النظر في عديد من المفاهيم والقيم والمواقف، وقد كان من فضل الله (ﷻ)، أن جعل لصاحب هذا القلم دورًا مع العاملين على تصحيح المفاهيم، وكشف زيف الفكر الغربي وإرساءَ مفاهيم الأصالة الإسلامية والعودة إلى المنابع من خلال عملٍ امتد لأكثر من أربعين عامًا، وقد ظهر ذلك في ميادين مختلفة.

أولاً - في مجال الأدب:

فقد أرسى الفكر الإسلامي مفاهيم أصلية في مجال الأدب، حيث جعل من القيم الأخلاقية أسبقية على القيم الفنية، كما اعتبر الأدب العربي كله ظاهرة متكاملة تستمد مفاهيمها من الإيمان بالله (ﷻ)، وجعل النضال الوطني منبعثًا من الإسلام أساسًا، وارتفع فوق ظاهرة القوميات والإقليميات والنظرة العرقية والاستعلاء بالعنصر، حيث كان مؤرخو الأدب العربي يحرصون على إقليمية الدراسة، كما دعا الكاتب إلى الربط بين المشرق والمغرب الإسلاميين بعد أن كانت الجزائر وتونس معزولة تمامًا عن كتابات الزيّات وجرجي زيدان، كما دعا الكاتب إلى منهج أدبي لتاريخ الأدب وللنقد الأدبي يختلف في مفاهيمه وقيمه عن المنهج الغربي الوافد.

ثانيا - في مجال التراجم:

اعتبر الكاتب الأمة الإسلامية ذات رسالة جامعة، فأولى اهتمامه إلى أعلام الوطن الإسلامي في مؤلفاته:

(١) أعلام وأصحاب أقلام.

(٢) تراجم المعاصرين.

(٣) أعلام القرن الرابع عشر.

(٤) نوابغ الإسلام.

(٥) مصابيح العصر والتراث؛ وذلك إيمانًا بالوحدة الإسلامية الفكرية الجامعة، وقد كتب عددًا من التراجم الكاملة: الإمام حسن البنا - عبد العزيز جاويش - أحمد زكي شيخ العروبة - زكي مبارك - عبد العزيز الثعالبي - فريد وجدي، وقد جعل لكل ترجمة من هذه التراجم هدفًا واضحًا.

ثالثا - الحضارة الغربية:

لعله من أعجب ما يذكر أن بدأ الكاتب حياته الفكرية بدراسة تحت عنوان

«انهيار الحضارة الغربية منذ وقت مبكر»، وكان منطلق ذلك أن الدعوة الإسلامية كشفت موقفها من غزو الحضارة الغربية، وقد استتبع ذلك دراسة لعدد من الدعوات المناهج:

(١) سقوط العلمانية.

(٢) هزيمة الشيوعية.

(٣) الإسلام والغرب.

(٤) مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفسية والأخلاقية.

رابعًا - حصاد كتابات العلمانيين والماركسيين:

وقد أولى المؤلف اهتمامه للتيارات الوافدة فكتب في هذا المجال:

(١) الصحافة والأقلام المسمومة.

(٢) جيل العمالقة والقمم الشوامخ.

(٣) إعادة النظر في كتابات العصريين.

كما ركز الباحث على الشخصية التغريبية الكبرى في تاريخ الفكر الإسلامي (طه حسين) فكتب عنه كتابان:

(١) طه حسين وفكره في ميزان الإسلام.

(٢) محاكمة فكر طه حسين.

خامسًا - الاستشراق والتبشير:

أولى الكاتب اهتمامه بالاستشراق والتبشير في عدد من الدراسات، أهمها:

(١) الإسلام في وجه التغريب (الاستشراق والتبشير).

(٢) سموم الاستشراق في العلوم الإسلامية.

سادسًا - العالم الإسلامي والتاريخ الإسلامي:

أولى الكاتب اهتمامه لدراسة واسعة للعالم الإسلامي والتاريخ الإسلامي.

(١) الإسلام وحركة التاريخ.

(٢) العالم الإسلامي المعاصر.

(٣) تاريخ الإسلام.

(٤) معالم التاريخ الإسلامي المعاصر.

سابعًا - الموسوعات:

(١) موسوعة مقدمات العلوم والمناهج (عشرة مجلدات).

(٢) معلمة الإسلام (مائة مصطلح).

(٣) في دائرة الضوء (٥٠ حلقة).

(٤) على طريق الأصالة (قضايا معاصرة وبيان وجهة الإسلام منها في ٢٠ حلقة).

(٥) موسوعة العلوم الإسلامية (٨ حلقات).

(٦) أحاديث إلى الشباب المسلم (١٠ حلقات).

(٧) التأصيل الإسلامي (٦ رسائل).

(٨) تيارات وافدة ونظريات مسمومة تحاصر الإسلام.

(٩) تاريخ الصحافة الإسلامية (المنار - الفتح).

(١٠) المساجلات الأدبية - المعارك الأدبية.

(١١) اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار.

(١٢) موسوعة (على طريق الأصالة ٥٠ حلقة جديدة).

عمل الكاتب في ميدان الفكر الإسلامي والدعوة الإسلامية والصحافة الإسلامية منذ عام ١٩٤٣م، فكتب في مختلف الصحف العربية الإسلامية وحضر عشرات المؤتمرات، ودُعِـي إلى إلقاء المحاضرات في جامعات الرياض والجزائر وأبو ظبي وعمان والأردن والخرطوم وجاكارتا والرباط، وذلك خلال نيف وأربعين عامًا لم تشغله عن الدعوة الإسلامية شاغل، وعايش مختلف التحولات والقضايا، واستطاع أن يستكشف مختلف المخططات والمؤامرات التي عملت على تحويل الأمة الإسلامية إلى مفاهيم وافدة في مجالاتها الثلاث: الليبرالية والقومية والماركسية،

كما تكشف مخططات الصهيونية العالمية والفكر اليهودي في مجال اللغة العربية والتاريخ والتراث.

وعايش حركة اليقظة الإسلامية في تناميها حتى وصلت إلى مرحلة الصحوة الإسلامية بعد نكسة ١٩٦٧م.

وقد شغل نفسه بحركة التغريب والغزو الفكري، وواجه كل القضايا التي أثيرت في هذه المرحلة، ثم اتسع نطاق العمل عندما كشفت نكسة ١٩٦٧م، عن حقائق جديدة وعندما سقطت معالم القومية الضعيفة ثم كان سقوط الماركسية نفسها.

وما تزال المواجهات التغريبية مستمرة ومُحاصِرة للفكر الإسلامي في عدة مجالات خطيرة أهمها المسرح والفن والأدب والحداثة والقانون الوضعي والتعليم، فقد كان لتنامي الصحوة الإسلامية آثارها الخطيرة على مخططات العدو ومحاولته في تزييف المفاهيم ومحاصرة الفكر الإسلامي واحتوائه من خلال الفكر الغربي والفكر الماركسي والفكر اليهودي التلمودي، ولم يتوقف العمل عند الدفاع ودحض الشبهات وكشف زيف مخططات التغريب، إنما امتد في ظل العقد الخامس عشر إلى بناء البدائل وتقديم أعمال التأصيل الإسلامي.

ونحن نرجو أن نكون على طريق الرواد الأبرار الذين أقاموا منهج أهل السنة والجماعة من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والمودودي وحسن البنا وأبو الحسن الندوي والغمراوي ومحمد محمد حسين وصادق الرافعي، نستمد منهم ونقتدي بهم وننطلق في أثرهم لنحمل الرسالة ونؤدي الأمانة بتوفيق الله (ﷻ).

أنور الجندي

مؤلفات أ/ أنور الجندي

١-الموسوعات:

أولاً- موسوعة مقدمات العلوم والمناهج:

(١) الفكر الإسلامي (بناء الفكر الإسلامي وتطوره، مخططات غزو الفكر الإسلامي، مؤامرات انبعاث الفكر الوثني الهليني والشرقي القديم)، ط ١، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م.

(٢) تاريخ الإسلام (من فجر الإسلام إلى العصر الحديث، عالم الإسلام وعالم الغرب - من الوحدة الإسلامية إلى الترك والعرب).

(٣) العالم الإسلامي المعاصر (عالم الإسلام المعاصر، العالم الإسلامي والغزو الصهيوني، العالم الإسلامي والغزوة الشيوعية).

(٤) اللغة والأدب والثقافة (اللغة العربية وقضاياها، خصائص الأدب الغربي وقضية الشعوبية، الثقافة العربية: إسلامية أصولها وانتمائها) ط ١٩٨٢م.

(٥) التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة (التبشير والاستشراق وأثرهما في الفكر والاجتماع، المؤامرة على تاريخ الإسلام - الإسلام والدعوات الهدامة) ط ١٩٨٣م.

(٦) المجتمع الإسلامي (نظام الإسلام، قضايا المجتمع، التربية الإسلامية ومناهج التعليم) ط ١٩٨٥م.

(٧) الحضارة والعلم والعلوم الاجتماعية (مفاهيم العلوم الاجتماعية، الإسلام والحضارة، الإسلام والتكنولوجيا) ط ١٩٨٦م.

(٨) طابع الإسلام بين الأديان والأيديولوجيات (عطاء الإسلام للبشرية، العلمانية في ضوء الإسلام، والأيديولوجيات المعاصرة) ط ١٩٨٦م.

(٩) المنهج الغربي: أخطاؤه والشبهات المثارة ضد الإسلام (أخطاء المنهج الغربي الوافد - من التبعية إلى الأصالة دراسة قضايا التعليم والشريعة واللغة العربية - موقف الإسلام من الفلسفات القديمة).

(١٠) تاريخ اليقظة الإسلامية في مراحلها الثلاث (اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار - اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب - اليقظة الإسلامية في مواجهة الشيوعية)

لم يكمل الأستاذ أنور الجندي هذه الموسوعة، وكانت الخطة الموضوعة لها أن تتم في خمسة عشر مجلدا، إلا أنه تُوفِّيَ قبل أن يكمل الأجزاء الخمس الأخيرة وهي كالتالي كما كان يأمل:

(١١) الجزء الحادي عشر: تقييم الكتابات العصرية في الصحافة والفكر.

(١٢) الجزء الثاني عشر: العواصف والأعاصير التي أثيرت في وجه الإسلام.

(١٣) الجزء الثالث عشر: التراث الإسلامي حضارة وتاريخ أعلام.

(١٤) الجزء الرابع عشر: أخطر وجوه الاختلاف بين الإسلام والفكر الغربي.

(١٥) الجزء الخامس عشر: العودة إلى المنابع.

ثانيا- الموسوعة الإسلامية العربية:

(١) أصول الثقافة العربية ومصادرها الإسلامية، ط دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٤م.

(٢) خصائص الأدب العربي.

(٣) العروبة والإسلام.

(٤) الإسلام والفلسفات المعاصرة.

(٥) حضارة التوحيد وحضارة الوثنية.

(٦) العربية لغة القرآن.

(٧) الشريعة الإسلامية في مواجهة الرأسمالية والديمقراطية والماركسية.

(٨) الإسلام والعلم المعاصر.

(٩) سقوط العلمانية، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

(١٠) الإسلام والدعوات الهدامة.

(١١) الفلسفات القديمة والمعاصرة في ضوء الإسلام.

(١٢) مفاهيم النفس والأخلاق والاجتماع في ضوء الإسلام.

(١٣) أخطاء المنهج الغربي الوافد، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط١، ١٩٧٤م.

(١٤) مخططات التبشير الغربي في غزو الفكر الإسلامي.

(١٥) مخططات الاستشراق في تغريب الفكر الإسلامي.

(١٦) المخططات الاستشراقية في تغريب الفكر الإسلامي.

(١٧) الإسلام وحركة التاريخ، ط دار الكتاب اللبناني، بيروت.

(١٨) العالم الإسلامي والاستعمار السياسي، والاجتماعي، والثقافي، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط١، ١٩٧٩م.

(١٩) التربية والتعليم والثقافة في ضوء الإسلام.

(٢٠) الشبهات والأخطاء الشائعة في الأدب والاجتماع والتاريخ ١٩٩٥م.

(٢١) الأخطار التي تواجه الأمم.

(٢٢) القيم الأساسية للفكر الإسلامي والثقافة العربية.

(٢٣) الإسلام والثقافة العربية في مواجهة التغريب.

(٢٤) يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار.

(٢٥) معالم الفكر العربي.

ثالثًا- موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر:

(١) النثر العربي تطوره وأعلامه.

(٢) الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والتجمع.

(٣) المعارك الأدبية.

(٤) الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والثقافة.

(٥) الصحافة السياسية في مصر.

(٦) الشعر العربي المعاصر: تطوره وأعلامه.

(٧) القصة العربية المعاصرة: تطورها وأعلامها.

(٨) اللغة العربية بين خصومها وأنصارها.

(٩) أدب المرأة العربية: تطوره وأعلامه.

(١٠) معالم الأدب العربي المعاصر في النقد والفنون المختلفة.

رابعًا- موسوعة التأصيل الإسلامي في أربعة أجزاء:

من سقوط الخلافة إلى مولد الصحوة، ط بيت الحكمة للنشر والتوزيع - القاهرة، ٤ أجزاء، بدون تاريخ.

خامسًا- موسوعة رسائل إلى الشباب المسلم:

(١) أصالة الفكر العربي الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي، دار الصحوة للطباعة والنشر، ط٣، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٢) المثل الأعلى للشباب المسلم، دار الصحوة للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

(٣) أحاديث إلى الشباب المسلم، دار الصحوة للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(٤) مواقف تاريخية حاسمة من حضارة التوحيد، دار الصحوة للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

(٥) الوحدة الإسلامية ضرورتها والوسائل العلمية لتحقيقها، دار الصحوة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٤م.

(٦) التيارات الوافدة، دار الصحوة للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(٧) الشباب المسلم: قضاياه ومشكلاته، دار الصحوة للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.

(٨) عيون التراث وذخائر التاريخ، دار الصحوة للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

(٩) التأصيل الإسلامي والخروج من التبعية (خطوط عامة للتصور الإسلامي إزاء الفكر العلماني والوثني والمادي) دار الصحوة للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

سادسًا- معلمة الإسلام في مجلدين تشتمل على مئة عنوان.

سابعًا - على طريق الأصالة، ط ١٩٨٨/ ١٩٩٠م

(١) الأمة الإسلامية: وحدتها ووسطيتها.

(٢) إسلامية الثقافة.

(٣) تميز الأدب الإسلامي وأصالته.

(٤) القانون الوضعي والشريعة الإسلامية.

(٥) اللغة العربية في مواجهة اللغات الأجنبية.

(٦) تأصيل القيم والمفاهيم.

(٧) في دائرة الضوء.

(٨) تحفظات على مناهج التعليم والتربية الوافدة.

(٩) أخطر ما تواصى به المسلمون على مر الأجيال.

(١٠) محاذير وتحفظات على طريق الصحوة الإسلامية.

(١١) في مواجهة ركام الفكر المطروح على الساحة اليوم.

(١٢) الآريوسية الموحدة.

(١٣) تحفظات على معالم النفس والأخلاق.

(١٤) الغزو الثقافي - مدخل إلى التغريب والشعوبية.

(١٥) العالم يرفض واقع الغرب.

(١٦) رياح السموم.

(١٧) تقويم ما قدمه جيل الرواد وقراءة جديدة لكتابات الشوامخ.

(١٨) على المحجة البيضاء.

(١٩) الموسوعات العالمية والمراجع الكبرى وأخطاؤها.

(٢٠) سقوط النظرية المادية.

(٢١) بعث التراث الزائف.

(٢٢) احتواء العقل المسلم.

(٢٣) تجاوزات العلوم الاجتماعية والإنسانية لمفهوم الفطرة والعلم.

(٢٤) الرسول الخاتم المثل الأعلى والقدوة الحسنة.

(٢٥) لن نقبل مفهوم الغرب للفن والحضارة.

(٢٦) التحديات التي واجهت الصحوة.

(٢٧) محاولات التغريب في فصل أدبنا المعاصر عن أصوله الإسلامية.

(٢٨) الخروج من التبعية.

(٢٩) آيات الله في الآفاق.

(٣٠) أخطر قضايا العقدين الأول والثاني من القرن الخامس عشر الهجري.

(٣١) المسلمون بين امتلاك إرادتهم والسيطرة الأجنبية.

(٣٢) تحول الدراسات التاريخية من الإقليمية إلى الإسلامية.

(٣٣) الحقائق العشرة في بناء منهج الإسلام في المجتمع.

(٣٤) مسؤوليتنا إزاء أزمة البشرية المعاصرة.

(٣٥) حرب ضارية على التراث والتاريخ الإسلامي.

(٣٦) اعتراف عالمي بالقرآن الكريم.

(٣٧) مسؤوليتنا تجاه الغرب في تبليغ إسلام القرآن والسنة.

(٣٨) عالمية الدعوة الإسلامية.

(٣٩) زيف ما يسمى بالحضارة اليهودية.

(٤٠) الحضارة الغربية والمجتمع المسلم.

(٤١) أخطاء في كتابة التاريخ الحديث.

(٤٢) الإسلام في مواجهة الفكر الوافد.

(٤٣) ماذا حققت حركة اليقظة في القرن ١٤ الهجري؟

(٤٤) قضايا التراث الإسلامي.

(٤٥) إعادة النظر في قضايا الفلسفة المادية.

(٤٦) نحن أمام ثورة علمية جديدة.

(٤٧) الكتب المرفوضة من مفكري الإسلام.

(٤٨) الفقه الإسلامي ومؤامرة تطوير الشريعة.

(٤٩) المسلمون والقصة الغربية.

(٥٠) أدب المقاومة والجهاد.

وهذه الموسوعة، كما يتضح من عنوانها، بمثابة معالم على الطريق نحو الأصالة الإسلامية، وهي قد صدرت عن دار الاعتصام التي لها من تراث الجندي النصيب الأكبر.

ثامنًا - موسوعة على طريق الأصالة الإسلامية:

(١) ألف مليون مسلم على أبواب القرن الخامس عشر الهجري، ١٩٧٩م.

(٢) الاستعمار والإسلام، ١٩٧٩م.

(٣) الصهيونية والإسلام، ١٩٧٩م.

(٤) الحضارة في مفهوم الإسلام، ١٩٧٩م.

(٥) التاريخ في مفهوم الإسلام، ١٩٧٩م.

(٦) فساد نظام الربا في الاقتصاد العالمي، ١٩٧٩م.

(٧) الدرة المغتصبة بعد ثلاثين عامًا «فلسطين»، ١٩٧٩م.

(٨) يقظة الإسلام في تركيا، ١٩٧٩م.

(٩) أكذوبتان في تاريخ الأدب الحديث، ١٩٧٩م.

(١٠) التربية الإسلامية هي الإطار الحقيقي للتعليم، ١٩٧٩م.

(١١) الدعوة الإسلامية في القرن الخامس عشر الهجري، ١٩٧٩م.

(١٢) بطاقة إسلامية، ١٩٨٠م.

(١٣) خلفيات عمر الخيام وقضية الرباعيات، ١٩٨٠م.

(١٤) السنة النبوية، ١٩٧٩م.

(١٥) حركة تحرير المرأة في ميزان الإسلام «خلفية قاسم أمين وحقيقة هدى شعراوي» ١٩٨٠م.

(١٦) مفهوم القومية الوافد.. سقطت نظرية ساطع الحصري، ١٩٨٠م.

(١٧) التجربة الغربية في بلاد المسلمين، ١٩٨٠م.

(١٨) الروتاري «واجهة جديدة للماسونية»، ١٩٨٠م.

(١٩) الفلكلور.. إحياء التراث الجاهلي والوثني، ١٩٨٠م.

(٢٠) حضارة الإسلام تشرق من جديد، ١٩٨٠م.

تاسعاً - في دائرة الضوء (طبعة دار الاعتصام) ١٩٧٩-١٩٨٣م:

(١) وحدة الفكر الإسلامي.

(٢) الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون.

(٣) في سبيل إعادة كتابة تاريخ الإسلام.

(٤) في مواجهة الفراغ الفكري والنفسي للشباب.

(٥) الشبهات المطروحة في أفق الفكر الإسلامي.

(٦) التغريب: أخطر التحديات في وجه الإسلام.

(٧) تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث.

(٨) على الفكر الإسلامي أن يتحرر من سارتر، وفرويد، ودوركايم.

(٩) أخطاء الفلسفة المادية.

(١٠) نظريات وافدة كشفها الفكر الإسلامي.

(١١) فساد نظرية الجنس السامي واللغة السامية.

(١٢) موقف الإسلام من العلم والفلسفة الغربية.

(١٣) تصحيح المفاهيم الإسلامية.

(١٤) ماذا يقرأ الشباب المسلم؟

(١٥) محاذير وأخطار في وجه إحياء التراث والترجمة

(١٦) رسالة المسلم.

(١٧) من طفولة البشرية.

(١٨) قضايا الشباب.



(١٩) المؤامرة على الفصحى: لغة القرآن.

(٢٠) سقوط نظرية دارون.

(٢١) البطولة في تاريخ الإسلام.

(٢٢) المسلمون في فجر القرن الوليد .

(٢٣) هل غيَّر الدكتور طه حسين آراءه في سنواته الأخيرة؟

(٢٤) الطريق إلى الأصالة.

(٢٥) الوجه الآخر لطه حسين.

(٢٦) مفاهيم النفس والأخلاق والاجتماع في ضوء الإسلام.

(٢٧) الإسلام في وجه التحديات الوافدة والمؤثرات الأجنبية.

(٢٨) مصححو المفاهيم «الغزالي، ابن تيميه، ابن حزم، ابن خلدون».

(٢٩) اعرضوا أنفسكم على موازين القرآن.

(٣٠) تحديات في وجه المجتمع الإسلامي.

(٣١) نظرية السامية.. مؤامرة على الحنيفية الإبراهيمية.

(٣٢) كمال أتاتورك وإسقاط الإسلام.

(٣٣) الفنون والمسرح.

(٣٤) التبشير الغربي، ١٩٨٢م.

(٣٥) الانقطاع الحضاري.

(٣٦) البهائية من الدعوات الهدامة.

(٣٧) الخلافة الإسلامية.

(٣٨) الفكر البشري القديم.

(٣٩) ابتعاث الأسطورة.

(٤٠) هزيمة الاستشراق في ملتقى الإسلام.

(٤١) حركة الترجمة، ١٩٨٣م.

(٤٢) الفكر الإسلامي والتحديات التي تواجهه في مطلع القرن الخامس عشر الهجري.

(٤٣) السلطان عبد الحميد صفحة ناصعة من الجهاد والإيمان والتصميم.

(٤٤) القاديانية خروج على النبوة المحمدية.

(٤٥) عقيدة الكاتب المسلم، ١٩٨٣م.

(٤٦) الاستشراق.

(٤٧) أقدم لك الإسلام، ١٩٨٣م.

(٤٨) حقائق عن الغزو الفكري للإسلام.

(٤٩) مؤامرة تحديد النسل وأسطورة الانفجار السكاني.

(٥٠) بناء منهج جديد للتعليم والثقافة على قاعدة الأصالة.

عاشرًا - موسوعة العلوم الإسلامية ١٩٨٢م:

(١) الفكر الإسلامي والثقافة العربية المعاصرة في مواجهة تحديات الاستشراق والتبشير والغزو الثقافي.

(٢) تاريخ الغزو الفكري والتغريب خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين، (١٩٢٠ - ١٩٤٠م).

(٣) أسلمة المناهج والعلوم والقضايا والمصطلحات المعاصرة.

(٤) معالم تاريخ الإسلام المعاصر.

(٥) من اليقظة إلى الصحوة خلال المرحلة من ١٩٣٢م.

حادي عشر - موسوعة تاريخ الصحافة:

(١) الصحافة السياسية في مصر منذ نشأتها إلى الحرب العالمية الثانية.

(٢) تطور الصحافة العربية في مصر (إطار لملامح المجتمع وصورة العصر).

(٣) تطور الصحافة العربية بين الحربين (١٩١٩ : ١٩٣٩م) في العالم العربي.

(٤) تاريخ الصحافة الإسلامية (الجزء الأول)، ويتحدث فيه عن مجلة المنار.

(٥) تاريخ الصحافة الإسلامية الجزء الثاني، ويتحدث فيه عن مجلة الفتح.

(٦) الصحافة والأقلام المسمومة.

ثاني عشر - الفكرة الإسلامية (عن دعوة الإخوان المسلمون):

(١) قواعد البناء للدعوة الإسلامية.

(٢) الإسلام يزحف إلى قواعده، ط٦، ١٩٩٤م.

(٣) حضارة استعمار وتغريب.

(٤) الشخصية الإسلامية.

(٥) صحائف العزة وأيام المحنة في تاريخ الإسلام.

(٦) قضية وادي النيل.

(٧) مصحف وسيف.

(٨) بعث الفكرة الإسلامية.

(٩) القرآن دستور الإنسانية.

(١٠) استعمار أم استغراب؟

(١١) القاهرة ترقص على بركان.

(١٢) قائد الدعوة ومجدد الفكرة.

(١٣) قضايا الأقطار الإسلامية.

(١٤) كفاح الذبيحين «فلسطين والمغرب» ط ١٩٤٦م.

(١٥) انهيار الحضارة الغربية، ط ١٩٤٦م.

(١٦) مع بعثة الحج.

(١٧) الإخوان المسلمون في ميزان الحق، ١٩٤٦م.

(١٨) رهبان الليل وفرسان النهار.

(١٩) دسائس الاستعمار في الشرق.

(٢٠) الإسلام والاستعمار.

(٢١) حياة الرسول والاستعمار.

(٢٢) المجتمع الإسلامي بين عهدين.

(٢٣) الجهاد والفتح.

(٢٤) المرأة والبيت الإسلامي.

(٢٥) الزعامة والحكم في الإسلام.

(٢٦) الاقتصاد الإسلامي والمذاهب الجديدة.

(٢٧) الخلافة والجامعة الإسلامية.

(٢٨) روحانية الدعوة (عقيدة وعبادة).

(٢٩) تاريخ الأحزاب والوزارات والبرلمانات والدستور والزعماء.

(٣٠) المؤامرات الصهيونية وفلسطين.

(٣١) كيف تتحرر مصر؟

(٣٢) مذكرات مسلم.

(٣٣) اخرجوا من بلادنا، ١٩٤٨ : ١٩٥١م.

(٣٤) النيل لا يتجزأ.

(٣٥) زعماء الاحتلال بين الأحزاب والحكم.

(٣٦) لا حزبية بعد اليوم.

(٣٧) الشرق الإسلامي بين الاستعمار والحرية.

(٣٨) مجتمعنا والبيت الإسلامي.

(٣٩) بين لاظوغلي وقصر الدوبارة، ١٩٤٧م.

(٤٠) بين الوطنية والسياسة، ١٩٤٧م.

(٤١) فضائح الأحزاب والسياسة.

(٤٢) بلادي.

(٤٣) الصراع بين الإسلام والاستعمار، ١٩٤٨م.

ثالث عشر - موسوعة القرن الخامس عشر الهجري:

(١) الأخطاء الشائعة، ١٩٩٥م.

(٢) معالم التاريخ الإسلامي المعاصر، ١٩٨١م.

(٣) المد الإسلامي، بدون تاريخ.

(٤) إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام، ١٩٨٥م.

(٥) القرن الخامس عشر: قضاياه وتحدياته.

(٦) إطار إسلامي للفكر المعاصر، ط المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٧) مشكلات العصر وقضايا الفكر.

(٨) نوابغ الإسلام، ١٩٨٣م.

(٩) الأخطار التي تواجه الأمم.

(١٠) الصحوة الإسلامية منطلق الأصالة، بدون تاريخ.

(١١) تصحيح المفاهيم في ضوء الكتاب والسنة، ١٩٨٣م.

رابع عشر - معالم التاريخ الإسلامي المعاصر:

(١) الإسلام وحركة التاريخ.

(٢) العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي.

(٣) العروبة والإسلام.

(٤) الإسلام والغرب.

(٥) الوحدة الإسلامية وعودة الخلافة.

(٦) خريطة الإسلام المعاصر.

(٧) مصر العربية الإسلامية.

خامس عشر - معالم تاريخ الإسلام:

(١) تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات.

(٢) المؤامرة على الإسلام.

(٣) المخططات التلمودية والصهيونية في غزو الفكر الإسلامي.

(٤) مقدمة المناهج.

(٥) من التبعية إلى الأصالة في مجال التعليم والقانون واللغة.

(٦) ألف مليون مسلم في مواجهة الأخطار والتحديات.

(٧) حركة اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار والتغريب والشعوبية.

كتب وأبحاث في مجالات الفكر والتراجم والأدب والدعوة الإسلامية:

(١) مدخل إلى القرآن الكريم، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٩١م.

(٢) مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، مجمع البحوث الإسلامية، ط٢، القاهرة، ١٩٩٦م.

(٣) من طفولة البشرية إلى رشد الإنسانية، دار الاعتصام - القاهرة، ١٩٧٨م.

(٤) من منابع الفكر الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة، ١٩٦٧م.

(٥) نجم الإسلام ما زال يصعد: محاولة لدراسة حركة الإسلام العالمية خلال القرن الخامس عشر الهجري، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م.

(٦) يوم من حياة الرسول، (ﷺ)، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٠م.

(٧) ابتعاث الأسطورة «مواجهة جديدة تواجه الفكر الإسلامي»، دار الصلاح - السعودية، ١٩٨٤م.

(٨) أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة: حياته، آراؤه، آثاره، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة، ١٩٦٣م.

(٩) أضواء على حياة الأدباء المعاصرين، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٥٦م.

(١٠) أعلام لم ينصفهم جيلهم، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٣م.

(١١) أقباس من السيرة العطرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧٣م.

(١٢) الضربات التي وجهت للانقضاض على الأمة الإسلامية، دار الاعتصام، القاهرة،

١٩٨٠م.
(١٣) المجتمع الإسلامي المعاصر في مواجهة رياح السموم، القاهرة، ١٩٧٨م.
(١٤) المساجلات والمعارك الأدبية في مجال الفكر والتاريخ والحضارة، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧١م.
(١٥) المعاصرة في إطار الأصالة، دار الصحوة، القاهرة، ١٩٨٧م.
(١٦) بطاقات إسلامية، دار الصحوة، القاهرة، ١٩٨٧م.
(١٧) تاريخ الدعوة الإسلامية في مرحلة الحصار من حركة الجيش إلى كامب ديفيد، دار الاعتصام، القاهرة..
(١٨) رسالة المسلم، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٨م.
(١٩) صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م.
(٢٠) صفحات مضيئة من تراث الإسلام، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٧م.
(٢١) معالم التاريخ الإسلامي المعاصر من خلال ثلاث مئة وثيقة سياسية ظهرت خلال القرن ١٤ الهجري، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨١م.
(٢٢) وحدة الفكر الإسلامي مقدمة للوحدة الإسلامية الكبرى، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٩م.
(٢٣) يقظة الإسلام في تركيا، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٩م.
(٢٤) أصول الثقافة العربية، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧١م.
(٢٥) أضواء على الفكر العربي الإسلامي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م.
(٢٦) صفحات من أمجادنا، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٥م.
(٢٧) تاريخ الإسلام منذ فجره إلى اليوم، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٩م.
(٢٨) تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،

١٩٧٠م.

(٢٩) تقويم ما قدمه جيل الرواد .. قراءة جديدة لكتاب الشوامخ، دار الاعتصام، القاهرة.

(٣٠) حضارة الإسلام تشرق من جديد، دار الأنصار، ١٩٨٠م.

(٣١) سموم الاستشراق والمستشرقين، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٥م.

(٣٢) أهداف التغريب في العالم الإسلامي، الأزهر الشريف، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٧م.

(٣٣) بماذا انتصر المسلمون؟ دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨١م.

(٣٤) الأئمة الأربعة مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وابن حنبل، مركز الدراسات الصحفية والتاريخية بمؤسسة دار التعاون للطبع، القاهرة، ١٩٨٤م.

(٣٥) الإسلام والدعوات الصادقة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤م.

(٣٦) اللغة العربية بين حماتها وخصومها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م.

(٣٧) الشرق في فجر اليقظة: صور اجتماعية للعصر من (١٨٧١م: ١٩٣٩م)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م.

(٣٨) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا، الدار القومية للطباعة، القاهرة، ١٩٦٥م.

(٣٩) جرجي زيدان منشئ الهلال، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.

(٤٠) شهادة العصر والتاريخ: خمسون عامًا على طريق الدعوة الإسلامية، دار المنارة السعودية، ١٩٩٣م.

(٤١) كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار؟ مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٥م.

(٤٢) حقائق مضيئة في وجه شبهات مثارة، دار الصحوة، القاهرة.

(٤٣) جيل العمالقة والقمم الشوامخ في ضوء الإسلام، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٥م.

(٤٤) شخصيات اختلف فيها الرأي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٥م.

(٤٥) مفكرون وأدباء من خلال آثارهم، دار الإرشاد، بدون تاريخ.

(٤٦) من أعلام الفكر والأدب، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م.

(٤٧) عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع، المؤسسة المصرية العامة



للتأليف، بدون تاريخ.

(٤٨) عالمية الإسلام، دار الاعتصام، مصر، ١٩٨٧م.

(٤٩) عبد العزيز الثعالبي.. رائد الحرية والنهضة الإسلامية (١٨٧٩ : ١٩٤٤م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤م.

(٥٠) الفكر الغربي دراسة نقدية، دار الشؤون الإسلامية، الكويت.

(٥١) عقبات في طريق النهضة، مراجعة مصرية لتاريخ مصر الإسلامية منذ الحملة الفرنسية إلى النكسة، دار الاعتصام، القاهرة، بدون تاريخ.

(٥٢) صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م.

(٥٣) تصحيح المفاهيم في ضوء الكتاب والسنة، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٣م.

(٥٤) المدرسة الإسلامية على طريق الله ومنهج القرآن، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٤م.

(٥٥) التفسير الإسلامي للفكر البشري، الأيديولوجيات المعاصرة في ضوء الإسلام.. دراسة جامعة، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٨م.

(٥٦) تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.

(٥٧) قضايا العصر ومشكلات الفكر تحت ضوء الإسلام ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م.

(٥٨) تأصيل مناهج العلوم والدراسات الإنسانية بالعودة إلى مناهج الفكر الإسلامي الأصيل، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٣م.

(٥٩) الإسلام والحضارة، المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ.

(٦٠) تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث: السلطان عبدالحميد والخلافة الإسلامية، دار ابن زيدون، بيروت، ١٤٠٧هـ.

(٦١) أضواء على الأدب العربي المعاصر، الكاتب العربي للطباعة، مصر، ١٩٦٩م.

(٦٢) القرن الخامس عشر الهجري: التحديات في وجه الدعوة الإسلامية والعالم الإسلامي،

المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ.

(٦٣) حسن البنا الداعية الإمام والمجدد الشهيد (١٣٢٤هـ /١٣٦٨هـ)، دار القلم، بيروت.

(٦٤) أعلام الإسلام وتراجم الأسماء البارزة منذ عصر النبوة إلى اليوم (كتاب)، دار الاعتصام القاهرة، بدون تاريخ.

(٦٥) أصول الثقافة العربية (كتاب)، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧١م.

(٦٦) الإسلام والدعوات الهدامة (كتاب)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.

(٦٧) محمد فريد وجدي.. رائد التوفيق بين العلم والدين (كتاب)، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ١٩٧٤م.

(٦٨) مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام: الرد على فرويد وماركس ودوركايم، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ١٩٧٤م.

(٦٩) محمد الرسول (ﷺ)، دراسة تحليلية لشخصية محمد (ﷺ) وحياته، الجزء الأول، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

(٧٠) هذا هو جمال من بني مر إلى الجمهورية العربية المتحدة، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٦٠م. (كتاب عن جمال عبد الناصر قبل تحوله عن منهج الحكم).

(٧١) زكي مبارك؛ دراسة تحليلية لحياته وأدبه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

(٧٢) إطار إسلامي للفكر المعاصر، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٠م.

(٧٣) القومية العربية والوحدة الكبرى، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر.

(٧٤) الحقائق العشر في حياة كامل كيلاني.

(٧٥) معركة المقاومة العربية، مطبعة التحرير، القاهرة، ١٩٦١م.

(٧٦) المرأة والحب في حياة كتابنا المعاصرين، دار الإعلام للطبع والنشر، القاهرة.

(٧٧) أضواء على نفسيات الأدباء.

(٧٨) جمال عبد الناصر وكفاح الشعب، شركة النيل للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٥٦م.

(٧٩) الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية، مطبعة الرسالة،

القاهرة، بدون تاريخ.

(٨٠) موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر حتى ١٩٤٠م.

(٨١) الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر.

(٨٢) مناهج الحكم والقيادة في الإسلام، المكتبة، صيدا، بيروت، ١٩٨٢م.

(٨٣) نحو بناء منهج الإسلام للنظريات والأيديولوجيات والمفاهيم الغربية الوافدة المطروحة في مناهج التربية والعلوم، والثقافة، والعلوم، دار الاعتصام، القاهرة.

(٨٤) أضواء على تاريخ الإسلام، مطبعة الرسالة، القاهرة.

(٨٥) الرسول الإنسان، وأعلام الإسلام (تراجم الأعلام)، دار الأعلام للطبع والنشر، ١٩٥٥م.

(٨٦) الإسلام.. نظام مجتمع ومنهج حياة، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٩م.

(٨٧) الجباه العالية ، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٥٨م.

(٨٨) أضواء على الحياء والأدب، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٥٧ : ١٩٥٦م.

(٨٩) جولات في الأدب، والفن، والحياة، دار الأعلام للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م.

(٩٠) الشعوبية في الأدب العربي الحديث، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٧م.

(٩١) الإسلام والتيارات الوافدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٧م.

(٩٢) رجال اختلف فيهم الرأي (وعلى الغلاف الداخلي. شخصيات اختلف فيها الرأي)، دار الأنصار، القاهرة.

(٩٣) ليظهره على الدين كله، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٨٠م.

(٩٤) نحن العرب، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٠م.

(٩٥) الإسلام في معركة التغريب، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٤م.

(٩٦) قضايا مثارة في ضوء الإسلام، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٤م.

(٩٧) الطريق أمام الدعوة الإسلامية (سلسلة الرسائل الجامعة)، دار الاعتصام، القاهرة،

١٩٨٤م.

(٩٨) حتى لا تضيع الهوية الإسلامية والانتماء القرآني (الرسائل الجامعة)، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٤م.

(٩٩) ترشيد الفكر الإسلامي (الرسائل الجامعة)، دار الاعتصام.

(١٠٠) كيف يحتفظ المسلمون بالذاتية الإسلامية في مواجهة أخطار الأمم؟ دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٤م.

(١٠١) دورنا الجديد في الحضارة الإنسانية، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر.

(١٠٢) تحديات في وجه المجتمع الإسلامي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٠م.

(١٠٣) جوهر الإسلام، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩م.



المحتويات


تمت بحمد الله





- استعراض تاريخي لخطط ومؤامرات احتواء الإسلام وكسر شوكته وتمزيق دوله وتقسيم أقاليمه ونشر الانحلال الأخلاقي بين شعوبه وزرع العملاء من الوكلاء المحليين في أراضيه؛ ليكونوا منفذين مخلصين لهذه الخطط تحت غطاء وطني وعبر قوانين وقرارات مملاة على الساسة لتلبي مصالح القوى الكبرى وتحقق أهدافها الخبيثة.
- محاولة جادة لنفض غبار الغفلة عن العقل المسلم الذي تعرض، ومازال، لأقصى درجات التشويه والاستلاب وتزييف الوعي والاستقطاب بدعوى حوار الأديان، أو الانفتاح الاقتصادي والحضاري أو منح الأقليات حقوقها تمهيداً لتحريضها على الانفصال وإثارة القلاقل، حتى تصبح شوكة قاتلة في ظهور دولها التي تتحول مع جلد الفجار وعجز الثقاة إلى كلأ مستباح للاستعمار العسكري والثقافي معا.
- تحرير واع للمفاهيم والشعارات التي روجت في حقب تاريخية متوالية بدعوة اليقظة القومية والتحول الاشتراكي وصياغة الميثاق ونشر الفكر البعثي والتغلغل الفارسي في الأمة الإسلامية والتنصير المتواري خلف المعونات الاقتصادية ومحاولات نشر المذاهب اللادينية كالقاديانية والبهائية والباطنية لضرب الإسلام من الداخل.
- دعوة لأخذ العظة والعبرة من أحداث التاريخ ووقائعه التي تؤكد مغبة وسوء عاقبة البعد عن الإسلام والتطاول عليه واستبدال نظريات وضعية لادينية به.

الناشر



يطلب من مركز الإعلام العربي:
٢٠٠ ش الهرم - الجيزة - ص.ب: ٩٣ الهرم - الجيزة - مصر
تليفون: ٣٧٨١١١٩٣/٢٠٢+ - فاكس: ٣٧٨١١١٩٥/٢٠٢+
التوزيع: ٣٧٤٤٥٤٥٥/٢٠٢+ - ٠١٠٠٠٠٢٧٠٢٥/٢+
البريد الالكتروني: media-c@ie-eg.com
الموقع على شبكة الانترنت: www.amc-eg.com